

رَفَعُ

عبد الرحمن الهجري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مَنْهَجُ

كِتَابُ النَّاسِخِ الْإِسْلَامِيِّ

مَعَ دَرَاةٍ لَتَطَوَّرَ الدِّينُ وَمَنَاجِجُ الْمُؤَرِّخِينَ
حَتَّى نِهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ الْهَجْرِيِّ

تَأَلَّفَ

الدكتور محمد بن صامل السامي

مدير كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أمم بن عبد العزيز

دار ابن الجوزي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منهج

كاتب التايخ الإسلامي

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

شَوَّال ١٤٢٩هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٩هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - حي الفلاح - مقابل جامعة الإمام - تلفاكس:
٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ -
الخير - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ -
القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ -
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

مَنْهَجُ

كِتَابُ التَّالِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

مَعَ دَرَاةٍ لِتَطَوُّرِ التَّدْوِينِ وَمَنَاجِجِ الْمُؤَرِّخِينَ
حَتَّى نِهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ

تَأَلَّفَ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ بْنُ صَامِلٍ السَّامِي

عَمِيدُ كَلْبَةِ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِجَامِعَةِ أُمِّ بَكْرٍ (سَابِقًا)

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على الرسول المجتبى، وعلى آله وأصحابه الحنفاء، أهل البر والتقوى.
أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب: «منهج كتابة التاريخ الإسلامي مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري».

والمقصد الأول من البحث، هو بيان المنهج الذي يجب أن يتبع في كتابة التاريخ، وفي دراسته وتدرسه.

وقد اعتنى البحث بهذا كله، فبحث أهداف دراسة التاريخ، وأهمية المنهج ومصادره، ووضح خصائص المنهج وغايته ووسائل تحقيقه، كما اهتم ببيان القواعد المنهجية في الكتابة والدراسة.

والقسم الثاني من الكتاب اهتم بمتابعة تطور التدوين والتأليف ومناهج المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية.

كانت الطبعة الأولى قد صدرت قبل اثنتي عشرة سنة^(١)، وقد صدرت في هذه الفترة دراسات عديدة بعضها يناقش المنهج، وبعضها

(١) سنة ١٤٠٦هـ عن دار طيبة بالرياض، ثم أعيد نشر القسم الأول عن دار الوفاء بالقاهرة، طبعة خاصة بمصر.

دراسات تطبيقية، وأكثرها رسائل جامعية، وهذا بشير خير، وبأن مراكز العلم في الجامعات تتجه الاتجاه العلمي الصحيح في دراسة تاريخ أمة الإسلام، وتترك المناهج الاستشراقية المستوردة التي كانت وبالأعلى على تاريخنا وحضارتنا.

ولقد استفادت تلك الدراسات من المنهج وقواعده، وأشار كثير منهم إلى ذلك، وإن كان بعضهم قد سلخ جزءاً من البحث ونشره باسمه - فالله يسامحه - والمهم أن تُنشر الفكرة الصحيحة وأن تلقى قبولاً.

هذه الطبعة جرى مراجعتها وتنقيحها، وأسأل الله العلي الكريم أن تجد قبولاً لدى القُرّاء، وأن يجعلها من العلم النافع الذي يستمر ولا ينقطع أجره وثوابه.

المؤلف

مكة المكرمة

محرم ١٤١٨ هـ

بسم الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، والذي طلب منا في كثير من الآيات النظر والتفكر في أحوال الماضين والسير في الأرض للاعتبار بأحوالهم ومصائرهم مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

ومثل قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ [٤٥] أفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين الموحى إليه قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فالتاريخ دراسة في أحوال الإنسان وحركته على هذه الأرض والنظر في معاملاته المختلفة.

معاملته مع الحق ومع رسل الله، ومدى استقامته وانحرافه عن المنهج الذي جاؤوا به.

معاملته مع الناس من حوله أفراداً أو جماعات وفي مختلف الحالات.

تفاعله مع الكون من حوله ومدى استفادته مما سَخَّرَ الله له من المخلوقات وما أعطاه من المواهب والقدرات.

وثمرة هذا العلم تأتي من التفكير في أحوال المدينيات والدول وعوامل بنائها وأسباب سقوطها، ومن النظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات، ومن الاطلاع على تشابه مواقف الأقسام المختلفة من دعوة التوحيد ودعاتها وأن ذلك يكاد يكون نسخة مكررة على تطاول الأزمان وتباعد الأمكنة وتعدد الأجناس.

كما تأتي من التأسي بمواقف الأنبياء ﷺ وجهادهم في تبليغ الرسالة وثباتهم على الحق وصبرهم على تحمل الأذى في سبيل الله.

والتاريخ الإسلامي هو تاريخ دين وعقيدة قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونظم سياسية، لأن العقيدة هي التي أنشأت هذه الكيانات من الدول والمجتمعات بنظمها السياسية والإدارية والتعليمية والاقتصادية وغيرها^(١).

ولأجل هذه الصفة في تاريخنا الإسلامي، فإنه لا بدّ من دراسته وفهمه وفق منهج علمي صحيح منبثق من التصور الإسلامي والعقيدة الصحيحة عن الله والكون والإنسان والحياة.

ومن هنا تظهر أهمية التعرف على المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ وتدريسه، وضرورة المعرفة بقواعد هذا المنهج وأهدافه ووسائل

(١) هذا بصرف النظر عن الأخطاء والانحرافات التي تقع أثناء التطبيق.

تحقيقه والالتزام بذلك، حتى لا تنحرف الدراسات التاريخية عن خط العقيدة ومقتضياتها، فتأتي بآراء وتفسيرات مضادة للتصور الإسلامي عن الكون والحياة وسير الأحداث.

ولقد انصب اهتمام المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى على تدوين أخبار الأحداث والوقائع، وكان معظمهم يذكر أسانيده وأسماء رواته، حتى يتأكد القارئ لتلك الأحداث بنفسه من صدق ذلك من عدمه - وهذه من محاسن منهجهم - غير أنهم لم يقوموا بالتفسير والتعليل بالقدر الذي تفعله الدراسات التاريخية المعاصرة.

ويرى بعض الباحثين أن سبب تركهم للتفسير والتعليل راجع إلى كونهم لم يصلوا إلى هذه المرحلة في دراسة التاريخ، غير أن المطلع على مؤلفاتهم يلحظ وعيهم بهذه المسألة كما يتضح ذلك فيما يأتي من بيان مناهجهم.

ويلاحظ أن القارئ في وقتهم كان عنده من الفهم لإسلامه وعقيدته وإدراك مقتضياتهما ما يجعله يدرك الحق من الباطل ويزن الأمور بميزان الكتاب والسنة، وكان يشعر بعزته وعلو ثقافته ومبادئه ويؤمن بأن هذه المبادئ لا يدانيها شيء من مبادئ الجاهليات وتصوراتها، ويظهر هذا واضحاً في أسلوب المؤرخين المسلمين وطريقة عرضهم لتواريخ الأمم الكافرة. ولذلك لم يحتاجوا إلى التأليف والكتابة في بيان المنهج الإسلامي لكتابة التاريخ لأن المنهج غاية في الوضوح في ذهن الكاتب والقارئ على السواء.

أما في العصور الحديثة فقد كثرت الانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي واتبعت في كتابته وتدريسه مناهج وأفكار ومبادئ غريبة عليه. ومنشأ هذه الانحرافات راجع إلى:

١ - الانحراف في التصور عند من تولوا كتابته مع الجهل بحقيقة الدين الإسلامي وشموليته.

٢ - القصور في فهم دلالة المصطلحات الإسلامية مثل الدين والعبادة والألوهية... إلخ.

٣ - الفصل بين الدراسات الشرعية والدراسات التاريخية في مناهج التعليم مما أدى إلى أن تقوم الدراسات التاريخية المعاصرة - في البلاد الإسلامية - على هدي المدرسة الاستشراقية إذ تلقفت مناهجها وأساليبها في عرض المادة التاريخية وتفسيرها، فنشأ عن هذا جيل من خريجي الجامعات وأساتذة التاريخ لا يشعرون بأية صلة تربط هذا التاريخ بدراسة الشريعة وأحكام الإسلام؛ بل ربما استنكر بعضهم ذلك.

٤ - أخذ بعضهم أحكام الإسلام على أنها أجزاء منفصلة لا رابط بينها وأن في مقدور الإنسان أن يكون مسلماً في جانب الاعتقاد المستكن في القلب دون السلوك العملي، أو أن يقوم بالشعائر التعبدية دون الالتزام بالإسلام في منهج العلم والتلقي، وهذا تطبيق للمبادئ العلمانية - وإن لم يشعروا -.

٥ - الشعور بالتبعية والروح الانهزامية أمام الحضارة الأوروبية.

٦ - عدم الاعتزاز بالإسلام وتحقيق مفهوم الولاء والبراء.

٧ - التقصير في متابعة مناهج العلماء المسلمين في التوثيق العلمي ونقد الروايات.

وفي ضوء هذه الحقائق وغيرها فقد أصبح من الواجب على القادرين من العلماء المسلمين المساهمة في تصحيح الأفكار والمفاهيم والعودة إلى منابع الصافية لهذا الدين، ولعل إبراز المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ وتدوين قواعده وبيان ركائزه ومنطلقاته من أهم وسائل التصحيح المنشود، خاصة وأنه قد كثرت في هذا العصر المناهج المطروحة لتفسير التاريخ، كما كثرت المذاهب الفكرية التي أرادت أن

تجعل من تفسير التاريخ سنداً ومبرراً لوجودها واستمرارها. ومن المعلوم أن لكل من المذهب المادي، والمذهب الاشتراكي والمذهب القومي، والمذهب الرأسمالي الغربي، والمذهب العلماني، والمدرسة الإنكليزية، والمدرسة الألمانية، منهجه في دراسة التاريخ وفي تفسيره.

ومنذ زمن وأنا أقرأ عن دعوات صادرة عن كثير من الكتّاب والمفكرين تنادي بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي ثم ما لبث الأمر أن طرح من قبل هيئات علمية ورسمية.

وأول من علمت أنه دعا إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، الشيخ محب الدين الخطيب، ثم الأستاذ سيد قطب في كتابه: في التاريخ فكرة ومنهاج^(١).

ثم طرح الموضوع على مجلس اتحاد الجامعات العربية عام ١٩٧٤م، وقرر تشكيل لجنة تحضيرية لدراسة «إعادة كتابة تاريخ العرب والإسلام» وإنشاء معهد للتاريخ العربي، ودائرة معارف تاريخية عربية^(٢).

ثم عُقدت في جامعة الكويت «حلقة عمل لمشروع إعادة كتابة تاريخ العرب والإسلام»^(٣).

وقد طرح الموضوع أيضاً على المجلس التأسيسي لرابطة العالم

(١) ذكر في آخر هذا الكتاب ص ٦١ في الهامش أنه تألفت جماعة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وهي تتألف من الشيخ صادق عرجون، ومحمد يوسف موسى، وعبد الحميد يونس، ومحمد النجار، وسيد قطب. ولا نعلم أن هذه اللجنة أصدرت شيئاً بهذا الخصوص وإنما قام الشيخ محمد صادق عرجون بكتابة كتابه عن خالد بن الوليد وعثمان بن عفان وهما مجهود فردي.

(٢) تتألف هذه اللجنة من الدكتور عبد العزيز كامل، وأحمد بدوي، ومحمد مرسى أحمد، وعبد العزيز النوري، ومحمد الطالب، وحسين مؤنس، وشاكر مصطفى. انظر: جريدة الجمهورية القاهرية ١٨/١٢/١٩٧٤م.

(٣) مجلة المجتمع الكويتية، عدد ٢٣٢، محرم ١٣٩٥هـ.

الإسلامي فاتخذ في دورته الثالثة والعشرين المنعقدة عام ١٤٠١هـ قراراً بتشكيل لجنة في نطاق الأمانة العامة للرابطة من خمسة أعضاء لتقوم بوضع خطة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي تغطي آسيا، وأفريقيا، على أن تطرح الأمانة العامة للرابطة فقرات الخطة في مسابقة عامة ومن علماء المسلمين على نمط مسابقة السيرة النبوية وبشروطها. كما اتخذ المجلس توصية أخرى في دورته الرابعة والعشرين المنعقدة عام ١٤٠٢هـ.

وقد علمت أن موضوع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي قد عُرض على هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية لكنها لم تتخذ قراراً عملياً بهذا الشأن حتى الآن.

إن كثرة طرح الموضوع وتعدد الهيئات العلمية التي درسته يدل على أهميته وعلى الحاجة الملحة التي شعر بها أولئك العلماء وتلك الهيئات العلمية والشرعية لبحث هذا الموضوع.

وقد ناقش هذه الدعوة عدد من الباحثين بين مؤيد ومنتقد^(١)، ولا شك أن المقصود بالإعادة عند من دعوا لهذا العمل لأول مرة هو تنقية الكتب من الأخطاء والروايات المكذوبة ومن ثم إعادة الصياغة وفق المنظور الإسلامي^(٢) للاستفادة من دراسة التاريخ في مجال التربية والأسوة الحسنة. ولكن يبدو أن هذه الدعوة قد استغلت وأريد لها أن لا تستمر في الطريق المستقيم، حيث تلقفها بعض الكتاب المنحرفين فكرياً كالماركسيين، والقوميين، والاشتراكيين، والعلمانيين، والمنزلقين في

(١) من الذين عارضوا هذه الدعوة الأستاذ أحمد محمد جمال في محاضرة له مطبوعة بعنوان «تاريخنا لم يقرأ بعد»، وأيضاً الشيخ عثمان صافي الذي يرى أن طرح الموضوع بهذا العنوان: «إعادة كتابة التاريخ» ينطوي صراحة على تخطئة السلف في كل ما كتبوه، ويرى أن إعادة كتابة التاريخ ضرب من الخيال، انظر: مجلة المجتمع الكويتية، محرم ١٣٩٥هـ، عدد ٢٣٢.

(٢) انظر: سيد قطب، في: التاريخ فكرة ومنهاج ص ٥٥.

مدارج المستشرقين والمنصرين، الذين أرادوا الاستفادة منها في تفسير التاريخ الإسلامي - وفق أفكارهم ودعواتهم المنحرفة^(١).

ولقد أثارت انتباهي هذه الدعوة لإعادة كتابة التاريخ؛ فأخذت أبحث عن أسبابها، وسألت نفسي: هل تاريخنا الإسلامي حقاً بحاجة إلى «إعادة كتابته»؟ فعكفت على قراءة الكتب التاريخية القديمة منها والحديثة، وعندها شعرت بضخامة الانحراف والخطأ الذي وقع فيه كثير من المؤرخين - قدامى ومعاصرين - فالقدامى جمعوا الأخبار صحيحتها وسقيمها ودونوها في كتبهم، ومنهم ذوو ميول وأهواء وجهوا الأحداث والوقائع حسب أهوائهم. ومنهم ثقات وعدول ولكنهم - في هذا الطور يجمعون ويدونون. كما قال يحيى بن معين: «إذا كتبت فقمّش وإذا حدثت ففتش»^(٢).

أما المعاصرون فقد قام الكثير منهم بعرض مادة التاريخ الإسلامي وتفسيره وفق منظورات ومناهج غير إسلامية، مع قلة التحقيق العلمي المعتمد على المقاييس الشرعية، إضافة إلى تركيز الكثيرين منهم على إبراز تاريخ الصدر الأول بصورة مشوهة.

فأخذتُ أبحث عن سبب هذه الانحرافات فوجدته يكمن في سوء القصد وإرادة التحريف والتشويه عند البعض.

(١) قامت مجلة المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسوريا بطرح أسئلة على مجموعة من الباحثين بعنوان إعادة كتابة تاريخنا القومي، ثم طبعت إجاباتهم وأصدرتها في كتاب بعنوان «كيف نكتب تاريخنا القومي؟»، وفي حلقة العمل التي عُقدت بجامعة الكويت عام ١٣٩٤هـ، حضر الدكتور عبد العزيز الفدا مدير جامعة الرياض آنذاك تلك الحلقة، وبعد انتهاء جلساتها أجرت معه مجلة المجتمع الكويتية مقابلة في العدد ٢٣٢. وقد أبدى كثيراً من التحفظات وقال: إن المشروع ينقصه العلماء المتخصصون في الشريعة.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٨٥/١١.

أما البعض الآخر فيكمن انحرافهم في انعدام الالتزام بالأصول المنهجية في الفكر والتصور، والأصول المنهجية في النقد والتحقيق. وللخروج من هذا الوضع السيء الذي أحاط بكتابة التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً فإنه لا بدّ من القيام بعملين رئيسين:

الأول: تحقيق الروايات التاريخية وفق الموازين النقدية الدقيقة التي اتبعها علماء الحديث النبوي مع بعض الاستثناءات اليسيرة التي سنشير إليها فيما بعد.

والثاني: هو صياغة التاريخ الإسلامي وتعليمه وفق التصور الإسلامي الصحيح، ووضع أسس ومناهج صحيحة لتدريسه، منطلقة من العقيدة الصحيحة، والفهم السديد، والمنهج العلمي الموثق.

وهذا العمل يحتاج إلى رجال مؤمنين بهذه المعاني، عالمين بأساليب البحث العلمي، ومزودين بالثقافة الشرعية والتاريخية، ولديهم الحس النقدي، وفق الموازين الشرعية، مع الخبرة العملية والمعايشة الطويلة لمصادر هذا التاريخ.

ومن أجل المساهمة في تحقيق هذا المطلب وبغية تصحيح التصور الخاطئ عن تاريخنا الإسلامي ومواقف رجاله، خاصة جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين وتابعيهم من سلف الأمة أهل القرون المفضلة ومن اقتدى بهداهم إلى يوم الدين.

وإقراراً للحق الواجب على القادرين بيانه، اخترت البحث في هذا الموضوع وجعلت عنوانه «منهج كتابة التاريخ الإسلامي» مع دراسة لتطور التدوين التاريخي ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري وهو في قسمين:

القسم الأول: في بيان الشروط الموضوعية والقواعد المنهجية والتصورات العقدية التي تحكم دراسة التاريخ الإسلامي وما يشترط فيمن

يتولى كتابة التاريخ الإسلامي، مع بيان المنهج العلمي في النقد والتحقيق ويشمل البابين الأول والثاني.

والقسم الثاني: عرض لتطور التدوين التاريخي ومناهج المؤرخين المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، وذلك أنه بعد تقرير المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ وتأصيله نظرياً أردنا أن نعرض لما تم تطبيقه عملياً في واقع الدراسات التاريخية، واقتصرنا في هذه الدراسة على مؤرخي القرون الثلاثة الأولى.

وقد جاءت خطة الموضوع في مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة. تعرضت في المقدمة إلى أهمية الموضوع وسبب اختياري له. أما الباب الأول: فقد جعلته مدخلاً لدراسة التاريخ الإسلامي وفيه فصلان:

الفصل الأول: في مفهوم العلم ومنهج تلقيه، وبيّنت فيه مفهوم العلم وارتباطه بمفهوم العبادة والغاية الأساسية لحياة المسلم، وأنه لا بدّ من تلقي العلم وفق منهج علمي صحيح، ليؤدي العلم ثمرته، كما أوضحت التلازم بين العلم والعمل، وذكرت شيئاً من فهم السلف للعلم، وأثره على حياتهم. وذكرت الضوابط اللازم مراعاتها فيمن يؤخذ عنه العلم.

أما الفصل الثاني: فهو عن مفهوم التاريخ وثمره دراسته، وأهمية إدراك دارس التاريخ لثمرات التاريخ ومقاصد دراسته.

والباب الثاني: خصصته للحديث عن منهج كتابة التاريخ الإسلامي وفيه خمسة فصول.

الفصل الأول: عن المنهج وأهميته وارتباطه بالعقيدة والتصورات التي يؤمن بها الشخص، لأن المنهج أثر من آثار التصور وناتج عنه، واختلاف الناس في الدراسات التي تعنى بشؤون الإنسان وعدم وصولهم إلى نتائج واحدة كما هو الحال في العلوم التطبيقية والرياضية دليل

واضح على أنه لا بدّ من التلقّي في مناهج العلوم الإنسانية عن الله ﷻ والرجوع إلى وحيه المُنزّل على رُسُلِهِ، وإن اعتبار الوحي الرباني مصدراً وحيداً لضبط العلم والمعرفة أهم قضية يجب أن تعيشها البشرية، إنه لا بدّ أن يكون هناك ميزان واحد لضبط المعرفة حتى تنحسم مادة الخلاف. ولا أعدل ولا أكمل من شرع الله وميزانه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] فالكتاب الذي جاء به الرسل، هو الذي يُتلقّى منه الحق والعدل، ويقام على منهجه القسط في الأرض. ومن المعلوم أن التزام الصدق وطلب الحق أمر نفسي خلقي، يقوم على الخشية والخوف من الله، وابتغاء مرضاته، والتربية على ذلك، وليس أمراً فكرياً وأدبياً فحسب، ومن ثمّ تكون معرفة الحق والالتزام به مرهونة بالإيمان بالله المقتضي للشهادة بالقسط والعدل، ومن هنا تظهر أهمية علوم الشريعة لعلم التاريخ.

والفصل الثاني: تحدثت فيه عن مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي.

والفصل الثالث: أفردته للحديث عن خصائص منهج كتابة التاريخ الإسلامي.

وهي:

- ١ - التميز في التصور والمفاهيم.
- ٢ - التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق.
- ٣ - التميز في منهج التفسير التاريخي.

ففي الخاصية الأولى: تحدثت عن نوعين من المفاهيم هما:

مفاهيم أساسية في التصور والاعتقاد: أوضحت فيها مجمل التصور الإسلامي عن الإنسان والكون والحياة، حيث إن هذه العناصر هي إطار

الحركة التاريخية ومجالها، وهي مفرق الطريق وأُسُ الخلاف في النظرة بين المسلم وغير المسلم.

ومفاهيم منهجية في البحث العلمي وإثبات الحقائق: وتحدثت فيها عن مفهوم البحث العلمي ودور العلماء المسلمين في ذلك، وأيضاً مفهوم البحث العلمي عند الأوروبيين. ثم تحدثت عن بعض المفاهيم المرتبطة بذلك مثل: الموضوعية، والتجرد، والحياد.

أما الخاصية الثانية: فقد أوضحت فيها منهج النقد عند علماء الحديث. ومنهج النقد التاريخي عند الأوروبيين. وعقدت مقارنة بين المنهجين، خرجت منها بجملة من النقاط من أهمها: أن المنهج الأوروبي في البحث التاريخي غير صالح للتطبيق في التاريخ الإسلامي، نظراً للاختلاف العقدي، في أصل النظرة للإنسان ووظيفته ودوره في الحياة.

أما الخاصية الثالثة: وهي التميز في منهج التفسير للحوادث، فقد ذكرت فيها خصائص المنهج الإسلامي في التفسير التاريخي وسماته، من الواقعية، والتوازن، والشمول، والصدق، وصحة التصور عن الله والكون والإنسان.

كما أشرت إلى بعض المناهج الحديثة في التفسير التاريخي مثل: التفسير المادي، والتفسير الحضاري، والتفسير المثالي، والتفسير القومي، والتفسير بالغريزة الجنسية، ونقدت ذلك كله نقداً منهجياً مجملًا.

أما الفصل الرابع: فقد تحدثت فيه عن غاية منهج كتابة التاريخ الإسلامي وعن وسائل تحقيقه، وأنها تقوم على ثلاث دعائم هي:

١ - التصور الصحيح المستمد من الشريعة.

٢ - الرجال الأمناء المخلصون.

٣ - المنهج العلمي السديد.

أما الفصل الخامس: فقد اختص بعرض «قواعد منهج كتابة التاريخ الإسلامي» التي صُنِّفت إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: قواعد في التصور والاعتقاد، وقد ذكرت فيه سبع قواعد هي:

- ١ - الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية ووحدة تاريخها.
 - ٢ - معرفة الحكم الشرعي في مخلفات الأمم الجاهلية؛ وقد حاولت في هذه القاعدة أن أستخرج من القرآن الكريم المنهج الصحيح في دراسة الآثار.
 - ٣ - الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر.
 - ٤ - الإيمان بالغيب وأثر هذا الإيمان في توجيه الحوادث التاريخية وتفسيرها.
 - ٥ - معرفة حق الصحابة رضي الله عنهم، وتميُّز أهل القرون الثلاثة الأولى، وقد أطلتُ في هذه القاعدة لأهميتها وتعرَّضت فيها بالدراسة لثلاثة موضوعات هي:
 - أ - تميُّز أهل القرون الثلاثة الأولى من الهجرة وأفضليتهم.
 - ب - الحق الخاص لأصحاب رسول الله ﷺ وعدالتهم.
 - ج - موقف المسلم من الأخبار التاريخية التي فيها قدحٌ لبعض الصحابة.
 - ٦ - التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام وبيان مصدر التلقي للمفاهيم والنظم الإسلامية.
 - ٧ - الإيمان بالسنن الربانية، وأهمية ذلك في التفسير التاريخي.
- والقسم الثاني: قواعد في المصادر وذكرت فيه خمس قواعد هي:

- ١ - اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر.
- ٢ - عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب السماوية السابقة للقرآن لأنها مبدلة ومنسوخة.
- ٣ - معرفة شروط المؤرخ المقبول.
- ٤ - معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء من المبتدعة والزنادقة.

٥ - معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين.

والقسم الثالث: قواعد في الأسلوب والعرض. وفيه ستُّ قواعد

هي:

- ١ - جَعْلُ العقيدة المحور الأساس في العرض.
 - ٢ - التركيز في الكتابة على الأهداف والغايات.
 - ٣ - أن يكون العرض موحياً بتحييب الخير وتبغيض الشر.
 - ٤ - إبراز دور الأنبياء وأثرهم في تاريخ البشرية.
 - ٥ - تحري استعمال المصطلحات الإسلامية.
 - ٦ - الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء.
- أما الباب الثالث: فقد اختص بدراسة مناهج مؤرخي القرون الثلاثة الأولى من الهجرة: وفيه تمهيد وثلاثة فصول.

ذكرت في التمهيد دوافع التدوين التاريخي، وكيفيته ومراحله.

أما الفصل الأول: فكان بعنوان: أنواع التأليف التاريخي. وقد ذكرت فيه نطاق التأليف التاريخي في القرون الثلاثة الأولى، وبيان الأنواع التي شملها التأليف التاريخي وأطلت في السيرة النبوية وتتبع مراحل تدوينها وأسماء المؤلفات في ذلك؛ وأنواع الكتابة في السيرة؛ مثل كتب المغازي، والشمائل، والدلائل. وذلك نظراً لأهمية السيرة التشريعية والتربوية.

أما الفصل الثاني: فقد جعلته لتراجم بعض الإخباريين والرواة الذين ساهموا في الحقل التاريخي وترجمت فيه لواحد وخمسين إخبارياً وراوياً.

أما الفصل الثالث: فهو عرض لمناهج مؤرخي القرون الثلاثة الأولى من الهجرة وعرضت فيه بالدراسة لمناهج سبعة عشر مؤرخاً، هم: محمد بن إسحاق، ومحمد بن عمر الواقدي في السيرة النبوية، ومصعب الزبيري، ومحمد بن حبيب في حقل الأنساب، ومحمد بن سعد، وأبو زرعة الدمشقي، ووكيع القاضي في حقل التراجم والطبقات، وابن عبد الحكم، والبلاذري في فتوح البلدان، وأبو الوليد الأزرق، وعمر بن شبة في تواريخ المدن وخططها، وأبو يوسف، وأبو عبيد القاسم بن سلام، في حقل النظم المالية، وأبو حنيفة الدينوري، واليعقوبي في حقل التاريخ العام المدون وفق التنظيم الموضوعي، وخليفة بن خياط، ومحمد بن جرير الطبري، في حقل التاريخ العام المنظم على طريقة الحوليات.

أما الخاتمة فقد بحثت فيها موضوعين هما:

- ١ - عوامل الانحراف الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي، وأهم الطوائف المساهمة في ذلك.
- ٢ - نتائج البحث.

هذا وقد ألحقت بالبحث نصوصاً تمثل بعض الانحرافات التي أشرت إليها في الخاتمة، كما قمت بوضع الفهارس اللازمة. وقد عانيت من قلة المصادر^(١) في بحث القسم الأول من الموضوع

(١) هناك بعض الدراسات ولكنها لم تطرق موضوع المنهج بشكل متكامل وإنما هي أبحاث أولية ودراسات مقتضبة وسريعة، وفيها مقترحات وأفكار جيدة. مثل:

- سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج.

لأنه من الأبحاث التي لم تُبحث عند العلماء السابقين، وإنما شعر الباحثون المحدثون بالحاجة إليه، مدونة مسائله، ومجموعة قواعده، في بحث متكامل بعد أن رأوا الانحرافات الخطيرة في كتابة التاريخ الإسلامي نتيجة تقليدها للمناهج الأوروبية في بحث التاريخ وكتابته وتفسيره.

إن ما وجدته يتمثل في اقتراحات وملاحظات يسيرة وضعها بعض الباحثين في مقدمات كتبهم وقد أفدت من بعضها.

ولكني والله الحمد رجعت إلى القرآن الكريم والسنة المشرفة لأنهما المرجع الأصيل لهذا المنهج وحاولت التعرف من خلال نصوصهما على هذا المنهج وضوابطه وغايته ووسائله.

كما أنني قد قابلت بعض الشخصيات العلمية داخل المملكة وخارجها وحاولت الاستفادة من تجاربهم وتوجيهاتهم.

وبعد: فإني أشكر الله ﷻ وأحمده وأثني عليه الشاء كله على ما أولاني من نِعَمِهِ الكثيرة المتجددة ومنها إتمام هذا البحث، وإني أسأله بأسمائه الحسنی وصفاته العُلى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وأن لا يحرمني ثوابه.

= - عبد الرحمن الحجي، نظرات في دراسة التاريخ.

- عبد الحميد صديقي، تفسير التاريخ.

- عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ.

- أكرم ضياء العمري، إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام.

كما توجد بعض الدراسات التطبيقية مثل:

- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

- محمد صادق عرجون، عثمان بن عفان، وخالد بن الوليد.

- الدكتور جمال عبد الهادي، الجزيرة منذ أقدم العصور، تاريخ مصر والعراق،

تاريخ الرومان، تاريخ اليونان.

وما كان في هذا البحث من صواب فهو من توفيق الله وحده
وأحمد الله على ذلك وما كان فيه من خطأ فهو من نفسي وأستغفر الله من
ذلك.

وصلّى الله وسلّم وبارك على خير خلقه محمد بن عبد الله وعلى آله
وصحبه وسلّم تسليماً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

البَابُ الْأَوَّلُ

مدخل لدراسة التاريخ الإسلامي

الفصل الأول: مفهوم العلم ومنهج التلقي.

الفصل الثاني: مفهوم التاريخ وثمره دراسته.

مدخل

من المفاهيم ذات الصلة المباشرة بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي :

- مفهوم العلم ومنهج تلقيه .

- مفهوم التاريخ وثمرة دراسته .

وذلك أن المنهج الإسلامي في الدراسة والبحث يرتبط بالمقاصد والغايات . . «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) .

فهو منهج جدي عملي بعيد كل البعد عن الترف العقلي أو التلقي الذهني المجرد عن الواقع .

فكل عمل أو حركة لا يُستفاد منها في واقع الحياة الإسلامية أو ليست وسيلة إلى ما فيه فائدة لحياة المسلم في دنياه أو آخرته، فإن بحثها يعتبر ترفاً بل لعله من العمل الضائع الذي لا يُثاب عليه صاحبه . . والإنسان معروض للمساءلة عن عمره فيما أفناه وعن علمه ماذا عمل به^(٢) .

والمسلم يربأ بنفسه عن تبديد طاقاته وضياع أوقاته ومواهبه فيما لا يعود عليه بالخير . ولا ريب أن من منهج الإسلام العمل على استثمار الطاقات وتجميعها وتنمية المواهب، واستخدامها فيما يعود بالنفع على الإنسان في ذاته أو على مجتمعه . ولذا سنبحث كل مفهوم من هذين المفهومين في فصل مستقل نمهد بهما ونجعلهما بين يدي البحث في منهج كتابة التاريخ الإسلامي .

(١) رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب أول حديث في كتاب الوحي ٢/١ .

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح . انظر: جامع الترمذي ٦١٢/٤ ، وجامع الأصول ٤٣٦/١٠ ، ٤٣٧ .

مفهوم العلم ومنهج تلقيه

مفهوم العلم ومحتواه:

العلم ضد الجهل وقد وقع خلاف طويل في وضع «حدٍّ»^(١) له كما يقول الزبيدي^(٢). حتى قال جماعة: إنه لا يُحدّ لظهوره وكونه من الضروريات، وقيل لصعوبته وعسره.

والعلم من وجه ضربان: نظري، وعملي. فالنظري: هو الذي إذا علم فقد كمل، نحو: العلم بموجودات العالم.

والعملي: هو الذي لا يتم حتى يعمل به^(٣) كالعلم بالعبادات وكافة الأوامر الشرعية.

وقال بعضهم: العلم هو معرفة الهدى بدليله^(٤).

والعلم من وجه آخر: شرعي، وغير شرعي. والعلم الشرعي على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية. وإذا ورد مطلقاً في الكتاب أو السنة فإنما يراد به العلم الشرعي مثل قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ

(١) أي: تعريف.

(٢) الزبيدي: هو محمد بن محمد بن محمد بن مرتضى، لغوي محدث كثير التصانيف من أجودها: تاج العروس شرح القاموس، توفي سنة ١٢٠٥ هـ. انظر: الأعلام للزركلي ٧٠/٨.

(٣) الزبيدي، تاج العروس ٤٠٥/٨.

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، حاشية على الأصول الثلاثة ص ١٤.

يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ الآية [الزمر: ٩] ومثل قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١) وقوله فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»^(٢).

فلفظ العلم في هذه الآيات والأحاديث يراد به العلم الشرعي^(٣) أو ما يكون خادماً وموصلاً للعلم الشرعي كعلم العربية. والعلم قد يكون نافعاً وقد يكون ضاراً، كما قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. فالذي يَرُدُّ في القرآن الكريم أو السنة النبوية أو في كلام السلف في سياق المدح والحث على طلبه هو العلم الشرعي، والعلم النافع، والعلم الحق. أما غير ذلك فقد يكون ضاراً أو غير نافع لأصحابه عند الله تعالى. قال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩) ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ...﴾ الآية [النجم: ٢٩، ٣٠]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (٧) [الروم: ٧] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ...﴾ الآية [غافر: ٨٣]. فقد أثبت الله ﷻ في الآيات السابقة أن عندهم علماً ولكنه لم ينفعهم. ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً»^(٤) وكان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يُستجاب لها»^(٥).

(١) حديث حسن رواه ابن ماجه رقم (٢٢٤). وانظر: شرح السنة للبغوي ١/ ٢٩٠.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم رقم (٢٦٩٩) ٤/ ٢٠٧٤.

(٣) يراجع في هذا: ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، باب معرفة أصول العلم وحقيقته وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقاً.

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ص ٢١٥، ويشهد له الحديث الذي بعده.

(٥) رواه مسلم. انظر: الصحيح ٤/ ٢٠٨٨.

فالعلم الذي يطلب من العبد تعلمه سواء على سبيل الوجوب أم الاستحباب هو العلم النافع الذي يوصل إلى الحق ويبعد عن الضلال والباطل.

وأشرف العلم ما كان دالاً على الله ﷻ وموصولاً إلى معرفته وتوحيده. يقول الإمام ابن القيم^(١): «إن العبد لو عرف كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا وَلَذَاتِهَا وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قُرّة عين»^(٢).

والعلم النافع هو الذي يتوسل به إلى عبادة الله ﷻ حسب مفهوم العبادة الشامل الذي وضعه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فالعبادة حسب المفهوم القرآني منهج حياة كامل شامل^(٣). فهي تشمل إلى جانب شعائر التعبد من الصلاة، والصيام، والذبح لله، الحياة كلها بل والممات. وقد جعلها الله ﷻ الغاية من خلقه للجن والإنس، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

(١) هو شمس الدين محمد بن أبي بكر، إمام معروف له مصنفات نافعة منها إعلام الموقعين، وزاد المعاد، وإغاثة اللفهان، توفي بدمشق سنة ٧٥١هـ.

(٢) ابن القيم، إغاثة اللفهان ٦٨/١.

(٣) عرّف شيخ الإسلام ابن تيمية العبادة بقوله: «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة». انظر: رسالة العبودية له ص ٣٨.

فالعلم إذا لم يكن مؤدياً إلى هذه الغاية في وسائله، وأهدافه، ونتائجه، لا يعتبر علماً نافعاً؛ بل إذا اجتمع في العلم خير وشر ولم يمكن حصول الخير إلا بوجود الشر فإنه يغلب جانب الحظر والمنع عملاً بالقاعدة الشرعية الأصولية «درء المفسد مقدم على جلب المصالح»^(١).

وإذا كان العلم في ذاته غير ضار لكنه يكون وسيلة إلى محظور وممنوع شرعاً فإنه يترك لكونه يؤول إلى محرم شرعاً، والوسائل تأخذ حكم الغايات. وقاعدة سد الذرائع من قواعد الشريعة الواجبة للإعمال في مثل هذه المواطن.

فإذا تقرر أن الغاية الأساسية لحياة المسلم هي تحقيق العبودية الخالصة لله ﷻ، وذلك بإقامة منهجه في الأرض، وتحكيم شريعته، كما هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله^(٢) محمد رسول الله. فإن كل علم يؤدي إلى هذه الغاية ويتعلم بهذا الهدف هو علم مطلوب وواجب على الأمة تعلمه وجوب كفاية، ومنه ما يكون واجباً عينياً كمعرفة التوحيد وأحكام العبادة. والأمة تأثم بعمومها إذا لم يتوفر العدد الكافي من أبنائها لسد حاجاتها من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم اللازم لها.

وينبغي الانتباه إلى أن فساد المنهج الذي يُتلقى به العلم يؤدي إلى فساد الثمرة المرجوة من العلم. فلا بد من استقامة المنهج العلمي لكي نحصل على ثمرة العلم وفائدته. وهذا أمر واضح في كثير من الدراسات

(١) لبعض الفقهاء تفصيل في هذه القضية وهو أنه إذا اجتمع الخير والشر وكان الشر غالباً، فهنا يقدم المنع، أما إذا كان الخير غالباً فإنه يتساهل في الأمر عملاً بقاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد. انظر: العز بن عبد السلام: قواعد الأحكام ٨٣/١؛ والآمدي، الإحكام في أصول الأحكام ٣/٢٧٤.

(٢) للاستزادة في مفهوم العبادة انظر: ابن تيمية، العبودية ص ٣٨ - ٥٠؛ وسيد قطب، معالم في الطريق، فصل لا إله إلا الله منهج حياة ص ٨٣ - ٩٦.

التاريخية المعاصرة، بسبب تشويه المنهج العلمي فيها، أو بسبب سوء القصد في القائمين عليها، أو بسبب الجهل بالشريعة.

لذا يجب على طالب العلم اتباع المنهج العلمي السديد الذي يؤدي إلى الثمرة المطلوبة من العلم، وهذا يحصل بإخلاص النية والقصد لله ﷻ وابتغاء مرضاته، وبتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، قال الفضيل بن عياض^(١) في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [الملك: ٢]: «أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»^(٢)، وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وذلك أن طلب العلم النافع من العبادات وقربة من القرب التي يتقرب بها العبد من ربه.

وهناك تلازم بين العلم والعمل. فالعلم لازم لصحة العمل، والعمل لازم للحصول على ثمرة العلم. قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري ﷺ على هذه الآية في صحيحه بقوله:

(١) هو فضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، من سادات التابعين، ورعاً زاهداً عابداً، جاور بمكة حتى توفي سنة ١٨٧هـ، خرج حديثه البخاري ومسلم وغيرهما. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٩٤/٨.

(٢) ابن تيمية، شرح حديث: «إنما الأعمال بالنيات» ص ١٢، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية، المجلد الثاني.

«باب العلم قبل القول والعمل»^(١)، فالعلاقة بين العلم والعمل في القرآن الكريم وثيقة جداً كما أن لفظة العلم في القرآن والسنة ليست قاصرة على مجرد العلم بمعنى المعرفة، بل تشمل العلم والعمل معاً. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وليس المقصود بالعلماء هنا أولئك الذين يعلمون لمجرد المعرفة ولا يعملون، بل الذين عملوا بما علموا، وما الخشية التي حصلت لهم إلا ثمرة العمل بالعلم.

يقول الدكتور محمد أمين المصري: «إن شأن العلم أن يستلزم الإيمان، والإيمان يستلزم العمل. فإن لم يكن هنالك عمل كان العلم ناقصاً، وكان الإيمان مختلاً. فلقد ذم الله ﷻ الذين لا يعملون بعلمهم فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥]، فالآية تعطي صورة حية ناطقة لمن لا يعمل بعلمه. وتشير إلى أن من العلم ما يخالط القلب ويمزج أجزاء النفس، ومنه نوع يدخل إلى النفس لكنه لا يؤثر فيها ولا يتأثر بها، بل يبقى كسقط المتاع في زاوية من زوايا النفس، وهذا أكبر من الجهل لأن صاحبه يخدع الناظر إليه ويخدع نفسه، فهو في ثوب العلماء ونفسه تنطوي على جهالة عمياء»^(٢).

وقد ذم رسول الله ﷺ الذي يطلب العلم لغير العمل به كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف^(٣) الجنة يوم القيامة»^(٤)، فكل سعي المسلم يجب أن يبتغي

(١) الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب رقم (١٠). انظر: ١٥٩/١ من فتح الباري.

(٢) محمد أمين المصري، المجتمع الإسلامي ص ٧٨.

(٣) عرف الجنة: أي: ربحها.

(٤) رواه الخطيب البغدادي في كتاب اقتضاء العلم العمل ص ٦٥، وصححه =

به وجه الله حتى لا يكون يوم القيامة هباءً منثوراً كعمل الكفار الذين لا يؤمنون بالله .

ولقد جاءت النصوص الكثيرة المنقولة عن الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم من علماء السلف في الربط بين العلم والعمل وأن العلم يقتضي العمل^(١) وذلك منهج من مناهج حياتهم .

ولهذا كان فهم السلف للعلم فهماً يتميز بالشمول ويقترن بحاجات الأمة ومصالحها، ولم يكن أخذهم للعلم للتزين والتجمل به، أو الأخذ الترفي المفصول عن الواقع، أو التلقي الذهني البارد المجرد عن العمل والحركة، بل كان متسقاً مع آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] .

فالله يدعونا في هذه الآيات وغيرها إلى السير في الأرض وعمارتها وإلى النظر فيها نظر تدبر وتفكر يؤثر في النفس وتنعكس آثاره في السلوك، ولم تفصل الآيات بين العلم والعمل ولا بين الدنيا والآخرة

= الألباني وقال: أخرجه أحمد في المسند، والحاكم في المستدرک وصححه .

(١) كتب الخطيب البغدادي كتاباً لطيفاً بعنوان: «اقتضاء العلم العمل» جمع فيه الآثار المروية عن الصحابة والسلف الصالح في هذا المعنى .

كما كتب الحافظ ابن رجب الحنبلي رسالة جيدة بعنوان: «فضل علم السلف على الخلف» ذكر فيها كثيراً من الآثار حول هذا الموضوع .

وإنما كل ذلك ينبغي أن يعتنى به ويعمل له شريطة أن يكون وفق منهج الله وشريعته، لأن هذا هو مقتضى شرط الاستخلاف الذي أعطي لأبينا آدم ﷺ ولذريته من بعده، وهو عبادة الله وحده لا شريك له وتلقي الهدى منه.

والعلم لا خير فيه إن لم ينبني عليه سلوك مستقيم، ويورث في النفس عملاً صالحاً. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه»^(١)، وقال أبو إسحاق الشاطبي^(٢) بعد أن ساق قول ابن مسعود الآنف وغيره من أقوال السلف: «والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصوداً بنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به»^(٣)، وقال الحسن البصري^(٤) في معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلِّمْتُهَا مَا لَمْ تَعْلَمُوا أُنْتُمْ وَلَآءَابَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]: «عُلِّمْتُمْ فَعَلِمْتُمْ ولم تعملوا فوالله ما ذلكم بعلم»^(٥).

(١) الشاطبي، الموافقات ٦٥/١.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، عالم أصولي، حافظ من أهل غرناطة، له مصنفات أشهرها: الاعتصام والموافقات، كانت وفاته سنة ٧٩٠هـ. انظر: الأعلام للزركلي ٧٥/١.

(٣) الشاطبي، الموافقات ٦٥/١.

(٤) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، نشأ بالمدينة وحفظ القرآن وسمع عثمان يخطب مراراً ولازم الجهاد والعلم والعمل وكان من الشجعان الموصوفين ومن العبّاد المشهورين، توفي سنة ١١٠هـ عن ثمان وثمانين سنة. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٧١/١.

(٥) الشاطبي، الموافقات ٧٥/١.

وقال سفيان الثوري^(١): «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»^(٢)، وقال الفضيل بن عياض: «لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالماً»^(٣).

وبهذا يتضح بطلان المنهج الجاهلي القائم على قاعدة «العلم للعلم» و«الأدب للأدب» و«الفن للفن» ونحوها. والتي تعني تجريد العلم عن العقيدة والتصور، وتفصله عن العمل والثمرة، وترسم للبحث العلمي دائرة مستقلة لا دخل للعقيدة والدين أو الغايات النبيلة فيها، مع أن هذه العبارة خاطئة من الناحية الواقعية إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل شيئاً إلا وهو مدفوع بغرض معين خارج عن مجرد العمل.

وفي ظل هذا المنهج الجاهلي لا حرج على الإنسان أن يتعلم أو يبحث في أي شيء ولو كان حراماً ضاراً أو عقيماً لا خير فيه ولا غاية سامية له.

وقد نشأ هذا المنهج في ظروف تاريخية خاصة بأوروبا الشاردة من طغيان الكنيسة ورجالها الذين كانوا يفرضون على الناس اعتقاد ما يملونه عليهم من الخرافات والتأويلات المنحرفة ويعاقبون كل من وصل إلى نظرية مخالفة لأقوالهم أشد العقاب وإن كانت حقاً في ذاتها، أو مما جعل الله تعالى شأنه موكولاً إلى الجهد البشري والتجربة البشرية.

ضوابط في منهج تلقي العلم:

في المبحث السابق حاولنا تحديد مفهوم العلم في الشريعة الإسلامية والتعرف على بعض الشروط الواجب ملاحظتها ليكون العلم

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق، إمام حافظ، ثقة فقيه، وُلِدَ سنة ٩٧هـ، توفي سنة ١٦١هـ. انظر: تذكرة الحفاظ ٢٠٣/١.

(٢) الشاطبي، الموافقات ٧٥/١.

(٣) الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم بالعمل ص ٣٧.

نافعاً ومفيداً. وفي ظل هذا المفهوم للعلم نحاول تحديد بعض الضوابط التي يتقيد بها المنهج العلمي.

أ - الوحي مصدر العلم:

المصدر الأول للمعرفة في التصور الإسلامي هو الوحي الذي يبلغه الله لرسول من رسله. فالقرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران اللذان يرجع إليهما في ضبط الموازين والقيم ومعرفة الحق من الباطل والحكم على معطيات العلوم ونتائجها، نقلياً كانت أم عقلية. فهما مصدر الحق في هذا الوجود. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبُونَ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فالوحي الرباني هو المصدر المأمون الذي يتميز بالثبات والشمول ويقدم التفسير الشامل للحياة، والكون، والإنسان، وحقيقة الألوهية والعبودية، لأنه كلام رب العالمين، العليم، الخبير، المطلع على كل شيء والمبرأ مما يعتري البشر من القصور والظلم والجهل وسوء الفهم والارتباط بالمصلحة وبالبيئة التي نشأ فيها، والتربية التي تلقاها، والمفاهيم والتصورات المتوارثة.

فهو الله ﷻ الخالق لكل الخلق وهو أعلم بهم وبما يصلحهم، وقد وضح هذا المنهج في كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ.

فما دام الوحي بهذه الصفة من الكمال، والشمول، والعدالة. فإنه لا بد للمسلم أن يتخذه منهجاً وميزاناً يزن به القيم والأحداث، ويضبط به التصورات والمفاهيم، ويتخذه حكماً يرجع لحكمه ويتلقى منه.

فالعقل، والسمع، والبصر، أدوات زوّد الله بها الإنسان ليحصل

عن طريقها على المعرفة. فهي أدوات لا مصادر مستقلة للمعرفة. وإن اعتبار الوحي الرباني هو المصدر الذي يرجع له لضبط المعرفة، هو أهم قضية عاشتها الإنسانية. وبسبب الاختلاف فيها وقعت البشرية في حيرة واضطراب، واختلاف شديد.

ولو اتفقت البشرية على ميزان موحد لضبط العلم والمعرفة لما وقع بينها هذا التباين الشديد في الاتجاهات والمناهج والمذاهب التي لا توجد بين أغلبها قواسم مشتركة أو نقاط التقاء.

وإلا ففوق الاختلاف من طبائع البشر تبعاً لاختلاف المفاهيم والقدرات حتى داخل المذهب الواحد.

والبشرية إذا لم يكن لها منهج موحد ترجع له عند الاختلاف وتزن مفاهيمها ونتائج أبحاثها بميزانه فإنها ستختلف ويشتد اختلافها. فمثلاً في المجال التاريخي نجد أن الروايات والمصادر تتفق على حدث تاريخي معين رغم اختلاف أديان أو مذاهب الرواة، لكنها لا تتفق في تفسير هذا الحدث وفلسفته. لأنه في رواية الخبر التاريخي وتدوينه ينقل الراوي ما شاهد أو ما سمع وتتفق الروايات إذا كان الرواة صادقين، أما في فلسفة هذا الخبر وتحليله فإن كل شخص يأتي بتفسير للحدث بناء على مفاهيمه وعقيدته وبيئته التي تربى فيها. فإذا لم يكن هناك مصدر موحد يرجع له في ضبط المفاهيم والأحكام والتفسيرات فستبقى البشرية في اختلافٍ عظيم، وأشد أنواع الاختلاف اختلاف المناهج والتصورات والقيم.

وإن الاهتداء بهدي الكتاب والسنة في منهج الكتابة التاريخية يعود على البحث والباحث بكثيرٍ من الفوائد.

١ - يورث للباحث جديةً في العمل وصفاء في الفكر واهتماماً بالكليات والأصول ويبعده عن الإغراق في الجزئيات والفروع التي تستغرق جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً في مناقشات قد لا تكون ذات قيمة.

٢ - توجيه الطاقات والقوى إلى جذور القضايا وأمهاات المسائل وبشكلٍ حاسم، ويتضح ذلك فيما قصه القرآن الكريم من تاريخ الرسل والأمم السابقة.

٣ - النظر في سنن الله في الأنفس والآفاق، والتأمل في أحوال الأمم عبر التاريخ وما وصلت إليه من الرخاء والتقدم وما انتهت إليه مصائرهما، وأسباب ذلك التقدم، وعوامل هذا الانهيار، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، وقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

٤ - جعل سعي الإنسان في طلب الأحسن والأقوم، والأخذ به هو هدفه ورائده كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

٥ - اهتمام الباحث بالقضايا الكبرى للأمة وأن يعمل جهده فيما يؤدي إلى رقيها وتقدمها، وبذلك تكون أبحاثه ودراساته مما يمس واقع الأمة واحتياجاتها الفعلية، وهذا أمر حيوي، ولا غنى للأمة عن مثل هذه الدراسات وإلا كانت أبحاثهم من باب الترف العلمي المجرد الذي يستهدف إشباع غريزة حب الاستطلاع أو حب الظهور.

٦ - الابتعاد عن الظنون والأوهام وتخليص الفكر من كل المبادئ والمعتقدات التي قامت على الظن أو التقليد، وعلى الأفكار والتصورات الجاهلية.

٧ - الابتعاد عن مصطلحات المتكلمين ومذاهبهم المختلفة وكافة

المصطلحات الأجنبية ذات المفاهيم المرتبطة بالوضع التاريخي المحلي الغريب عن تاريخنا، وذات المعاني غير المنضبطة والتي تحجب الرؤية الصحيحة عن القارئ.

فمصطلحات مثل: الديمقراطية، الاشتراكية، الإنسانية، المساواة، الحرية، الوطنية. لها دلالات ومفاهيم مرتبطة بقيم وتصورات المجتمع الذي نشأت فيه^(١). ونقلها إلى ثقافتنا الإسلامية وتاريخنا يعطي أحكاماً مضللة.

والمؤرخ ينبغي له أن يسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية وأن يحكم عليها حسب الميزان الشرعي.

ب - ممن يؤخذ العلم:

أخرج الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن محمد بن سيرين^(٢)

(١) فمثلاً مصطلح «الديمقراطية» من المصطلحات الأوروبية التي شاعت على السنة كثير من الكُتّاب والمؤلفين، ويستعملونها في زعمهم على ما تدل عليه لفظة الشورى، بينما لو نظرنا لتاريخ هذا المصطلح الذي جلبوه واستعملوه بدلاً من الشورى لتبين لنا بُعد ما بينهما.

يقول الكاتب الإنجليزي «برتراند رسل»: الديمقراطية كانت تعني حكم الأغلبية مع نصيب قليل غير محدد المعالم من الحرية الشخصية، ثم أصبحت تعني أهداف الحزب السياسي الذي يمثل مصالح الفقراء على أساس أن الفقراء في كل مكان هم الأغلبية. وفي المرحلة التالية أصبحت تمثل أهداف زعماء الحزب. وما هي الآن في أوروبا الشرقية وجزء كبير من آسيا يصبح معناها الحكم المستبد لمن كانوا يوماً ما نصراء للفقراء وأصبحوا اليوم يقصرون نصرتهم هذه للفقراء على إيقاع الخراب بالأغنياء إلا إذا كان الأغنياء من الديمقراطية بالمعنى الجديد. العقل والمادة ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) هو الإمام الرباني محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك، وُلِدَ في خلافة عثمان بن عفان وسمع جمعاً من الصحابة، كان فقيهاً إماماً غزير العلم، ثقة، ثبتاً، علامة في التعبير - أي: تعبير الرؤيا - رأساً في الورع، كانت وفاته بعد =

قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(١) فنظرة المسلم إلى العلم على أنه عبادة من العبادات توجب عليه الاحتياط والتثبت في تلقي العلم وأن لا يأخذ إلا عن الثقات في دينهم وعقيدتهم، خاصة فيما يختص بحقائق العقيدة، أو التصور العام للوجود، أو بالخلق والسلوك أو القيم والموازين أو النظم الإسلامية أو ما يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني، أو بحركة تاريخه، فلا يجوز للمسلم أن يتلقى العلم في هذه الأمور إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه.

أما غير المسلم فلا يؤخذ عنه العلم في هذه الأمور ولا كرامة، بل لقد حذرنا الله أشد التحذير عن الأخذ والتلقي من الكفار بكافة طوائفهم ومللهم وبين لنا مصدر الهدى الذي نتلقى منه، فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعَتِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩).

وقال تعالى: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ أَن يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧).

= وفاة الحسن البصري بوقت يسير في سنة ١١٠هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٧٧/١.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٨٤/١.

وقال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ [آل عمران: ٦٩].

فهذه الآيات إخبارٌ من الله تعالى عن موقف الكفار من الأمة الإسلامية وتحذير لنا من الركون إليهم، أو حتى إحسان الظن بمواقفهم تجاهنا. بل إنها تستجيش فينا مشاعر الحمية للحق وتوقظ قلوبنا وتدعوها للحذر الشديد أثناء التعامل معهم وعدم الطمأنينة لهم، وهذا هو مقتضى الولاء والبراء الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «أَوْثَقُ عَرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»^(١).

وموقف الكفار هذا من المسلمين لم يكن في فترة تاريخية من الزمن ثم تنتهي، بل هو موقف ثابت دائم ما داموا على الكفر وما دما على الإسلام. كما هو دلالة الآيات السابقة ودلالة الوقائع التاريخية عبر الزمن المتطاوّل منذ أن كان هناك كفر وإيمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... لأن من طبيعة الفسق أنه لا يقبل بوجود الحق ولا يستطيع المعاشة معه كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ [المائدة: ٥٩] فطالما أن هذا هو موقفهم وهذه هي توجهاتهم نحو الأمة المسلمة فإن كل مسلم عاقل يحترم عقله ودينه لا يقبل التلقي منهم في أصول عقيدته ولا مقومات تصوره ولا منهج تاريخه ولا نظام حكمه أو سياسته أو مجتمعه وعاداته وتقاليده^(٢).

(١) رواه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ص ٤٩. وقال الألباني: حديث حسن، أخرجه الطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرک.

(٢) بل لقد بحث العلماء حكم السفر إلى بلد المشركين والإقامة بينهم فضلاً عن التلقي والأخذ عنهم، ولهم قيود على ذلك موضحة في مظانها. انظر على سبيل المثال: رسالة الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، حكم موالاة أهل الإشراك، وحكم السفر إلى بلاد الشرك ص ٣٧٧ - ٣٩٣، =

يقول وليم جيفور بالكراف: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»^(١). ويقول المبشر تكلي: «يجب أن نشجع إنشاء المدارس وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي، وإن كثيرين من المسلمين تزعزع اعتقادهم حين تعلموا اللغة الإنجليزية»^(٢). وإن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس - يعني القرآن - أمراً صعباً»^(٣) فهذه نماذج من شهادتهم وخططهم التي يعدونها لإخراج المسلمين عن دينهم فهل يحق لنا بعد هذا أن نأخذ عنهم ونثق فيهم...

ثم هم جهلاء لا علم عندهم في هذه الأمور التي ذكرناها وذلك بشهادة رب العالمين وتقريره ذلك في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿أَفَن يَعْلَمُونَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَئِذَا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، فيقرر ﷺ في هذه الآية^(٤) أن الذين لا يستجيبون للحق هم عمي وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون، وأن الذين يستجيبون له، هم أولو الألباب الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله.

= منشورة ضمن مجموعة التوحيد، وأيضاً كتاب الولاء والبراء في الإسلام للدكتور محمد بن سعيد القحطان فإنه مهم.

(١) أ.ل. شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي ص ٩٤، ترجمة محب الدين الخطيب، ومساعد اليافي.

(٢) تعلّم اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات بقصد معرفتها، لا يوصل إلى هذه النتيجة إلا إذا كان تعليمها موجهاً لهذا القصد. وهذا هو الحاصل في أغلب معاهد تعليم اللغات، والكتب الخاصة بتعليمها حتى في مدارس المسلمين مع الأسف.

(٣) محمد أمين المصري، المجتمع الإسلامي ص ٨٦.

(٤) راجع تفسيرها في: تفسير القرآن الكريم لابن كثير ٣٧١/٤ - ٣٧٢، وانظر: الظلال ٢٠٧٤/٤.

«وإن الإنسان ليجد مصداق ذلك في كل من يلقاه من الناس معرضاً عن هذا الحق. وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عمياً كما قرر الباري جل جلاله فإنه لا ينبغي للمسلم أن يتلقى العلم ويأخذه عن مَنْ هذه صفته، وبخاصة إذا كان ذلك العلم متعلقاً بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان أو القيم والموازن التي تقوم عليها الحياة، أو بالسلوك والتقاليد والآداب التي تسود المجتمع المسلم، وهذا هو موقف المسلم من نتاج الفكر غير الإسلامي بجملته فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية. وأنه لا ينبغي لمسلم يعرف هدى الله ويعرف الحق الذي جاء به الرسول ﷺ أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من إنسانٍ لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق، وأن هذا الدين جد لا يحتمل الهزل وحزم لا يحتمل التميع وحق في كل نص فيه، وفي كل كلمة»^(١).

ج - أهداف تلقي العلم:

في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٢) الحديث.

ولما كان مدار الأعمال على المقاصد والغايات فإن النية تصحح العمل أو تفسده، ولذا وجب أن يرتبط تلقي المسلم للعلم بهدف محدد وغاية واضحة. وأن يحاول تحقيق شرطي العمل الصالح فيما يتعلمه وهما الإخلاص والصواب^(٣).

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ٤/٢٠٧٤ بتصرف.

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه ص ٢٥.

(٣) هذان الشرطان مأخوذان من قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، كما أوضح ذلك الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية من سورة الكهف. انظر: تفسيره ٥/٢٠٠.

فالإخلاص أن يبتغي الإنسان بعمله وجه الله وحده، ولذا جاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(١).

أما الصواب فهو متابعة الرسول ﷺ ولزوم سنته، ودليله الحديث الصحيح الذي روته عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

ولقد مرَّ معنا في مبحث مفهوم العلم طائفة من أقوال علماء السلف الصالح حول فهمهم لمعنى العلم وأنه يقتضي العمل، وأن العالم لا يكون ربانياً حتى يعمل بما علم.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ذلك أن تلقي العلم للعمل به يثير في نفس المتعلم الحماس والاستعداد فيستنفر كامل طاقات نفسه ومواهبها. وبذلك يكون فهمه للأمر واستيعابه أكثر، فضلاً عن استظهاره للنصوص وحفظها للاستشهاد بها عند كل مسألة، وهذا الأثر لمنهج التلقي واضح في حياة السلف ومؤلفاتهم، حتى كثر فيهم الحُفَّاظ وصار ذلك من الألقاب الشائعة بينهم. وكان إتقانهم، في الحفظ واستظهارهم للمسائل عجباً. ولعل هذا مكن السر في إبداعهم وتأصيلهم للمسائل وشمول بحوثهم وتعدد تخصصاتهم وموسوعيتها رغم قلة الوسائل العلمية المتوفرة لهم^(٣).

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٨٥) ٤/٢٢٨٩.

(٢) رواه مسلم رقم (١٧١٨) ٣/١٣٤٤.

(٣) لقد توفر لنا في العصور الحديثة وسائل علمية متقدمة لم تكن متوفرة لهم، مثل: الطباعة، وأجهزة التصوير، والتسجيل، وحفظ المعلومات، وسهولة =

ومن المعلوم أن كل فرع من العلوم يختص بأهداف محددة يسعى لتحقيقها. ومع ذلك فإن بالإمكان أن نلخص الأهداف العامة التي يتوخاها المسلم في تلقيه للعلم على عموم المصطلح وشموله ويتمثل ذلك في:

١ - معرفة أحكام الشريعة: أوامرها ونواهيها، حلالها وحرامها والعمل بذلك ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة.

٢ - إعداد الإنسان المؤمن الذي يعرف وظيفته ودوره في هذه الحياة، وذلك بتنمية مواهبه واستعداداته وتوجيهها التوجيه السليم المتفق مع الفطرة^(١) ولتحقيق كامل إنسانيته بالعبودية لله وحده واتباع منهجه.

٣ - التفكير والتدبر في الكون وما حواه من سماوات وأرضين وكواكب ونجوم وعوالم متعددة، والنظر في السنن الربانية، وقوانين التآلف والانسجام في هذا الكون، لمعرفة عظمة خالقه ومبدعه وعظيم منته على خلقه، والاستفادة من ذلك في واقع الحياة واستمرار الخلافة في الأرض.

٤ - الاطلاع على معالم تاريخ الأمة الإسلامية عبر الأزمان المتطاولة والمتمثل في تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من لدن آدم إلى محمد ﷺ مع معرفة مواقف الجاهليات تجاههم. فإن في معرفة ذلك عبرة وعظة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

= المواصلات والاتصالات، ورغم هذا لم نصل منزلتهم في العلم والحفظ. ولعلّ بعض هذه الوسائل كان سبباً في ذلك حيث اعتمدنا عليها وتركنا الحفظ.

(١) قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». البخاري ٢١٩/٣.

د - وسائل تلقي العلم:

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ﴿[النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿[الملك: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فمن نعمة الله ﷻ أن زود الإنسان بهذه الوسائل والقدرات اللازمة لتلقي العلم والمعرفة.

ثم تفضل عليه مرة أخرى فعلمه ما لم يكن يعلم وأرسل له الرسل وأنزل معهم الكتب. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿[البقرة: ٣١، ٣٢].

وهكذا فالتعليم هبة من الله فهو الخالق لهذا الكون ولهذا الإنسان، وهو الواهب له هذه القدرات والوسائل، وهو الذي علّمه عن طريق رسله ما يُصلح حياته ويُقوّم فطرته ويُمكنّه من تحقيق عبوديته لله، ويُبَعِّده عن ضلالات البشرية وانحرافات المتماثلة في الأفكار والفلسفات والنظم الجاهلية التي قَطَعَتْ صلتها بالله وكُتِبَتْ ورُسِلَ.

وهذه الوسائل من السمع والبصر والفؤاد (العقل) مشتركة بين البشرية كلها مسلمها وكافرها لكن المسلم يتميز عن غيره بالمصادر الربانية التي تصحح له فكره واتجاهاته، ويزن على هداها نتائج تجاربه وأبحاثه واستقراءاته وقياساته. كما يتميز عن غيره بأهدافه في تلقي العلم إذ يسعى إلى مرضاة الله وتحقيق العبودية له وتطبيق المنهج الرباني في واقع الحياة.

ولأجل ذلك فإن المسلم أقدر من غيره على استخدام وسائل

المعرفة الاستخدام المثمر الصحيح الذي يوصل إلى نتائج علمية مستقيمة لأنه - مع توفيق الله له بسبب استقامته على أمر الله - يعرف كيفية استخدام وسائل المعرفة الاستخدام الصحيح، وفق الوظائف التي خلقت لها ويحافظ عليها ويصونها ولا يستعمل ما يؤدي إلى تعطيلها كلها أو بعضها. ولهذا جاء في الأثر: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(١).

أما غير المسلم فإنه يتسبب بأعماله في تعطيل بعض هذه الوسائل فلا تؤدي وظيفتها كما ينبغي يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. وفي تفسيرها - قال رسول الله: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نُكْته سوداء في قلبه. فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت فذلك قول الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم...﴾ الآية [المطففين: ١٤]»^(٢).

وقال تعالى عن اعتراف الكفار يوم القيامة بأنهم لم يستخدموا هذه الوسائل الاستخدام الصحيح ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] أي: لو كنا نسمع سمع من يعي ونعقل عقل من يميز ولذلك قال في الآية التي بعدها: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا

(١) رواه الترمذي مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّينَ﴾ (٧٥). وقال: حديث غريب. انظر: تحفة الأحوذى ٥٥٥/٨، وفي سنده عطية العوفي وهو ضعيف. انظر: جامع الأصول ٢٠٦/٢، وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير ٨٧/١، لكن مفهوم الآية يشهد لمعناه.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. انظر: تحفة الأحوذى شرح الترمذي ٢٥٤/٩، ورواه أحمد في المسند ٢٩٧/٢. وانظر في تفسير الآية: ابن كثير ٣٧٢/٨ - ٣٧٣.

يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَأَلَنَقَمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهؤلاء لما عطلوا وسائل المعرفة عن وظيفتها التي خلقت لها شبههم الله بالأنعام العجماوات، بل جعلهم أضل وأحط درجة ومنزلة، ذلك أنهم عطلوا وسائل المعرفة عن وظيفتها الصحيحة وهي معرفة الخالق وإفراده بالعبادة ولزوم شريعته.

والمعاصي - فضلاً عن الكفر - تحجب الرؤية الصحيحة حتى تنتكس المفاهيم والتصورات فترى المعروف منكراً والمنكر معروفاً كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً»^(١) فأَيُّ قلب أُشْرِبَهَا^(٢) نُكِتَ فِيهِ نَكْتَةٌ^(٣) سوداء وأي قلب أنكرها^(٤) نكت فيهِ نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً^(٥) كالكوز مجخياً^(٦) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ^(٧).

ولقد ضبط العلماء المسلمون طرق الحصول على العلم سواء كان التلقي عن طريق السمع والرواية وهو النقل بدرجاته المعروفة، كالأخبار المتواترة والمستفيضة، أو الآحاد سواء كان نقلتها ثقات أم ضعفاء. ولعلماء الحديث في هذا الشأن جهد بارع بلغ الغاية في التدقيق والتحقيق وقد ضبطوا طرق التحمل^(٨) ونقل العلم من جيلٍ إلى جيلٍ.

(١) أي: مرة بعد مرة وهو بضم العين. (٢) أي: دخلت فيه وأحبها.

(٣) أي: نقط نقطة. (٤) أي: ردها.

(٥) كناية عن شدة السواد. (٦) أي: مائلاً ومنكوساً.

(٧) انظر: صحيح مسلم ١٢٨/١ - ١٢٩.

(٨) عن طرق التحمل والأداء. انظر: ابن كثير، اختصار علوم الحديث بشرح =

أو كان التلقي عن طريق الاستنباط والنظر مثل السير في الأرض بقصد التدبر والتفكير والاطلاع على عجائب قدرة الله، ومثل إجراء التجارب للكشف عن القوانين العلمية، أو كان عن طريق الاستقراء والتتبع في محاولة للوصول إلى قواعد علمية مقننة، فكل هذه الطرق تؤدي للحصول على العلم والمعرفة، وينبغي ترشيد استخدام الوسائل التي زود بها الإنسان والحفاظ عليها باتباع المنهج الرباني الذي يصلحها، لتحقيق على هداه أقصى ما يمكن أن يحققه.

مفهوم التاريخ وثمرة دراسته

مصطلح التاريخ ودلالته:

التاريخ لغة: هو الإعلام بالوقت. قال الجوهري^(١): «التاريخ تعريف الوقت والتورix مثله يقال أرّخت وورّخت»^(٢).

وقد فرّق الأصمعي^(٣) بين اللغتين فقال: «بنو تميم يقولون: ورّخت الكتاب تورixاً. وقيس تقول: أرّخته تأريخاً»^(٤).

وهذا القول من الأصمعي يؤكد أن لفظة التاريخ عربية أصيلة وليست معربة عن الفارسية كما ذهب إلى ذلك بعضهم^(٥)، وقيل: إن أصلها «ماه روز» «وماه» بالفارسية تعني القمر «وروز» تعني اليوم.

وبعضهم قال: إن أصل كلمة تاريخ سرياني^(٦). ومعناه الشهر.

أما تعريف التاريخ في الاصطلاح فقد اختلفت عبارات العلماء

(١) هو إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، إمام العربية، كان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلماً، له مصنفات أشهرها: كتاب الصحاح في اللغة، واعتزته في آخر حياته وسوسة فصعد إلى سطح جامع نيسابور وعمل لنفسه جناحين وحاول الطيران فسقط ميتاً، وقد كانت وفاته سنة ٣٩٨هـ. انظر: ياقوت، معجم الأدباء ١٥١/٦.

(٢) الجوهري، الصحاح، مادة (أرخ) ٤١٨/١.

(٣) ستأتي ترجمته في فصل الأخباريين.

(٤) السخاوي، الإعلان بالتويخ ص ٦. (٥) السخاوي، مصدر سابق.

(٦) راجع عبد الحميد العبادي، علم التاريخ عند العرب ص ٣٤.

المسلمين في تحديد تعريف له، ولعل ذلك راجع إلى كثرة الموضوعات التي تدخل في مفهوم التاريخ.

ومن الملاحظ أن المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية لم يدونوا تعريفاً كاملاً ومحدداً لعلم التاريخ، وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه. ومن المعلوم أن العلم قد يُعرّف ببعض أنواعه، أو أمثله، أو بذكر غاياته.

قال خليفة بن خياط: «هذا كتاب التاريخ. وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عِدَدِ نسائهم ومحل ديونهم»^(١) وقال: قريباً من هذا الطبري في مقدمة تاريخه^(٢). أما أول من حاول أن يضع تعريفاً محدداً لعلم التاريخ - فيما اطلعت عليه - فهو عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ حيث يقول في مقدمته: «التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمرها الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبايها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق»^(٣).

لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها وحاول اكتشاف السنن التي تنتظمها، وأكد على بدايات الحوادث وقيام الدول وتعليل سقوطها.

أما المقرئزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ فقد عرّف التاريخ ببيان موضوعه

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٩. (٢) تاريخ الطبري ١/ ٤ - ٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣، ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

فقال: «الإخبار عما حدث في العالم في الزمان الماضي»^(١).

كما عَرَفَه محمد بن سليمان الكافيجي^(٢) المتوفى سنة ٨٧٩هـ بقوله: «هو علم يُبْحَثُ فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته»^(٣).

كما عَرَفَ المؤرخ الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي التاريخ بقوله: «هو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال، من مولد الرواة والأئمة، ووفاة وصحة، ورحلة وحج، وحفظ وضبط، وتوثيق وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور مُلِمَّة، وتجديد فرض وخليفة ووزير، وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق، وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة ومقدماتها»^(٤).

إلى أن قال: «والحاصل أنه فَنُّ يُبْحَثُ فيه عن وقائع الزمان من حيث التعيين، والتوقيت. بل عما كان في العالم»^(٥).

وقال: «أما موضوعه فالإنسان والزمان»^(٦).

(١) انظر: فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٦.

(٢) هو محمد بن سليمان بن سعد الرومي الحنفي، اشتهر بمصر، ولازمه السيوطي أربعة عشر عاماً، وعرف بالكافيجي لكثرة اشتغاله بالكافية في النحو، له تصانيف كثيرة أغلبها رسائل منها: المختصر في علم التاريخ، كانت ولادته سنة ٧٨٨هـ ووفاته سنة ٨٧٩هـ. انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ١٥٠.

(٣) المختصر في علم التاريخ ص ٣٢٧.

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٧.

(٦) المصدر نفسه.

(٥) المصدر السابق.

فتعريف السخاوي لا يبعد كثيراً عن تعريف الكافيجي، غير أنه ركّز على مفهوم التاريخ عند علماء الحديث. وذلك بالنص على «علم أحوال الرجال» وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم.

وفي العصر الحديث عرّفه سيد قطب، بغايته فقال: «التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان»^(١).

ولقد اهتم هذا التعريف باللبّ والغاية من دراسة التاريخ وتدوين أخباره، وإلا فالحوادث والأخبار مهمة بلا شك، وهي لبنات البناء التي لا يقوم هذا العلم بدونها. وهذا التعريف قريب من تعريف ابن خلدون. لكن يبدو أن تعريف ابن خلدون أشمل حيث نص على وجوب النظر في الأخبار وتحققها كما أكدّ على النظر في العلل والأسباب إلا أنه ينحو منحى فلسفياً. في حين أن سيد قطب، كان أوضح في إدراك غاية التاريخ حسب المنظور الإسلامي.

فالحاصل أن التاريخ عِلْمٌ نظري إنساني، يُبَحِّثُ فيه عن حوادث الزمان، من حيث التعيين، والتوقيت، والتفسير، والتعليل. ويشمل جانبين هما:

١ - نقل الحدث بالرواية أو المشاهدة

٢ - تعليله.

أهداف دراسة التاريخ وثمرته:

التاريخ فرع من فروع العلم، وقد صنّفه العلماء الذين كتبوا في

(١) سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٣٧.

مراتب العلوم ضمن العلوم التي تخدم الشريعة الإسلامية^(١).

يقول ابن عبد البر النمري^(٢): «ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم ﷺ. ويعنى بسيرهم وفضائلهم، ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم، حتى يقف على العدول منهم من غير العدول»^(٣).

كما أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية وعلى أيدي رجال الحديث^(٤). وصلته بالشريعة وخدمته لها واضحة سواء في ميدان التربية والسلوك، أو في ميدان علم الرجال والجرح والتعديل. ولهذا قيل: «لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ»^(٥) فهو وسيلة من الوسائل التي استخدمها علماء السنة لمعرفة صدق الرواة من كذبهم.

قال سفيان الثوري: «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ»^(٦)، ولذلك اعتنى كبار المحدثين مثل البخاري، ومسلم، وأحمد بن حنبل، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والترمذي، بجوانب من علم التاريخ وصنفوا كتباً في ذلك.

(١) انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم ص ٤، ٥، حيث جعل علم الأخبار من العلوم الملحقة بعلوم الشريعة.

(٢) هو الإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي أبو عمر، ولد سنة ٣٦٨هـ، وساد أهل زمانه في الحفظ والإتقان، له كتب كثيرة منها: التمهيد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغير ذلك. كانت وفاته بمدينة شاطبة بالأندلس سنة ٤٦٣هـ. انظر: تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٨.

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ص ٤٦٦.

(٤) كتب الدكتور بشار عواد رسالة لطيفة بعنوان: «أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين» طبعت في بغداد سنة ١٩٦٦م.

(٥) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص ٩، وهو من قول حماد بن زيد بن درهم البصري المتوفى سنة ١٧٩هـ.

(٦) نفس المصدر السابق.

وطالما أن علم التاريخ بهذه المنزلة من عناية العلماء به وخدمته للشرعية الإسلامية فإنه ينبغي على دارسه أن يتحرى الإفادة منه وأن يتلقى تعليمه على منهاج سليم.

ولدراسة التاريخ فوائد وثمرات متعددة، يقول ابن الأثير: «ومن رزقه الله طبعاً سليماً وهذا صراطاً مستقيماً علم أن فوائدها^(١) كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة»^(٢).

ولقد ازدادت أهمية التاريخ في العصر الحديث، واستخدم أداة لتوجيه الشعوب وتربيتها، كما استعان به أصحاب المذاهب الفكرية في فلسفة مذاهبهم وتأييدها، وإيجاد سند تاريخي لها. بل إن الأوروبيين ينظرون له نظرة تقديس وإجلال، ويطلبون منه تفسير الوجود وتعليل النشأة الإنسانية.

ولما كان المرء المسلم لا يطلب العلم إلا لغاية وهدف يخدم دينه وعقيدته، فإنه لا بد أن يحدد ما هي الأهداف والثمرة المرجوة من دراسته للتاريخ. وهل يكون ذلك لمجرد المعرفة، أو التسلية، أو حفظ الحكايات والأخبار، أو إشباع رغبة وغريزة حب الاستطلاع. إن دراسة التاريخ بوجه عام وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص لا ينبغي أن يكتفى في دراسته بتحقيق هذه الرغبات والحاجات القريبة. لأنه علم أجل من أن ينظر له هذه النظرة، وإلا لَمَا ذكر الله ﷻ تاريخ السابقين وقصص النبيين في القرآن الكريم الذي هو كتاب هداية وإرشاد.

إن لدراسة التاريخ ثمرات وفوائد متعددة سوف نوجزها في النقاط

التالية:

(١) أي: فوائد التواريخ.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٦/١.

١ - الأهداف التربوية:

إن وظيفة المسلم في هذه الحياة هي تحقيق العبادة لله ﷻ بمفهومها الشامل لكافة جوانب النشاط البشري، وبحقيقتها التي هي كمال الخضوع لله مع كمال المحبة. فالعبودية لله هي الهدف النهائي للتربية. ودراسة التاريخ مجال واسع لتحقيق هذا الهدف وذلك بما فيه من العبر والعظات والأسوة الحسنة فيمن يقتدى بهم مثل الأنبياء ﷺ، فإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَرُهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال للمؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وكذا الأسوة بالخلفاء الراشدين لقول رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»^(١). وكذا الاقتداء بالعلماء العاملين، والدعاة المصلحين، في صبرهم، وجهادهم، وتحملهم المشقة في سبيل نصره العقيدة..

فدراسة التاريخ الإسلامي وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلامية وسير العلماء، والمجاهدين، والقادة، من سلفنا الصالح إذا أُحْسِنَ عرضها وأبرزت خصائصها وبطولات رجالها وأوضح الدور الذي قامت به الأمة الإسلامية في سبيل هداية البشرية إلى الحق، إذا أُحْسِنَ عرض ذلك للناشئة فإنه يبعث فيهم روح الجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، والزهد في هذه الحياة الفانية مع العمل المثمر البناء، والتمسك بالإسلام، والاعتزاز بتعاليمه ورجاله وتاريخه. كما أن ذلك ينمي فيهم روح الولاء لله ولرسوله وللأمة الإسلامية. وأيضاً فإنه

(١) رواه أبو داود ٢٠١/٤، والترمذي ٤٤/٥ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد بن حنبل في المسند ١٢٦/٤. وانظر: شرحه في جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الحنبلي ص ٢٤٣.

يدفع همهم إلى معالي الأمور ويكشف عن طاقاتهم المذخورة ويستثمرها.

فاستخدام التاريخ في المجال التربوي من أنفع الوسائل لتربية الأجيال. والتربية بالأحداث من أهم الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم والرسول ﷺ، في إقرار الموازين والقيم، ونَظَرَةً إلى التعقيبات القرآنية على غزوة أحد في آخر سورة آل عمران^(١) تكفي للدلالة على أهمية استخدام التاريخ في التربية وعظيم الثمرة التي تجنى من وراء ذلك.

يقول الدكتور محمد أمين المصري: «لدراسة التاريخ قيمة تربوية من حيث تأثيرها في عقل الدارس وإكسابه عادات خاصة في التفكير فتنشأ لديه العادة التاريخية في تناول الحقائق، والأسلوب التاريخي في التفكير فيها. لأن التاريخ طريقة بحث تقوم على النقد والمقابلة والتحقق ووزن قيم الأدلة وربط السبب بالنتيجة مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها»^(٢).

٢ - إدراك السنن الربانية:

من أهم ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السنن الربانية في الكون فإن الله سنناً في خلقه، أرشدنا إليها وطلب منا التعامل معها، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال: ﴿فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

(١) من الآية ١٢١ وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران] إلى الآية ١٨٠، وراجع تفسير الحافظ ابن كثير ٩٠/٢ وما بعدها، وسيد قطب في ظلال القرآن ٤٥٧/١ وما بعدها.

(٢) لمحات في التربية ص ٢٢٨.

فالمطلوب من المسلم هو التعرف على هذه السنن الربانية .
والتاريخ بما يحوي من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة
يساعد على كشف هذه السنن التي هي غاية في الدقة والعدل والثبات .
وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتى لو لم نقدر على تفادي
حدوثها والنجاة منها حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في
الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث، فإن الذي يعلم تكون لديه
بصيرة وطمأنينة أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق .

والسنن الربانية نوعان: سنن خارقة، وسنن جارية:

فالسنن الخارقة: هي التي يجريها الله على خلاف المألوف على يد
رسول من رسله تأييداً من الله له بتلك المعجزة . كما حوّل العصا حية في
يد موسى^(١) وكما أنبع الماء من الصخرة عندما ضربها موسى بعصاه^(٢)
وكما شق القمر نصفين معجزة لرسول الله ﷺ^(٣) .

والسنة الجارية نوعان: سنة متعلقة بالأمور الطبيعية، كسنة الله في
تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر، فهي تجري وفق ناموس محدد
قدّره الله لها .

وسنة متعلقة بدين الله وأمره ونهيه، ووعده ووعيده^(٤) . فهي ثابتة لا
تتبدل، مثل نصره لأوليائه، وإهانته لأعدائه، كما أنه ﷺ إذا حكم في

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ ۖ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَخَىٰ﴾ [طه: ١٩ - ٢٠] .

(٢) قال تعالى في سورة البقرة، الآية ٦٠: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا﴾ .

(٣) رواه البخاري من حديث ابن مسعود، وابن عباس، وأنس، ولفظ رواية ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» . انظر: فتح الباري ٦١٧/٨ .

(٤) للإمام ابن تيمية رسالة بعنوان: «لفظ السنة في القرآن» منشورة ضمن «جامع الرسائل» بتحقيق محمد رشاد سالم، فراجعها إن شئت .

الأمر المتماثلين بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول. فهو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل. كما أن من سنته التفريق بين المختلفين كما دل على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

يقول ابن تيمية: «ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها. لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن»^(١)، فهذه السنن الشرعية إنما تدرك من خلال النظر في التاريخ وملاحظة مصائر الأمم وقيام الحضارات وسقوطها وأسباب ذلك.

«والسنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات»^(٢).

«كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياءه ورسوله»^(٣).

والسنة الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة في الواقع، في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك فقد لا يرى السنة متحققة في الواقع، بل قد يرى الإنسان جانباً من السنة الربانية ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما قد يدفعه إلى عدم إدراك السنة أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية لا بد أن تقع ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد بل ربما أطول من أعمار أجيال متتابعة، فإنها ترى متحققة من

(١) ابن تيمية، جامع الرسائل ص ٥٥.

(٢) عماد الدين خليل، تفسير التاريخ ص ١٠٩.

(٣) المصدر السابق ص ١١١.

خلال التاريخ الذي يثبت أن سنة الله ثابتة لا تتبدل كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فمن خلال دراسة التاريخ يعلم الإنسان أن الحاضر الذي يعيشه - إذا كان فيه ما يتصور أنه مخالف لسنة الله^(١) الشرعية - غير مستثنى من السنة الربانية بل هو جزء منها ولكن للسنة الربانية أجل ووقت محدد. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [الأنعام: ٦].

قال سيد قطب عند تفسير هذه الآية: «هناك حقيقة ينساها البشر حين يُمكن الله لهم في الأرض، ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليلبّوهم فيه، أيقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده، أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدّعي حقوق الإلهية وخصائصها، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون على غير سنة الله، ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف.. ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون حتى يستوفي الكتاب أجله ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية.

فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام.

ومرة بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين.

ومرة يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضهم بعضاً ويدمر بعضهم بعضاً، ويسلط الله عليهم عباداً له - طائعين أو عصاة - يخضدون شوكتهم.

(١) كما هو واقع في عصرنا الحاضر من التمكين المادي والتقدم الصناعي للدول الكافرة مع انحطاط المسلمين وتأخرهم مادياً.

ثم يستخلف الله العباد الجدد لبيتليهم بما مكنهم، وهكذا تمضي دورة السنة، فالسعيد من وعائها، والشقي من غفل عنها.

وأنه لِمَمَّا يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي أو الملحد الكافر ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون، إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق، لأن السنة تستغرق وقتاً طويلاً، لكنها تلاحظ من خلال التاريخ^(١).

وهذا المعنى جاء مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، فقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء عندما نسوا ما ذكروا به من أوامر الله ونواهيه. فلما فرحوا بهذا الفتح وهذا الرزق أخذهم الله بغتة، فإدراج الرزق عليهم كان من باب الاستدراج قال تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُتَهُمْ رُؤُسُ﴾ [الطارق: ١٧]، وقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري: «إن الله ﷻ يملئ للظالم فإذا أخذه لم يفلته»^(٢)، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وهذه الأبواب التي تفتح للكافرين هي من تمام عدل الله الذي يقضي بأن يعطي كل عامل جزاء عمله. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] فإنهم لما عرفوا القوانين المادية للتقدم نالوا ثمرة جهدهم في الحياة الدنيا، مع أنه لن يكون مثل رخاء المؤمنين المستقيمين على منهج الله وطمأنينة نفوسهم، بل هو رخاء

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ١٠٣٧/٢ - ١٠٣٨.

(٢) رواه البخاري ومسلم وهذا لفظ مسلم. انظر: صحيحه ١٩٩٧/٤ حديث رقم (٢٥٨٣).

موبوء، كله آفات، اختلال اجتماعي، وانحدار خلقي، وإهدار لكرامة الإنسان وقيمته المعنوية في مقابل المادة. ونظرة فاحصة في أحوال المجتمعات الجاهلية في عالمنا المعاصر ترينا ذلك واضحاً.

ومن الملاحظ أن ثبات السنن الربانية يقابله ثبات في طبيعة الإنسان وخلقته.

فالحوافز الإنسانية لم تتغير منذ أن خلق الله آدم ﷺ. كما أن دوافع الإنسان الفطرية لم تزل قائمة كما كانت في الماضي، وما يُصلحُ البشر في الماضي هو الذي يصلحهم في الحاضر.

ونورد فيما يلي بعض السنن الربانية على سبيل المثال:

(أ) سوء عاقبة المكذبين:

فالذين يكذبون بآيات الله ورسله ويظلمون ويعيثون في الأرض فساداً وعدهم الله بسوء العاقبة، قال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ ﴿٢٧﴾ وَعَادًا وَثُمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۖ ﴿٢٨﴾ وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمَثِلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ۖ ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

فما جرى من تحقق هذه السنة في الماضي سيجري مثله في الحاضر والمستقبل لكل من أعرض عن ذكر الله وشرعه، ومن فضل الله على الناس وعدله فيهم أن يبقي نعمته المادية والمعنوية عليهم كالأمن والاستقرار، والرزق الوفير، والصحة، إلى غير ذلك إذا هم شكروه على ما أعطاهم ولم يتجبروا ويتسلطوا، ولكنه يسلبهم إياه بعدله وقدرته إذا هم عصوا وجحدوا وبدلوا نعمة الله كفرًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لِيْنِ شُكْرُكُمْ لَا زِيْدَ لَكُمْ وَلِيْنِ كُفْرُكُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيْدٌ ۖ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ۖ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

(ب) أن البشر يتحملون مسؤوليتهم في الرقي والانحطاط، وفي اتباع الخير أو الشر.

حيث إنهم قد منحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك جاءهم رسل الله بالهدى من عنده. فإذا وجدت الأسباب فإن النتائج تتبعها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فالتغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى أو بالانكسار والهبوط إلى أسفل، وهذه السنة الربانية في تغيير النفس والمجتمع مهمة جداً وتحتاج إلى دراسة نفسية واجتماعية^(١)، وهي تعطي للباحث التاريخي مشكاة يستضيء بها في دراساته وأبحاثه، وهي سنة اجتماعية يستفيد منها المربي والمصلح، ويلاحظ أن في الآية ترتيباً إذ إن حدوث التغيير من الله مترتب على حدوثه من البشر، سواء في السلب أو الإيجاب، وهذا الترتيب يضع البشر أمام مسؤوليتهم في أحداث التاريخ. وهذه السنة لا يمكن إدراكها إدراكاً صحيحاً إلا باتباع المنهج الرباني لأن هذا المنهج يجعلك تنال خير السنة وتدرك العلاقة السليمة بين الأحداث التاريخية، ذلك أن خير السنة لا ينال إلا بالهدى، والهدى لا يكون إلا عن طريق الرسل وما أنزل إليهم من ربهم. قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

(ج) مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلى الرخاء، ومن الرخاء إلى الشدة.

وهذا اختبار وامتحان لكي يتميز الصابرون في المحن والضراء، والشاكرون في النصر والرخاء، من أولئك الذين تطغيهم الشهوات أو لا يصبرون على الضراء، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ

(١) كتب الأستاذ جودت سعيد رسالة بعنوان: «حتى يغيروا ما بأنفسهم» ركّز فيها على بحث القضايا النفسية والاجتماعية وسنن تغيير المجتمعات.

فَرَحَ مِثْلُهُ وَتَلَكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(د) زوال الأمم يكون بالترف والفساد.

فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت في الأرض وأصابها البطر والكبرياء، هيا الله لها أسباب الانهيار والزوال قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ بِالْعِمَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] أي: أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي، فعصوا وفسقوا، فحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم. وفي قراءة «أمرنا»^(١) بالتشديد؛ أي: جعلناهم أمراء. والترف وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه إلا أنه حالة نفسية ترفض الاستقامة على منهج الله، وليس كل ثراء ترف.

(هـ) أن هلاك الأمم يكون بفسو الظلم وعدم إقامة العدل.

فلقد أمر الله ﷻ بالعدل وحرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(٢).

فإذا اختلت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكم الأقوياء في الضعفاء، وقسم المجتمع إلى سادة وعبيد، وأخذ الأقوياء يتلاعبون بحدود الله على هواهم فقد آذنتهم الله بالهلاك ووقعت القاصمة. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٥/٥٨.

(٢) رواه مسلم. انظر: صحيحه ٤/١٩٩٤ حديث رقم (٢٥٧٧).

﴿١١﴾ [الأنبياء: ١١]، وقال ﷺ: «إنما أهلك الذين قبلكم. أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١).

(و) انهيار الأمم وزوالها يكون بأجل.

فقد يرى الناس موجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من الأمم ثم لا يرون تحقق زوالها بأنفسهم. وقد أوضحنا في أول الكلام عن السنن أن سنة الله لا تتخلف لكن عمرها أطول من عمر الأفراد، ولا تقع إلا بأجل محدد لا بد من استيفائه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٣].

(ز) استحقاق المؤمنين لنصر الله.

فقد قضى ﷺ بأنه ينصر أولياءه المؤمنين إذا قاموا بشرط استحقاق النصر، وهو الاستقامة على منهج الله، وتحكيم شريعته، واتباع رسله. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧٧]، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنْصِرْ أَقْدَامُكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَعْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وعوامل النصر موضحة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ
﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٧].

(ح) معرفة أن الابتلاء للمؤمنين سنة جارية.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ
قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ
اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصَرُ اللَّهَ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]. ويقول ﷺ فيما يرويه مصعب بن
سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟
قال: «الأنبياء»، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في
دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح
البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(١).

فهكذا جرت سنة الله في تمحيص المؤمنين وإعدادهم لينالوا بصبرهم
وثباتهم المنزلة العالية عند الله وليرفع درجاتهم بما يصيبهم من الأذى وبما
يحصل لهم من الشهادة في سبيل الله. فقد قال تعالى للمؤمنين بعد موقعة
أحد وهزيمتهم العسكرية فيها: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ
مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ
﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١] فوقوع الهزيمة في أحد كان سببه مخالفة طائفة
من المؤمنين لأمر رسول الله ﷺ وهم الرماة. وحب الدنيا من طائفة أخرى.

(١) رواه الترمذي ٦٠١/٤، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء،
وقال: حديث حسن صحيح. ورواه ابن ماجه برقم (٤٠٢٣)، والدارمي ٢/
٣٢٠، والحاكم ٤٠/١، وأحمد ١٧٢/١. وانظر لتصحيحه: صحيح الجامع
رقم (١٠٠٣)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٤٣).

ولكن كان في ذلك فوائد مهمة للجماعة الإسلامية مثل تربيتهم على الثبات في المحن، ومثل اتخاذ الشهداء، وتمحيص الأنفس واختبارها وتعريفها بسرائرها. والابتلاء من سنن الله الملحوظة عبر التاريخ فما من نبي إلا قد أودى وحورب، فمنهم من قُتل، ومنهم من أُلقي في النار، ومنهم من أخرج من أرضه، وكذلك أتباعهم نالهم من الأذى والقتل والتشريد صنوفاً. فلما نجحوا في الابتلاء وثبتوا على الحق تنزل عليهم نصر الله فأبدلهم من بعد خوفهم أمناً، ومكن لهم في الأرض وجعلهم هم الوارثون، وأشفى صدورهم في الدنيا بهزيمة أعدائهم وهلاكهم، فضلاً عما أعده الله لهم من الدرجات العلى في الجنة.

(ط) الصراع بين الحق والباطل.

من أهم السنن الربانية الجارية التي ينبغي على دارس التاريخ ملاحظتها.

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وأعظم معروف يؤمر به هو إخلاص العبودية لله، وإقامة شريعته، وأول منكر ينهى عنه هو عبادة غير الله من الطواغيت والأهواء والشهوات، والإعراض عن شريعته وعدم تحكيمها.

والأمر والنهي لا يتحقق إلا بجهد بشري يتقابل فيه الحق مع الباطل ويكون بينهما الصراع والتدافع، فإذا ثبت أصحاب الحق وصبروا وصابروا تحقق لهم وعد الله بهزيمة الباطل واندحاره. وهذا الصراع لا تنهيه معركة واحدة ولا حتى مئات المعارك، إنه يتخذ عدة أشكال ويمتد في مساحات

طويلة ومتعددة تجعل الإنسان يقضي حياته كلها في هذا الصراع، إلا أنه قد يهدأ في بعض الجوانب ويشتد في أخرى، وهكذا تمضي الحياة.

واستمراره يأتي من كثرة الأعداء، من الداخل والخارج، من النفس، والأقارب، والأموال، والأزواج^(١)، ومن الشيطان وجنوده، ومن الكفار.

ويأتي استمراره أيضاً من سُنة الله في إرادة تركيب الحياة بهذه الصورة. غير أن الإنسان مع هذا قد وُهبَ من القدرات والإمكانات والقوى ما يستطيع به - مع توفيق الله وهدايته - من السيطرة والانتصار. وإن كان الصراع بين الحق والباطل - كما أراد له الخالق سبحانه - لن ينتهي حتى تنتهي هذه الدنيا، إنه بدأ منذ أن خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له، أبى الشيطان أن يسجد له... فاحتال على آدم حتى أوقعه في المعصية... ولكن تاب إلى الله وقَبِلَ الله توبته ثم أهبط آدم إلى الأرض وكذلك الشيطان ليواصل حركة الصراع والعداوة مع ذريته، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

غير أن الله سبحانه لم يكل الإنسان إلى قدراته الذاتية فقط وإنما زوده بالوحي والهدى الذي يستعين به على تحقيق العبودية لله والتخلص من كيد الشيطان الذي يريد صرفه عن هذه العبودية ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى - محذراً بني آدم من غواية الشيطان وفتنته -:

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٤] إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ [التغابن: ١٤ - ١٥].

﴿يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْئِنَّاكَمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] ويستمر الصراع بين الأنبياء وأتباعهم وبين الشيطان وجنوده وتنقسم البشرية إلى فريقين اثنين، وإلى أمتين اثنتين، أمة الحق وأمة الباطل، أتباع الأنبياء يدعون إلى عبادة الله وحده وإلى الحكم بشريعته.

وأتباع الشيطان من الزعامات والجماعات الضالة يرفضون ذلك ويتمسكون بالعادات والتقاليد والأعراف الجاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

فالتدافع بين الحق والباطل سنة ربانية ملحوظة من خلال آيات الكتاب الحكيم ومن خلال الواقع البشري عبر التاريخ.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٨] إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ [هود: ١١٨، ١١٩]، تأمل هذه الآية الأخيرة وخاصة ختامها ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. ولكن ما الحكمة وما الهدف من هذه السنة وهذا التدافع، وما هو الصراع

المحمود الذي تركز عليه الآيات؟.. هل هو الصراع الذي بنيت عليه النظرية (الديالكتيكية) الهيجلية في مجال الأفكار وحركة العقل الكلي، حتى تصل إلى مرحلة «تجلي المتفرد» - كما يزعم - أو الصراع الطبقي في النظرية المادية عند ماركس والذي يفرضه «كما يزعم» تبدل وسائل الإنتاج حتى يبلغ سيطرة (البروليتاريا)^(١).

إن كثيراً من الفلاسفة قديماً وحديثاً يحلمون بالمدينة الفاضلة والعالم الذي يسوده السلام وينتهي منه الصراع، وكل منهم قد تخيل تلك المدينة حسب أفكاره وثقافته، وما وصلت إليه تخيلاته، فحين يراها أفلاطون، مدينة للفلاسفة، يراها ماركس، مدينة للعمال (البروليتاريا) لكن ذلك لن يكون، كما أراد الفلاسفة ومن نحا نحوهم في هذه الأعصر من الزعماء والسياسيين ممن حُرِّمُوا نعمة الهداية الربانية فلم يدركوا أن الصراع والتدافع سنة ربانية لا سبيل للخلاص من شرورها ونيل خيرها إلا بتحقيق العبودية الكاملة لله، وبكون الدين كله لله في الأرض كلها فإذا كان الدين كله لله في كل الأرض، فإن البشرية ساعتهٌ تخلص من الشرور ويسودها الأمن والسلام. وبقدر ما يسود هذا الدين من الأرض والبشر بقدر ما يسود من الخير والأمن، وتاريخ الأمة الإسلامية عندما كان الدين فيها كله لله خير شاهد على ذلك، والصراع أو التدافع الذي يعنيه القرآن ليس هذا الذي يقع بين الناس من التكالب على أعراض الدنيا وشهواتها التافهة، سواء في المستويات الدنيا بين الأفراد، أو المستويات العليا بين الجماعات والدول والمعسكرات.

أن التدافع الذي يعنيه القرآن من خلال هذه السُّنة هو الذي يكون لخير البشرية وذلك بتحقيق العبودية لله وحده وإزالة كل طاغوت يُعبد من دون الله، إنه كما قال تعالى: ﴿وَقَبِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

(١) انظر: عماد الدين خليل، تفسير التاريخ الإسلامي ص ٢٤٤.

فالصراع المحمود، هو الذي يطرد الفتنة بكل أشكالها وصورها من الأرض، ويحرر البشرية من عبادة غير الله، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝﴾ [النساء: ٧٦].

هذا هو التدافع الذي عناه الله ﷻ بقوله: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٥١]. وبقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فالله يدفع بأهل الحق أهل الباطل، وقيام المسلمين بهذا الواجب هو الذي ينفي عنهم شرور ذلك الصراع الرخيص، وتركهم له يجلب هذا النوع من الصراع، فإنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذلّوا، ولهذا قال ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١)، والواقع المعاش دليل لا يحتاج لأكثر من التدبر.

«والهدف من هذه السنة هو شدّ العزائم لتحقيق المجتمع المسلم الذي يُنقذ أمر الله وشرعه في الأرض كلها وفق قاعدة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(٢). وهذا الصراع يكون ميداناً للكشف عن مواقف

(١) رواه أبو داود في سننه ٢٧٤/٣، ٢٧٥ وهو حديث صحيح. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، حديث رقم (١١).

(٢) انظر: عماد الدين خليل، تفسير التاريخ ص ٢٤٣.

الجماعات البشرية، والتعرف على صدق المؤمنين، ولتمييز الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وكما قال: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢].

فالتدافع سنّة جارية في هذه الحياة، والله ﷻ يوجهنا إلى استثمار هذه السنّة، وأخذ خيرها، ودفع شرها، وهذا الشر - كما قلنا - لا يدفع إلا بالجهاد في سبيل الله حتى يكون الدين كله لله في كل الأرض، وهذا لا يكون إلا بالجهد والجهاد، وإقامة المعروف، والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] والجهاد في سبيل الله لإقامة الدين هو وظيفة الأمة المسلمة على مر العصور وتوالي الأنبياء، وإن الأمة الإسلامية كلما استعملت سلاح الجهاد في سبيل الله فإن نصر الله سيأتيها ويتحقق لها بوعده الله الصادق، قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

«إن الجهاد يضع الأمة الإسلامية أمام مسؤوليتها الحركية الكبرى في العالم، ويمنحها فاعلية دائمة إزاء التجارب والمواقف البشرية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويرفعها إلى موقع الشهادة على الناس، ذلك الموقع الوسط المميز المتفرد الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم في كل الجبهات، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وقتالاً

بالكلمة وكفاحاً مسلحاً... ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] (١).

٣ - التعرف على معالم تاريخ الإنسانية:

إن من أهم الثمرات التي ينبغي أن يطلبها دارس التاريخ التعرف على معالم تاريخ الإنسانية. كيف بدأت. وما هي الأطوار التي مرت بها؟ وما هي أهم المعالم في تاريخها؟ وإن من أهم المعالم التي يلزم التركيز عليها (٢).

أ - معرفة تاريخ الأنبياء ﷺ، ودعوتهم لأقوامهم، ومواقف هؤلاء الأقوام منهم، وجهاد الأنبياء لتبليغ الرسالة، وتحملهم الأذى في سبيل ذلك، ومعرفة المصير الذي آل إليه من صدق الأنبياء والرسول، ومن كذبهم وخالفهم.

ب - التعرف على سيرة النبي محمد ﷺ باعتباره خاتم الرسل

(١) عماد خليل، تفسير التاريخ ص ٢٤٩.

(٢) كتب هـ. ح. ويلز كتاباً في أربعة مجلدات وسمّاه «معالم تاريخ الإنسانية»، وترجمه إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، وإذا تصفحت الكتاب لترى ما هي معالم تاريخ الإنسانية، فما تجد فيه سوى تاريخ الجاهليات، فقد خصص الكتاب الأول من المجلد الأول عن العالم قبل الإنسان، فبحث في تاريخ الصخور، وعصر الزواحف والثدييات. والكتاب الثاني عنوان: «كيف تكوّن الإنسان»، ومن مباحثه: القرّة وأشباه الإنسان، والإنسان «النيانرتالي»، وإنسان العصر الحجري، والفكر المبكر. والكتاب الثالث عن المدنيات الأولى، ومن مباحثه: الشعوب الزراعية، والبحرية، والآلهة، والنجوم والكهنة. ودرس في المجلد الثاني بلاد اليهود، والإغريق، والهند، والفرس، والإمبراطورية الرومانية. وفي المجلد الثالث درس المسيحية، وكتب عن الإسلام فصلاً واحداً في ٥٣ صفحة بعنوان «محمد والإسلام». والمجلد الرابع عن العصر الحديث، فأين تاريخ الأنبياء والرسول؟ وأين تاريخ الإسلام ودوره وأثره في حياة البشرية؟!.

وصاحب الشريعة الخاتمة والناسخة لغيرها من الشرائع، والعامّة للثقلين الإنس والجن، ولكون سيرته ﷺ تطبيقاً عملياً للشريعة المكلفين بالعمل بأحكامها. ولكي نتعرف على كيفية التربية التي مارسها رسول الله ﷺ مع أصحابه حتى أخرج منهم ذلك الجيل المثالي الفريد الذي خُوطب بقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وكيف وصلوا إلى هذه القمة السامقة من التربية المتكاملة، والتي تُعتبر بحق معلماً عالياً في تاريخ الإنسانية كلها.

ولنستفيد من ذلك في إعداد الجيل المسلم وتربيته على منهاج النبوة.

ج - التعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين بوجه أخص، وتاريخ الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم بوجه أعم، لأنهم الذين قام تطبيق أحكام الشريعة لأول مرة على جهودهم، ونشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وهم خير القرون، وهم الذين دونوا العلوم، ورووا لنا السنن والآثار عن رسول الله ﷺ، كما أننا قد أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين والاهتداء بهديهم. قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(١).

د - معرفة سير العلماء والمجاهدين والدعاة والمصلحين وجهادهم في سبيل الله وإقامة شريعته فينبغي العناية بها والتعرف عليها.

هـ - معرفة أثر الإسلام في حياة البشرية. وذلك يتبين بمعرفة التجارب التي انتهت إليها الجاهليات المتعددة وبيان أحوالها الاجتماعية، وكيف رفعها الإسلام بمنهجه المصلح إلى المستويات السامقة عندما دخلت فيه وطبقت شريعته. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ

(١) سبق تخريجه ص ٦٠.

فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ [الجمعة: ٢]، ويتبين ذلك بتتبع أعمال الهدم والبناء التي قام بها الإسلام في حياة المجتمعات التي حكمها، وما مصير الأفكار والنظم والعقائد التي كانت سائدة؟ وكيف بنى تلك المجتمعات بناءً جديداً منطلقاً من العقيدة الإسلامية وقائماً على العدل والحق والحرية.

٤ - تأكيد جملة من الحقائق المهمة في حياة البشرية:

ومن ثمرات دراسة التاريخ أنه من خلال عرض وقائع التاريخ وحقائقه، يتوصل الباحث إلى إثبات وتأكيد حقائق هامة في حياة الإنسان، ومن هذه الحقائق:

أ - أن توحيد الله هو أول ما عرفت البشرية. فمن استعراض التاريخ يتبين لنا أن الأصل في البشرية أنها بدأت تاريخها وحياتها مهتدية بشرع الله وهداه، ثم طرأ عليها الانحراف والشرك بعد زمن طويل، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»^(١)، وبعد ذلك صار تاريخها دورات متعاقبة من الهدى والضلال. فكلما انحرفت البشرية عن التوحيد أرسل الله لهم رسولاً ليردهم إلى الهدى وعبادة الله وحده. والإسلام هو الدين الذي بعث الله به المرسلين ورضيه ديناً للعالمين أولهم وآخرهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَدْيَانَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمٌ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

(١) رواه ابن جرير في التفسير ٢٧٥/٤ وقال: هو كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ٥٤٦/٢. وانظر: تفسير ابن كثير ٣٦٤/١ وفي ص ٣٦٥، صرح بتصحيح قول ابن عباس سنداً ومعنى.

وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥] ومن هنا ندرك ضلال التصورات الجاهلية التي لا تهتدي بوحى الله والتي تزعم أن البشرية بدأت وثنية ثم تطورت أديانها حتى انتهت إلى التوحيد.

يقول الأستاذ محمد قطب: «الحقيقة أن عبادة الأب، والطوطم، والوثن، لم تكن هي تطور العقيدة الذي وصل في النهاية إلى التوحيد، إنما كان هذا تطور الانحراف البشري عن العقيدة الصحيحة في عصوره المختلفة»^(١) ولو أننا سلمنا بمثل تلك المقولة الضالة التي ترجم بالغيب فما دور الأنبياء؟ ولماذا كانوا يبعثون؟ وهل جاء نبي من الله ليقول للناس اتركوا عبادة الطوطم واعبدوا الوثن؟. سبحانه اللهم هذا بهتان عظيم.

إن كل نبي كان يأتي قومه فيقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠، ٦١، ٨٤] وهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: يقول الله: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم جاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم»^(٢)، وهي صبغة الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَمْ نَعْبُدْهُ﴾ [البقرة: ١٣٨] فالإنسان مخلوق لعبادة الله وحده وأول البشر آدم ﷺ نبي مكلم^(٣).

ب - أن الله ﷻ هو الذي خلق الإنسان وخلق الكون كله، وأن الإنسان مستخلف في هذا الكون الذي سخر له، ولذلك لا يشعر المسلم الذي يؤمن بهذه الحقيقة بأي عدااء أو مناقضة بينه وبين الكون، بل يجد التيسير والانسجام، لأن هذا الكون عابد لله مسبح

(١) محمد قطب، معركة التقاليد ص ٨٣.

(٢) رواه مسلم ٢١٩٧/٤ حديث رقم (٢٨٦٥).

(٣) كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله ﷺ ونبي كان؟ قال: «نعم نبي مكلم»، وهو حديث صحيح كما في تخريج المشكاة برقم (٥٧٣٧).

له^(١)، والمؤمن عابد لله ومتبع لشرعه، أما الكافر فإنه شاذ عن هذا الكون الطائع لله المسيح بحمده، ولذلك يشعر بعداء نحو الكون، ويشعر بفخر وخيلاء إذا تمكن من معرفة شيء يسير من أسرار هذا الكون وقوانينه، فيعلن بكل تبجح أنه انتصر على الطبيعة وقهرها، ويتوهم أنه سيد الكون والمهيمن عليه، وأنه يعمل ما شاء كيف شاء دون ضابط، أما الإنسان المؤمن فيعرف أنه مستخلف في هذه الأرض لعمارتها بشرع الله، وأنه ليس له أن يخرج عن شرط الخلافة، وهي تلقي الهدى من الله، والقيام بعبادته.

ج - أن هذا الإنسان خلق خلقاً سوياً في أحسن تقويم منذ اللحظة الأولى لخلقه. وأن الله قد خلقه بقصد وبعلم ولوظيفة ودور مقدر له في هذا الكون، وأن له رسالة محددة، فلم يخلق صُدْفَةً ولا عبثاً، ولا تطوراً من حيوانات أو حشرات كما يزعم الذين لا يؤمنون بالله - أصحاب مدرسة النشوء والارتقاء - فقد خلق الله ﷻ آدم ﷺ بيده من طين لازب، ثم نفخ فيه الروح، وأكرمه وأعلى منزلته حين أمر الملائكة أن تسجد له، وبما وهبه من ميزات وقدرات كثيرة، من العقل، والشعور، والعاطفة، والفكر، والمقدرة على حمل العقيدة، والجهاد في سبيل إقرارها واستمرارها، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُورَهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣] وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَفَعْنَاهُمْ مِّنَ الْأَطْيَافِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال

(١) قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]. وقال: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالْطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠].

تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صٰلٰصِلٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣٠].

د - المعرفة بأن هذا الإنسان بحاجة دائماً إلى من يذكره ويرده إلى الصواب. لأنه مع تطاول الزمن ينحرف عن الحق لأسباب عديدة. ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته وحدها أو لعقله وحده. إنما بعث له الرسل وأنزل معهم الكتب ليعود إلى الحق ويستقيم على المنهج كلما حاد وانحرف. وهذا من أوضح الدلائل على قصور العقل البشري وأنه لا يهدي وحده ولا يستقيم على الطريق بغير وحي الله وشرعه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن تَحْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِّذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

هـ - إثبات أن الأمة الإسلامية هي صاحبة الدور المؤثر والفعال في تاريخ البشرية، وأنها تمثل دور الاستقامة والعدل. فهي جديرة بأن تكون هي المحور الذي يتحرك من حوله تاريخ العالم لأنها هي الأمة الشاهدة على الأمم كلها بسبب اهتدائها بمنهج الله تعالى، ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّنُكُوْنُوا شٰهَدًا عَلَى النَّاسِ وَيَكُوْنَ الرَّسُوْلُ عَلَيْكُمْ شٰهِيْدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]^(١) وهي خير أمة أخرجت للناس بسبب تطبيقها لشرع الله كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٥ - الصبر على المشاق:

ومن فوائد دراسة التاريخ التصبر على ما يصيب المرء أثناء قيامه

(١) أمة وسطاً؛ أي: عدولاً خياراً. وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦.

بواجبه في الحياة. فإنه إذا ما اطلع على سير العلماء والدعاة والمصلحين ومن قبلهم الأنبياء ﷺ وما نالهم من الأذى والعذاب في سبيل الله رضي بما أصابه، وزاده ذلك ثباتاً على الحق وطمأنينة في النفس فلا يضجر ولا يستسلم أو يتنازل عن شيء من مطلبه خاصة إذا كان ذلك يتصل بأمر عقيدته ودينه. لأنه قد عرف من خلال أحداث التاريخ أنه ليس وحده الذي أُصيب وابتلي وإنما سبقته أجيال وأجيال، قال تعالى مخبراً عن ثبات قوم من المؤمنين أُحرقوا بالنار ولم يصدّهم ذلك عن دينهم ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَنْحَادِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج: ٤ - ٧].

وقال ﷺ عندما جاء خباب شاكياً ما يصيبهم من أذى المشركين وطالباً منه أن يدعو لهم فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنيين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»^(١).

٦ - القيمة النفعية:

ومن فوائد دراسة التاريخ أن له قيمة نفعية مادية ولهذا كان الخلفاء والحكام والسلاطين والعديد من القادة يعنون بدراسته لأنه يكسبهم خبرة في التعامل مع الناس، كما أن فيه إعانة لهم على حسن تصريف الأمور وسياسة الناس، ويجدون فيه من التجارب وقياس الأمور المتماثلة والمتشابهة ما يفيدهم. ولذلك قيل: التاريخ سياسة الماضي والسياسة تاريخ الحاضر.

(١) رواه البخاري في صحيحه ١٦٥/٧ من فتح الباري.

٧ - حصانة فكرية:

ومن ثمرات دراسة التاريخ أنه يوجد لدى دارسِه حصانة فكرية ضد البدع والخرافات، والجهل والشعوذات، وذلك بما يُعرِّفه به من طبائع الأشياء، وحقائق الأمور، وحيل الناس. لأن التاريخ منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق وإثباتها، وقد استخدم كثير من العلماء «المنهج التاريخي» في كشف الأباطيل والخرافات وبيان المحدثات والبدع في الشرع، لأن الدين الحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون بعدهم ديناً. وقد وصف ﷺ الفرقة الناجية بقوله: «ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

ومن أبرز من استخدم هذا المنهج الإمام ابن تيمية وتلميذاه الحافظ بن كثير، والعلامة ابن القيم، يقول ابن تيمية في رسالة له ناقش فيها قضية المشهد المنسوب للحسين بمدينة القاهرة: «لم يكن على عهد الصحابة والتابعين، وتابعيهم شيء من المشاهد في بلاد الإسلام - لا الحجاز ولا اليمن ولا الشام ولا العراق ولا المغرب - لا على قبر نبي، ولا صاحب، ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح أصلاً، بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك. وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس، وتفرقت الأمة، وكثرت فيهم الزنادقة المنتسبون إلى الإسلام، وعلت فيهم كلمة البدع، وذلك في دولة المقتدر^(٢) في أواخر

(١) رواه الترمذي ٢٦/٥ وحسنه، ورواه الحاكم وصححه ١٢٨/١. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) هو الخليفة العباسي جعفر بن المعتضد بالله، بويح بالخلافة بعد أخيه المكتفي في سنة ٢٩٥هـ، وله من العمر ١٣ سنة، وما ولي الخلافة قبله أصغر منه وقد انخرم نظام الإمامة في أيامه وصغر منصب الخلافة. وكانت أمه قد استقلت بالأمر والنهي حتى إنها جعلت القهرمانة، «ثمل» تجلس في دار العدل وتنظر في القصص فكانت تجلس ويحضر القضاة والأعيان وتوقع «ثمل» على =

المائة الثالثة. فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية^(١) بأرض الغرب ثم جاؤوا بعد ذلك إلى أرض مصر، وقريباً من ذلك ظهر بنو بويه الأعاجم. وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قوي بنو عبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى علي عليه السلام بناحية النجف وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول إن قبر علي هناك، وإنما دُفن علي عليه السلام بقصر الإمارة بالكوفة^(٢).

٨ - له فضائل أخلاقية:

ومن فوائد التاريخ أن له فضائل أخلاقية قضائية. لأنه يحفظ الحقائق مهما حاول الناس طمسها وإخفاءها وبذلك ينصف الرجال الذين حاول معاصروهم تجاهلهم، أو تشويه تاريخهم وحركتهم وإساءة الظن والقول فيهم. كما أنه يكشف الغطاء عن أدوار خيانية أو انحرافات عقدية وسلوكية مارسها بعض الأشخاص الذين كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها بسبب مراكزهم وسلطانهم، مما يجعل معاصريهم يغترون بذلك فيكيلون لهم المدح والثناء، وينالون منهم التعظيم، وتضفى عليهم ألقاب البطولة والحكمة في الرأي وحسن السياسة والتدبير.

لكن التاريخ بما يحفظه من الحقائق والوثائق يصحح مثل هذه الأمور، ويزن الرجال بما قدموه لخدمة أمتهم وعقيدتهم من الخدمات

= المراسم، وقد غُزل المقتدر مرتين، وفي الثالثة قتل سنة ٣٢٠هـ وعمره ٣٨ سنة. الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٣/١٥.

(١) نسبة إلى عبيد الله القداح الديصاني، وقد تسموا في بلاد المغرب بالفاطمية، وثقة المؤرخين والعلماء ينكرون نسبهم لآل البيت، وهم زنادقة كفار أظهروا البدع وسب الصحابة، حتى قيل فيهم: «ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض». انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢٩/٣٥.

(٢) ابن تيمية، رأس الحسين ص ١٦٧، ١٦٨.

الحقيقية لا الدعائية. والأمثلة على هذا كثيرة لا تحتاج إلى عناء البحث^(١).

٩ - المساعدة على فهم الحاضر:

ومن الثمرات التي يكتسبها دارس التاريخ، فهم حاضر الإنسان

(١) من الأمثلة على ذلك: الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي قام بدعوة إصلاحية لمحاربة الشرك والخرافات والبدع، فنشر السّنة وصحّح العقيدة في وسط الجزيرة العربية، فقام أدعياء العلم وأرباب المصالح والسلطة بنشر الدعاية السيئة ضده وتشويه دعوته، وصُوّر على أنه من الخوارج أو صاحب مذهب جديد، حتى أن الشيخ محمد أبو زهرة رحمته الله رغم سعة اطلاعه فإنه في كتابه المذاهب الإسلامية ٢٣٥/١، يجعل الوهابية مذهباً مستقلاً ويصنّفها ضمن المذاهب المنحرفة مثل: القاديانية والبهائية، لكن بعد انتشار مؤلفات الشيخ وتلاميذه في العالم الإسلامي والوقوف على حقيقتهم تصححت تلك الصورة وعرف للشيخ قدره وجهده.

ومن الأمثلة أيضاً: كمال أتاتورك الذي وصف بالبطولة وأنه المحرر للشعب التركي من سلطة السلاطين، وقد اتخذ مثلاً لكثير من الثورات في البلاد العربية حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقي مدحه بعد الانتصار المدبر على الإنجليز بقصيدة يقول فيها:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب
يقصد خالد بن الوليد، ولكن ما لبث أن ظهر على حقيقته، حيث ألغى الخلافة الإسلامية واللغة العربية حتى في الأذان.
وألغى المحاكم الشرعية وفرض العلمانية على الشعب التركي المسلم ونزع الحجاب عن المرأة.

ثم ظهرت الوثائق التاريخية مصدّقة للأفعال فأثبتت عمالته للإنجليز وصلته بالماسونية، حتى أنه عندما حضرته الوفاة استدعى السفير الإنجليزي وطلب منه أن يتولى حكم تركيا من بعده، فاعتذر السفير بلباقة حتى لا تنكشف العمالة.
انظر: مصطفى طوران، أسرار الانقلاب العثماني. والرجل الصنم، لضابط تركي، ومذكرات رضا نور، نشرت بمجلة المجتمع الكويتية على حلقات في العامين ١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ.

والقدرة على تحليله، خاصة إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع وفي الأمثال العربية: «ما أشبه الليلة بالبارحة»، والإنجليز يقولون: «التاريخ يعيد نفسه».

ولقد أشار القرآن الكريم إلى وحدة التصرفات وتشابه الأقوال عند تشابه البواعث، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَنْوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] فهم لم يتواصوا بالتكذيب بالرسول، لكن اشتراكهم في الطغيان هو الذي وَحَّدَ مواقفهم من الأنبياء.

وبعض القضايا الحاضرة لها جذور تاريخية بعيدة فلا بد من معرفة الماضي لكي نفهم الحاضر.

١٠ - معرفة القرون الفاضلة:

ومن أهم ثمرات دراسة التاريخ معرفة القرون الفاضلة التي قال فيها ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١)، ومعرفة أهل هذه القرون، ومعرفة سماتهم وخصائصهم وتراجهم وأخبارهم في طلب العلم والجهاد، وفي الزهد والعبادة، وفي بناء الدولة الإسلامية ونشر العدل ودفع الظلم، إلى غير ذلك من أحوالهم ورؤية النماذج الكثيرة الممتازة التي تعد بالآلاف والتي قامت بتطبيق شرع الله في الواقع العملي، وثمره هذه المعرفة تتضح في جانبين مهمين:

(١) متفق عليه. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣/ ١٨١.

- ١ - الجانب الأول: بيان البدع والحوادث ومعرفة وقت ظهورها لىتميز ما هو من الدين مما أدخل عليه.
- ٢ - الجانب الثانى: إعادة الأمل وبعث الهمة لمحاولة تنقية المفاهيم الإسلامية مما لحق بها من الانحرافات والقيام بالتطبيق العملى من جديد فى واقع الحياة.

البَابُ الثَّانِي

منهج كتابة التاريخ الإسلامي

الفصل الأول: المنهج وأهميته.

الفصل الثاني: مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي.

الفصل الثالث: خصائص منهج كتابة التاريخ الإسلامي.

الفصل الرابع: غاية منهج كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحقيقه.

الفصل الخامس: قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي.

المنهج وأهميته

النهج، والمنهج، والمنهاج، كلها بمعنى واحد. وهي تعني الطريق الواضح، يُقال: أنهج الطريق أي: استبان وصار شيئاً واضحاً بيئاً. ونهجت الطريق، إذا أبنته وأوضحته، ونهجت الطريق أيضاً إذا سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان، أي: يسلك مسلكه^(١)، فهو يعني: السبيل الفكري والخطوات العملية التي يتبناها الباحث في مساره بقصد تحصيل العلم.

وكان العلماء المسلمون يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد. ولذلك وضعوا أصولاً وضوابط للبحث في مختلف العلوم مثل، أصول الحديث «المصطلح»، وأصول التفسير، وأصول الفقه.

أما المنهج في الدراسات التاريخية فإنه يعني: القواعد والشروط التي يجب مراعاتها عند معالجة أي حدث تاريخي، سواء بالكتابة والتأليف أم بالدراسة والتعليم، وهذه الشروط تتناول الكاتب ذاته، كما تتناول المصادر التي يستمد منها، كما أنها تعنى بالغاية والهدف من الدراسة والكتابة، وتعنى كذلك بالأسلوب والمصطلحات.

وهنا لا بدّ من ملاحظة الفرق بين نوعين من دلالة لفظة «المنهج» وتحديد المراد بها. فقد تطلق ويُراد بها، التصورات والقيم والمبادئ التي يلتزمها الباحث، كما تطلق ويُراد بها، طريقة معينة في البحث العلمي لمادة من المواد.

(١) الجوهري، الصحاح ١/٢٤٦، مادة (نهج).

ولفظة المنهج وحدها تعني الطريق أو السبيل. ويحدد المراد منها ما تضاف إليه، فإذا قلنا: المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ، دل ذلك على التصورات والمبادئ التي يضعها الإسلام والمفاهيم والمنطلقات العامة التي تحكم دراسة التاريخ وتفسيره وفقاً لتلك المبادئ والمفاهيم المنبثقة من الإسلام.

أما إذا قلنا: منهج البحث التاريخي، أو منهج إثبات الحقائق التاريخية، فإنه يعني: القواعد والطرق التي اصطلح على وضعها العلماء بغرض الإعانة على الوصول إلى صحة المعلومات والتأكد من صوابها. فيصبح المنهج بهذا المعنى الأخير أداة بحث، ممكن استخدامها - إلى حد ما - من قِبَل مجموعة من الباحثين وإن اختلفت مناهج حياتهم وعقائدهم وتصوراتهم.

أما المنهج بالمعنى الأول فإنه عند المسلم محكوم بالتصور الإيماني والالتزام العقدي؛ أي: يلتزم بمقومات العقيدة وقيمها وتصوراتها عن الله، والكون، والحياة، وعن الإنسان ونشأته، ومركزه في هذا الكون ووظيفته، وغاية وجوده، ومصيره الذي ينتهي إليه.

ولا بدّ للباحث المسلم من الالتزام بالمنهج الإسلامي في منطلقاته وتصوراته، وأن تساعد كتابته على بناء العقيدة الصحيحة، وقيمها التربوية والخلقية.

وعلى هذا الأساس من الالتزام بالعقيدة تُقاس أعمال المؤرخين والباحثين، وتوزن مناهجهم ومذاهبهم في التأليف، لأن الباحث المسلم ليس مطلق الحرية في اتخاذ المواقف، وتفسير الحوادث وتقييمها كيفما عَنَّ له خاطر، إنما هو مقيد بالقواعد الشرعية، والأصول العلمية المتبعة في إثبات الأخبار وردّها. فليس من حقه أن يتهم أحداً بناءً على رواية لم يتأكد من صحتها، وعدالة رواتها، واتصال سندها. ثم إذا ثبتت الرواية

فإن هناك قيوداً شرعية يلزم مراعاتها في نقد الأشخاص، وملاحظة مقاماتهم مثل أن يكون أحد الخلفاء الراشدين، أو من المبشرين بالجنة، أو أحداً من الصحابة رضي الله عنهم، أو الأئمة الذين استفاضت عدالتهم، لأن الكلام في نقد مثل هؤلاء ليس كالكلام في أحد غيرهم، كما أن الكلام في عموم الناس له حدود وضوابط، ويجب أن يكون بحق وبعلم.

وهذا المفهوم العقدي للمنهج، والالتزام به في تلقي العلم ومناهج البحث والدراسة، هو مفرق الطريق بين الباحث المسلم وغير المسلم، فالباحث المسلم، ينطلق في بحثه عن الإنسان وحركته وتفسير تاريخه من منطلقات ثابتة، وطمأنينة علمية، لأنه ملتزم بمفاهيم عقيدته وتصورها الشامل عن الوجود، والتي تلقاها عن طريق الخبر الصادق الموحى به من الله إلى رسول من رسله.

أما غير المسلم، فإنه لعدم تلقيه من الوحي الرباني في تفسير هذا الوجود، وعدم معرفته لحقيقة الربوبية والعبودية لله، ولوظيفة الإنسان ودوره، ولحقيقة نشأته ومصيره، ولعلاقته بالكون من حوله، فإنه يخطئ بالظنون والأوهام ويرجم بالغيب بدون^(١) دليل، ولذلك يكثر بينهم الاختلاف ولا يصلون إلى حقائق مطمئنة في هذه الأمور، ويعيشون في اضطراب، وحيرة، وشك، وخوف من هذا الكون، وفي صراع نفسي وتشتت ذهني، وكل هذه الأعراض والأمراض ذات تأثير مباشر على نتائج دراساتهم، والناظر في حال البشرية المعاصرة - من الأمم التي لا

(١) قال تعالى حاكياً اختلافاتهم فيما هو أقل من هذه الأمور: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَذِبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، وقال تعالى ذاكراً صفة من صفاتهم: ﴿وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣].

تهتدي بهدى الله - ونتاجها الفكري يدرك هذا بأجلى صورة^(١). فهم لا يدرون ما أصل نشأتهم، ولا يعرفون التصور الصحيح عن الإنسان ووظيفته في هذه الحياة، ولكن المسلم يدري ويعلم ذلك من الوحي الذي أرسل الله به رسله، «ويعي دوره الحقيقي في هذا الوجود ومهمته في هذه الحياة وبذلك يمضي في رحلته على هذا الكوكب ثابت الخطو مكشوف البصيرة مأنوس الضمير، ومن هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله والرضا بما يقع له^(٢). فهو يعرف من

(١) من الأمثلة على هذا الاضطراب والحيرة قول الشاعر النصراني إيليا أبو ماضي:

جئتُ لا أعلم من أين	ولكنني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدامي	طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً إن شئتُ	هكذا أم أبيتُ
كيف جئتُ كيف أبصرتُ طريقني	لست أدري؟!
إلى أن يقول:	

ألهذا اللغز حلّ أم سيبقى أبدياً	لست أدري؟!
ولماذا لست أدري؟!	لست أدري؟!

فهو يحكي الضياع والقلق والحيرة التي يعيشها هو وأشكاله من أبناء عصره لعدم اهتمامهم بهدى الله. انظر: عبد اللطيف شرارة، إيليا أبو ماضي، ومختارات من شعره ص ٢١٥.

(٢) يحكي الأستاذ سيد قطب عند تفسيره قول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ عن تجربة عاشها بنفسه قبل أن يمن الله عليه بالحياة في ظلال القرآن والإيمان، حيث عبّر عن ذلك بقوله:

وقف الكون حائراً أين يمضي؟	ولماذا وكيف - لو شاء - يمضي؟
عبث ضائع وجهد غبين	ومصير مُقَنَّن ليس يُرضي

فيقول معلقاً على ذلك: «فأنا اليوم - والله الحمد والمنة - أعرف أنه ليس هناك جهد غبين، فكل جهدي مجزي عليه، وليس هناك تعب ضائع، فكل تعب =

أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب؟ وماذا هو واجد هناك؟ ويعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه مجزيّ على الصغيرة والكبيرة وأنه لم يُخلق عبثاً ولن يُترك سُدىً ولن يمضي مفرداً^(١).

وإنك لتجد في أبحاث الأوروبيين عن الحياة والإنسان ضروباً من التخمين والخطب وإلقاء القول دون دليل فهذا الدكتور «ه.ح ويلز» صاحب كتاب معالم تاريخ الإنسانية يخصص الجزء الثاني من كتابه في البحث عن كيفية تكوّن الإنسان ومراحل تطوره، فيبحث في القردة، وأشباه الإنسان «النياندرتالي» وإنسان العصر الحجري، والعصر الجليدي على أساس أن هذا الإنسان الذي عاش هذه الحقبة من الزمن غير الإنسان المعاصر، في تكوينه الجسمي والعقلي، وفي مداركه وعواطفه إلى آخر هذه الأحكام التي لا دليل عليها بل هي مخالفة للنشأة البشرية التي عرفناها من القرآن الكريم والسُّنة المطهرة، وهي أن أول البشر هو آدم ﷺ وأن الله خلقه بيده من تراب ونفخ فيه من روحه وجعله في أحسن تقويم وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة. ومن المؤسف حقاً أن يكون هذا المنهج في البحث الذي يعتمد على الظنون والأوهام ويُعرض عن الوحي الرباني، ويأخذ أدلته عن نشأة الإنسان من الحفريات والهيكل العظمية والجماجم، هو طريق

= مثمر، وأن المصير مُرضٍ وأنه بين يدي عادل رحيم، وأنا أشعر اليوم - والله الحمد والمنة - أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً، لأن روح الكون تؤمن بربها وتتجه إليه وتسبح بحمده والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له في طاعة وفي رضا وفي تسليم، وهذا كسب ضخم في عالم الشعور والتفكير، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب فوق ما هو كسب ضخم في جمال العلم والنشاط والتأثير والتأثير، لأن الإيمان قوة دافعة و طاقة مجمعة فوق أنه طمأنينة ورضا». في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٢.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٢.

كثرة من الباحثين^(١) المسلمين الذين كتبوا فيما يسمى بفلسفة التاريخ.

فاختلاف الناس في الدراسات التي تعنى بشؤون الإنسان وعدم وصولهم إلى نتائج واحدة كما هو الحال في العلوم التطبيقية والرياضية^(٢) دليل واضح على أنه لا بدّ من التلقي في هذه العلوم عن الله ﷻ، والرجوع لوحيه المنزل على رسله، فإنه لا يكفي في الدراسات الإسلامية على مختلف أنواعها للوصول إلى الحق والصواب اتباع الطرق المنهجية وحدها، بل لا بدّ من توفر شروط نفسية، وإيمانية، في الباحث وذلك نتيجة للاختلاف بين المسلم وغيره في أصل النظرة للحياة وللعلم وللكون ولربوبية الله وألوهيته، ولأصل النشأة الإنسانية والغاية منها والدور الموكل للإنسان في هذه الحياة، والمصير الذي تؤول إليه بعد الموت، فإذا لم يكن بيننا وبينهم اتفاق في الأصول فلا يمكن أن نتفق في الفروع المبنية عليها، وهذه الشروط المنهجية في البحث، إنما تكون نتائجها واحدة للمتفقيين في أصل النظرة وزاوية الرؤية، فبحسب التصورات

(١) انظر مثلاً لذلك كتاب «المدخل إلى التاريخ»، تأليف نور الدين حاطوم، ونبهه عاقل وزميليهما ص ٣١، وما بعدها حيث وضعوا هذا العنوان في كتابهم «أسلاف الجنس البشري» فقالوا: وفي العهد الحديث المتأخر للحياة «البليوسين» ظهر طائفة من المخلوقات الصغيرة نشأت عنها أنواع القردة الحديثة من أشباه البشر ونشأ الإنسان نفسه.

(٢) في العلوم الرياضية والتجريبية البحتة لا تؤثر العقائد والمفاهيم الفكرية على نتائج البحث، فمثلاً $2+2=4$ فهي قضية مسلمة سواء، قال بها مسلم أو شيوعي أو أوروبي لكن يكمن الخلاف في طريقة التعليم وأهدافه. أما الدراسات الاجتماعية والفكرية فهي موضوع العقائد، لذلك يختلف فيها الباحثون كثيراً ولا يحل الاختلاف فيها إلا الرجوع للنصوص الشرعية وتوحيد مصدر التلقي، كما أوضحنا ذلك في مبحث ضوابط منهج العلم، لأن النص في قضايا الدين مثل التجربة في ميدان العلوم الرياضية، يقف العالم أمامهما ويستنطقهما ولا يفرض عليهما رأياً مسبقاً.

والأهداف والقناعات الفكرية تكون نتائج الدراسات وتوجهاتها، والباحث المسلم المتفقه في دينه، العالم بمقاصده وأهدافه يتميز عن غيره بأن تصورات وأهدافه وقناعاته الفكرية متلقاة من مصادر ربانية. وبذلك تكون نتائج دراساته أقرب إلى العدل والصواب. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فالكتاب الذي جاء به الرسل هو الذي يتلقى منه الحق والعدل ويقام على منهجه القسط في الأرض بين الناس^(١) ولا يكون الحق والقسط في غير كتب الله ووحيه المنزل على رُسُلِهِ.

ومن المعلوم أن التزام الصدق وطلب الحق، أمر نفسي خُلقي يقوم على التربية، والخوف من الله، وابتغاء مرضاته، وليس أمراً فكرياً منهجياً فحسب، ومن ثَمَّ تكون معرفة الحق والالتزام به مرهونة بالإيمان بالله، المقتضي للشهادة بالقسط والعدل، وليس في مقدور القواعد المنهجية وحدها إلزام أحد باختيار الحق والخير دون الشر والظلم. فالتزام الصدق لا يقوم إلا على التجرد لله وطلب رضاه، ولا يطلب هذا من غير المؤمن الملتزم بإيمانه العامل به في واقع حياته وسلوكه. ومن هنا تظهر أهمية علوم الشريعة لعلم التاريخ إذ أن علوم الشريعة تعتبر من العلوم الأساسية للمؤرخ المسلم، وليست من العلوم المساعدة كما يذكر ذلك من كتبوا في مناهج ومصادر علم التاريخ.

فمن لوازم المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ أن يكون المشتغل بعلم التاريخ الإسلامي وتفسير أحداثه ذا تصور سليم وعقيدة صحيحة ودراية بعلوم الشريعة وفقهها، إضافة إلى تخصصه التاريخي وتمكنه من ذلك، وإلا أصبح التاريخ الإسلامي ألعبه لمئات المناهج والأهواء^(٢)،

(١) راجع تفسير الآية في ابن كثير ٥٣/٨.

(٢) لقد اشتغل بدراسة التاريخ الإسلامي وكتابته وتحليله في العصر الحاضر من لا =

لأن التاريخ الإسلامي هو في الحقيقة تاريخ عقيدة ذات تصورات وأحكام ثابتة مستمدة من مصدر صادق وثيق، من وحي العليم، الخبير، القدير، الحكيم، السميع، البصير، المحيط علمه بما كان وما يكون ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] فالالتزام بالمنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية ضرورة علمية، ومصلحة إنسانية، ووظيفة شرعية. يقول الأستاذ سيد قطب: «إنه من الصعب التصور بإمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية وإدراك التصور الإسلامي عن الله والكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل العقيدة. وهذه الخصائص لا توجد عند غير الباحث المسلم الملتزم بإسلامه»^(١).

إنه لمن مصلحة الإنسانية عموماً أن يتولى كتابة تاريخها وتفسيره بمنهجية علمية أصحاب العقيدة الإسلامية الحققة لأنهم ينظرون بمنظار هذه العقيدة الشاملة في نظرتها للحياة وللإنسانية، والتي لا تقبل تفرقة بين السلوك العملي وبين الاعتقاد القلبي.

= يعرف أحكام شريعة الإسلام حيث أبعدت الدراسات التاريخية وفُصلت عن الدراسات الشرعية، وهذا هدف من أهداف الاستشراق والتغريب، كما اشتغل به قوم لا يؤمنون بالإسلام مثل: طوائف الاستشراق، وقوم ذوو ميول وانحرافات، أو مغفلون لا يدرون ما يقولون. ولذلك صرنا نجد من ينظر للتاريخ الإسلامي نظرة «الليبرالية» تحررية، أو «اشتراكية» اقتصادية، أو «ماركسية» إحادية، أو «رأسمالية» مادية، بل وجدنا من يقسم الصحابة إلى يمين، ووسط، ويسار...!! فطبّق على التاريخ الإسلامي اصطلاحات ومناهج لا صلة لها بواقعه التاريخي أو فكره العقدي، فوق أنها نتاج حضارة وثنية غير مهتدية بهدي الله ولا مستنّة بسنة رسله. وما ذلك إلا نتيجة الابتعاد عن دراسة العلوم الشرعية وعدم الأخذ بالمنهجية العلمية المطلوبة لدارس التاريخ الإسلامي، ومعرفة مرتكز هذا التاريخ وسر الحركة فيه.

(١) سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٤٦.

والباحث المسلم أولى بتفسير التاريخ البشري كله فضلاً عن تاريخه الإسلامي وذلك أنه يملك المنهج السليم الذي يزن به كافة الأشياء والقيم وأحداث التاريخ.

إن ترك الالتزام بالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يوقع الباحث في أخطاء كبيرة تزل بها الأقدام، فهذا كاتب من أبناء المسلمين مشهور بدراساته التاريخية يجعل هذا العنوان «أساطير دينية توجه سير التاريخ»^(١) أحد فصول كتاب له سَمَّاه «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام»، وأنكر في هذا الفصل ثلاث قضايا مهمة من قضايا العقيدة، وهي المهدي، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان، ويوم القيامة. وجعلها من طائفة الأساطير وعَرَضَها عرضاً فيه سخرية واستهزاء بالمؤمنين بها، ولم يفرق بين الكذابين المستغلين لجهل الغوغاء وبين حقائق هذه القضايا العقدية الثابتة بنصوص الشرع وإجماع الأمة المسلمة سلفاً وخلفاً.

إن من أبسط القواعد المنهجية العلمية أن لا ننكر القضايا العقدية الثابتة بسبب وقوع انحراف عند بعض الناس في تطبيقها، لأن الانحراف

(١) هو محمد عبد الله عنان، مؤرخ مصري، له عناية بالدراسات التاريخية الأندلسية وهذا الفصل يشمل الصفحات من ٣٥٩ - ٣٦٤ يقول فيه: «وقد بلغت هذه الأساطير الدينية السياسية في الدولة الإسلامية ذروة القوة والازدهار وكانت أسطورة المهدي من بينها أقواها وأبعدها أثراً» ص ٣٥٩، ويقول: «وزعم الكندي الفيلسوف أن المهدي يجدد الإسلام ويظهر العدل، ويفتح الأندلس ورومة وقسطنطينية ويملك الأرض وهو ما ندهش لصدوره من فيلسوف حر التفكير» ص ٣٦٠، ويقول: «ومثل أسطورة المهدي المنتظر أسطورة المسيح المنتظر وهي ترجع إلى أصل يهودي ولها في الإسلام مكان أيضاً» ص ٣٦٢. وقال: «ونرى في النصرانية أسطورة القيامة تؤثر في خيال المجتمعات الأوروبية أعمق تأثير في أواخر القرن العاشر، ومن المعروف أن فكرة انتهاء العالم في المستقبل القريب كانت منذ أقدم عصور النصرانية تستهوي جموعاً غفيرة من النصارى» ص ٣٦٣.

لا يعالج بانحراف آخر، وإنما يعالج الانحراف بإصلاحه وإيضاح الحق وتعرية الباطل وكشفه، فإذا وجدنا من يستغل الأحاديث الواردة في المهدي - مثلاً - فيدعي لنفسه المهديّة ليكسب من وراء ذلك ملكاً وسلطاناً كما حدث في الواقع التاريخي^(١)، فإن العلاج ليس إنكار الأحاديث النبوية الصحيحة في خروج المهدي والتي بلغت في مجموعها حد التواتر^(٢)، وردّها ووصفها بالأساطير، وأنها موضع كثير من الجدل والريب، وإنما بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإتباع الأمانة والمنهجية العلمية.

والمنهجية الإسلامية منهجية ملتزمة، لتمسكها بالفضائل الخلقية،

(١) لقد ادّعت الرافضة أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري الذي يدّعون أنه اختفى في سرداب سامراء وهو طفل سنة ٢٦٠هـ ولا زالوا ينتظرونه، ويقول ابن تيمية: إن أهل العلم بأنساب أهل البيت يقولون: إن الحسن بن علي العسكري لم يكن له نسل ولا عقب. انظر رسالته التي بعنوان: رأس الحسين ص ١٥٥. كما ادّعى العبيديون أن عبيد الله بن ميمون القداح هو المهدي، وكذا ادّعى محمد بن تومرت المغربي المهديّة، وغير هؤلاء كثيرون مثل: محمد أحمد المهدي السوداني.

(٢) حول صحة أحاديث المهدي راجع: ابن القيم، المنار المنيف ص ١٤١ - ١٥٥؛ والمباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٤٨٤/٦ وما بعدها، وقد نقل عن الإمام الشوكاني أنه قال: «والذي أمكن الوقوف عليه من الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر خمسون حديثاً وثمانية وعشرون أثراً»، ثم قال - بعد أن سردها وتكلم عليها -: «وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع».

وعبد المحسن العباد، الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة العدد ٤٥ ص ٢٩٧ - ٣٢٨، وعدد ٤٦ ص ٣٦١ - ٣٨٣ لعام ١٤٠٠هـ؛ وعبد العليم عبد العظيم، الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل، وهي رسالة ماجستير مقدمة لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة للعام الدراسي ١٣٩٨/٩٧هـ.

وأصيلة لاستقلالها عن غيرها من المناهج واستمدادها من الأصول الشرعية، ورجوعها للمصادر الأصيلة، ومن شأن هذه المنهجية الأصيلة والملتزمة أن تقي الباحث - بحول الله وقوته - من الانحراف والزلل وتصحح له رؤيته وتقوّم أحكامه ونتائجه حتى وإن وقع في خطأ - مما لا يسلم منه بشر غير معصوم - فإنه سرعان ما يرجع عنه حالماً يكتشف ذلك أو ينبه عليه.

فلا بدّ لمن يشتغل بكتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه أن يكون مسلماً ملتزماً بعقائد الإسلام عالماً بشرائعه وأحكامه.

مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي

منهج كتابة التاريخ الإسلامي - كما قلنا في المبحث السابق - يعطي مدلولين:

المدلول الأول: المبادئ والأسس التي يضعها الإسلام لتكون حدوداً تحكم دراسة التاريخ الإسلامي، فهذه نحتاجها عند تفسير الواقعة التاريخية وتحليلها والحكم عليها.

والمدلول الثاني: هو القواعد والطرق التي تتبع في إثبات الحقائق والوقائع التاريخية، فهذه نحتاجها في إثبات صحة واقعة تاريخية معينة أو نفيها، ومعلوم أننا أولاً نثبت الواقعة ثم بعد ذلك نفسرها، فمرحلة الإثبات مرحلة سابقة على مرحلة تفسير الحدث وتعليقه.

وعليه فإننا نحتاج إلى نوعين من المصادر:

- مصادر في طرق إثبات الحقائق والوقائع التاريخية.

- مصادر في تفسير الحوادث التاريخية والحكم عليها.

مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية:

لقد اعتنى علماء السُّنة بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات واتبعوا منهجاً دقيقاً في نقدها، وينبغي للمؤرخ المسلم أن يطلع على ذلك ويفيد منه في دراساته التاريخية. والمصادر المهمة في هذا الشأن هي كتب «مصطلح الحديث» أو «أصول علم الحديث»، وأسس هذا العلم موجودة في الكتاب العزيز في مثل قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وفي السنة المطهرة

في مثل قوله ﷺ: «نَضَرَ الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع»^(١)، انظر إلى قوله: كما سَمِعَ، فإنه نص في دقة الضبط والتحري.

وكان الخلفاء الراشدون أول من سن للمحدثين التثبت في الرواية واحتاطوا في قبول الأخبار: «فقد جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها»^(٢)، وكذا روي عن عمر بن الخطاب موقف مشابه مع أبي موسى الأشعري^(٣). ومن هنا ظهر علم نقد الأخبار والسؤال عن الرجال والرواة، فدونت أخبارهم ورحلاتهم وسني ولادتهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد. وظهر كذلك علم الجرح والتعديل وهو الكلام في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره. كما دونوا علم علل الأحاديث^(٤) سواء علل الإسناد أو علل المتن.

وقد دوّن العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خصصت لهذا الشأن مثل كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» للقاضي

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم ٣٤/٥ وقال: حسن صحيح.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/١. (٣) المصدر نفسه ٦/١.

(٤) الحديث المعلّ هو الذي اطلع الحافظ البصير فيه على علة قاذحة في صحته مع أن ظاهره السلامة منها: «ولهذا قال ابن حجر: وهو من أغمض أنواع علوم الحديث وأدقها ولا يقوم به إلا من رزقه الله تعالى فهماً ثاقباً وحفظاً واسعاً ومعرفة تامة بمراتب الرواة، وملكة قوية بالأسانيد والمتون، ولهذا لم يتكلم فيه إلا القليل من أهل هذا الشأن». انظر: شرح نخبة الفكر ص ٨٣.

الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي^(١) المتوفى سنة ٣٦٠هـ وكتاب «معرفة علوم الحديث» لأبي عبد الله الحاكم^(٢) المتوفى سنة ٤٠٥هـ، «والكفاية في علم الرواية» للخطيب البغدادي^(٣) المتوفى سنة ٤٦٣هـ، «والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، للبغدادي أيضاً وكتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع»، للقاضي عياض^(٤) المتوفى سنة ٥٤٤هـ «وعلم الحديث» لابن الصلاح^(٥) المتوفى سنة ٦٤٣هـ، وقد اشتهر باسم مقدمة ابن الصلاح.

فهذه الكتب تبين طرق نقد الأخبار وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا

(١) هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الفارسي الرامهرمزي، إمام حافظ، توفي سنة ٣٦٠هـ. تذكرة الحفاظ ٩٠٥/٣.

(٢) هو الإمام الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع، ولد سنة ٣٢١هـ، ورحل في طلب العلم وصنّف الكثير مثل: تاريخ نيسابور، والمستدرک على الصحيحين، وعلوم الحديث، وكان فيه تشيع، وتوفي سنة ٤٠٥هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ١٠٣٩/٢ - ١٠٤٥.

(٣) هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، برع في التصنيف خاصة علوم الحديث. ومن أشهر مؤلفاته: تاريخ بغداد، وُلد سنة ٣٩٢هـ وتوفي سنة ٤٦٣هـ. الذهبي ١١٣٥ - ١١٤٦.

(٤) هو عالم المغرب القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، وُلد بسبّنة سنة ٤٧٦هـ، تولى القضاء بسبّنة وغرناطة، وحمدت سيرته، وله مصنفات كثيرة مشهورة مثل: الشفاء، وترتيب المدارك وجامع التاريخ، ومشارك الأنوار، توفي سنة ٥٤٤هـ. تذكرة الحفاظ ١٣٠٥/٤.

(٥) هو الإمام الحافظ المفتي شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن صلاح الدين الكردي الشهرزوري الشافعي، ولد سنة ٥٧٧هـ، تفقه على والده ثم صار معيداً عند العلامة العماد بن يونس، دَرَسَ بالمدرسة الصلاحية وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، توفي سنة ٦٤٣هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٤/١٤٣٠هـ.

الميدان من أمثال علي بن المديني^(١)، ويحيى بن معين^(٢)، وأحمد بن حنبل، والإمام البخاري، وأبي حاتم الرازي^(٣)، وأبي زرعة^(٤)، حيث تكلموا في الرجال وفي نقد المتون للأحاديث وبيان عللها.

ودونوا ذلك في مؤلفات خصصت لهذا الشأن فكتب البخاري ثلاثة كتب هي التاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ الصغير. وابن أبي حاتم دون كلام أبيه وأبي زرعة في كتاب سماه الجرح والتعديل، وابن معين له كتاب دونه تلاميذه باسم تاريخ ابن معين^(٥)، وكذلك ابن حنبل مروى عنه كتاب العلل^(٦)، وأيضاً علي بن المديني له كتاب في علل الحديث^(٧).

(١) هو الحافظ أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر السعدي مولا هم المديني ثم البصري، ولد سنة ١٦١هـ.

قال أبو حاتم: كان ابن المديني علماً في الناس في معرفة الحديث والعلل، مات بسامراء سنة ٢٣٤هـ، وله مصنفات كثيرة. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/٤٢٨.

(٢) هو الإمام سيد الحفاظ أبو زكريا يحيى بن معين المري مولا هم البغدادي، وُلد سنة ١٥٨هـ، روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وكانت وفاته سنة ٢٣٣هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/٤٢٩.

(٣) هو الحافظ الكبير محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، ولد سنة ١٩٥هـ، ورحل في طلب الحديث وهو شاب، روى له النسائي وأبو داود وكان من علماء الجرح والتعديل، توفي سنة ٢٧٧هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/٥٦٧.

(٤) هو حافظ عصره عبيد الله بن عبد الكريم بن فروخ القرشي مولا هم الرازي، كان من أفراد الدهر، حفظاً وذكاءً ودينياً وإخلاصاً وعلماً وعملاً، وهو من رجال الجرح والتعديل، توفي سنة ٢٦٤هـ. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/٥٥٧.

(٥) كتاب التاريخ ليحيى بن معين، طبع في أربعة مجلدات على نفقة مركز البحث العلمي بمكة وبتحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف.

(٦) طبع في أنقرة عام ١٩٦٣م بعنوان: العلل ومعرفة الرجال، وبتحقيق طلعت قوج.

(٧) كتاب علي بن المديني، اسمه: العلل ومعرفة الرجال، طبع في المكتب =

وقد كتب كل من محمد بن سعد، وخليفة بن خياط، كتاباً في الطبقات كما كتب ابن حبان^(١) كتاباً في الثقات، وكتاباً في المجروحين من المحدثين.

وأيضاً كتب الخطيب البغدادي كتاباً جامعاً في أسماء العلماء والرواة الذين نشؤوا في بغداد أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية وهو تاريخ بغداد، كما كتب ابن عساكر^(٢) كتاباً مماثلاً سماه تاريخ دمشق. وهناك كتب تخصصت في الترجمة للرواة الذين وردت أسماءهم في الكتب الستة مثل الكمال في أسماء الرجال لعبد الغني المقدسي^(٣) وتهذيبه للحافظ المزي^(٤)، وتهذيب التهذيب، للحافظ الذهبي، وتهذيب

= الإسلامي بتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، كما طبع في دار الوعي بحلب بتحقيق عبد المعطي قلعي.

(١) هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي، صاحب التصانيف مثل: التاريخ، والضعفاء، والمسند الصحيح، وكان من فقهاء الدين وحفاظ الآثار، عالماً بالطب، والنجوم وفنون العلم. وقال الخطيب: كان ثقة نبيلاً فهماً، وكانت وفاته في شوال سنة ٣٥٤هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٩٢٠/٣.

(٢) هو محدث الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الدمشقي الشافعي، صاحب التصانيف، وُلد سنة ٤٩٩هـ، سمع المشايخ ورحل في طلب العلم، وبلغ مجموع شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيفاً وثمانين امرأة. من أشهر كتبه: تاريخ دمشق الكبير في ثمانين مجلداً، والأطراف لأحاديث السنن. قال السمعاني: أبو القاسم، حافظ ثقة متقن، جمع بين معرفة المتن والإسناد، وكانت وفاته سنة ٥٧١هـ. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤.

(٣) هو الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي، صاحب التصانيف، ولد في سنة ٥٤١هـ. قال ابن النجار: حدث بالكثير وصنّف في الحديث تصانيف حسنة، وكان غزير الحفظ من أهل الإتقان والتجويد، قيماً بجميع فنون الحديث، وكان متمسكاً بالسنة على قانون السلف، وكانت وفاته سنة ٦٠٠هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ١٣٧٢/٤.

(٤) هو جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف القضاعي =

التهذيب، للحافظ ابن حجر. وقد خصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة، ومن أكثرها تداولاً كتاب: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، وكتاب: لسان الميزان لابن حجر العسقلاني.

فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكره - لأننا لم نقصد الاستقصاء - لازمة للمؤرخ ومعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها ومعرفة صحيحها من سقيمها، أما كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق، ومغازي الواقدي وفتوح البلدان للبلاذري، وفتوح الشام لأبي إسماعيل الأزدي، وفتوح مصر لابن عبد الحكم، وكتاب تاريخ خليفة بن خياط، والأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ الأمم والرسل لابن جرير الطبري، وجمهرة النسب للكلبي، ونسب قريش لمصعب الزبيري^(١)، أو كانت مصادر ثانوية. فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربة لمعرفة الصحيح من الزائف. فهي مصادر في المعلومات التاريخية، وليست مصادر في نقد الأخبار.

مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها:

لما كان منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه يعتمد في أصوله على التصور الإسلامي، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هي الأساس في منطلقاته المنهجية، وفي تفسير حوادثه، والحكم عليها، فإنه يمكن القول بأن مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي في هذا الجانب هي نفس مصادر الشريعة، (القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس) «لأن

= الدمشقي الشافعي، ولد بحلب سنة ٦٥٤هـ، ونشأ بالمزة، وحفظ القرآن وتفقه قليلاً، ثم أقبل على علوم الحديث حتى برع فيها، عمل كتاب تهذيب الكمال، وكتاب الأطراف، وكانت وفاته سنة ٧٤٢هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٨. (١) ستأتي ترجمة هؤلاء المؤرخين في الباب الثالث.

التفسير الإسلامي للتاريخ منبثق من تصور الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، وهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية، كما أنه مبني على فهم دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول، مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه^(١).

لذا ينبغي في تفسير التاريخ الاستمداد من هذه المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك في المجتمع الذي نشأ وتكون على هدي الشريعة وشكل حياته وتصوراتهِ وفقاً لها، وكانت تعليماتها وأوامرها ونواهيها موجهة لكثير من حركاته، في الدعوة إلى الله، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي التعليم، وفي بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية، وفي علاقات المجتمع الإسلامي مع بعضه ومع غيره من المجتمعات.

وحتى يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحاً وواقعياً فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التي شكلت المجتمع وتحكمت في حركته وبناء تصوراتهِ وثقافته، وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهي الشرعية، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات؟ وكم منها مائل عنها؟ لنعرف مدى الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية، ولنعرف كذلك قيمة الخسارة^(٢) التي لحقت بالمجتمع الإنساني من جرّاء الانحراف والبعد عن شريعة الله.

(١) أكرم ضياء العمري، إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام ص ٣.

(٢) كتب الأستاذ أبو الحسن الندوي كتاباً قيماً سمّاه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» أوضح فيه أثر الإسلام في حياة البشرية في أيام قوته، وكيف قلب القيم والموازين التي كانت سائدة في الجاهلية المتعددة، ثم أوضح مدى الخسارة التي لحقت بالبشرية من جرّاء انحسار دور الإسلام في حياة الناس، بسبب ضعف المسلمين وجهلهم بدينهم وكيد الأعداء لهم.

وندرك أيضاً فضل الله ورحمته بهذه البشرية، إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور، ومن الجور إلى العدل، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه.

قال تعالى: ﴿الرَّ كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

وقال تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَّا فِيهِمْ رَحَلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١ - ٤].

فالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يستمد نظرتة ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره وهذا سر المفارقة بينه وبين بقية المناهج، ففي مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه «ليس تفسيراً تبريراً^(١) بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلي على ما سواه.

كما أنه ليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج - كما في الفكر الماركسي - أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية - من مناخ وجغرافيا واقتصاد - كما في الفكر المادي الغربي، بل هو يوضح دور الإنسان ومسؤوليته عن التغير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية^(٢). إن الرجوع للمصادر الشرعية، والتمكن من فهم العقيدة

(١) أي أنه لا يَعتدُّرُ عما حدث في الماضي إذا كان مخالفاً لمواصفات ومقاييس العصر الذي نعيشه، مثل: الرق، والجزية، والجهاد بالسيف، فهي أحكام شرعية لا يجوز لنا إخفاؤها والاستحياء من ذكرها، كما يفعل بعض الكتاب بتأثير الغزو الثقافي الأوروبي والروح الانهزامية أمام الحضارة الحديثة.

(٢) أكرم ضياء العمري، المصدر السابق ص ٣.

الإسلامية، والالتزام بها، وإدراك مدى تأثيرها على معتنقيها، شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامي، فإذا ما اختل شرط منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء متأثرة بالأحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث، ولذلك وقع كثير من الكُتّاب المعاصرين في أخطاء كثيرة، بعضها راجع لتقصيرهم في العودة إلى المراجع الشرعية، وبعضها الآخر ناتج عن الغش في التصور وعدم وضوح الرؤية وتأثرهم بالغزو الفكري الأوروبي، ونظراً لانطلاقهم الخاطئ في فهم الشريعة وفي معرفة معنى العبودية لله ولوآزمها^(١)، فتراهم يأخذون في الاعتذار عن التشريعات والنظم الإسلامية، ويبحثون لها عن سند تاريخي قديم^(٢)، بل يحاولون تقريبها والملاءمة بينها وبين النظم والتشريعات السائدة في الواقع الجاهلي^(٣). وهذا المسلك قَلْبٌ للحقائق والواقع، إذ تكون الجاهلية

(١) حول معنى العبودية ولوآزمها انظر: أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن ص ٩٥ - ١١٥؛ وعبد الرحمن بن محمد الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن الكريم ٤٦/١ - ١٨٩.

(٢) يقول الدكتور محمد الطيب النجار في كتاب «تاريخ الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء»: «وليست الجزية من مستحدثات الإسلام بل هي قديمة، فرضها اليونان على سكان آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد كما وضع الرومان والفرس الجزية على الأمم التي أخضعوها» ص ١٥٨.

(٣) يقول الأستاذ مصطفى الزرقا في بحث ألقاه في مؤتمر الشرق الأدنى، الذي عُقد بجامعة برنستون عام ١٩٥٣م وحضره عدد من المسلمين والأمريكيين: «إن الصفة الدينية في الفقه الإسلامي لا تنافي أنه مؤسس على قواعد مدنية بحتة منتجة لفقه متطور كفيل بوفاء الحاجات العصرية». ثم يوضح بعض تطويره للفقه فيقول عن مشكلة الربا التي قام عليها الاقتصاد العصري: «إن هذه المشكلة يمكن حلها في مبادئ الشريعة بطرق عديدة». ويذكر من حلولها عنده، أن الربا الذي كان سائداً عند العرب وجاء القرآن بتحريمه هو الربا في القرض الاستهلاكي. ومقتضى كلامه هذا: أن الربا في القرض الاستثماري غير محرم، ومن الحلول عنده: «تأميم المصارف لحساب الدولة» فينتفي - كما =

ونظمها كأنها هي الأصل، والشرعية ينبغي أن تلائمها وتوافقها!! وهذا الأسلوب التبريري لما يشرعه الله ناتج كما قلنا من الانحراف العقدي وعدم الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان والإسلام، وذهول عن قاعدة مهمة وهي أن الشريعة الإسلامية لا تُستفتى ولا يطلب منها الحلول لمشكلات نشأت في مجتمع لا يطبق الإسلام.

إن أسلوب التخريجات لمثل هذه القضايا والأوضاع المخالفة للشرع الإسلامي أسلوب مرفوض، إذ ليس من المعقول أن نطلب من الشريعة الإسلامية حل مشكلات الاقتصاد أو العلاقات الاجتماعية للشعب الأمريكي مثلاً، لأنه لا بدّ أولاً من قبول العقيدة الإسلامية والتسليم لشرعية الله بالحاكمية والسلطان، ثم هي بعد ذلك التسليم والالتزام، تُقَوِّم عَوَجَ الحياة على منهاجها، لا أن نحاول إبقاء عوج الحياة الجاهلية بتسويق انحرافها وتبريره بفهم متعسف لنصوص الشريعة. ومن هنا يتبين لنا أهمية الرجوع للمصادر الإسلامية والتلقي منها والالتزام بأحكامها وأن ذلك يوصل بإذن الله إلى نتائج طيبة.

= زعم - معنى الربا من الفائدة التي تؤخذ على القرض لأن هذا القرض يعود لخزينة الدولة. انظر: محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية ص ١١٧ - ١٣٨.

خصائص منهج كتابة التاريخ الإسلامي

المنهج الإسلامي كما عرفنا في الحديث عن مصادره، منهج متميز ومستقل عن كل المناهج الأرضية، فهو يستمد موازينه وقيمه وتصوراته من الوحي الإلهي المنزل على رسوله ﷺ في الكتاب الكريم والسنة المشرفة، وهذا التفرد في أصوله ومصادره يحدو بنا إلى الحديث عن خصائص هذا المنهج والتي يمكن إجمالها في الخصائص التالية:

- التميز في التصور والمفاهيم.
 - التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق.
 - التميز في منهج التفسير التاريخي.
- وسنعرض فيما يلي لكل واحدة من هذه الخصائص بشيء من التفصيل المناسب.

١ - التميز في التصور والمفاهيم:

هناك مجموعة من القضايا التي ضلت فيها المفاهيم واختلفت وتعددت الآراء نظراً لتعدد المشارب ومصادر التلقي فيها، وبسبب هذا التباين في المفاهيم وقع الاختلاف في مناهج التفسير التاريخي، ففسرت أحداث التاريخ الإسلامي على خلاف مقتضى مفاهيمه وتصوراته، مما يستلزم تصحيح المفاهيم والتصورات حول هذه القضايا لكي يصحح على ضوئها منهج التفسير التاريخي، لأن المنهج إنما يقوم على مجموعة من المفاهيم والقيم إذا صحّت واستقامت استقام المنهج، وإن شُوّهت وحُرّفت أصاب المنهج الكثير من التحريف والتشويه.

فمن المعروف أن لكل أمة من الأمم مفاهيم خاصة عن الإنسان، والكون، والحياة، وعلى ضوء هذه المفاهيم تحدد قيمها وحياتها الاجتماعية والسياسية، وتنظر من خلالها للأشياء والأحداث والناس. والمفاهيم في حياة الأمة تشكل الركيزة الثقافية والعلمية التي تبني عليها تصوراتها وموازينها، وتلك المفاهيم تستمد من العقيدة التي تؤمن بها الأمة وتحافظ عليها، وبحسب اختلاف المفاهيم وتنوعها تختلف النظرة والأحكام على الأحداث والمواقف، وبقدر ما يحصل بينها من تقارب واتفاق، تتفق النظرة ويتوحد الموقف والحكم. والأمة الإسلامية لها مفاهيمها وتصوراتها وقيمها التي تتميز بها عن غيرها من الأمم؛ فإذا كانت الأمم غير الإسلامية تستمد مفاهيمها وتصوراتها من التقاليد والعادات ومما يبتدعه لها مفكروها وفلاسفتها وساستها حسب أهوائهم ومصالحهم وأفهامهم القاصرة، فإن المسلمين - والله الحمد والمنة - قد أكرمهم الله بأن بعث لهم الرسل وأنزل عليهم الوحي المفصل لكل شيء يحتاجونه في أمر دينهم ودنياهم وخاصة في الرسالة الخاتمة رسالة محمد ﷺ التي أكمل الله بها الدين، وأتم بها النعمة على العالمين، فمفاهيمنا نتلقاها من مصدر الحق في هذا الوجود، من الوحي الرباني، من الله الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، العليم القدير، الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، بل يعلم غيب السماء والأرض، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، فمن كانت هذه صفاته وهذا سعة علمه وعظيم قدرته لا بد أن يكون منهجه أكمل المناهج وأشملها، وأن يبرأ من صفات الضعف والقصور والهوى الملازمة للطبيعة البشرية، لأن علمه وقدرته وعدله مطلق لا يحد بشيء من حدود الزمان أو المواقف أو الاتجاهات. وما دامت هذه هي ميزة مصادرها وتفردا فإنه من الظلم لأنفسنا ولتاريخنا أن نتلقى مفاهيمنا وقيمنا ومناهج بحثنا وعلمنا من غير هذه المصادر الصحيحة والمأمونة من

الخطأ والانحراف. والمفاهيم في حياة الأمة هي التي توجه سلوكها، ولا بدّ للأمة لكي تعيش حرة كريمة ولها وزنها وثقلها أن تكون مستقلة في مفاهيمها، فلا تتلقى من غير مصادرها، والأمة الإسلامية لا يكفي أن يكون لها مكان ووزن بين الأمم، وإنما تقتضي رسالتها أن تكون الأمة الداعية إلى الخير، والآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر، والقائمة بالقسط بين الناس، والممسكة بزمام القيادة للبشرية باعتبار أنها مكلفة بذلك من الله العلي العظيم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فهذه الأمة معها منهج الإنقاذ للبشرية الضالة عن سبيل الهدى الممزقة بالانحرافات والأهواء، الحائرة بين شتى المناهج.

والمؤمن عندما يتأمل حالة البشرية اليوم بنظر فاحص وقلب واع - يدرك الحقائق ولا تغره المظاهر الخادعة والزركشات الظاهرة - يرى مدى الانحدار الذي تعانيه البشرية ويُقدّر زاوية الانحراف تقديراً سليماً، ولا يملك إلا أن يحمد الله ﷻ على نعمة الهداية، ويقدر هذه النعمة حق قدرها ويشعر بها شعور المؤمن الشاكر، ويتمسك بها تمسك المخبت الذاكر، ويستعلي على ما سواها لا استعلاء الاستكبار وإنما استعلاء الاعتزاز والتقدير لهذا الفضل الذي حُصّ به، مع العمل على هداية البشرية إلى هذا الخير والرشد الذي هدي إليه ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٧] قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨] ولقد أصاب المسلمين كثير من الشر والانحراف بسبب غياب هذا المعنى عن حسهم، وبسبب انبهارهم بالأضواء الشديدة للمدنية المعاصرة التي

خطفت الأبصار فأعشتها^(١) عن النظر الصحيح كما أعشت طائفة من سلفهم يوم أن انبهروا بمنطق اليونان وفلسفتها، فأورث لهم ذلك من تغير المفاهيم وانحرافها ما أبعدهم عن منهج القرآن وطريقته في تلقي العلم والمعرفة.

إن المسلمين قد أصابهم بسبب الانحراف عن المنهج الرباني وعدم التلقي منه وحده كثير مما يعانون اليوم، من التمزق السياسي، والتأخر العلمي، والفكري، والمادي، نظراً لتعدد المشارب والموارد في الأخذ والتلقي، واختلاط المفاهيم في التصور والسلوك. ولكي نضمن للأمة عودة إلى منهج الحق وتوحيداً لأشتاتها المبعثرة، وممارسة لدورها القيادي لهداية البشرية فإنه يجب أن توحد مصادر التلقي ومناهجه حتى تتوحد المفاهيم وتستقيم الموازين.

لقد غضب رسول الله ﷺ عندما رأى في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة يقرأ فيها فقال له: «لقد جئكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»^(٢). قال ابن بطال^(٣) عن المهلب: «هذا النهي إنما هو في سؤالهم عما لا نص فيه لأن شرعنا مكتف بنفسه فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم، ولا يدخل في النهي سؤالهم عن الأخبار المصدقة

(١) العشى: مرض يصيب العين فلا تبصر ليلاً. انظر: الرازي، مختار الصحاح ص ٤٣٥.

(٢) مسند أحمد، الفتح الرباني ١/ ١٧٥ من حديث جابر بن عبد الله، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري والنسائي. انظر: فتح الباري ١٣/ ٣٣٤.

(٣) هو أبو الحسن علي بن خلف بن بطال القرطبي، فقيه مالكي، شرح صحيح البخاري، وتوفي في صفر سنة ٤٤٩هـ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢٨٣/ ٣.

لشرعنا والأخبار عن الأمم السالفة»^(١).

ويؤيد هذا الحديث ما رواه الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله أحدث تقرؤونه محضاً لم يشب^(٢). وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم من مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(٣).

وسوف نتحدث فيما يلي عن نوعين من المفاهيم التي لها مساس قوي بموضوعنا هما:

- مفاهيم أساسية في التصور والاعتقاد.

- مفاهيم منهجية في البحث العلمي وإثبات الحقائق.

ومعلوم أنهما يمثلان وحدة موضوعية واحدة إلا أن أحدهما أكبر من الآخر وحاكم عليه، إذ أن التصور والاعتقاد هو الأساس الحاكم على غيره والمؤثر في السلوك العلمي والعملية، وبداية الإصلاح والتصحيح تبدأ بتنقيته وتقويمه. وإن جملة الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي وتفسيره، تكمن أسبابها الحقيقية في نقص التصور الصحيح عند من وقعوا في تلك الأخطاء، وهذا أشد أنواع الانحرافات وأعسر على التصحيح إذ يلزم أولاً معالجة الانحراف التصوري العقدي وتقويمه ثم معالجة الخطأ الناجم عنه.

أما إذا كان الخطأ بسبب سوء منهج البحث فإنه من السهل تقويمه وإصلاحه.

(١) فتح الباري ١٣/٣٣٤.

(٢) لم يشب: أي خالصاً لم يخلط بشيء آخر.

(٣) ابن حجر، فتح الباري ١٣/٣٣٣.

مفاهيم أساسية في التصور الإسلامي:

نظراً لأهمية المفاهيم وخطورتها في توجيه الأبحاث والدراسات فإنه يجدر بنا أن نعطي لمحة موجزة عن المفاهيم الأساسية في التصور الإسلامي لتكون أساساً ومنطلقاً لدراسة المنهج الإسلامي وخصائصه. ولعل أبرز تلك المفاهيم الأساسية التي نحتاج إلى إيضاها هي: معرفة التصور الصحيح في الإسلام عن الإنسان، والكون، والحياة. لأن هذه العناصر هي إطار الحركة التاريخية ومجالها، ولأنها أيضاً مفرق الطريق وأسّ الخلاف في النظرة إلى التاريخ بين المسلم وغير المسلم. فالتصور العقدي هو الذي يحكم مناهج البحث ويعطيها المقاييس والموازن التي تسير بموجبها، فإذا كان التصور صحيحاً كانت المقاييس والموازن صحيحة، لأن المناهج تعتبر أثراً من آثار التصور فهي تابعة له ومتأثرة به، وهي وسيلة من وسائل تحقيقه في الواقع العملي.

ولإيضاح هذا الارتباط بين التصور وبين منهج البحث نأخذ المثال التالي: آثار الحضارة الفرعونية ومخلفاتها. فالمنهج العلمي في البحث التاريخي هو الذي نثبت بواسطته أن باني هذا الهرم أو المشهد أو أن صانع القطعة الفلانية هو الفرعون الفلاني، فوظيفة المنهج العلمي هي تحديد الشخص الذي صنع الحدث وكفى. أما الحكم على هذا العمل بالخطأ أو الصواب وإعطاؤه القيمة الحقيقية له، وبيان مدى اتساقه مع المنهج الرباني ومع وظيفة الإنسان وتحقيق كرامته وإنسانيته، فليس من وظيفة منهج البحث بمفهومه (الاصطلاحي)، إنما هو آتٍ من التصور الذي يحمله الباحث عن الإنسان. من هو؟ ما وظيفته في الكون وهذه الحياة؟ ما نهايته؟ وما هو المصير الذي يؤول إليه بعد الموت؟ ففي ظل التصور الإسلامي الذي يحدد أصل هذا الإنسان وطبيعته، ويحدد وظيفته في هذه الحياة وهي القيام بالعبودية لله، وعمارة الأرض وفق منهج الله الذي جاء به رسله، ينظر إلى آثار هذه الحضارة الفرعونية، هل حققت

شيئاً من وظيفة الإنسان الأساسية؟ ثم ينظر إلى مَنْ تَرَكَ هذه الآثار هل كان محققاً لمنهج الله عابداً له، أم كان طاغية جباراً مذلاً للإنسانية في سبيل مجده الشخصي، وتحقيق شهواته ورغبات نفسه؟

فالتصور الإسلامي الصحيح يعطي المسلم وحدة مقياس معيارية تتسم بالثبات والشمول والامتداد الزمني. فيزن بهذا المقياس المعياري كافة القضايا والمفاهيم والمواقف والآثار، وَيَقِيَّمُ به - تقييماً لا يكاد يخطئ^(١) - دور الأمم والحضارات على مدار التاريخ. فإذا نظر المسلم مثلاً إلى إحدى الحضارات السابقة سواء أكانت فرعونية أو بابلية أو يونانية أو رومانية أو غيرها بهذا المقياس المعياري فإنه سيحكم بأنها حضارات جاهلية، لأنها لم تحقق شيئاً من الوظيفة الأساسية للإنسان ولم تكن مهتدية بهدى الله ولا متبعة لشرعه، أما غير المسلم الذي لا يؤمن بأن وظيفة الإنسان هي القيام بمنهج العبودية لله، وإنما وظيفته في نظره عمارة الأرض مجرد العمارة المادية ولذات العمارة، وأن حياة الإنسان هي هذه الحياة الدنيا وليس بعدها حياة ولا مسؤولية، فإنه سيقدر بناء على هذا التصور عن الإنسان ووظيفته ونهايته، بأن تلك الدولة قد بلغت الغاية في التقدم والحضارة، ويعجب بها أيما إعجاب، وذلك لأنها قد حققت وظيفة الإنسان في نظره.

فمن هذا يتضح لنا أهمية وجود التصور الصحيح وأنه هو الركيزة الأولى والمنطلق الذي يجب البدء بتصحيحه... وللإجابة على الأسئلة التي طرحناها حول الإنسان ووظيفته والدور الموكل إليه، ونهايته التي يصير إليها وعلاقته بالكون من حوله ينبغي أن نستعرض أولاً التصور الصحيح عن الربوبية والألوهية.

(١) يُلاحَظ أن استقامة التصور لا يمنع من وقوع الخطأ في التطبيق، فقد يكون الإنسان صحيح التصور، لكنه يخطئ نتيجة عوامل أخرى. أما خطأ التصور فإنه لا يستقيم معه عمل صحيح.

إن أول واجب على المكلف هو معرفة الله ﷻ وتوحيده والإقرار له بالعبودية والخلوص من الشرك وأهله. فكان أول أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وهذه الشهادة تشمل على نفي وإثبات. فالنفي هو قول: «لا إله»: أي لا معبود بحق. والإثبات هو قول: «إلا الله» فصار معناها: لا إله يستحق العبادة إلا الله، وأن المبلغ عن الله هو محمد رسول الله. فالطرق إلى الله كلها مسدودة إلا طريقه ﷻ فلا بدّ من معرفة التوحيد بأنواعه التي هي:

١ - **توحيد المعرفة والإثبات:** أي توحيد الربوبية والأسماء والصفات، فتعرف أن الله وحده لا شريك له هو الخالق والرازق والمحيي والمميت، الذي يملك النفع والضرر ويجب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وتعرف أن له الأسماء الحسنی وصفات الكمال والجمال والجلال فتثبتها دون تحريف أو تعطيل أو تشبيه أو تأويل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٢ - **توحيد الطلب والقصد:** وهو توحيد الألوهية والعبادة^(١) بمعنى أفراد الله وحده بالعبادة والطاعة والحاكمية والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والتوكل والخوف والرجاء والدعاء والرغبة والرغبة والحب والإنابة...

ومن المعلوم أن هذا النوع من التوحيد «توحيد الألوهية» هو نقطة الصراع وموضع الخصومة بين الأنبياء والرسل من جانب وبين أقوامهم على امتداد التاريخ البشري من الجانب الآخر، وكما أنه موطن النزاع

(١) حول أنواع التوحيد، انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب ص ٣٣.

بين الرسل وأقوامهم فإنه كذلك موطن النزاع بين أتباع الرسل من الدعاة إلى الله وبين المكذبين والمنحرفين من الطواغيت وأتباعهم.

ومن آثار هذا التوحيد وهذا الإيمان التلقيني من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، المفهوم الصحيح عن الإنسان ووظيفته ودوره في الحياة باعتبار أنه محور حركة التاريخ، فعن الإنسان مم خلق وكيف خلق؟ نجد القرآن الكريم يعلمنا أن آدم وهو أول البشرية قد خُلق من طين وسُوي خلقه في أحسن تقويم ثم نُفخ فيه الروح ثم أُمِرت الملائكة بالسجود له إشعاراً بكرامته وعظيم منزلته. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ (٧٢)﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۚ (١) يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۚ (٢) ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ (٣) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۖ (٤) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ (٥) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۚ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۚ (٦)﴾ [السجدة: ٤ - ٩].

وعن طبيعة هذا الإنسان وحرية الإرادة لديه نجد أن الله قد جعل له من نفسه زوجاً ليسكن إليها وليكون التزاوج وسيلة للنسل والتكاثر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۚ (١)﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى عن حرية الإرادة لدى الإنسان: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۚ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۚ (١٩)﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد: ٨ - ١٠].

وعن وظيفة الإنسان في الأرض ودوره في الحياة والمصير الذي يؤول إليه، نجد أن الله ﷻ قد كلفه بالقيام بمنهج العبادة والطاعة له، وأنه مستخلف في الأرض لعمارتها بالمنهج الرباني، وللجهاد في سبيل الله والدعوة إلى عبادته وحده، وأنه لم يخلق عبثاً ولن يترك هملأً، وإنما له غاية ووظيفة محددة، وأن الله تعالى سيمكن له ولذريته في الأرض متى استقاموا على المنهج الصحيح واتبعوا الرسل، أما إذا أعرضوا وانحرفوا عن عبادة الله فإن الله يستبدل بهم قوماً آخرين ثم لا يكونون أمثالهم، أما هم فيسلط بعضهم على بعض ويلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض، هذا في الحياة الدنيا أما في الآخرة فإن الناس يبعثون بعد موتهم ويحشرون إلى الله يوم القيامة فيجازي كلأ بعمله فأهل التوحيد والطاعة لهم الجنة وأهل الشرك والكفر لهم النار وبئس القرار.

فهذا هو مجمل التصور الحق عن الإنسان ووظيفته ومصيره الذي ينتهي إليه. والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، منها ما تقدم وإليك بعضها؛ قال تعالى حاصراً وظيفة الإنسان في العبودية لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى عن استخلاف الإنسان في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى عن دور الإنسان في الأرض: ﴿وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (١١)﴾ [هود: ٦١]، فقد ربط عمارة الأرض بعبادته وحده واستغفاره والتوبة إليه، وقال تعالى عن تكريمه للإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين: ٤].

وقال في وعده بالتمكين في الأرض لمن استقام على منهج الله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

أما من تولى عن منهج الله ولم يستقم على طاعته فإن الله يهدده ويتوعده بالهلاك وأنه تعالى قادر على صب العذاب على الظالمين صباً أصنافاً وأنواعاً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥]، فتقرير هذه المفاهيم الإيمانية واستقرارها في النفس الإنسانية له آثاره في حياة الإنسان وسلوكه ومواقفه المتعددة. أما عدم الإيمان بهذه المفاهيم أو تلقيها على غير الوجه الصحيح فإنه سيكون له أيضاً آثاره وسماته في حياة الإنسان الفكرية والعملية، لأن كل موقف إنما ينطلق من تصور عقائدي ينظر من خلاله إلى الوجود من حوله بصرف النظر عن خطأ أو صواب هذه التصورات العقدي أو (الفلسفي) كما يسميه أصحاب المذاهب الوضعية. «فمثلاً الهندوس في الهند يقدسون أنواعاً من الحيوانات منها البقر، ولذلك فإنه لا يذبح وقد ترتب على هذه النظرة - تقديس البقر وعبادته - نتائج اقتصادية وهي أنه ليس هناك مئات الملايين من البشر هي التي تأكل وتشرب في القارة الهندية بل مئات الملايين من البقر تأكل وتشرب على حساب قوت البشر الذين يموتون جوعاً، ولا يُستفاد من لحم هذا البقر لأنه مقدس عندهم، لأن النظرة إلى الوجود كله تؤثر في النظام الاجتماعي، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والسلوك الأخلاقي، فمثلاً سلوك إنسان يتصور أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ومسؤولية، ليس كسلوك إنسان لا يؤمن بغير هذه الحياة الدنيا. وكذلك من يؤمن بأن

الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله وأنه عبد مخلوق لله لغاية معينة وهدف محدد وهو عبادة الله وحده، ليس كمن يؤمن بأن هذا الإنسان وليد تطور أوصله إلى هذه الصورة!!!

فستان بين هذا وذاك، ليس فقط من الوجهة النظرية بل من وجهة النتائج العملية^(١)، فلأجل هذه الأهمية وهذا الأثر للتصورات والمفاهيم فإنه لا بدّ من وجود تصور ثابت للمقومات والقيم تضبط به الحركة البشرية. وهذا التصور الثابت الصحيح لا يكون ولا يستقيم إلا في ظلال العقيدة الإسلامية، لأنها تعطي للإنسان ميزاناً صحيحاً قوياً يرجع إليه في كل ما يعرض له من مشاعر وأفكار ومواقف، وما يجد في الحياة من ظروف وملابسات، فيزن كل ذلك بالميزان الشرعي الثابت ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب. «فلا بدّ من وجود مقوم ثابت منضبط بذاته حتى ينضبط به الفكر الإنساني، فلا يتأرجح بين شتى المؤثرات والشهوات وحتى لا يكون هذا المقوم أو المقياس دائراً مع الفكر البشري أو مع الواقع البشري كيفما دارا»^(٢).

ونتيجة لفقدان هذا المقوم الثابت، تكوّن لدى جمهرة من الباحثين المعاصرين مفهوم عام عن الإنسان الأول. إذ إنهم يرون أنه ناقص في تفكيره وعقله، وأنه قد تطور مع مرور الزمن، وتنقل بين مراحل عدة حتى اكتشف النار، وحتى استطاع أن يستعمل أدواته بشكل منظم، ولذلك يعبرون عنه بالإنسان البدائي. بل إن البعض منهم يذهب إلى القول بحيوانية الإنسان، وأنه تطور عن أنواع من القرود العالية مثل «الشمبانزي» و«الغوريلا» أو إنسان «جاوه» كما تسميه بعض الأبحاث

(١) انظر: محمد المبارك، النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة ٢٤٤/١ ضمن أبحاث الندوة العالمية الرابعة للشباب الإسلامي.

(٢) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٨٩.

الأثرية، وهذا في الحقيقة كله رجم بالغيب وقول بدون علم ولا دليل إلا من الأوهام والملاحظات الناقصة. . والذي يعتقده المسلمون بما لديهم من الأدلة القطعية من كتاب ربهم الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن الإنسان الأول هو آدم ﷺ وهو نبي من الأنبياء، والبشر كلهم من نسله وقد خلقه الله في أحسن صورة وأكملها في الخلق والخلق والفكر والعلم. فقد علمه الله الأسماء كلها وكافة الأمور اللازمة لاستقرار حياته على الأرض، ولقيامه بمنهج الخلافة، وآدم ﷺ قد عَلم ذلك لأبنائه.

فهذا هو التصور الحق والمفاهيم الصحيحة عن الله، والكون، والإنسان ووظيفته في الحياة، وهو مما يتميز به المنهج الإسلامي لتلقيه ذلك من الوحي الإلهي، وَيَتَّبِعُ هذا التصور الصحيح في المفاهيم الأساسية التميز كذلك في المفاهيم العملية في واقع الحياة كمفهوم الدين والعبادة والأمة ومكوناتها والحضارة والتقدم والتأخر...

مفاهيم منهجية في البحث العلمي وإثبات الحقائق

مفهوم البحث العلمي:

البحث العلمي هو المسلك الذي يتخذه العالم تجاه طائفة معينة من الظواهر^(١). أو هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لدينا أو من أجل البرهنة على حقيقة لا يعرفها الآخرون^(٢).

وقال بعضهم في تعريفه: «هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة»^(٣).

ويذكر أحد الباحثين أن هناك مصطلحين متقاربين «هما الأسلوب العلمي، ومنهج البحث العلمي» فالأول يمثل الإطار الفكري الذي يعمل بداخله عقل الباحث، والثاني يعني الخطوات التطبيقية لذلك الإطار الفكري^(٤).

فظهر من هذه التعريفات أن مفهوم البحث العلمي يعني طريقة

(١) محمد محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث فيه ص ٣٣.

(٢) محمد زيان عمر، البحث العلمي، مناهجه وتقنياته ص ٤٨. وانظر: عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي ص ٤؛ وجلال محمد موسى، منهج البحث العلمي عند العرب ص ٣١.

(٣) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي ص ٥.

(٤) محمد زيان عمر، المصدر السابق ص ٤٦.

الاستدلال والاستنتاج وترتيب الأدلة والموازنة بينها للتوصل إلى الحقائق العلمية.

فهو أصول وقواعد مقننة تهدف إلى ضبط المعرفة وترتيب مباحث العلم؛ والمناهج المعروفة في البحث العلمي ترجع بالنظر إلى طريقة البحث إلى نوعين هما:

- منهج الاستدلال والاستنتاج.

- المنهج التجريبي.

والاستدلال إما أن يكون بخبر منقول أو بوثيقة مادية أو نتيجة نظر واستنتاج من مجموعة أدلة أو قرائن منطوقة كانت أو مفهومة. ومجال استخدام هذا المنهج في الغالب هو الدراسات المتعلقة بالإنسان سواء الدراسات الشرعية أم الأدبية واللغوية أم الدراسات الاجتماعية.

أما التجربة فتعتمد على الأمور الحسية المشاهدة ومجال استخدامها في الغالب هو العلوم التطبيقية.

ويمكن تقسيم المناهج حسب الموضوعات إلى ثلاثة مناهج رئيسية

هي:

١ - منهج الاستدلال الشرعي: ويقوم هذا المنهج على النصوص

الشرعية في الكتاب والسنة إضافة إلى الإجماع، والقياس الصحيح، والاجتهاد، وذلك وفق ترتيب مفصل في علم الأصول مثل العموم والخصوص، والناسخ والمنسوخ، والمفصل والمجمل، وصحة الدليل، والجمع بين الأدلة التي يبدو بينها التعارض إن أمكن، أو اللجوء إلى الترجيح، وله طرق متعددة ذكر منها الحازمي^(١) في كتابه الاعتبار في

(١) هو الإمام الحافظ النسابة أبو بكر محمد بن موسى بن حازم الهمداني، كان من الأئمة الحفاظ العالمين بفقهاء الحديث ومعانيه ورجاله، ولد سنة ٥٤٨هـ وتوفي سنة ٥٨٤هـ وهو شاب. تذكرة الحفاظ للذهبي ١٣٦٣/٤.

الناسخ والمنسوخ من الآثار خمسين وجهاً^(١). منها كثرة العدد في أحد الجانبين، أو أن يكون أحد الراويين أتقن وأحفظ، أو أن يكون أحد الراويين مباشراً لما رواه، والثاني حاكياً، أو أن يكون أحدهم صاحب القصة لأن صاحب القصة أعرف بحاله من غيره وأكثر اهتماماً بها... إلخ.

٢ - منهج دراسة الظواهر: بشرية كانت أو طبيعية.

وهو يقوم على المشاهدة والملاحظة والتتبع، ويعتمد أيضاً على الإحصاءات ودراسة الحالات، كما يعتمد على جمع المعلومات والأخبار.

٣ - منهج دراسة العلوم التطبيقية والرياضية ويقوم على التجارب المعملية وتحليلها.

دور العلماء المسلمين في منهج البحث:

وقد كان للعلماء المسلمين دور بارز في تقنين هذه المناهج واستخدامها في أبحاثهم ودراساتهم.

ويعيننا هنا إبراز دور العلماء المسلمين في وضع القواعد لمنهجي الاستدلال ودراسة الظواهر البشرية لأنهما المنهجان اللذان لهما علاقة بالبحث التاريخي.

فمنهج الاستدلال الشرعي كله قائم على جهود الفقهاء في علوم الشريعة. خاصة علمي أصول الفقه والحديث. فقد قننوا طرائق إثبات الأخبار، ونقد المرويات والرواة، ووضعوا موازين في الجرح والتعديل حتى إذا صحت الأخبار جعلوا قواعد منظمة في الاستدلال بها، وإذا عدم النص «الخبر» ففي الاستنباط والاجتهاد مجال ضمن ضوابط وقواعد

(١) انظر الصفحات من ١١ - ٢٣.

محددة. وكذلك منهج دراسة الظواهر كان لهم مساهمة فعالة في دراستها وتبعتها وتحليلها، منطلقين في ذلك من أحكام الشريعة ومتطلباتها، وواضعين العلاج اللازم لكل حالة وفق ذلك. وقد أبان علماء السلف حقيقة المنهج العلمي من خلال أبحاثهم ودراساتهم المتخصصة^(١). وطبقوا ذلك في الواقع العملي ولم يكتفوا بالدراسات النظرية. ونوجز فيما يلي بعض سمات المنهج العلمي وأسسها كما استقر عند المحققين من العلماء المسلمين، وذلك من خلال استقراء مؤلفاتهم ومناهجهم، ونحن لا ننكر أن في سير الحركة الثقافية والعلمية للأمة مخالفات لهذه الأسس والسمات، ووقوع تقصير في جوانب متعددة، ولكننا نذكر السمات المثلى للمنهج العلمي كما هو عند العلماء المحققين. ولسنا بصدد تقويم الحركة الثقافية للأمة حتى نبين جوانب الخلل والتقصير الذي وقع فيه البعض، حيث إن غرضنا هو بيان الجانب الذي يقتدى بهم فيه. أما الخطأ والتقصير فلا يتابعون عليه. ونحن هنا نرسم منهجاً مثالياً في البحث العلمي كما نراه مطبقاً في مؤلفات المحققين من علمائنا وكما تدل عليه النصوص الشرعية والفطر السليمة.

وسمات المنهج العلمي عندهم نستطيع أن نلخصها في النقاط

التالية:

١ - استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد من صحتها.

(١) للاطلاع على إسهام العلماء المسلمين في منهج البحث العلمي. انظر: القاضي عياض، الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ص ١٣٥ - ١٨٨؛ الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية ص ١٨٠ - ١٨١، ٢٤١ وما بعدها؛ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ص ٤٦٧ - ٤٧٠؛ الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام ٣/ ٢٥٩ - ٢٨٠؛ العراقي، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح ص ٢٠٠ - ٢١٨؛ محمد الأمين الشنقيطي، مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر ٣١٧ - ٣٤٠.

- ٢ - حسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم للأدلة مع حسن العرض وتحرير المسائل.
- ٣ - الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة ومن ذلك الإيمان بالغيب وبالجزاء والحساب والقضاء والقدر^(١) ورد كل ما خالفهما.
- ٤ - الأمانة في استقصاء الأدلة وإيرادها مع الجمع والترجيح بين الروايات المختلفة وفقاً للقواعد المقررة، والاستعانة بأقوال العلماء الثقات.
- ٥ - بيان المصادر والمراجع التي أخذ عنها، مع الضبط المتقن في نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها.
- ٦ - الاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية وعدم الارتباط بالأوهام والطلسمات والظنون والتحرر من ذلك.
- ٧ - التجرد من الهوى والميل الذاتي، وقد حصل لهم هذا لأنهم ينظرون إلى العلم على أنه من العبادات التي يتقربون بها إلى الله.
- ٨ - تحكيم اللغة والالتزام بقواعدها وبدلالة الألفاظ، فلا يؤول اللفظ ولا يُخرج عن دلالة دون قرينة صارفة.
- ٩ - عدم قبول المتناقضات، وتقديم المبادئ على الرجال، ولذلك لا يسلمون لما يُنقل عن المشائخ وهو مخالف للدين ويقولون: هو أحد أمرين، إما كذب عليهم، أو غلط منهم^(٢).
- ١٠ - حسن الأدب مع كلام الله ﷻ ومع الأنبياء والعلماء. والابتعاد عن التجريح الشخصي والاقتصار في النقد على بيان الأخطاء.

(١) جرى النص على هذه الأمور من قضايا العقيدة لأنها من أهم مواطن الخلاف والنزاع في منهج البحث العلمي بين المسلمين وغيرهم، وعدم الإيمان بها نقص كبير في المنهج العلمي الصحيح.

(٢) انظر: ابن تيمية، العبودية ص ١٣٠.

فهذه القواعد التي اتبعها المسلمون في كتاباتهم ومؤلفاتهم تنطلق من التزامات خلقية ومبادئ شرعية، لأن الأمر بالصدق والأمانة، ومجانبة الهوى، وترك القول بدون علم، والوقوف بالعقل عند حدود القدرات البشرية، هو مما يتقرب به المسلم إلى الله، ويلتزمه على أنه عبادة مأمور بها، فلا يخوض فيما ليس من قدرته إدراكه، كعلم الغيب، بل على المرء المسلم التظامن والتواضع والاعتراف بالعجز فيما لا يستطيعه ولم يعط آلة العلم به. لأن هناك أموراً لا يستطيع الإحاطة بها وإنما تتلقى من طريق الوحي الرباني.

فهذه هي أصول وقواعد^(١) البحث العلمي عند المسلمين.

(١) لقد استكمل العلماء المسلمون في أبحاثهم ومؤلفاتهم شروط المنهج العلمي، الشكلية منها والموضوعية، وقد وضحنا أعلاه الشروط الموضوعية والفكرية. ونوضح هنا بعض الشروط الشكلية في إعداد البحث مثل: الإحالات والإشارات للمراجع، فقد كانوا يسندون القول إلى صاحبه وإذا انتهى النص أشاروا لذلك، مثل: انتهى قوله، أو انتهى بلفظه وحروفه. ويشيرون إلى موضعه من كتابه بقولهم: ذكره في باب كذا أو فصل كذا أو في بحث كذا وهذا هو المتيسر في عهد المخطوطات ولو كانت الطباعة موجودة لأشاروا لأرقام الصفحات والأجزاء، وأيضاً الهوامش كانت موجودة في المخطوطات العربية، لكنها على غير النظام الذي نعرفه اليوم، ومن الأمور الشكلية إعداد الفهارس وقد أوجدوا لهم طريقة تحل مثل هذه المشكلة التي لا تنضبط في المخطوطات لتغيّر أرقام الصفحات بل والتجزئة، فلعجؤوا إلى طريقة الترتيب على حروف المعجم، في القواميس والأحاديث والأعلام.

يقول الشيخ أحمد محمد شاكر في مقدمته لسنن الترمذي ٤٣/١: إن قواعد التصحيح وترتيب الفهارس ليست من اختراع المستشرقين، فلقد وضع الخليل بن أحمد في أواسط القرن الثاني الهجري كتاب «العين» ورتبه على حروف المعجم، وكذلك ألف العلماء في التراجم المرتبة على حروف المعجم ما لا حصر له، ثم إن كتب رجال الحديث قد وضع أكثرها على معنى الفهارس مثل: كتاب تحفة الأشراف في معرفة الأطراف للمزي، وقبله كتاب الأطراف لابن =

فإذا توفرت في بحث مسألة من المسائل، قيل: إن صاحبها قد اتبع المنهج العلمي وصح أن يسمى بحثه بحثاً علمياً وقبله العلماء ورضوا به. ولقد ردَّ علماء السلف على كل من خالف هذه الأصول لأي سبب كان، بالتأويل الباطل الذي لا تحتمله أساليب اللغة العربية، أو بالقول بأن لكل ظاهر باطناً كما قالت فرق الباطنية، من القرامطة، والروافض والإسماعيلية، أو بإنكار شيء من أمور الغيب، كإنكار المعجزات للأنبياء، وإنكار الملائكة، والجن، كما فعلت بعض الفرق الضالة ومن اتبع سبيلهم من العقلانيين الماديين، أو باعتماد الأوهام والظنون، والمكاشفات وخطرات النفس، كما ذهبت فرق من الصوفية، أو بإنكار القضاء والقدر كما فعلت القدريّة، أو بالالتزام بأساليب وحدود المنطق الصوري والفلسفة اليونانية الوثنية كما فعل أصحاب علم الكلام.

مفهوم البحث العلمي عند الأوروبيين:

تمهيد: قبل الحديث عن مفهوم البحث العلمي عند الأوروبيين نعطي لمحة تاريخية موجزة تيسر لنا دلالة هذا المصطلح عند القوم.

فمن المعروف أن أوروبا قبل عصر النهضة كانت تعيش في ظلام وانحطاط، خاصة في المجال العلمي، وكان رهبان الكنيسة قد آمنوا بالخرافات وتحكموا في رقاب الناس، وشرَّعوا للأمراء والنبلاء قوانين الإقطاع والظلم والاستبداد. فلما تنور بعض الأوروبيين أثناء صلاتهم مع

= عساكر، وكتاب ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث للنبلسي. كما أنك تجدهم يذكرون المترجم له ويذكرون مواضع روايته في الكتب الستة ويذكرون شيوخه وتلاميذه، واصطلحوا على رموز للكتب الحديثية يضعونها بجوار اسم الراوي المترجم له.

قلت: وقد وضع المزي هذه الرموز فوق أسماء الشيوخ والتلاميذ الذين أخذ عنهم المترجم له، كما في كتابه تهذيب الكمال.

المسلمين - في الحملات الصليبية أو عن طريق الأندلس - حاربتهم الكنيسة ورجالها الذين يخافون على سلطانهم إذا تعلم الناس وعرفوا الحقائق، وبذلك وقع النزاع بين العلم والكنيسة أو كما يسمى «بين العلم والدين» - دين الكنيسة - ومن المعروف أن أوروبا لم تعرف ديناً صحيحاً فقد حرفت الديانة النصرانية قبل أن تدخلها^(١). وكانت نتيجة هذا الصراع أن انتصر العلم على الخرافة - الديانة المحرفة - ولذلك تشبث الأوروبيون بهذا العلم الذي خلصهم من الكنيسة وسلطانها الأعوج، وفُتِنُوا بالمنهج العلمي التجريبي وجعلوه طاغوتاً يُعبد من دون الله، فقد كان وسيلتهم في تحطيم الكنيسة ودينها، وقد نتج عن هذا النزاع كراهة الأوروبيين للمباحث الدينية^(٢) لأنها تذكرهم بسلطان الكنيسة، فأسسوا مناهجهم وعلومهم على هذا الأساس من التصور والكراهية. وآمنوا بأن هناك تناقضاً بين العلم والدين، وسحبوا هذه النتيجة على كل دين حقاً كان أو باطلاً^(٣).

(١) عن تحريف النصرانية من أول دخولها لأوروبا. انظر: شهادة الكاتب الأمريكي «داربر» في كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن الندوي ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) انظر: محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٢ - ٥٣؛ وسيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٤ حيث يقول: لقد تجاوز العداء الأفكار والتصورات الدينية إلى منهج التفكير الديني بجملته، وكمن العداء للدين وللمنهج الديني لا في الموضوعات والفلسفات والمذاهب التي أنشأها الفكر الأوروبي، بل في صميم هذا الفكر وفي صميم المناهج التي يتخذها للمعرفة.

(٣) حول هذا الموضوع، انظر: سيد قطب، المصدر السابق ص ٦٧ - ٧٥؛ وسفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها، الفصل الثاني، الصراع بين العلم والكنيسة ص ١٤٥ - ١٦٤.

وهذا إما جهل بحقيقة الدين الصحيح - دين الإسلام^(١) - أو عن عمد وإصرار لأغراض ومصالح متعددة^(٢)، زيادة على ما في طبيعة النفس الكافرة من الجحود وكره الحق والإيمان كما أوضح الله ذلك في كثير من الآيات.

وقد وقع المسلمون المعاصرون تحت تأثير الغزو الفكري الأوروبي الذي جاء في أثر الغزو العسكري، فنقلوا مناهج الغرب ومفاهيمهم وطبقوها على العلوم الإسلامية، الشرعية، واللغوية، والتاريخية، والاجتماعية، مع أن تلك المفاهيم والمناهج قائمة على أسس علمانية هاربة عن ضوابط الدين وغير مهتدية بهديه، فساووا بين الحق والباطل، ألا ساء ما يحكمون!!

المنهج العلمي:

والمنهج العلمي السائد في أوروبا اليوم هو المنهج التجريبي^(٣)

(١) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(٢) لقد بحث الكاتب الأوروبي المهتدي محمد أسد في كتابه الإسلام على مفترق الطرق، موقف المستشرقين من الإسلام، وأنهم لا يحتفظون تجاه البحث فيه بموقف علمي متزن، ثم ذكر مجموعة من الطرق التي يلجؤون إليها في تشويه الإسلام عن قصد وإصرار، انظر الصفحات ٥٢ - ٥٥، ٥٨، ٦١.

(٣) وهذا المنهج قد أخذته أوروبا عن العلماء المسلمين يقول أحد الأوروبيين: «إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختياراتهم». مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ص ٢١٥. وانظر: اعتراف روجر بيكون وما نقله عنه بريفولت في كتابه بناء الإنسانية في كتاب الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٣٤ - ٣٦. ورغم تفوق أوروبا اليوم في هذا المنهج ووصولها إلى نتائج باهرة، وتقدم كبير في هذا المجال، إلا أنها متخلفة بل منتكسة إلى أدنى درجات الانتكاس في ميدان معرفة الإنسان والعلوم المتعلقة بإصلاحه وتقدمه، وقد اعترف بذلك الطبيب الأمريكي الشهير «الكسيس كاريل» في كتابه الذي سماه «الإنسان ذلك =

الذي يقوم على التجربة المعملية الحسية، وهذا المنهج صالح لدراسة العلوم المادية والتطبيقية، أما العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية التي تتعلق بالإنسان وأحواله واتجاهاته فلا يمكن استخدام هذا المنهج في دراستها لأن الإنسان ليس مادة تُقاس بالمعمل فالأشخاص متفاوتون في قدراتهم ومداركهم، وتوجد بينهم فروق فردية كثيرة، بل حتى الشخص الواحد تختلف قدراته ومواقفه وتفكيره واستجاباته بين وقت وآخر، وبين موقف وموقف، إضافة إلى تأثير التصورات والعقائد والتربية التي تلقاها، بينما المادة الجامدة تعطي وتكرر نفس النتيجة إذا تكررت الظروف. فلأجل ذلك لا يصلح هذا المنهج لدراسة العلوم المتعلقة بالإنسان ولا يمكن الاطمئنان إلى نتائج تجاربه في هذه العلوم.

وإلى جانب المنهج التجريبي هناك منهجان آخران هما:

- منهج الاستدلال الاستنباطي.

- ومنهج دراسة الظواهر. وذلك.

فالمنهج الاستنباطي عندهم يقوم على أساس القياس المنطقي والتجريد الذهني وهو ما يُعرف بالمنهج «الأرسطي» اليوناني. وقد كان لاستخدامه في دراسة العلوم الإسلامية، عندما ترجم هذا المنطق في الدولة العباسية أسوأ الأثر في تفرق الأمة الإسلامية إلى فرق متعددة، ونشأ عن ذلك مدرسة علم الكلام في دراسة العقائد الإسلامية، وقد

= المجهول» ونادى على الحضارة الأوروبية المعاصرة بالزوال والهلاك إذا هي استمرت على هذا المستوى من التقدم في علوم المادة والتأخر في علوم الإنسان، وكان الحل في نظره هو المزيد من البحث في علوم الإنسان، غير أن الحل الصحيح كما يراه المسلم، هو العودة إلى منهج الله وتلقي الهدى منه، فإنه البلسم لشفاء الإنسانية وأمراضها. انظر حول هذه المعلومة: سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٩ - ٣٢. وانظر كذلك ص ١٦٤.

حارب العلماء المسلمون هذا المنهج ورفضوه وكشفوا فسادَه وبطلانه^(١)، بل أصدرُوا الفتاوى في تحريمه^(٢)، وإن كانوا لا ينكرون الاستنباط العقلي الصحيح المهتدي بالنصوص الشرعية.

أما منهج دراسة الظواهر وتحليلها عن طريق الاستقراء والملاحظة والإحصاء فإن خطره يكمن في القائمين عليه وما يحملونه من تصورات خاطئة عن الإنسان ووظيفته، وعن الحياة وغايتها، وعن ربوبية الله وألوهيته، بل ربما يكون بعضهم من طوائف الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق، ولذلك تكون أبحاثهم مقطوعة الصلة بالوحي الرباني بل إنها تفترض العداء بين العلم المادي وعلم النبوة^(٣).

«والمنهج الغربي في البحث خال إلى الآن من أي ميزان موضوعي لتحقيق كل ما يتعلق بالرواية وصحة الخبر والنقل.

(١) منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه خاصة «نقض المنطق»، والرد على المنطقيين، ونقض التأسيس، وسيد قطب في كتابه: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

(٢) منهم شيخ المحدثين ابن الصلاح في فتاويه. انظر: مجموعة الرسائل المنيرية ٣٥/٤. وقد نقل ابن تيمية تحريم علم الكلام والفلسفة عن أبي يوسف والشافعي وأحمد بن حنبل، حتى قال الشافعي: لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الإشراف بالله خير له من أن يُبتلى بالكلام. انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٣٢/١.

(٣) راجع حول هذه النقطة ما ذكرناه سابقاً. ومحمد أسد، المصدر السابق ص ٤٥ قال: «لما تحرر العقل الأوروبي من عبوديته للكنيسة تخطى في القرنين التاسع عشر والعشرين تلك الحدود ووطد عزمه تدريجياً على العداء لكل شكل من أشكال السلطان الروحي على الإنسان، ومن ثانياً هذا الخوف الباطن ولئلا تعود تلك القوى التي تدعي السلطان الروحي أقامت أوروبا نفسها زعيماً لكل ما هو ضد الدين مبدئياً وعملياً، لقد رجعت أوروبا إلى إرثها الروماني، وأضيف إلى هذا الإرث الروماني الوثني المادي عنصر مادي جديد فأخذوا يعبدون المال كما عبد بنو إسرائيل العجل».

وما يسمونه بالمنهج «الاستردادي» أو منهج «التوسم» عمدته الأولى ما قد يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة، ودقة الوجدان، واتساع دائرة الخيال. فالأداة التي يستخدمها الباحث هي ملاحظته ووجدانه وخياله، وكل ما يعثر عليه من آثار وأحداث ووثائق.

وكيفية البحث «عندهم» هي أن يعكف الباحث على ما تَجَمَّع لديه من هذه الآثار أو الأحداث. فيقده فيها الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادئ وأحكام ووقائع. وهو - كما ترى - منهج لا يملك مهما جمع من العدة والوثائق إلا سبيلاً واحداً هو سبيل الاستنتاج الفكري بل الغيبي المجرد. وما كان الاستنتاج المجرد عن التجربة والمشاهدة والاستقراء التام والرواية الصادقة إلا رديف الوهم والشك^(١).

بينما منهج النقل والرواية قد بلغ عند العلماء المسلمين الغاية وقامت على خدمته علوم فريدة، اختصت بها الأمة الإسلامية مثل علوم الإسناد، وقوانين الرواية، والجرح والتعديل، والتراجم والطبقات. وهذه النقطة من أهم المفارقات في منهج البحث العلمي بين المسلمين وغيرهم.

«كما أن الأوروبي بطبيعته ميال إلى اعتبار أوروبا هي محور العالم. فهي نقطة الرصد في نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث. ومن هنا تتخذ في نظره أشكالاً معينة ليس من يملك الجزم بأنها أصح الأشكال، وهو يدركها في هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها، وإذا كان بدهياً أن أوروبا لم تكن هي محور

(١) د. محمد سعيد البوطي، كبرى اليقينيّات الكونية ص ٤٢، ط ٦، دار الفكر ١٣٩٩هـ، دمشق. وانظر كذلك: عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث التاريخي ص ١٨٣ - ١٨٤.

العالم في كل عصور التاريخ، وكان الأوروبي لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر، حين ينظر إلى الماضي، أدركنا مدى انحراف الزاوية التي ينظر بها الأوروبي للحياة الإسلامية التاريخية، ومدى أخطاء الرؤية التي يضطر إليها، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعينة، وذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة وانتفاء الأسباب التي تؤثر على هذه النزاهة»^(١).

وهذه العوامل كلها تؤدي إلى فساد المنهج العلمي الأوروبي في البحث، وتجعل الأخذ به في الدراسات الإسلامية خطراً كبيراً، إضافة إلى بُعد هذا المنهج عن العلوم الشرعية بل محاربته لها كما مرّ معنا.

مفهوم الموضوعية:

الوضع في اللغة ضد الرفع، «يقال: وضعه، يضعه وضعاً، وموضِعاً. وأنشد ثعلب بيتين فيهما: موضوع جودك ومرفوعه. عني بالموضوع ما أضمره ولم يتكلم به والمرفوع ما أظهره وتكلم به. ووضع الشيء وضعاً اختلقه، وتواضع القوم على الشيء اتفقوا عليه، وأوضعت في الأمر إذا وافقته فيه على شيء»^(٢).

وفي المصطلح يطلق هذا اللفظ للدلالة على المنهج أو الأسلوب المجرد عن المؤثرات الذاتية.

لأن ذات الشيء هي حقيقته الجوهرية المجردة، أما موضوعه فهو صفاته أو «أعراضه» حسب مصطلحات المناطقة^(٣).

(١) انظر: سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٤٠ - ٤١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب مادة (وضع) ٢٧٦/١٠ وما بعدها.

(٣) انظر: ملحق لسان العرب، إعداد وترتيب يوسف خياط ونديم المرعشلي ٣/ ٢١١ مادة (وضع)، وانظر كذلك: د. عوض الله حجازي، المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم، فصل التعريفات.

وقد استخدم هذان الاصطلاحان «الذاتية، والموضوعية» في مناهج البحث العلمي للتعبير عن أسلوبين أو منهجين متضادين أحدهما يعتمد على النظرة الشخصية للباحث «الذاتية» والآخر يعتمد على الحقائق المجردة «الموضوعية»، ولم يستعمل هذا الاصطلاح من قبل عند المسلمين وإنما استعملوا لفظ «الأمانة والإنصاف والصدق والعدالة». وهذه التعابير التي استعملها السلف تؤدي المعنى المراد من مصطلح الموضوعية وتزيد عليه لما لتلك التعابير من الدلالة الشرعية، والشمول والإحاطة بالمعنى المقصود.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١)، ونهى ﷺ عن شهادة الزور وغلظ في ذلك فقال لأصحابه ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»^(٢).

وقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». متفق عليه^(٣).

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣/ ١٩٨.

(٢) رواه البخاري. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥/ ٢٦١.

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١/ ١٢.

فهذه النصوص من الكتاب والسنة هي التي تعطي لهذه المصطلحات دلالتها العميقة في النفس المؤمنة وتعطيها بُعدها الأخلاقي السلوكي في واقع الحياة العملية لا مجرد طلب الالتزام الأدبي تجاه الآخرين كما هو عند غير المسلمين. لأن المسلم يشعر وهو يلتزم بهذه المعاني أنه يؤدي عبادة يتقرب بها إلى الله مثلما يتقرب إليه بالصلاة والصوم والجهاد وطلب العلم، وبمثل هذا الشعور يستطيع أن يجابه هوى النفس وميلها عن الحق، ويجابه عواطف القربى فيقف إلى جانب الحق ولو ضد نفسه، أو قريبه من والد وغيره.

كما في آية سورة النساء فلا يحيف على عدوه أو من يبغضه حتى لو كان هذا البغض في ذات الله كبغضنا للكافرين، لأن الولاء والبراء شيء وشهادة الحق والأمر بالقسط شيء آخر لا يخل به، فالموضوعية في مناهج البحث تعني الالتزام بالنص واستنتطاقه وعدم فرض رأي مسبق عليه أو الدخول إلى بحث الموضوع بمقررات سابقة، وإنما يترك الدليل والنص هو الذي يتحدث فلا يقدم عليه قياساً أو يؤوله تأويلاً خارجاً عن دلالة النص وسياقه. والموضوعية الحقة هي مراعاة كل العناصر التي لها صلة بالموضوع وعدم إغفال شيء منها.

لكن المفهوم الأوروبي للموضوعية لا يتفق مع المفهوم الإسلامي لها. فالأوروبي لنشأته البعيدة عن الدين ورفضه للأحكام والمبادئ الدينية يطلب من الباحث ليكون موضوعياً، التجرد من المقررات والأحكام الدينية، وأن يبحث الموضوع بحثاً عقلياً مجرداً، وهذا هو مكنم الخطر والخلاف بيننا وبينهم مع أن هذا غير ممكن في الواقع العملي كما سنوضح ذلك فيما يأتي من البحث. «وقد ارتبطت الموضوعية كفكرة مع المدرسة العلمانية التطورية التي تؤمن بأن العلم والطرق العلمية ستكون تدريجياً السبيل الوحيد لتنظيم حياتنا وعلاقتنا الاجتماعية والاقتصادية

ولتحديد رؤيتنا للحياة من حولنا»^(١).

ومعلوم أن هذه الأمور لا تتلقى من الطرق العلمية وإنما تتلقى في تصور المؤمن من الوحي الرباني فهو الذي ينظم علاقتنا الاجتماعية والاقتصادية ويحدد رؤيتنا ونظرتنا للحياة وللإنسان والكون كما سبق إيضاح ذلك. وبهذا يتبين لنا الظروف التي نشأ فيها مثل هذا المصطلح «الموضوعية» والإطار الثقافي والتصور الفكري الذي صاغه.

ومفهوم «الموضوعية» هذا يرتبط به في مناهج البحث العلمي مفهومان آخريان، يجدر بنا أن نعرض لهما في هذا المقام وهما: مفهوم التجرد، ومفهوم الحياد. وسنعرض للأصل اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكل منهما.

مفهوم التجرد:

الأصل اللغوي: «جرد الشيء يجرده جرداً. وجَرَدَه قَشَرَه. ويقال: رجل أجرد: أي لا شعر عليه. والجَرَد (من الأرض) فضاء لا نبت فيه. والسماء جرداء إذا لم يكن فيها غيم. والأجرد من الخيل والدواب كلها، القصير الشعر، وتجرد للأمر إذا جد فيه. وكذلك تجرد في سيره وانجرد. ولذلك قالوا: شَمَّر في سيره وانجرد به السير إذا امتد وطال، وإذا أَجَدَّ في القيام بأمر قيل: تجرد لأمر كذا ويقال: تَجَرَّد للعبادة إذا جَدَّ فيها وأخلصها لله»^(٢).

أما في الاصطلاح فإن التجرد يعني الانفصال عن كل المؤثرات النفسية والاجتماعية، وكذلك التصورات السابقة من العقائد أو الأهواء

(١) محمد عيسى فهمي، الموضوعية في الدراسات النظرية حقيقة أم خيال؟ مقالة بجريدة الرياض في ١٤٠٢/١/٦ هـ.

(٢) ابن منظور، لسان العرب مادة (جرد) ٨٦/٤، ٨٧.

والميول والرغبات، وهو بهذا المعنى مرادف لمرادهم بالموضوعية.
والسؤال الذي يمكن طرحه بهذه المناسبة هو: هل الموضوعية والتجرد بهذا المعنى ممكن تطبيقهما؟
والجواب على هذا التساؤل يكون في مقامين:

المقام الأول: أن هذا التعريف يشتمل على مغالطة كبيرة وهي طلب التجرد من العقائد والتصورات، والإنسان بصفة عامة، والمسلم بصفة خاصة لا يمكنه أن يتجرد عن ذاته ولا عن عقيدته وتصوراته الصحيحة إلا أن يكفر.

ثم إن القضية المطلوب التجرد لها وبحثها بحثاً عقلياً إما أن تكون حقاً أو باطلاً، والإنسان لا يعرف الحق من الباطل إلا بواسطة العقيدة الصحيحة لأنها الميزان الذي يزن به الأمور ليعرف حقها من باطلها، وإذا تجرد من هذا الميزان فأنتى له معرفة الحق من الباطل؟

فالتجرد في المفهوم الإسلامي هو الإخلاص والاتباع معاً، فلا يكفي الإخلاص دون اتباع منهج الحق، ولا يكفي الاتباع دون الإخلاص لوجه الله وابتغاء مرضاته. بينما التجرد عندهم هو الإخلاص لحكم العقل.

ومنشأ الاختلاف في هذا بين المسلم وغير المسلم راجع إلى الاختلاف في أصل التصور ومصدر المعرفة.

فمصدر المعرفة في التصور الإسلامي هو الوحي في الكتاب الكريم والسنة المشرفة، إلى جانب بعض المصادر الأخرى الثانوية والتي ترجع إلى الوحي ليحكم فيها ويصحح لها تصورها. بينما مصدر المعرفة في منهج البحث العلمي عند غير المسلمين، هو العقل، ولذلك يطلبون من الباحث أن يتجرد ويتحرر من تصوراته ومعارفه وقيمه السابقة ويسأل عقله، ويتلقى منه الجواب! يقول أحدهم: «إن النقد في الكتب القديمة

لم يكن مباحاً بالقدر الذي يُباح به اليوم، وأن أكثر الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية، على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالمنهج العلمي والنقد العلمي^(١). فالمنهج العلمي والنقد العلمي - في مفهومهم - يناقض التقيد بأحكام الشريعة وأن يكون النقد في إطارها، لا ما تملّيه العقول المتحررة من أحكام الدين، وكأنه يرى أن المنهج العلمي يناقض - في نظره - الكتابة لأغراض تعبدية!! ومن المعلوم أن الباحث المسلم الذي يرجو الله واليوم الآخر لا يتعلم علماً ولا يكتب كتاباً ولا يعمل عملاً إلا وله فيه نية يرجو الله أن يشيئه عليها، لأن حياة المسلم كلها عبادة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] وهذا هو مقتضى المنهج العلمي الصحيح كما قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(٢)، وكما قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٣)؛ أي مردود عليه.

أما المنهج الوثني المتلقى من الكفار والمدعاة له العلمية فإنه يتناقض في أسسه وفي أصل تصوره وفي منطلقاته الفكرية مع العقيدة الإسلامية الصحيحة، ولا يغرنك اتفاقه مع منهج البحث العلمي الإسلامي في بعض القضايا والإجراءات الشكلية.

فلقد اغتر بعض الكتاب المسلمين، بالتنظيم الشكلي الذي يدعو له منهج البحث العلمي في الغرب، وبعض التنبيهات العلمية، فأخذ يدعو لتطبيق هذا المنهج - بعجره وبجره^(٤) - في الدراسات الإسلامية غافلاً عن أسسه ومنطلقاته الفكرية الوثنية.

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد ص ٤٧.

(٢) سبق تخريجه وهو حديث متفق عليه.

(٣) رواه مسلم وسبق تخريجه.

(٤) العجر. قال الجوهرى: العجرة: العقدة في الخشب أو في عروق الجسد.

الصحاح ٧٣٧/٢، والبجر بالضم: الشر والأمر العظيم ٥٨٤/٢.

ويقول ذلك الباحث في معرض رده على من نصحوه بعدم تطبيق المنهج الغربي في دراسته عن سيرة الرسول ﷺ: (فلتكن الحقيقة غير المقيدة بأي قيد هي رائدنا جميعاً، ولنوجه كل همنا إلى أن نربط ما بين ماضي الإنسانية ومستقبلها - على أنها وحدة كبرى لا تفرق بينها القوميات ولا الجنسيات ولا الأديان - برابطة ترمي إلى تحقيق أسمى غاية تطلعت إليها الإنسانية منذ نشأتها، رابطة الإخاء الحر في ظل الحق والخير والجمال، فتلك وحدها هي الرابطة التي تكفل هداية الإنسانية في سيرها الحثيث نحو السعادة والكمال)^(١). فانظر إلى قوله لا تفرق بينها الأديان ثم اسأل أين الولاء والبراء؟ وأين حديث رسول الله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(٢).

المقام الثاني: هو أن بعضاً من الباحثين^(٣) قد شكك في إمكانية تحقق التجرد، والموضوعية في الدراسات التاريخية، والإنسانية بوجه عام حيث شعروا أن من العسير بل يكاد يكون من المستحيل تجرد الباحث من ذاته وقيمه، لذلك نادوا بتطبيق «النسبية الموضوعية» وقرروا أن الأحكام التاريخية إنما تفسر إذا فهمت على ضوء بعض القيم الأخلاقية المحددة أو إذا وضعت في مجال ثقافي يحدده^(٤) الباحث.

(١) محمد حسين هيكمل، حياة محمد ص ٤٤. ويلاحظ أن الكلمات الثلاث: الحق، والخير، والجمال، التي يدعو لها لتحل محل الأديان هي شعار الماسونية.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢.

(٣) انظر: عفت الشرقاوي، أدب التاريخ عند العرب، فصل موضوعية المؤرخ ص ٤٣ وما بعدها، وانظر: مقالة الأستاذ محمد عيسى فهمي «الموضوعية في الدراسات النظرية حقيقة أم خيال» جريدة الرياض في ٦/١/١٤٠٢هـ.

(٤) هذا الرأي قائم على أساس القول بنسبية الأخلاق وتطورها من زمن لآخر، فنفسر الحديث التاريخي ونحكم عليه في ضوء الأخلاق الرومانية، =

ولعل هذا يفسر لنا بعض السر في كثرة مذاهب ومدارس التفسير التاريخي ولهذا يمكن القول بأن ما تتطلبه الموضوعية والتجرد في المفهوم الغربي من عدم التأثر بأحكام الدين من القيم والأخلاق، أمر غير ممكن، أما التجرد من الهوى والميل وطلب اتباع الأصول العلمية في البحث فهي أمور مُسَلَّم بها، لكن الخطأ طلب التجرد من أحكام العقيدة لأن الأمة المسلمة قد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، وجعلها قائمة بالعدل، وشاهدة على الأمم كلها، من لدن نوح حتى آخر البشرية، فقد ورد في الحديث الصحيح أن نوحاً عليه السلام ومن بعده من الأنبياء يستشهدون بهذه الأمة على أقوامهم بأنهم بَلَّغُوا رسالة ربهم كما أمرهم فيشهدون لهم^(١). وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ثم إن الإنسان مسلماً أو غير مسلم لو أراد أن يتجرد من العقيدة التي يعتقدها فإن ذلك لا يمكنه إلا أن يستبدل بها عقيدة^(٢) أخرى لأن

= أو الأوروبية، أو الهندية، أو الإسلامية، مثلاً. والمسلم له منهج محدد وشريعة وضحت له الحق من الباطل، والخلق القويم من الخلق السيئ، وله قيم ثابتة لا ينظر فيها إلى قوم أو زمن أو وطن. ونحن لا نوافقهم على قولهم هذا، وإنما لنوضح تشككهم في عدم إمكانية الموضوعية والتجرد في مثل هذه الأبحاث.

(١) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٧١/٨، ٣١٦/١٣. وانظر: تفسير ابن كثير ٢٧٥/١ - ٢٧٦، ولفظ الحديث عند البخاري: يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لييك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيداً فذلك قول الله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ الآية.

(٢) تفيد الدراسات في علم النفس أن المرء لا يترك محبوباً إلا بمحسوب آخر مكانه، وأن قلبه لا يمكن أن يبقى فارغاً من غير معبود أو محبوب، وهذا واقع =

القلب كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «مفتقر بالطبع إلى العبودية فإن لم يعبد الله عبد غيره»^(١)، وقد قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، يقول سيد قطب عند تفسير هذه الآية: «فكما أنه لم يجعل له قلبين في جوفه فإنه ليس من طاقته أن يكون له منهجان واتجاهان مختلفان في آن واحد لأن صاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها صغيراً كان هذا الموقف أم كبيراً. فهو لا يملك أن يقول كلمة أو يتحرك حركة أو ينوي نية أو يتصور تصوراً، غير محكوم في هذا كله بعقيدة - إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه - لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد، يخضع لناмос واحد، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد، إن صاحب العقيدة لا يملك أن يقول عن فعل فعله: فعلت كذا بصفتي الشخصية وفعلت كذا بصفتي الإسلامية»^(٢).

وبهذا يتضح أن دعوى التجرد والموضوعية بالمفهوم السائد في منهج البحث الأوروبي غير ممكنة الوقوع على الحقيقة، وإنما الممكن هو الصدق، والعدل، والإنصاف، والأمانة، لمن يؤمن بها على مدلولها الشرعي، لأن هذا المدلول هو الذي يعطيها عمقها النفسي وسلطتها التنفيذية.

مفهوم الحياد:

قال في اللسان: الحَيْدُ هو ما شخص من نواحي الشيء. وجمعه:

= مشاهد، فالذي يترك عبادة الله لا بد أن يعبد غيره. كما أن الطفل إذا كانت في يده لعبة لا يمكن أن تنزعها منه إلا إذا استبدلتها بشيء آخر وإلا أزعجك بالبكاء والصراخ.

(١) انظر: رسالة العبودية ص ١٠٨، ١١١.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ٥/٢٨٢٣.

أحياد وحُيود، والحيد حرف شاخص يخرج من الجبل. وحايده محايدة جانبه. وكل ضلع شديد الاعوجاج حَيْد وجمعه: حيود.

وحاد عن الشيء يحيد حَيْداً وحَيْداناً ومَحِيداً وحيدودة - بتسكين الياء في الكل - مال عنه وَعَدَلَ. والرجل يحيد عن الشيء، إذا صَدَّ عنه^(١). فمعنى هذه اللفظة في اللغة لا تخرج عن المخالفة، والاعوجاج والميل، والعدول عن الشيء، والصد عنه. ولا نجد رابطاً بين المعنى اللغوي لهذه اللفظة وبين استعمالها مصطلحاً علمياً يدل على ترك الميل في بحث قضية من القضايا، والوقوف موقف العدل والإنصاف، أو التوقف في المسألة المبحوثة لعدم تبين الدليل، فلا يُقال لمن هذا حاله وموقفه: إنه «محايد».. ولكن هذا المصطلح «الحَيَادُ» مأخوذ من القاموس السياسي. وهو يعني: عدم اشتراك دولة في نزاع مسلح بين دولتين، وذلك بأن تلتزم هذه الدولة المحايدة بعدم مساعدة أي من الفريقين المتنازعين ضد الآخر^(٢). وكأنه في مجال البحث العلمي يعني ألا ينصر الباحث رأياً أو مذهباً ضد الآخر حتى لو تبين له الحق. وهذا في الحقيقة موقف سياسي لا موقف علمي صحيح، لأن المنهج العلمي يقتضي نصرته الحق والقول به إذا تبين ذلك للباحث. وهو مقتضى الأدلة الشرعية قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُتُوباً قَوْمِيكَ لِلَّهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عِندَ اللَّهِ قَلْبُؤٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، وقال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذون فوق يديه»^(٣).

(١) ابن منظور، لسان العرب مادة (حيد) ١٣٦/٤.

(٢) انظر: الموسوعة العربية الميسرة ص ٧٤٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب المظالم من صحيحه. انظر: فتح الباري ٩٨/٥.

فكل هذا يدل على وجوب قول الحق ونصرته، والوقوف بجانبه، وهذا لا يُخلّ بالعدالة والأمانة ولا المنهج العلمي الصحيح، إنما الذي يخل بها ويسمى خيانة السكوت على الباطل وعدم نصره الحق وهو قادر عليه.

فالمسلم لا يعرف ما يسمى بالحياد في قضايا العلم^(١) إذا تبين له الحق. وهذا الأسلوب بمعناه الذي يقصدونه لا يعتبر فضيلة من فضائل الباحث - وإن كان أقل درجة من التحيز والوقوف إلى جانب الباطل - لأنه أسلوب فيه تمييع وإماتة للقضايا، وظلم للحقائق، ومساواة بين الحق والباطل.

٢ - التمييز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق:

رأينا في المبحث السابق أن المنهج الإسلامي يتميز عن كل المناهج الأرضية بمفاهيمه الأساسية في التصور عن الكون والإنسان والحياة، كما يتميز بمفاهيمه المنهجية.

وقد رأينا عمق ارتباط المفاهيم المنهجية بالتصور العقدي وتأثيره فيها. ولذلك اختط العلماء المسلمون منهجاً متميزاً في التوثيق وإثبات الحقائق ومحققاً للغاية الإيمانية ومقاصد العلوم الشرعية. وكان أولى خطوات هذا المنهج قد تمت على أيدي علماء الحديث النبوي، وكانت هذه الخطوات تهدف بالدرجة الأولى إلى الحفاظ على السنة النبوية ونفي الخبث عنها عندما فشا الكذب والوضع في الحديث الشريف، لأن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته لم تكن مدونة بكاملها كما دون القرآن، وإنما كانت تتناقل في غالبها رواية شفوية،

(١) دلت الشريعة على أنه في مجال الإصلاح بين الناس يمكن أن يُظهر الإنسان التوقف حتى لو تبين له الحق حتى يتمكن بذلك من الإصلاح بين المتخاصمين.

فلما دعت الدواعي لتسجيلها بالكامل، وكان ذلك على رأس المائة الأولى من الهجرة، عندما أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي مجموعة من العلماء في مختلف الأمصار بذلك، فكتب لهم: «أن انظروا حديث رسول الله فاجمعوه فإني خشيت دروس العلم»^(١)، عند ذلك وضع العلماء قواعد لعلم الرواية والمعرفة النقلية، تبلورت مع الممارسة العملية عن مجموعة من العلوم كعلم أصول الحديث «المصطلح»، وعلم الجرح والتعديل، وتاريخ الرجال، وعلم الدراية أو «نقد المتن» ويمكننا إجمال الخطوات العامة لمنهج توثيق الرواية فيما يلي:

- ١ - التحري والتثبت في الرواية، وكان هذا مما حث عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة، وسنة الخلفاء الراشدين وعمل به الصحابة رضي الله عنهم.
- ٢ - التزام الإسناد في الرواية.
- ٣ - معرفة الرواة والكشف عن حالهم جرحاً وتعديلاً.
- ٤ - استعمال النقد للمتون والأسانيد.

وقد استفاد من هذه القواعد التي وضعت في الأساس لضبط الحديث الشريف كثير من العلوم النقلية مثل التفسير، والفقه، وعلم التاريخ، والأدب واللغة، حتى صار استعمال الإسناد في هذه العلوم من السمات العامة لمناهج التأليف والمؤلفات في القرون الخمسة الأولى، وإن لم يكن ذلك بنفس الدقة والالتزام الذي وقع من علماء الحديث.

وبالرغم من القصور في تطبيق قوانين الرواية في غير السنة النبوية فقد كان أثر اتباع هذا المنهج على علم التاريخ عند المسلمين بيناً، ومما ينبغي ملاحظته أن هناك اختلافاً بين طبيعة التأليف في

(١) ابن حجر، فتح الباري ١/١٩٥؛ والكتاني، الرسالة المستطرفة ص ٤؛ وأكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنة ص ١٢٧.

المادتين «التاريخ والحديث»^(١). ففي تأليف كتب الحديث يمكن ذكر حديثين في محل واحد مع أنه لا صلة بينهما من ناحية الموضوع دون أن يشعر الباحث بأي شيء من الارتباك، وهذا مشاهد في الكتب التي رتبت على مسانيد الصحابة كما في مسند أحمد بن حنبل، ومسند الحميدي وغيرهما. بينما يختلف الوضع بالنسبة لكتب التاريخ حيث يتطلب الأمر ملاحظة الترتيب الموضوعي والزمني فتسلسل الحوادث وتتابعها في نسق واحد يشكل أهمية كبيرة في بناء الفكرة التاريخية، مما جعل بعض المؤرخين يترك الالتزام بالإسناد، وبعضهم يستعمل ما يمكن أن يعبر عنه بالإسناد «الجمعي» حيث يأخذ الكاتب مجموعة من الروايات ثم يدمج بعضها في بعض ويسوقها مساقاً واحداً، والبعض الآخر استعمل الإسناد في بعض القضايا دون بعض، وبعضهم يحذف جزءاً من الإسناد وينقل مباشرة عن المصدر الأعلى. والحاصل أن كتب غير الحديث تختلف في صياغتها وترتيبها عن كتب الحديث التي هي عبارة عن ضبط النصوص عن الأقوال والأفعال النبوية. لما يتعلق بهذا الضبط من الأمور التشريعية التي تقوم عليها حياة الأمة المسلمة.

إن كتب التاريخ والقصص والأخبار تحتاج إلى السرد الموضوعي وذكر الحوادث والقصص في نسق تاريخي متتابع لكي تتكامل الصورة التاريخية عن موضوع البحث، وذكر السند قد يشوش على ذلك، لكنه يساعد على التحقق من صحة الرواية ويعتبر عنصراً مهماً في النقد التاريخي، ولهذا حافظ عليه العلماء الأعلام الذين قاموا بالجمع والتدوين، سواء في السيرة النبوية أم في بقية الأخبار التاريخية، كما فعل

(١) حول هذه المسألة، انظر: محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث

النبوي وتاريخ تدوينه ص ٣٩٧ وما بعدها.

عروة بن الزبير، ومحمد بن مسلم الزهري، ويعقوب بن سفيان الفسوي، وخليفة بن خياط، وأبو زرعة الدمشقي، وابن جرير الطبري وغيرهم.

والآن نحاول أن نستعرض منهج النقد عند علماء الحديث ومنهج النقد التاريخي الأوروبي، الذي ساد في كثير من الدراسات التاريخية المعاصرة، لتبين الفوارق الأساسية بين المنهجين.

منهج النقد عند علماء الحديث:

قواعد النقد عند العلماء المسلمين تشمل جانبين أو مبحثين من مباحث الحديث النبوي الشريف هما:

- مبحث الإسناد ويسمى علم الرواية.

- مبحث المتن ويسمى علم الدراية.

ولقد أَلَّفَ العلماء المسلمون في هذين المبحثين وفَصَّلُوا ذلك في كتبهم^(١) ووضَّحوه وخرجوا بقواعد نقدية تضمن لهم صحة النصوص وسلامتها من التحريف أو الزيادة والنقص.

وقد دون العلماء المسلمون الحديث النبوي بأسانيده المتسلسلة ورواياته وطرقه. ثم شاع استعمال الإسناد في مختلف التصانيف والمؤلفات، ولم يعد قاصراً على الحديث النبوي حتى صار يمثل الصفة

(١) راجع: أبو عبد الله الحاكم، معرفة علوم الحديث؛ والخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، وكتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع؛ والقاضي عياض، الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع؛ وابن الصلاح، في المقدمة، والحافظ العراقي؛ التقييد والإيضاح لمقدمة ابن الصلاح؛ والسيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي؛ الحافظ السخاوي، فتح المغيث في شرح ألفية الحديث؛ والحافظ ابن حجر، نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر؛ والقاسمي، قواعد التحديث؛ ونور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث.

الغالبية على منهج تدوين العلوم الإسلامية الأخرى. وقد استمر ذلك حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً. حيث قل بعد هذا الوقت الاعتناء به وحل محله تدريجياً النقل من المؤلفات والكتب بواسطة «الإجازة»^(١) و«الوجادة»^(٢) وإن كان بقي منه شيء عند علماء الحديث وإنما من باب التبرك والمحافظة على هذه الخصيصة للأمة الإسلامية^(٣) والرغبة في بقائها. لأن الإسناد المتصل الصحيح يعطي طمأنينة وثقة في المنقول عن هذا الطريق، إذ هو يمثل شهادة مجموعة من الرجال العدول الثقات الضابطين، مما يؤكد صحة ودقة الخبر المنقول.

وقد كان بهز بن أسد^(٤) إذا ذكر الإسناد قال: «هذه شهادات الرجال العدول المرضيين بعضهم على بعض»^(٥)، وكان يقول: «لا

(١) الإجازة هي إذن الشيخ لغيره بأن يروي عنه مروياته ومؤلفاته، وهي أنواع مفصلة في كتب المصطلح، منها ما هو جائز، ومنها ما هو غير جائز، والجمهور على جواز الرواية والعمل بالجائز منها. انظر: الباعث الحثيث ص ١٢١.

(٢) الوجادة - بكسر الواو -: مصدر مولد غير مسموع من العرب، أطلق على ما أخذ من العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة، وهي ليست من باب الرواية وإنما هي حكاية عن ما وجد في الكتاب الذي وثق فيه وتأكد من صحة نسبته لصاحبه. انظر: أحمد شاكر، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ١٢٨ - ١٣١.

(٣) الإسناد المتصل الصحيح إلى رسول الله ﷺ هو من خصائص الأمة الإسلامية ذكر ذلك الحاكم في المستدرك ٢/١، وابن حزم في الفصل ٨٢/٢، وابن الصلاح في المقدمة. انظر: شرح العراقي ص ٢٥٧.

(٤) هو بهز بن أسد العمي أبو الأسود البصري، روى عن شعبة، وحماد بن سلمة وعنه أحمد بن حنبل، وعبد الرحمن بن بشر، إمام حافظ ثقة ثبت، روى له الجماعة، توفي بعد المائتين، وأرخ ابن قانع، وفاته سنة ١٩٧هـ؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب ١/٤٩٧.

(٥) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦.

تأخذوا الحديث إلا عمن يقول: حدثنا»^(١).

والسند مهم في نقد الأخبار، إذ بمعرفة النقلة يعرف قيمة الخبر، ومدى صدقه من كذبه، ولهذا انتقد الإمام أحمد بن حنبل بعض العلوم التي لم يعتن المشتغلون بها بالإسناد كعناية علماء الحديث. فقال: «ثلاثة أمور ليس لها إسناد، التفسير، والملاحم، والمغازي»^(٢) ويروى ثلاثة أمور ليس لها أصل «بدل إسناد»^(٣)، والأصل عند علماء الحديث هو الإسناد فإن الذي ليس له إسناد لا يعرف أصله ولا مخرجه. فقد روى الحاكم عن الزهري أنه قال لمن لا يسند حديثه: «تحدثنا بأحاديث ليس لها خُطْم ولا أزيمة»^(٤).

فالذي لا خطام ولا زمام يمسك به، منفلت عن أصله فلا يعرف. وقد كان من آثار الالتزام بالإسناد أن قام العلماء المتخصصون بوضع القوانين والضوابط التي تحدد مَنْ مِنَ الرجال تقبل روايته، ومن ترد روايته، فدونوا كتب الرجال والتراجم التي تعنى بأخبارهم ورحلاتهم

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير ص ١٥٩.

(٣) نفس المصدر. وقد قال الزركشي في البرهان ١٥٦/٢. قال المحققون من أصحاب الإمام أحمد: أن مراده أن الغالب أنها ليست لها أسانيد صحاح متصلة، وإلا فقد صح من ذلك كثير، وقد حمل بعض العلماء كلام أحمد هذا على كتب بعينها في هذه العلوم الثلاثة وأشهرها في التفسير كتابان، للكلبي، ومقاتل بن سليمان، وقد قال أحمد في تفسير الكلبي إنه من أوله إلى آخره كذب لا يحل النظر فيه. انظر: الستة ومكانتها في التشريع لمصطفى السباعي ص ٢٤٥، ومما ينبغي التنبيه له أن لا يتبادر إلى الذهن أن الإمام أحمد ينفي صحة هذه العلوم كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين المعاصرين مثل: أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام ص ١٤٩، وإلا فقد صح منها الشيء الكثير والله الحمد.

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦.

وشييوخهم وتلاميذهم وطبقاتهم وأوطانهم وتاريخ ولادتهم ووفياتهم، وتُعنى كذلك ببحث عدالتهم وجرحهم وتعديلهم، مما أنتج للمسلمين ثروة علمية عظيمة النفع، إذ توضح حركة المجتمع وتاريخ العدد الكثير من أفراد وعلمائه وخاصة الصحابة رضي الله عنهم فقد عُمِلت مدونات كاملة لحصر من عُرف منهم بأسمائهم وألقابهم وكناهم، وذكر أخبارهم وجهادهم، ومعرفة طبقاتهم وعلمائهم، ومعرفة أبنائهم وتلاميذهم من التابعين الذين نقلوا العلم عنهم، ثم أخبار معظم التابعين وتابعيهم خاصة من اشتغل منهم بالعلم والرواية، وهذه ولا شك ثروة عظيمة قيمة، تمثل التسجيل الدقيق للتاريخ العلمي والثقافي للأمة الإسلامية، كما تمثل مادة جديدة صالحة للتربية والقادة الحسنة، لما في أخبار الصحابة رضي الله عنهم وعلماء التابعين، وكبار الرجال والحفاظ، من الحرص على مكارم الأخلاق، والإخلاص في طلب العلم والالتزام بالشرعية.

وقد اعتنى العلماء ببيان علل الإسناد^(١) الظاهر منها والخفي، كالانقطاع، والإعصال، والشذوذ، والإرسال، والتدليس، ووصل المرسل، ورفع الموقوف، وإبدال الإسناد، وجمع الشيوخ... وما إلى ذلك.

ومن المعلوم أنه ليس كل خبر يساق بالسند يكون مقبولاً. كما لا يكفي الباحث المحقق أن يعزو الحديث إلى مُصَنِّفٍ من المصنفات التي لم يشترط أصحابها إخراج الصحيح دون غيره، إذ لا بد من الكشف عن حال السند والنظر في رجاله.

والأصل في هذا الرجوع إلى أئمة النقل وعلمائه من أهل الجرح والتعديل، وإلى العلماء الثقات المأمونين في دينهم وعقيدتهم بحكم تخصصهم في ذلك، ودقة معرفتهم به.

(١) حول هذا الموضوع، انظر: ابن المديني، العلل؛ وابن رجب، شرح علل الترمذي؛ وهمام عبد الرحيم سعيد، العلل في الحديث.

ويكفي لمعرفة دقة المنهج العلمي الذي اتبعه العلماء المسلمون وتكامله، الاطلاع على عناوين الأبواب التي أوردتها الخطيب البغدادي في كتاب «الكفاية في علم الرواية» والتي منها «اشتراط العدالة وأن السفه والكذب يوجب إسقاطها»^(١) «كراهة النقل والرواية عن الضعفاء واختيار السماع من الأمناء»^(٢) «ترك السماع ممن اختلط وتغير»^(٣)، «من غلب على حديثه وروايته الشواذ والمناكير والغرائب لا يحتاج بروايته»^(٤) «ترك الاحتجاج بمن كثر غلطه وكان الوهم غالباً على روايته»^(٥)، «كراهية الرواية عن أهل المجون والخلاعة»^(٦)، «من عُرف بالصلاح والعبادة ولم يكن من أهل الضبط والرواية يترك الاحتجاج بحديثه»^(٧)، «نقل الحديث كما تلقى دون زيادة أو إبدال كلمة بكلمة بل حتى حرف بحرف أو حركة بحركة وإن كان ذلك لا يغير المعنى، ولا يتصرف في إصلاح ما يرى أنه خطأ ولو خالف فصيح اللغة»^(٨).

ومباحث علم الإسناد على تنوعها وتعددتها، تهدف كلها إلى توثيق النص ونقده، وبيان ما يقبل وما يرد من الروايات، لأنه إذا بطل السند واكتشف كذبه فإن ذلك يبطل النص المنقول بهذا السند، فعلم الإسناد بكل مسائله وأنواعه وعلمه يهدف إلى تصحيح النصوص ومحاربة الوضع والكذب فيها وتسمى هذه المباحث بعلم الرواية.

أما المبحث الثاني فهو البحث المنصب على المتن «النص» ويسمى علم الدراية وهو دراسة النص من جوانب متعددة. منها ما

(١) الكفاية في علم الرواية ص ١٢٦ - ١٦٥، وكذلك ص ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٠. (٣) المصدر نفسه ص ٢١٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٣. (٥) المصدر نفسه ص ٢٢٧.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٤٥. (٧) المصدر نفسه ص ٢٤٧.

(٨) المصدر السابق ص ٢٦٥، ٢٨٤.

يهدف إلى زيادة التأكد من صحة النص بعد ثبوت سنده، ومنها ما يهدف إلى فهم النص وفقهه، سواء فهم أحكامه ودلالته، أو فهم لغته وألفاظه. فكان من مباحثهم غريب الحديث، أسباب ورود الحديث، ناسخ الحديث ومنسوخه، مختلف الحديث، محكم الحديث ومتشابهه... إلخ.

وهناك مجموعة من المباحث المشتركة بين الإسناد والمتن تهدف إلى الاعتبار والمقارنة بين النصوص لغرض زيادة النقد والتمحيص. مثل المتابع^(١) والشاهد^(٢) والشاذ^(٣). وفوق هذا جعلوا ضوابط عامة لمعرفة الحديث الموضوع من غير النظر في السند، غير أن هذه الضوابط لا يستطيع تطبيقها في المجال العملي إلا العلماء المتقنون الذين تمرسوا في رواية السنن ومعايشتها فترات طويلة. وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه المنار المنيف في معرفة الحديث الصحيح والضعيف، مجموعة من هذه الضوابط^(٤).

(١) المتابع: هو مشاركة الراوي غيره في رواية الحديث مع الاتحاد في الصحابي. انظر: تيسير مصطلح الحديث للطحان ص ١٤٠.

(٢) الشاهد: هو مشاركة الراوي في رواية الحديث مع الاختلاف في الصحابي. المصدر السابق ص ١٤٠.

(٣) الشاذ: هو ما رواه المقبول مخالفاً لمن هو أولى منه. المصدر السابق ص ١١٦.

(٤) قال ابن القيم في كتابه هذا ص ٤٣: «وسئلت: هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط من غير أن ينظر في سنده» وبعد أن امتدح هذا السؤال قال: «إنه لا يمكن ذلك إلا لمن تضلع في معرفة السنن الصحيحة وصار لديه ملكة اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار ومعرفة سيرة الرسول وهديه فيما يأمر به وينهى عنه». ثم قال: «ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعاً» انظر هذه القواعد في ص ٥٠ - ١٤١.

فالمنهج النقدي عند العلماء المسلمين قد بلغ من الدقة والإحكام أرقى ما يمكن أن تصل إليه الطاقة البشرية والمقدرة الإنسانية لنقد مثل هذه العلوم.

«وقد كانت جهود العلماء المسلمين في مقاومة الوضع قد اتخذت جانبين: جانب نظري، وهو وضعهم للقواعد الدالة على الوضع في الحديث. وجانب عملي، وذلك ببيانهم الأشخاص الوضاعين وتعريف الناس بهم وبيان الأحاديث الموضوعة بالنص عليها»^(١).

وبذلك يتضح أن جهودهم النقدية لم تكن منصبة على نقد السند كما ادعى ذلك بعض الباحثين^(٢) إنما كانت تُعنى بالأمرين معاً. فمباحث المتن قسيمة لمباحث الإسناد، والعلة كما تكون في السند تكون في المتن، وتقسيم العلماء للحديث من حيث القبول والرد، إلى صحيح، وحسن، وضعيف. مبني على هذا، لأنهم يشترطون في الحديث الصحيح والحسن السلامة من الشذوذ والعلة، وهما كما يكونان في السند يكونان في المتن. وقد نبهوا على أنه لا يلزم من ضعف السند ضعف المتن. وكذلك لا يلزم من صحة السند صحة المتن. فقد يكون السند ضعيفاً والمتن صحيحاً لوروده من طرق أخرى صحيحة، كما أنه قد يصح السند ولا يصح المتن لشذوذ أو علة قاذحة فيه. يقول الدكتور نور الدين عتر: «إن النقد الداخلي - نقد النص - كان أول علوم الحديث وجوداً حين كان الناس على العدالة وذلك في عصر الصحابة»^(٣).

وقد كان منهج الصحابة رضي الله عنهم - كما عرفنا - التثبت في الرواية عند

(١) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٤٨١.

(٢) مثل: أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام ١٣٠/٢، وانظر الرد عليه في كتاب نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٦٩ - ٤٧٣.

(٣) نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٧٠.

تحملها وعند أدائها، وكانوا يمارسون النقد ويعرضون الروايات على ما لديهم من نصوص الدين وقواعده، مع أنهم لا يهتمون روايتها بالكذب ولكن للاحتياط والرغبة في ضبط الحديث، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعتذر من أبي بن كعب رضي الله عنه عندما حدثه بحديث فطلب منه أن يأتيه بيينة على ما يقول، فلما أتاه بذلك قال له: «أما أني لم أتهمك ولكني أحببت أن أثبت»^(١)، فمتون الأحاديث والآثار هي المقصودة بأبحاث علوم الحديث، والعناية بالسند هي لأجل التحقق من صحة النص.

والقواعد التي وضعها العلماء للتوصل إلى معرفة النص الصحيح - وإن كانت في الأصل خاصة بالحديث النبوي الشريف - إلا أنها صالحة للتطبيق في مختلف العلوم النقلية، وخاصة ما نحن بصدد البحث فيه وهو علم التاريخ، فإنه أخبار ووثائق وروايات لا طريق للثبوت من صحتها إلا بتطبيق هذه القواعد المنهجية، ولأنه من غير الممكن معرفة ذلك بواسطة التجارب المعملية التي تقاس بها المواد الصالحة للاختبار المعملية.

وقد أدرك هذا التميز في منهج البحث عند علماء الحديث ودقة القواعد النقدية التي توصل إليها، مجموعة من الباحثين المعاصرين في مجال النقد التاريخي^(٢)، ودعوا في مؤلفاتهم إلى احتذاء هذا المنهج، ونقلوا فصولاً بأكملها من مؤلفات علماء المصطلح مثل ابن عبد البر، والخطيب البغدادي، وابن الصلاح، بل قد سمى بعضهم كتابه بنفس التسمية التي استعملها علماء الحديث^(٣).

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٨/١.

(٢) انظر على سبيل المثال: أسد رستم، مصطلح التاريخ؛ وحسن عثمان، منهج النقد التاريخي؛ وعثمان موافي، المنهج الإسلامي والمنهج الأوروبي.

(٣) هو أسد رستم، وسمى كتابه «مصطلح التاريخ».

منهج النقد التاريخي الأوروبي :

المنهج النقدي الأوروبي للوثائق والنصوص التاريخية يعترف أصحابه أنه لم تستقر مبادئه وتقعّد قواعده إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على أيدي العلماء الأوروبيين^(١)، من أمثال شارل لانجلوا وزميله شارل سينوبوس في كتابهما: **المدخل إلى الدراسات التاريخية**. لذا سنعتمد على هذا الكتاب مع كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي «مناهج البحث العلمي» وقد قام الدكتور عبد الرحمن بدوي بترجمة كتابهما إلى اللغة العربية ثم لخصه في فصل ضمنه كتابه بعنوان: **المنهج الاستردادي**، والكتابان أكمل ما قرأت في تقرير قواعد منهج النقد التاريخي من وجهة النظر الأوروبية وخير من يمثلها^(٢).

وقواعد هذا المنهج تقوم على عدد من الخطوات، أولها البحث عن الوثائق وجمع الأصول المختلفة، سواء ما كان منها في صورة آثار مادية كالأبنية والأدوات، أو ما كان مخلفات كتابية خطية أو مطبوعة، أو نقوشاً، أو ما كان روايات شفوية، وهذه الأصول تحفظ عادة في دوائر المحفوظات والمتاحف والمكتبات، وترتب وت فهرس لكي يسهل الاستفادة منها. وهذه الخطوة ضرورية لبداية العمل النقدي لأن الناقد يقوم بفحص ونقد ما توفر لديه فهي ممهدة للنقد وليست خطوة من خطواته.

والنقد المنهجي ينقسم إلى قسمين كبيرين :

(١) عبد الرحمن بدوي، **النقد التاريخي** ص ١٤ من المقدمة.

(٢) كتب الدكتور حسن عثمان كتاب «**منهج البحث التاريخي**» عام ١٩٤٣م، وقرر هذه القواعد نفسها، وشكا من قلة حظ الشرق العربي من هذه الدراسات التي عني بها الغربيون، وخاصة منهج البحث التاريخي بالأسلوب الحديث. انظر: مقدمة الطبعة الأولى ص ٩.

- نقد خارجي .

- نقد داخلي .

فالنقد الخارجي، ويسمى نقد التحصيل يشمل ثلاث عمليات هي :

تصحيح النصوص ، ونقد المصدر ، وجمع الوثائق المحققة وترتيبها^(١) .

فنقد التصحيح أو نقد الاستعادة^(٢) يعني : مقابلة النسخ الموجودة

من الوثيقة أو الكتاب مع بعضها لمعرفة النص الصحيح لها والتأكد هل هذه الوثيقة بخط المؤلف نفسه أم أنها منقولة من نسخة أخرى قد لا تكون بخط المؤلف؟ وتكون الصعوبة فيما إذا كانت النسخة وحيدة . وطريقة التصحيح في مثل هذه الحالة ، تكون عن طريق استقصاء الأخطاء التي يقع فيها النساخ عادة مثل تكرار بعض الكلمات أو بعض المقاطع ولذلك ينبغي وضع معجم أبجدي منهجي للأخطاء الشائعة في كتابة كل لغة من اللغات وأن يكون الباحث على معرفة باللغة التي كتبت بها الوثيقة وأن يكون عالماً بالخطوط التي كتبت بها النصوص ، وبذلك يستطيع أن يصل إلى أقرب نص صحيح للوثيقة كما دونها كاتبها الأول .

أما نقد المصدر، فيقصد به معرفة مؤلف الوثيقة ، ومعرفة مصدر

المعلومات الواردة فيها وتاريخها ، وتفحص أسلوبها وتراكيبها اللغوية وطريقة صياغتها ، لأن لكل مؤلف ولكل عصر خصائص أسلوبية من الممكن ملاحظتها من الاطلاع على بقية كتبه ، كما أن مقارنة الأحداث التي يتحدث عنها المؤلف مع بقية كتبه ، ومع بقية الأحداث التي تذكرها المؤلفات المعاصرة يعطي ضوءاً نستطيع به نقد الوثيقة والتأكد من صحتها ، وأيضاً تحديد الاقتباسات وإرجاعها إلى أصولها ، والمعرفة

(١) المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ٨٦ .

(٢) عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ص ١٨٨ .

الدقيقة بتفاصيل حياة المؤلف تكشف لنا جوانب مهمة مما يجعلنا نستطيع تمييز الحشو أو الإكمال^(١) دون عناء، خاصة إذا كان المؤلف يوضح مصادره، أما إذا نقل من المصادر السابقة له دون إشارة لها فإن هذا يسبب صعوبة في معرفة مصادر معلوماته. ومن أهم فوائد نقد المصادر، إيضاح التزوير والانتحال في الوثائق والمؤلفات. وقد ضرب الدكتور عبد الرحمن بدوي^(٢) لذلك مثلاً بكتاب «نهج البلاغة» الذي وضعته الشيعة وقصدوا من ورائه تأكيد مذهبهم وصحته وأن هذا المذهب مما يقول به الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، والفاحص الناقد إذا تملّى كثيراً مما فيه منسوباً لعلي عليه السلام أيقن أنه مكذوب عليه. والتزوير والانتحال يكون بنسبة كتاب كله إلى شخص وهو منه براء، أو تزوير بعض الأقوال والآراء، ويعبرون عنه بالحشو والإكمال، أي أشياء تدخل على أصل الوثيقة وهي ليست منها، ولقد كان هذا شائعاً في الثقافة الأوروبية في العصور الوسطى دون أن يذكر المكمل للكتاب اسمه وإنما يجعله كأنه من عمل المؤلف الأول^(٣).

وهذا الصنيع عرف في الثقافة الإسلامية باسم الذيول ولكن هذه الذيول مميزة عن الأصول بمعرفة أصحابها وتصريحهم بذلك وبوضعها مستقلة عن الكتاب الأصلي.

وعملية نقد المصدر تكشف لنا كثيراً من الأخطاء وتحمي المؤرخين من الوقوع في أغلاط هائلة، وتساعد على استبعاد الوثائق الزائفة والتمييز بين الوثائق حتى وإن كانت صحيحة النسبة.

وهذا النوع من النقد مثل نقد التصحيح، فهو تحضييري، ونتائجه سلبية. «إنه يعلمنا أن لا نستعمل وثائق سقيمة، لكنه لا يعلمنا كيف نفيدها».

(١) سيأتي شرح المراد بها في النص. (٢) المصدر نفسه ص ١٩٥.

(٣) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي ص ١٩٩.

من الوثائق السليمة، وعلى هذا فإن نقد المصدر ليس هو كل «النقد التاريخي» إنه مجرد مدماك منه^(١).

أما العملية الثالثة فهي جمع الوثائق المحققة وترتيبها أو «الترتيب النقدي للمراجع»^(٢) وللباحثين في ذلك مذاهب وطرق، حيث يتبع كل باحث ما يناسبه من هذه الطرق فمنهم من يرتب هذه المواد والوثائق حسب وصولها إليه ومنهم من يرتبها حسب موضوعاتها ومنهم من يستخدم طريقة «الجزازات»؛ أي البطاقات المنشورة، وهذه الطريقة فيما يبدو هي أسلم الطرق خاصة في النصوص القصيرة والأبحاث التي تعتمد كلية على النصوص مثل تحقيق المخطوطات ونشر الكتب ومثل المعاجم المرتبة على مواد.

وإلى هنا يكون الباحث قد انتهى من القسم الأول من أقسام النقد المنهجي «نقد التحصيل» أو «النقد الخارجي» ويشمل خطوتين رئيسيتين: نقد النص؛ أي تصحيحه، ونقد المصدر؛ أي توثيقه.

أما الخطوة الثالثة وهي الترتيب النقدي للمراجع فهي تنظيمية شكلية. وهذا القسم بكل خطواته يعتبر عملاً تحضيرياً للقسم الثاني فهو وسيلة وليس غاية.

النقد الداخلي:

الخطوة الحقيقية في المنهج التاريخي هي عملية «النقد الباطن» أو النقد العالي، والمسمى التحليل والتركيب، ويقصد بهذه العملية بيان ما قصده صاحب الوثيقة، من هذه الوثيقة، ثم معرفة صدقه في الرواية سواء أكان شاهد عيان أو كان ناقلاً عن غيره. ذلك أن صاحب الوثيقة مرَّ

(١) لانجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ٧٦.

(٢) حول هذه النقطة، انظر: المصدر السابق ص ٧٧ - ٨٠.

بجملة أدوار فقد ابتدأ بأن كان شاهد عيان، شاهد حادثاً، ثم أدركه ثم كتبه، وهذه الكتابة تمر بجملة أدوار من استخدام ألفاظ، ثم استخدام تعابير، ثم طريقة تنظيم الوصف، وكل هذه الحلقات المتتالية من العمليات يمكن أن يقع الخطأ في إحداها، فعلينا إذن أن نعرف بالدقة أين أخطأ؟ وأين أصاب؟ وهل استطاع أن يروي الحادث كما شاهده تماماً؟ أو هل لم تكن ثمة دواعٍ للتزييف المقصود أو الخطأ؟ أو أن عدم الدقة في رواية الحادث كان لأسباب إما شخصية وإما خارجة عن قدرته^(١)، ولكي يكون التحليل كاملاً ينبغي عليه أن يعيد تركيب كل العمليات التي لا بد أن يكون المؤلف قد أجراها وأن يفحصها الواحدة تلو الأخرى، للبحث فيما إذا كانت كل منها قد تمت على الوجه الصحيح. فينبغي المرور من جديد بكل الأفعال المتوالية التي أنتجت الوثيقة منذ اللحظة التي شاهد فيها المؤلف الواقعة التي هي موضوع الوثيقة حتى حركة يده التي خَطَّت حروف الوثيقة. ولكن هذا المنهج من الطول والإرهاق بحيث لن يجد أحد من الوقت، ولا من الصبر ما يستطيع به أن يطبقه^(٢).

والنقد الباطن ليس كالنقد الخارجي أداة يمكن استخدامها لمجرد لذة الاستخدام، فليس يحقق استخدامها لذة مباشرة، لأنه لا يحل أي مشكلة حلاً نهائياً حاسماً، ولا يُمارَس إلا بحسب الضرورة، وينبغي تضيقه إلى أضيق الحدود.

والمؤلف الأحرص على الدقة يقتصر على منهج موجز يركز كل العمليات في طائفتين:

- (١) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي ص ٢٠٥ - ٢٠٦.
- (٢) لانجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ١١٠.

١ - تحليل مضمون الوثيقة، مع النقد الإيجابي للتفسير، اللازمان للتأكد مما أراد المؤلف أن يقوله.

٢ - تحليل الظروف التي أُنتِجت فيها الوثيقة، مع النقد السلبي للنزاهة والدقة اللازمان لضبط أو مراقبة أقوال المؤلف. على أن هذا الازدواج في العمل النقدي لا يمارسه إلا الصفوة المختارة^(١).

فالخطوة الأولى في النقد الباطن هي النقد الإيجابي للتفسير ويقصد منها فهم مدلول نص الوثيقة التي بين أيدينا فهي عملية تفسير حرفي للنص ثم تفسير إجمالي وهذه الخطوة تتطلب معرفة لغة الوثيقة واصطلاحاتها وتطور معاني ألفاظها وبلاغتها، ومعنى كل كلمة حسب السياق الذي وردت فيه، كما تتطلب معرفة أسلوب المؤلف وطريقته في استعمال الألفاظ، وهل يكثر من استخدام الكنايات والاستعارات والمجازات والتشبيهات، وهل يعنى بالمحسنات اللفظية كالجناس والطباق.. وغيرها. وهذه المرحلة خطيرة المسلك حينما تكون عادات اللغة أو الفكر عند المؤلف مباينة لعادات الباحث الذي يقرأ هذا النص ويقوم بتحليله.

«فكل من يقرأ نصاً ولا يهتم بفهمه فهماً تاماً لا بد أن يحدث له أن يقرأه من خلال انطباعه هو، فيجتذب انتباهه في الوثيقة الجمل أو الكلمات التي تتجاوب مع تصوراتهِ والتي تتفق مع الفكرة السابقة التي كونها مقدماً عن الوقائع، ودون أن يتبين ذلك تراه يَفْصِلُ هذه الجمل أو هذه الكلمات، ويؤلف منها نصاً خيالياً يضعه مكان النص الحقيقي الذي كتبه المؤلف»^(٢).

ولذا «ينبغي أن يتخذ المرء قاعدة له وهي البدء بفهم النص في ذاته

(١) لانجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ١١٠.

(٢) لانجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ١١١.

قبل أن يتساءل عما يمكن استخلاصه منه»^(١).

أما الخطوة الثانية فهي النقد السلبي للنزاهة والدقة.

فإذا كانت الخطوة السابقة قد عرفتنا ماذا قصد المؤلف من الوثيقة المكتوبة؟ فإن هذه الخطوة تهدف إلى تعريفنا كيف شاهد المؤلف الحادث الذي وصفه وهل أصاب في مشاهدته أم لا؟ وهل قصد إلى الكذب أم لم يقصد؟ وإلى أي مدى نثق بهذه الوثيقة وإلى أي حد تعبر عن الواقعة؟

فكل هذه المسائل لا بد أن تقوم بها عملية النقد الباطن للنزاهة والدقة، والبحث في هذه الخطوة ينقسم إلى قسمين: روايات مباشرة «شهود عيان». وروايات غير مباشرة.

ولا يلزم من كون الرواية مباشرة صحة الوثيقة على كل حال بل لا بد من اختبار النزاهة والدقة عند الراوي. فننظر في الوثيقة والظروف التي أحاطت بالمؤلف سواء كانت عامة أم شخصية وعلينا أن نجتمع أكبر قدر من المعلومات عن المؤلف وعن أمانته وثقة الناس فيه، وعن العصر الذي كتبت فيه، وعن الوثائق المشابهة التي روت نفس الحادث. ثم نضع طائفة من الأسئلة العامة الموضوعة سابقاً والتي تنطبق على كل حالة فردية مع شيء من التعديل وهذه الأسئلة تدور حول النزاهة والدقة^(٢). فالنزاهة تتعلق بأمانة المؤلف وهل أدى كما رأى على الحقيقة أم أنه كذب وحرّف؟ والأسباب الداعية للكذب كثيرة وهي تشكل صورة الأسئلة التي يتطلب الإجابة عليها لاختبار النزاهة عند الراوي، كأن نتساءل مثلاً عما إذا حاول المؤلف أن يجتلب لنفسه منفعة شخصية وأراد أن يخدع

(١) المصدر السابق ص ١١٢.

(٢) حول هذه الأسئلة والاحتمالات، انظر: المصدر السابق ص ١٢٨ - ١٣٣، ومناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي ص ٢١٢ - ٢١٤.

القارئ بهذه الوثيقة فقدم له معلومات كاذبة، وعما إذا كان المؤلف أو الراوي في موقف أرغمه على الكذب، وعن طبيعة عواطف الراوي وموافقته أو كراهيته لجماعة معينة من الناس أو مذهب من المذاهب والتي ربما تحمله على تشويه الوقائع في سبيل إعطاء فكرة حسنة عن أصدقائه وسيئة عن أعدائه.

وعما إذا كان هناك انسياق وراء غرور فردي أو جماعي ابتغاء تمجيد شخصية معينة أو جماعة معينة، وعما إذا أراد الراوي أن يتملق الجمهور أو جهة من الجهات، فعبر عن العواطف والأفكار المتفقة مع آراء الجمهور أو هذه الجهة.

أما المجموعة الثانية من الأسئلة فتهدف إلى كشف دوافع الخطأ واختبار الدقة لدى الراوي فيتساءل الباحث عما إذا كان المؤلف في موضع يسمح له بملاحظة الواقعة، أم منعه من ذلك مانع، وعما إذا حُمِلَ على إساءة الملاحظة. كما يتساءل عما إذا كان في موضع لا يسمح له بالملاحظة، كأن يكون في موضع لم يكن يستطيع منه أن يرى جيداً أو يسمع، مثل مرؤوس يدعي رواية مداولات سرية في مجلس رؤساء، دون أن يوضح الوقت الذي سجل فيه هذه الملاحظة أو الرواية. ثم الاستفسار عما إذا كان المؤلف شاهد الواقعة التي وصفها أم أنه تكاسل واكتفى بالوصف التخميني دون أن يشاهدها على الحقيقة، وهذا السبب شائع جداً خاصة الروايات المفصلة عن المراسم العامة والبرامج المعدة سلفاً ومحاضر الجلسات الرسمية. وكذلك التعرف على طبيعة الواقعة وما إذا كان من الممكن معرفة ذلك بالملاحظة وحدها. مثل أن يتحدث عن أسرار الحياة الزوجية لأسرة من الأسر لأن هذا مما لا يدرك بالملاحظة العامة.

هذا كله إذا كانت الرواية مباشرة أما إذا لم يكن الراوي شاهد الحادثة بنفسه وإنما نقل عن من شاهدها سواء فرداً أو مجموعة أفراد،

فروايته تكون غير مباشرة ومعظم وثائق التاريخ من هذه الدرجة واختبار النزاهة والدقة لمثل هذه الوثيقة تتحقق عن طريق محاولة البحث عن الراوي الأصلي الذي عاين الحادث ثم تجري عليه نفس العمليات السابقة. أما إذا لم نستطع الوصول إليه فليس أمامنا إلا المقارنة بالروايات الشبيهة في الوثائق الأخرى.

وبهذه الخطوة نكون قد أنهينا المهمة الرئيسة في النقد التاريخي للوثائق وهي إثبات صحة الوثائق، والتحليل بأنواعه، ولم يبق إلا الصياغة والترتيب واستخراج المعلومات التي دلت عليها الوثيقة، لكن تبقى هناك ثغرات وفجوات على المؤرخ أن يسدها بالاجتهاد وهذه المرحلة تسمى بالاسترداد أو الاستبطان أو إعادة البناء التاريخي وتعتمد على الخيال^(١) الخصب والموهبة.

المقارنة بين المنهجين:

من استعراضنا لمنهج علماء الحديث في نقد «المتون» أو «النصوص» ومنهج النقد التاريخي الأوروبي تتضح مجموعة من الحقائق التي ينبغي التنبه لها وهي:

١ - لا صحة للقول بأن العلماء المسلمين قد قَصَّروا في نقد المتون وأن أعمالهم النقدية كانت شكلية، تعتمد على نقد السند فحسب، وهذا الادعاء تدفعه المباحث الكثيرة والمفصلة في علم المصطلح حول علل المتن وشذوذه ويدفعه التطبيق العملي لممارسة نقد المتن من قبل العلماء المتخصصين في هذا الشأن. ولكن الذي جعل المستشرقين وأتباعهم في العصر الحديث^(٢) يطلقون هذه التهمة هو ما وجدوه في منهج نقد

(١) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث التاريخي ص ٢٢٠، محمد محمود صبحي في فلسفة التاريخ ص ١٢.

(٢) انظر حول هذا: نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٦٠ وما =

المحدثين من التكامل وسدّ باب القول في الحديث النبوي بدون علم ولا إيمان وقصرهم ذلك على العلماء الحفاظ الثقات المتقنين الممارسين للآثار النبوية والعاملين بها. وقد تقدم قول ابن القيم في هذا، وقد قال الشافعي رحمه الله: «ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه إلا في الخاص القليل من الحديث»^(١)، قال البيهقي: «وهذا الذي استثناه الشافعي لا يقف عليه إلا الحذاق من أهل الحفظ. فقد يزل الصدوق فيما يكتبه فيدخل له حديث في حديث، فيصير حديث روي بإسناد ضعيف مركباً على إسناد صحيح، وقد يزل القلم ويخطئ السمع ويخون الحفظ فيروي الشاذ من الحديث عن غير قصد فيعرفه أهل الصنعة الذين قيصهم الله تعالى لحفظ سنن رسول الله ﷺ على عباده وذلك بكثرة سماعه وطول مجالسته أهل العلم به ومذاكرته إياهم»^(٢). فمعرفة علل الحديث من أجل العلوم ولا تظهر إلا للجهابذة^(٣) من أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب ولهذا لم يخض غماره إلا القليل من أمثال علي بن المديني، ويحيى بن معين، وابن حنبل، والبخاري، والرازيان، والدارقطني، ولذلك قالوا في تعريف الحدث المعلن: «والمعلن خبر ظاهره السلامة اطلع فيه بعد التفثيش على قاذح»^(٤)، وقالوا: «العلة سبب غامض خفي قاذح في صحة الحديث مع ظهور السلامة منه»^(٥)، ولهذا

= بعدها؛ ومحمد عجاج الخطيب، السّنة قبل التدوين ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

(١) البيهقي، دلائل النبوة ٢٩/١. (٢) المصدر السابق.

(٣) الجهبذ: كدرهم وهو النقاد الخبير بغوامض الأمور العارف بطرق النقد وهو معرب. الزبيدي، تاج العروس مادة (جهبذ) ٥٥٨/٢.

(٤) العلل في الحديث لهمام عبد الرحيم سعيد ص ١٨، وينقل ذلك عن فتح المغيث ص ١٠٥.

(٥) علل الحديث ومعرفة الرجال لعلي بن المديني، تحقيق عبد المعطي قلعجي ص ١٠.

لما قيل لعبد الرحمن بن مهدي: «إنك تقول للشيء: هذا صحيح وهذا لم يثبت فعمن تقول ذلك. قال: أرأيت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك فقال هذا جيد وهذا ستوق وهذا بهرج^(١)، أكنت تسأل عمن ذلك أو تسلم للأمر؟ قال: بل كنت أسلم الأمر إليه. قال: فهذا كذلك لطول المجالسة والمناظرة والخبرة»^(٢).

فهؤلاء الناقدون على المحدثين منهجهم يريدون الاعتماد على النظر العقلي وحده، وأن يكون النقد مشاعاً لكل من أراد سواء كان من أهل الصنعة والعلم أو من أهل الجهل والفسق «وهذه الفكرة ليست من اختراع المستشرقين وإنما هي تجربة سبقت في تاريخ المسلمين من أيام المعتزلة الذين جعلوا الرأي وحده يتحكم في المتون سلباً وإيجاباً، نفيّاً وإثباتاً وقد أسفرت عن أسوأ النتائج وأغرب التناقضات فرفضوا المتون الصحيحة لمجرد بعدها عن خيالاتهم ومألوفاتهم.. وإذا بهم يبلغون من الإسفاف مبلغاً عظيماً حيث راحوا يحتكمون إلى المشاهدات المادية المعتادة، يقيسون عليها ما ورد من النصوص في عوالم مغيبة كالأحاديث في الملائكة أو الجن أو المعجزات، ينكرونها أو يتأولونها تأويلات هزيلة حتى خرجوا بذلك عن نصوص الإسلام القطعية»^(٣).

الحقيقة الثانية: تكامل منهج النقد الإسلامي وتدوين قواعده منذ القرن الثالث الهجري حيث نقدوا النصوص ونقدوا حملة النصوص وروايتها مما أنتج لهم علم الإسناد المتصل الصحيح الذي هو من خصائص هذه الأمة الإسلامية، كما أنتج لهم مجموعة من المعارف

(١) ستوق. يقال: درهم ستوق؛ أي زيف. انظر: مختار الصحاح ص ٢٨٦.

والبهرج: الباطل والرديء من الشيء يقال: درهم بهرج. المصدر نفسه ص ٦٧.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة ٢٦/١ - ٣٠.

(٣) نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٧١.

والعلوم كعلم الرجال وطبقاتهم ورحلاتهم، وتواريخ المدن والمراكز العلمية، وعلم الجرح والتعديل، وكان من ثمرات هذه العلوم أن حفظت الأمة تاريخها الثقافي والعلمي بأدق تفاصيله ومراحله.

الحقيقة الثالثة: أن منهج النقد التاريخي عند الأوروبيين لم توضع قواعده بشكل منظم إلا في القرن التاسع عشر الميلادي؛ أي بعد معرفة المسلمين لقواعد النقد بعشرة قرون كاملة أو أكثر ولا بد أنهم استفادوا من قواعد النقد عند المسلمين أثناء صلاتهم بهم عن طريق معابر الحضارة سواء في الأندلس أو جزائر البحر المتوسط أو أثناء الحروب الصليبية، وهذا يظهر في التشابه الموجود بين المنهجين في بعض الخطوات كنقد المصادر والنقد الباطني بنوعيه الإيجابي «تفسير النص ومعرفة لغته» والسلب لمعرفة عدالة الراوي وصدقه ولمعرفة دقته «أي مقدار ضبطه وحفظه»، ولا شك أن مقاييس العدالة والضبط تختلف تبعاً لاختلاف التصور.

الحقيقة الرابعة: منهج النقد التاريخي في ظل التصور الغربي الذي لا يؤمن بالرسالات السماوية وخاصة رسالة محمد ﷺ أو يؤمن بأنها خاصة بالعرب على أحسن الأحوال، والذي لا يؤمن كذلك بالغيب غير صالح للتطبيق في الدراسات الإسلامية. ونحن قد أغنانا الله بما وفق علماء المسلمين من تقنين هذه القواعد المنهجية وتطبيقها عملياً في مجال الدراسات الحديثة بأدق ما يمكن بلوغه من الطاقة البشرية وإن كان هذا التطبيق العملي لم يتم في مجال الدراسات التاريخية بنفس الدقة والشمول لأسباب وعوامل مختلفة.

وهذه القواعد التي قررها علماء الحديث أولى بالاقتداء بها وتطبيقها في التاريخ الإسلامي من منهج النقد التاريخي الأوروبي، لما بين التاريخ الإسلامي والحديث النبوي من التوافق في المنطلقات والمبادئ والتصورات المشتركة، ولأن قواعد نقد الحديث قد وضعها

علماء مسلمون، والتاريخ المطلوب تطبيق تلك القواعد على دراسته هو تاريخ المسلمين فالتوافق الفكري والمنطلق العقدي مشترك. بينما قواعد النقد التاريخي التي تسود معظم الدراسات التاريخية المعاصرة وتطبق في معظم الجامعات الإسلامية - مع الأسف - قد وضعها علماء أوروبيون من واقع تجاربهم ودراساتهم لتاريخهم سواء القديم منه أو المعاصر وهي لا تسلم - ولا شك - من لوثة التفكير الجاهلي، لأن المنهج جزء من التصور، وخاصة مناهج العلوم النظرية، إذ المناهج لهذه العلوم ليست أدوات ممكن أن تخدم أكثر من تصور كما في مناهج العلوم الطبيعية، فواضع المنهج لم يضعه من فراغ وإنما من واقع تصورات وأفكار، ومبادئ، يؤمن بها ويدافع عنها ويرجو من هذه القواعد التي وضعها أن تحققها له، وإنما الذي يمكن التساهل في الأخذ به هو مناهج العلوم الطبيعية.

٣ - التميز في منهج التفسير للحوادث:

تفسير التاريخ يقصد به معرفة الروابط التي تربط الأحداث والوقائع المتفرقة، ودراستها لتبين دوافعها وارتباطاتها ونتائجها، واستخلاص السنن والنواميس الإلهية من خلالها، والاعتبار بالدروس والعظات فيها. وهو مرحلة تأتي بعد التحقيق والنقد للأخبار، فما ثبت من الوقائع والأحداث هو الذي يفسر وتدرس ارتباطاته ويتعرف على دلالاته وآثاره، وهذا الجانب من الدراسة «إدراك دلالة الحوادث وارتباطاتها» ملحوظ بكثرة في القرآن الكريم سواء في عرض القصص الواقعي لتجارب العديد من الجماعات البشرية ومواقفهم من أنبياء الله ورسله، أو في التعقيبات التي ترد بعد كل واقعة تاريخية في عصر الرسالة ونزول الوحي على الرسول ﷺ، وهو ما سمي عند المفسرين بأسباب النزول، أو في التوجيهات والتحذيرات التي تأتي بعد سياق الحوادث التاريخية لأجل

تقرير المقاييس والقيم وتصحيح المفاهيم وأخذ العظات والعبر من خلال عرض تلك المواقف. «والقرآن الكريم لا يقدم قصصه ومشاهداته لمجرد الترف الذهني وإشباع حاجة المؤمن إلى القصص والمشاهدات، ولا لنزعة «أكاديمية» تسعى إلى تتبع ما حدث فعلاً دون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإرشاداته الأخلاقية.

فالقرآن يجيء بمعطياته التاريخية من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام ويبعده عن المزالق التي أودت بمصائر مئات من الأمم والشعوب.

كما يجيء بالقصص والأحداث التاريخية من أجل إبراز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والمجتمعات الإسلامية على مدار التاريخ لكي يوضح أنه لا يوجد في كل العالم إلا أمتين اثنتين، أمة الحق، وأمة الباطل. فالحركة هي هدف العرض التاريخي لا مجرد السرد والاستقصاء، والقرآن يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع «فحسب» إلى محاولة استخلاص السنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية»^(١).

والمنهج الإسلامي في تفسير الحوادث مستقل عن كافة المناهج الوضعية ومتميز عليها باستمداده من المصادر الشرعية - الكتاب والسنة - والعلماء المسلمون عرفوا هذا المنهج في تفسير التاريخ والنظر إلى حوادثه، وقد استفادوا من طريقة القرآن في عرض الأحداث التاريخية ودعوته إلى إدراك السنن، والإفادة من التجارب البشرية السابقة - وإن لم يفرّدوا ذلك بمؤلفات مستقلة - حيث كانت الصورة واضحة في أذهانهم

(١) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٨ - ٩ بتصرف.

عن الهدف من دراسة التاريخ، يدل على هذا اختيارهم^(١) لعناوين كتبهم، وبيانهم للهدف الذي من أجله كتبوا هذه الكتب، وتعقيباتهم على بعض الأحداث، ولكنهم لم يشاؤوا التدخل بالتفسير والتعليل في كل حادثة، ولم يكثروا من ذلك، حتى لا يفرضوا على القارئ رأياً معيناً ولكي لا يتسلطوا على فكره بتوجيه أو تعليل محدد للحدث. كما أن القارئ في العصور الإسلامية الأولى كان لديه من الفهم لعقيدته وإسلامه وإدراك مقتضياتهما ما يجعله يدرك الحق من الباطل، وعنده المقدرة على وزن الأمور والأحداث بميزان الكتاب والسنة.

أما المسلمون في العصور الحديثة فقد أصاب مفاهيمهم جملة من الانحرافات، فانحسر مفهوم الإسلام لدى الكثير منهم حتى حصر في شعائر التعبد، من الصلاة والصوم والحج، وفصل بينه وبين الحياة في الواقع العملي في كثير من بلاد المسلمين مع محاولة التأصيل الفكري لهذا الانحراف بنشر الأفكار العلمانية، وتحريف التاريخ الإسلامي وتفسيره على وفق المناهج الغربية، وكان للمدرسة الاستشراقية وتلاميذها في العالم الإسلامي أكبر الدور في ذلك، فزاحمت المفاهيم الجاهلية - غربية وشرقية ومحلية - المفهوم الإسلامي في تفسير التاريخ، خاصة بعد التضخيم الأوروبي لمناهج التفسير التاريخي أو ما يسمى «فلسفة التاريخ» وتوسعهم في أسباب وعلل الحوادث، وإعطاء التاريخ أهمية أكبر من حجمه الحقيقي، بل لقد جعلوه مصدر إلهام، وطلبوا منه إعطاء التصور عن الكون، والحياة، والإنسان، وتفسير الطبيعة «كما يقولون»

(١) انظر: مقدمة الطبري لكتابه، ولاحظ تسميته له «الرسل والملوك» وانظر أيضاً: مقدمة خليفة بن خياط لكتاب التاريخ له، وكذلك مقدمة الأصمعي لكتابه «أخبار ملوك العرب البائدة الأولى» والذي طبع باسم تاريخ العرب قبل الإسلام، وقد سمى أحمد بن محمد مسكويه كتابه «تجارب الأمم».

فأدى بهم خطأ التصور عن التاريخ إلى أن وضعوه في منزلة الإله الذي يتلقى منه نظام الحياة والتصور الصحيح عن الكون والإنسان، ويستفتى في حل المشكلات. ونظراً لعدم انطلاقهم من عقيدة ثابتة وتصور واحد فإنه قد تعددت مذاهبهم بحسب مشارب العقول والثقافات والأهواء والرغبات.

مما أوجد مذاهب في التفسير متعددة ومتناقضة مثل التفسير المادي «الماركسي»^(١).

(١) التفسير المادي «الماركسي» للتاريخ يقوم على تصور معين وفلسفة شاملة في تحليل الكون والإنسان والتاريخ. فالمادة في نظره هي أصل الكون، والإنسان قد نشأ منها بالتطور والارتقاء، وليس ثمة قوة أخرى غير الطبيعة قد أثرت في نشوئه وارتقائه، والعامل الحاسم المسير لهذا التطور هو «وسائل الإنتاج» وهذه الوسائل هي التي تحدد نوع العلاقات الاقتصادية في كل مرحلة من مراحل التطور التي مرت فيها البشرية - كما يزعمون - وهذه الوسائل هي التي تحتم نوع العلاقات الاجتماعية والعقائدية والمذاهب الأخلاقية، بل الحياة العلمية والفكرية والروحية بكاملها، فكل تغير في وسائل الإنتاج يحدث عنه تغير في هذه العلاقات، فالأديان والأفكار والأخلاق كلها تتغير وتتبدل حسبما تفرضه وسائل الإنتاج من تغير وتبدل حتمي ولا دور للإنسان فيه!!! ومن طبيعة العلاقات الاقتصادية تقسيم الناس إلى طبقات تختلف حسب تسلطها على وسائل الإنتاج، فيقع الصراع بين طبقات المجتمع، لأن الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج تتمسك بسيادتها، بينما الطبقة المحرومة «طبقة العمال» تسعى إلى إيجاد وسائل جديدة في الإنتاج، وتبعاً لذلك تمتلك السيادة. والخلاصة: أنهم يرون أن التاريخ البشري كله يعيش في صراع وتبدل في قيمه وموازنه حسب تبدل وسائل الإنتاج وتطورها. ويرون أن المجتمع البشري ابتداءً بالشيوعية البدائية «الجماعية» ثم بسبب اكتشاف وسائل الإنتاج تحول إلى نظام الطبقات القديم «سادة وعبيد»، ثم بفعل تطور جديد في وسائل الإنتاج تحول إلى مرحلة الإقطاع، ثم انتقل منها إلى الرأسمالية «رأسماليين وعمال»، ثم انتقل إلى الشيوعية حيث تنعدم الطبقات - كما يزعمون - وهذا كله ضرب من الفرضيات =

والتفسير المثالي عند «هيجل»^(١).

= التي لا دليل عليها، بل الدليل ضدها في كل نقطة ويكذبه الواقع المعاش للشيوعية المعاصرة. وليس هذا مجال الرد التفصيلي عليها، وللنقد التفصيلي للنظرية المادية في تفسير التاريخ انظر: أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، رسالة ماجستير في كلية الشريعة بمكة، ونشرت ضمن مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بمكة، الباب الثاني بكامله. وانظر كذلك: د. نعمان السامرائي، أضواء على تفسير التاريخ ص ١٣ - ٢٣ فقد أبطلها من تسعة عشر وجهاً، وليبان المذهب المادي في ذاته، انظر - قسطنطين زريق، نحن والتاريخ ص ٣٩ - ٤٠، عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٤٤ - ٤٨.

(١) هيجل: فيلسوف ألماني عاش في الفترة من ١٧٧٠ - ١٨٣١م، وله فلسفة في المنطق والمعرفة وتفسير الوجود والتاريخ والأخلاق والفن والدين. وهذه الفلسفة تقوم على مبدأ النقيض أو علاقات التضاد بين الأفكار والأشياء، فهو يرى أن كل فترة أساسية في تاريخ الحضارة تمثل وحدة مستقلة، وكل فترة أساسية تنمّي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى، ثم تولد أضدادها أو نقائضها، ويستمر الصراع دائماً فتتحد المبادئ المتناقضة في وحدة عُليا: هي الموحد، وهذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى، وينشب صراع جديد فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعّال من كل من الفرضية ونقيضها. وبهذا الأسلوب الثلاثي الفكرة، ونقيضها، وموحدها، أو ما يسمى الدعوى، ونقيض الدعوى، وجامع الدعوى.. وتتقدم الفكرة حتى تصل إلى المطلق الذي نستطيع أن نبقي نتأمله دون أن نتبين فيه أي تناقض. تفسير التاريخ للصديقي ص ٦٢ وهذا مثال يوضح ذلك. ظهر المذهب الأبيقوري وهو مذهب فلسفي يوناني يرى أن الخير في اللذة، وانتهى إلى المنفعة المادية «هذه فكرة».

- ثم بعد ذلك ظهر المذهب الرواقي، وهو مذهب فلسفي يوناني كذلك. ويرى أن الخير في سيطرة العقل على الشهوة، وانتهى إلى التقشف «وهذه فكرة مضادة للأولى».

- ثم ظهرت المسيحية وهي في نظر هيجل وسط بين الحالين، فهي موحد بين النقيضين في صورة أعلى. وبموجب هذه الفلسفة يفسّر هيجل التاريخ ويرى =

والتفسير الحضاري^(١).

= أنه ليس سوى حركة جدلية تبدأ في ظهور فكرة أو رأي أو قضية، ثم ظهور فكرة أو رأي أو قضية مضادة للأولى، ثم تتحد القضيتان أو تقضي إحداهما على الأخرى، وتظهر بصورة معدلة. انظر: المسألة الاجتماعية لعمر عودة الخطيب ص ١٤٣.

والتاريخ العام كما يتمثله هيجل، ليس التاريخ المعروف، رواية تاريخ أحداث الأولين. وليس التأمل الذي يود أن يفسر الوقائع ويربط بينها ليستخلص دروساً عملية من الماضي... لكن كما يراه هيجل، التاريخ الذي يشرف على الأحداث من وجهة نظر كلية غير خاضعة للزمن وهي وجهة نظر عقلية لأن العقل في نظره جوهر التاريخ، والعقل كما يراه هو الذي يحكم العالم.

يقول هيجل: إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم، أن تطوره كان دائماً صيرورة عقلية، وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم، تلك الروح التي طبيعتها دائماً واحدة لا تتغير، والتي تفرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم. تفسير التاريخ للصديقي ص ٦٥.

ويقول أيضاً: «إن التاريخ حركة منطقية، وهو في الغالب سلسلة من الثورات يستخدم فيها المطلق الشعوب إثر الشعوب والعباقرة إثر العباقرة أدوات في تحقيق النمو والتطور». قصة الفلسفة لديورانت ص ٣٨٠.

فهيجل يرى أن كل تغير أساسي سواء في عالم الأشياء أو الأفكار هو من فعل المطلق، الذي يقرر حركة التاريخ عن طريق روح العصر. ولقد استفادت النظريات المادية وخاصة الماركسية من الجدل الهيجلي وطبقته في مجال الاقتصاد، فقالت: إن كل تغير أساسي في عالم الأشياء والأفكار إنما هو من فعل الاقتصاد، وبذلك عَبَرَت الماركسية على جسر الهيجلية وفلسفتها في المعرفة وتفسير التاريخ، أو كما يقول ديورانت: لقد فُكَّس هيجل الأستاذ الإمبراطوري بيض الاشتراكية. قصة الفلسفة ص ٣٨٢.

(١) التفسير الحضاري للتاريخ، مذهب قال به الكاتب الإنجليزي أرنولد توينبي في كتابه «دراسة للتاريخ» والذي صدر في اثني عشر جزءاً في الفترة من ١٩٢١م إلى ١٩٦١م وقد جعل ميدان دراسته هو المجتمعات أو الوحدات الحضارية، فدرس إحدى وعشرين حضارة كلها اندثرت ولم يبق منها اليوم سوى خمس حضارات، هي: المسيحية الغربية، المسيحية الشرقية الأرثوذكسية، الإسلامية، =

= الهندية، وحضارة الشرق الأقصى. ويرى أن هذه الحضارات الباقية هي في دور الذبول والانحيار ما عدا الحضارة الغربية فإنه توقف فيها ولم يتوقع لها مصيراً محدداً، ومذهبه في التفسير للأحداث التاريخية يقوم على ملاحظة جانبين هما: الجانب المادي، والجانب الروحي، هذا في الحقيقة خطوة متقدمة في فهم التاريخ وإدراك العوامل التي تؤثر فيه، ولكن نظراً لثقافته النصرانية التي تؤمن بالفصل بين الدين والحياة، وترتضي الشكل العلماني في جانب، واللاهوتي في جانب آخر، فإن دراسته قد جاءت ناقصة لإغفالها بعض مقومات الحدث التاريخي، وفهمها المشوش لما أدركته من عناصر.

وفي نشوء الحضارات يرفض توينبي القول بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية، ويرفض كذلك التفسيرات العرقية أو الجغرافية كسبب وحيد في نشوء الحضارة، ويجعل السبب في نشوء الحضارات هو: التحدي والاستجابة؛ أي أن مجموعة من العوامل المادية والبشرية تتحدى المجتمع فتثير فيه روح الاستجابة المنتصرة على هذا التحدي. ويحشد توينبي لنظريته هذه مجموعة من الشواهد التاريخية، فيستعرض قصة آدم مع الشيطان، وقصة المسيح ﷺ وتحديه للشيطان كذلك، وأيضاً الهجرات التي كان سببها الجفاف إلى غير ذلك من الشواهد، فإذا كانت الاستجابة مثيرة لتحدي جديد، فإن هذا يؤدي إلى ارتقاء الحضارات، والعناصر التي تقوم بالاستجابة الناجحة في المجتمع هي أقلية مبدعة، والجماهير «البروليتاريا الداخلية» تقوم بال محاكاة لهذه الأقلية المبدعة. أما إذا توقف الإبداع في هذه الأقلية فإنها تتحول إلى أقلية مسيطرة، فيرد المجتمع على طغيانها بسحب الولاء والثقة، مما يحدث الاضطرابات وتبدأ الحضارة في الانحيار ثم السقوط، حيث تستغل «البروليتاريا الخارجية» التي كانت تقف على الحدود هذه الفرصة فتبدأ بالهجوم والاستيلاء لتنشئ مكان هذا المجتمع القديم مجتمعاً جديداً، وهكذا يستمر التعاقب الدوري في الحضارات كلما تسقط حضارة تخلفها حضارة جديدة أكثر استجابة للتحدي من الحضارة السابقة. وقد تأتي عناصر جديدة تستجيب للتحدي فتجدد شباب الدولة وتحول بينها وبين السقوط، ونظريته هذه متقدمة حتى من زملائه القريبين من أمثال: «بترم سوروكن» و«بيترجيل». انظر: مقدمة مختصر دراسة في التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل ج ٤؛ وعماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٧٠ - ٩٤.

والتفسير القومي^(١).

والتفسير بالغريزة الجنسية كعامل محرك للنشاط الإنساني «عند فرويد»^(٢)، وكل هذه التفسيرات ناقصة لأنها تنطلق من تصور خاطئ عن

(١) التفسير القومي للتاريخ يهتم أصحابه بدراسة القوم المشتركين في نسب واحد «عرق» وفي لغة واحدة، ويعيشون على أرض واحدة، وتجمعهم مصالح مشتركة، دون النظر إلى الدين والعقيدة، وهذا التاريخ يتسع ليشمل القوم الناطقين بلغة واحدة مثل: اللغة العربية، أو الفرنسية، ويضيق ليكون اهتمامه بالقومية المحلية سواء كانت وحدة سياسية مثل: الدولة، أو مدينة أو قرية صغيرة داخل الدولة، فيفسرون كافة الأحداث التاريخية وبواعثها بموجب هذه النظرة الضيقة، ولذلك يجعلون التاريخ الإسلامي حلقة من حلقات تاريخ العرب ويفسرون أحداثه على أساس الصراع القومي بين العرب وبين أبناء الشعوب التي دخلت الإسلام. يقول الكاتب العربي قسطنطين زريق: إن للقومية معاني وخصائص إذا فقدتها فقد فقدت جوهرها، وفي مقدمة هذه المعاني علمانية الحركة القومية وعلمانية الدولة التي يُراد إنشاؤها ص ٣٧. ثم يتناول في القول - ويفتي المسلمين - فيقول: إن العلمانية ليست كفرة بالله تعالى ولكنها تقيم المجتمع على أساس علماني!! وتنبذ كل عصبية طائفية، وكل تمييز بين مواطن ومواطن على أساس العقيدة والدين، وبهذا المعنى تفهم القومية والأمة في العصر الحاضر. نحن والتاريخ ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) سيجموند فرويد، عالم نفس يهودي، تأثر بنظرية داروين في التطور، وآمن بحيوانية الإنسان، وعلى هذا الأساس وضع نظريته النفسية في تفسير دوافع السلوك الإنساني، وقال: «إن كل نشاط إنساني وكل حركة وكل موقف هو نابع من الغريزة الجنسية، حتى الأخلاق والدين يفسرها على هذا النحو، وأنها لم تكن أصلية في خلقة الإنسان ونظرته، وإنما نشأت نتيجة العقد النفسية والخوف من المجتمع». وقد تلقف هذه النظرية النفسية أقوام ممن آمنوا بها ففسروا تاريخ البشرية على هذا الأساس من الدوافع الجنسية. ويمثل هذا التفسير للتاريخ الإسلامي روايات جرجي زيدان التاريخية التي سماها روايات تاريخ الإسلام، حيث قرن كل رواية بقصة حب ورغبة جنسية، حتى جهاد الصحابة رضي الله عنهم جعله مدفوعاً بدوافع الغريزة الجنسية. انظر: حول نظرية فرويد، محمد قطب، =

الإنسان والكون والألوهية. وفوق ذلك لم تحسب حساباً لكافة العوامل المؤثرة في حركة التاريخ وإنما اكتفى كل مذهب من تلك المذاهب بعامل ضخمه في حسه وفسر به تاريخ الإنسان كله.

والعناصر التي يجب ملاحظتها عند التفسير التاريخي هي: الإنسان الذي هو محور الحركة التاريخية، ما هو؟ من هو؟ وما هي وظيفته؟ وما هو مصيره؟ وما مدى استعداداته وقدراته الموهوبة له؟ وما العقيدة التي تسيره؟ لأن الأفكار والتصورات ذات تأثير في توجيه الأحداث واتخاذ المواقف.

ولا بد أن يؤخذ في الحسبان مدى أثر العوامل الطبيعية «المادية» المحيطة بالإنسان كالعوامل الجغرافية، وعوامل الطقس. وقبل هذه العوامل ومعها وبعدها قدر الله وأمره النافذ فإنه لا راد لقضاء الله وأمره.

فلا بد من ملاحظة كل هذه العناصر الفاعلة في الحدث التاريخي وإلا كان التفسير ناقصاً. ثم لا بد - وهذا شيء مهم جداً - أن يكون لدى المفسر التصور السليم عن هذه العوامل وقدراتها، والنسب الصحيحة للعلاقة بينها، وأن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها روحية وفكرية وجسدية، وهذا لا يتوفر لغير المسلم، لأن صحة التصور عن هذه الأمور المؤثرة والفاعلة في الحدث التاريخي لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي المعصوم من الخطأ «الكتاب والسنة» فبواسطة التلقي من الوحي يعرف المرء المسلم هذه العوامل، ويعرف قدر كل عامل منها وقيمه وتأثيره في التفسير.

وصحة التصور تتطلب توفر عنصر «الغيبية»: أي الإيمان بالغيب،

وعنصر «الموضوعية» فإن ما يسمى عند غير المسلمين بالموضوعية «وهي في نظرهم التزام أدبي لا غير» هي عند المسلم دين وعقيدة ومسؤولية يشعر بأن الله سيحاسبه عليها إن قَصُرَ، أما الإيمان بالغيب فأمر لا يعرفه الكفار على حقيقته ولا يؤمنون به لأنهم لم يتلقوا في ذلك من شرع الله ومنهجه، فهم بين منكر له بالكلية، أو يحمل تصورات مشوشة وغير صحيحة عن ذلك. فانعدام الإيمان بالغيب، وضعف الموضوعية أو انعدامها - خاصة تجاه الدراسات الإسلامية - وخطأ التصور، والانحراف في زاوية الرؤية، كل هذه سمات مشتركة في مناهج التفسير التاريخي غير الإسلامي.

أما سمات منهج التفسير الإسلامي وخصائصه فهي:

١ - صحة التصور «عن الله والكون والإنسان».

٢ - الواقعية.

٣ - التوازن.

٤ - الشمول.

٥ - الصدق.

فالتفسير الإسلامي للتاريخ يعتمد على صحة التصور عن الألوهية وحققها، وعن الإنسان ووظيفته في هذا الكون، ومصيره بعد وفاته، والغاية التي ينتهي إليها كما وضحنا ذلك في مبحث المفاهيم الأساسية في التصور الإسلامي^(١).

وهو تفسير واقعي لإدراكه الصحيح لمقومات النفس البشرية وكذلك الحياة الإنسانية معنوية ومادية فلا يهمل شيئاً منها، فالله ﷻ يطلب من الإنسان التسامي والارتفاع إلى مستوى التكليف الشرعية والالتزام بها إلا

أنه لا يستبعد وقوع الانحرافات والأخطاء من البشر «وإن كانت غير شرعية»، ولذلك لا ينبغي للباحث أن يتكلف في تفسيرها أو محاولة تبريرها وإنما يسمي الأشياء بأسمائها، فالخطأ خطأ بصرف النظر عما صدر منه، ولكن عليه أن يوضح ذلك في أدب المسلم وسَمْتِه واحترامه لأخيه المسلم.

والتفسير الإسلامي تفسير متوازن فهو يلاحظ أن الأحداث التاريخية قدر من أقدار الله لكنه لا ينكر أنها عمل من أعمال الإنسان، فهو مسؤول عنها مسؤولية كاملة، لأنه قد وهبَ من وسائل المعرفة والإدراك إضافة إلى الشريعة التي أرسل بها رسل الله ﷺ ما يجعله يفرق بين الحق والباطل، والخير والشر.

وهو يتميز بالامتداد والشمول الزمني. فهو لا يغفل جانباً من الجوانب المؤثرة والفاعلة في الحدث التاريخي، ومن ناحية الزمن يربط الماضي بالحاضر وبالمستقبل، بل ويمتد نظره إلى أبعد من المستقبل القريب، فينظر إلى اليوم الآخر ويدرك أن هذه الحياة بماضيها وحاضرها ومستقبلها ليست إلا جزءاً يسيراً بالقياس إلى الحياة الآخرة.

كما أنه تفسير صادق لأنه ينبثق من القرآن الكريم والسنة المشرفة ولاعتماده على حقائق إيمانية مسلمة، ثم هو يراعي ويعترف بكامل العوامل، دون تضخيم لبعضها أكثر من حجمه وتأثيره الحقيقي.

فهذه السمات والخصائص في منهج التفسير الإسلامي للتاريخ عموماً - سواء تاريخ البشرية بكامله، أو تاريخ الأمة المسلمة - هي التي تميزه عن بقية المناهج والمذاهب الأرضية. أما ركائز المنهج وأدوات تنفيذه في الواقع العملي فهي: التصور الصحيح لكافة قضايا العقيدة والشريعة ثم الرجال الصادقون المخلصون، ثم المنهج العلمي السليم. وسيأتي مزيد من الإيضاح لهذه الركائز في الفصل الرابع من هذا الباب.

غاية منهج كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحقيقه

غاية منهج الكتابة:

منهج كتابة التاريخ الإسلامي يقوم في جانبه الفكري والتصوري على المبادئ والقيم الإسلامية، ويُستمد من التصور الصحيح لقضايا العقيدة والإيمان. ولذا فإن غايته ووجهته مرتبطة بغاية العقيدة الإسلامية فهو يسعى لتكميل الغاية الأساسية من خلق الإنسان، وهي تحقيق العبودية لله ﷻ بإقامة شريعته في الأرض، ولذلك فإن المسلم عندما يدون واقعات التاريخ وأحداثه وعندما يدرسها، ينبغي أن لا يكون تدوينه ودراسته بدون غاية واضحة، وهدف يخدم عقيدته وتصوره الإيمان.

إنه لا بد أن يربط عمله التاريخي بعقيدته ومنهجه لكي يستفيد من الأحداث التاريخية دروساً وتوجيهات مثمرة، ولكي يدرك من خلال الوقائع سنن الله وقدره وهيمنته على الكون، ومثل هذه المعرفة والإدراك تزيد من إيمانه وطاعته لله، وتتيح له الحصول على الثمرات التي يريها المسلم من دراسة التاريخ.

فالتزام الباحث بمنهج العقيدة، يرسم له طريقة التعامل مع الحدث وكيفية معالجته ودرسه، وأخذ العظة منه.

وهكذا يتضح لنا أن الالتزام بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها هو الغاية الأولى في منهج كتابة التاريخ عند المسلم، فهو لا

يخالف مبدأً ولا حكماً من أحكامها، ولا يناقضه، لا في كتابته وتدوينه للتاريخ، ولا في تفسيره لحوادثه.

بل عليه أن يستحضر تلك الأحكام والأهداف حال كتابته، وأن يلتزم بها^(١)، فالارتباط بالعقيدة الإسلامية والالتزام بها هدف وغاية في المنهج التاريخي، كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العملي. فالتلازم بينهما وثيق ككل عمل المسلم الذي يلتزم بعقيدته ويسعى لتطبيقها في واقع الحياة.

كما أن من غاية المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ الكشف عن الحقائق التاريخية وإظهارها والقول بالحق فيها وفقاً للمفاهيم والمقاييس الإسلامية، لأن المسلم مأمور بإظهار الحق، والقول به حتى ولو كان ذلك ضده أو ضد قومه أو عشيرته أو من يحبهم لأن الله لا يقبل منا تزوير الحقائق أو إخفاءها، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ

(١) فمثلاً النظريات الأوروبية عن أصل النشأة الإنسانية تقول بأمور مخالفة لعقيدة المسلم وتصوره عن أصل هذه النشأة، فيقولون: إن الإنسان لم يخلق على هذه الصورة من أول مرة وإنما مرّ بعمليات تطورية بيولوجية طويلة المدى، فتطور من الخلية الواحدة إلى حيوان فقري، ثم إلى نوع من القرود، ثم إلى إنسان. ومعنى هذا أنه وجد صدفة وبدون غاية وقصد وبدون تدبير خالق عليم، فالمسلم الملتزم بأحكام دينه لا يصدق بشيء من مثل هذا ولا يدونه إلا أن يكون حاكياً لذلك وناقداً له، لأن هذا قول بدون دليل ثم هو مخالف للنصوص الشرعية في الكتاب والسنة.

وكذلك الحال مع أنظمة الجاهلية وآثارها وحضارتها لا ينبغي أن نعدو بها قدرها وواقعها التاريخي، فلا تضخم أو تعظم، ولا تزين للناس أو تمدح، بل يجب بيان الحكم الشرعي في مثل هذه المخلقات، وبيان مناقضة الأنظمة الجاهلية لعقيدة الإسلام ونظمه، وبيان أن من مخلفات الحضارة ما يكون مضاداً لعقيدة التوحيد أو وسيلة للانحراف عن منهج الحق وطريقاً إلى الشرك كما سنوضح ذلك في الفصل الآتي.

بِالْقِسْطِ شَهِدَاةَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ
فَقِيرًا قَالَ اللَّهُ أُولَىٰ بِهَمَّا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴿١٣٥﴾ [النساء: ١٣٥]، وإنما عليه
أن يعرض الوقائع كما هي دون تضخيم للأخطاء أو تشنيع بها، وإنما
تعرض عرضاً متزناً موضحاً الظروف والملابسات التي صاحبت ذلك
وأدت إليه، وعليه أن يوضح الموقف الشرعي في مثل هذه الحالة وفقاً
للمقاييس والأحكام الشرعية، كما أن الخطأ يعتبر مجالاً من مجالات
التربية والإصلاح حتى لا يتكرر وقوع مثله مستقبلاً.

والأسوة في ذلك طريقة القرآن الكريم في عرضه للأحداث
التاريخية، فإنه لا يجامل المؤمنين فيخفي ما وقع منهم من أخطاء، وإنما
يذكر ما وقع منهم ويعيبه عليهم ويطلب منهم العدول عنه. كما أنه يذكر
ما في الجانب الآخر - الكفار - من خير أو شر، قال تعالى - موضحاً ما
وقع من طائفة من المؤمنين من المخالفة في غزوة أحد -: ﴿وَلَقَدْ
صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي
الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا
وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا
عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال أيضاً
في الموضوع نفسه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ
الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل
عمران: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا
خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٧]
ففي الآيات السابقة نجد أن الله ﷻ قد ذكر ما وقع من بعض
المؤمنين من أخطاء ولم يجاملهم بالسكوت على شيء من ذلك، ولكنه
أيضاً لم يشنّع عليهم بهذا الخطأ ويخفي الجانب الآخر من محاسنهم أو
يوقعهم في اليأس وعدم إمكانية الإصلاح، وإنما طلب منهم تعديل الخطأ
ووعدهم بالعفو والمغفرة.

وقال تعالى مبيناً حال الأعراب ليعلمنا الاعتدال وعدم غمط الحق أو إخفاء الباطل: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ۝٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٩٩﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٩].

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِفَنَاطِرِ يَوْمِهِ إِيَّاكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُوَدِّعُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

فالمسلم مأمور من الله بالعدل وقول الحق سواء كان له أو عليه. وقد مر فيما مضى من البحث إيراد الآيات التي تأمر بذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْرِ وَالنَّفْقَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ وَالْمُدُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والمنهج الإسلامي في دراسة التاريخ منهج «وصفي» و«معياري»، فهو يصف الحادثة التاريخية ويستكمل جوانبها المختلفة ويتحقق من صحة الواقعة بكافة وسائل النقد وإثبات الحقائق التي يتميز بها منهجه العلمي، ثم لا يكتفي بهذا الوصف والعرض للوقائع التاريخية بعد أن يتحقق من صحتها، وإنما يحاول أن يزن هذه الوقائع بمنهجه المعياري وذلك وفقاً للمقاييس والمفاهيم والتصورات الإيمانية.

فالأحكام الشرعية والمفاهيم الإيمانية هي الميزان «المعياري» الذي توزن به الأحداث والأشياء والقيم والنظم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وباتباع هذا المنهج في الدراسة تحصل العبرة والتوجيه، وتتحقق الثمرة من دراسة التاريخ، وهي تقويم سلوك الإنسان بما يوافق الحق، وبيان خطر الانحراف واتباع الباطل، وسوء مصير من ترك العمل بمنهج الله الحق.

ومن الغايات التي يسعى المنهج الإسلامي إلى تحقيقها من دراسة التاريخ هي استخدام الأحداث التاريخية في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية لتقويم مسيرة الأمة والإسهام في رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها.

وقد أكثر القرآن الكريم، وأكثر الرسول ﷺ من استخدام الأحداث التاريخية وجعلها مجالاً لتربية الأمة الإسلامية، وإعدادها الإعداد المتكامل في كافة الجوانب العلمية والتطبيقية للمنهج الإسلامي، وقد جعل الزمن كله ماضيه، وحاضره، ومستقبله، ميداناً لهذا الإعداد وهذه التربية.

ففي الماضي عرض تاريخ الأمم السابقة وتاريخ الأنبياء والرسل، وبيّن مواقف تلك الأمم من الدعوة إلى الله ومن رسولهم الذي أرسل لهم ثم أوضح نهاية كل أمة من هذه الأمم. وبين السمات المشتركة في تاريخ هذه الأمم وفي مواقفها من أنبياء الله، وعلى ضوء الموقف من الرسول ورسالته يتحدد الحكم على كل أمة ويعرف مصيرها ونهايتها.

وفي الحاضر - وقت نزول القرآن - عرض القرآن كثيراً من أحداث السيرة النبوية ومغازي رسول الله، وبيّن مواقف الناس من الدعوة وأنهم ثلاثة أصناف، مؤمن، وكافر، ومنافق، وقد استخدم الأحداث التي تقع من هذه الأصناف في تربية المؤمنين وإعدادهم، وفي كشف أعدائهم ودسائسهم خاصة المنافقين. وهي أحداث عايشوها مباشرة واشتركوا في وقائعها، فعقّب عليها القرآن كاشفاً عما في هذه الأحداث والمواقف من

الصواب وما فيها من الخطأ، لكي يأخذ المسلمون الدروس كاملة، ويعرفوا أسباب نصرهم وأسباب هزيمتهم، ومن المعلوم أن التربية بالأحداث المعاصرة أبلغ وأدعى للاستجابة وسرعة التأثير، ذلك أن النفس البشرية تتأثر بالحدث الذي عايشته وقائعه أكثر من تأثرها بشيء آخر، فيكون استثمار هذا التأثير في التربية والتوجيه الصحيح أضمن لسرعة الاستجابة.

وفي الزمن المستقبل وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض وجعل لهذا الوعد شرطاً، - هو عبادة الله وحده لا شريك له - مما حفز هم المؤمنين وجعلهم يعملون لتحقيق هذا الشرط لتحصل لهم ثمرته في الحياة الدنيا، وقد تحقق على أيدي الجيل الأول من هذه الأمة لَمَّا حققوا الشرط المطلوب فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ومكَّن لهم فيها. ولا زال هذا الأمر يتحقق للمؤمنين في مختلف العصور والبقاع كلما حققوا شرطه.

بل إن آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ قد أوضحت معالم المستقبل لما هو أبعد من الحياة الدنيا، وهو الحياة الآخرة، وما سيكون فيها من الأحداث لتوسع نظرة المؤمن للحياة وللزمن، وللتاريخ، فتكون زاوية الرؤية والنظر لديه أرحب وأشمل، وأقدر في الاستيعاب والتحليل.

كما أن الشريعة الإسلامية قد أعطت أحداث آخر الزمان أو «الفتن والملاحم» وأشراط الساعة كثيراً من الاهتمام والإيضاح حتى يكون المسلم على وعي تام ومعرفة بهذه الأحداث المستقبلية، وهي أحداث تعطي إشارات وعلامات تذكر المسلم وتحثه على سلوك الطريق السوي، ولذلك لا تفاجئه مثل هذه الأحداث أو تُغميه عن استبانة طريق الحق، لأن الذي يعلم ويدرك سبب الأحداث ومصدرها يعرف كيفية تفاديها أو مواجهتها، وهذا العلم يعطيه مقدرة على مواجهة الموقف، بخلاف الذي

يجهل سبب الأحداث ومصدرها فإنه لا يدرك السنن الربانية وتفاجئه الأحداث وهو لا يعلم سببها الحقيقي فيورثه ذلك حيرة وقلقاً.

ومن أهم الغايات التي يحققها المنهج الإسلامي في الدراسة التاريخية بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريضها ببيان تناقضها ليحذر المسلم منها، وهذه الغاية مهمة جداً في حياة المسلم ليستقيم تصوره فلا يختلط بشيء من المفاهيم والتصورات الجاهلية، لأنه كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

فالتصورات والقيم والمبادئ الجاهلية مضادة للإيمان بالله. ومن مقتضيات الإيمان بالله، البراءة من التصورات الجاهلية والكفر بها. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ينقض عرى الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية» فمعرفة تاريخ الجاهلية وتصوراتها وقيمها، يزيد المؤمن إيماناً وطمأنينة إلى ما عنده من الحق، ومعرفة بمسار الأفكار الجاهلية ودخائلها، وحصانة ضد الوقوع في شيء منها، لكن لا بد أن يسبق هذه الدراسة والمعرفة بتاريخ الجاهلية ونظمها ويصاحبها إيمان بالله صحيح، واعتزاز بشريعة الله، وفقه بالحلال والحرام. وإلا أتت الدراسة محرفة شوهاء.

وسائل تحقيق المنهج:

أما الوسائل التي يتحقق بها المنهج في الواقع العملي فهي تقوم على ثلاث ركائز أساسية هي:

- ١ - التصور الصحيح المستمد من الشريعة في مصادرها المعتمدة.
- ٢ - الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون هذا التصور ويعملون على تحقيقه في واقع حياتهم ودراساتهم وتوجيههم وتدريسهم، وفي

أخذهم وعطائهم، وفي تحملهم للعلم وأدائهم له، فإنه بغير هذا الصنف من الرجال المخلصين لا يتحقق تطبيق المنهج المطلوب في الواقع، لأنه لا يمكن أن يقوم على تطبيق المنهج الإسلامي في الدراسات التاريخية من لا يؤمن بالإسلام، أو من لا يعرف التصور الصحيح عن الإيمان بالله، ولم يدرس الشريعة الإسلامية ويعرف مصادرها وأحكام الحلال والحرام فيها.

فالرجال العلماء بالشريعة الصادقون في علمهم وعملهم هم الذين يحقق الله على أيديهم مثل هذه الأعمال الضخام الخطيرة، وقد امتدح الله الرجال المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿مَنْ الْتَمَيْنَ رِجَالًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ويقول تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (٣٦) رِجَالًا لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا بُيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقَامِ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

فالرجال الأمناء المخلصون هم الوسيلة التي تحقق المنهج في الواقع العملي.

٣ - المنهج العلمي السليم:

وبعد توفر التصور الإيماني الصحيح، والعلماء الذين يحملون هذا التصور ويؤمنون به، يأتي دور المنهج العلمي السليم الذي بتطبيقه واتباعه، يكتمل تحقق المنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية، فإنه بفقد المنهجية العلمية السليمة يفقد العمل كثيراً من مزاياه، بل دعامة من دعائمه فلا يستطيع الكاتب ولا القارئ تبين المعالم الصحيحة إذا لم يكن العمل منظماً ومتبعاً في إعداد المنهج العلمي السليم.

وهذه الركائز الثلاث يُكْمَل بعضها بعضاً وإن كان بعضها أكبر وأهم من بعض، فالتصور الصحيح هو القاعدة الأساسية التي لا يتصور وجود عمل سليم مع فقدها، لأنها هي الحاكمة والمهيمنة على كل ما عداها

فهي منطلق أساسي ومركز محوري لكافة الوسائل والغايات، وهي في نفس الوقت وسيلة من الوسائل التي يتحقق بوجودها المنهج الإسلامي. والرجال المخلصون هم الذين يحققون بعملهم التصور الإيماني في الواقع العملي والسلوكي خاصة إذا امتلكوا المنهج العلمي السليم وأجادوا تطبيقه في دراساتهم ومؤلفاتهم.

ومن المعلوم أن المنهج بدون هذه الوسائل يبقى تصورات ومُثلاً في الخيال، ولا بد لتحقيقه في الواقع العملي من الرجال العلماء المؤمنين بهذا المنهج، والذين يمتلكون منهجاً علمياً سليماً في البحث والتحقيق، وإذا قام على تحقيق منهج كتابة التاريخ الإسلامي من لا تتوفر فيهم شروط العلم، والإخلاص، والأمانة، فإن المنهج يصاب بكثير من التحريف والتشويه.

قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي

نحاول في هذا الفصل أن نوضح بعض القضايا والقواعد التي ينبغي على من يكتب في التاريخ الإسلامي مراعاتها، وبصفة خاصة في كتابة «تاريخ الصدر الأول».

والقواعد التي سنذكرها ربما وردت الإشارة لبعضها فيما سبق من البحث، غير أننا أردنا إبرازها لمزيد الاهتمام بها، كما أن بعضها قد يكون من البدهية والوضوح في التصور الإسلامي بمكان، ولكن نظراً للانحراف الذي وقع في فهم كثير من المسلمين في هذا العصر لدينهم، وغياب بعض التصورات الأساسية عن حسمهم مما جعلهم يفهمونها بصورة منحرفة ومشوهة فقد أدرجناها، مساهمة منا في تصحيح المفاهيم الأساسية في حياة المسلمين وهذه القواعد ممكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام هي:

- قواعد في التصور والاعتقاد.
- قواعد في المصادر.
- قواعد في الأسلوب وطريقة العرض.

قواعد في التصور والاعتقاد

١ - الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية ووحدة تاريخها:

من قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدارس التاريخ الإسلامي الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية على مر العصور، ومعرفة مقومات هذه الوحدة.

فقد كان الناس أمة واحدة على الهدى، ولكن بسبب من كيد الشيطان انحرف قسم منهم عن العقيدة الصحيحة وأطاعوا الشيطان فانقسمت البشرية منذ ذلك إلى قسمين: مؤمنون، وكفار، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي كان الناس أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة وهو الإسلام، فلما اختلفوا ووقع فيهم الشرك بعث الله النبيين مبشرين للمؤمنين ومنذرين للكافرين، وأنزل معهم الكتاب الذي فيه الفصل والحكم الحق فيما اختلفوا فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والأمة في المفهوم الإسلامي هي: جماعة من الناس ذات عقيدة واحدة وتصور واحد^(١) ومفاهيم مشتركة. فالجماعات الذين صدقوا

(١) حول مفهوم الأمة، انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ٣/١٤٠٢؛ ومحمود شاكر، التاريخ الإسلامي ١/١٥؛ ود. أحمد حسن فرحات، الأمة في دلالتها العربية والقرآنية ١/٢٩٧ وما بعدها، بحث نشر في الكتاب الذي أصدرته =

الأنبياء واتبعوهم من آدم ﷺ حتى آخرهم محمد ﷺ يعتبرون أمة واحدة هي الأمة المسلمة. والذين كذبوا الأنبياء ولم يتبعوهم يعتبرون أمة واحدة وهي الأمة الكافرة. قال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

فالأنبياء واتباعهم أمة واحدة، وما عداهم أمة أخرى، ومن هذا يتضح أن السمة التي تجمع الأمة هي العقيدة، وأن توزيع البشرية ينبغي أن يتم على أساس العقيدة، وليس على أساس عنصر النسب والعرق، أو الأرض، ولا على أساس اللغة، ولا الاقتصاد، ولا التاريخ المشترك وحده، ولا المصالح والآمال والآلام وحدها. وبذلك تكون وحدة الأمة في المفهوم الإسلامي هي وحدة المفهوم والفكر أي وحدة «العقيدة»، فالمسلم أينما كان ومن أي جنس كان وفي أي عصر عاش هو جزء من الأمة الإسلامية، ووطنه وأرضه هي الأرض التي تقام فيها شريعة الله، وعلى هذا الأساس والمفهوم قسم الفقهاء المسلمون الأرض إلى دار إسلام، ودار كفر. ووجب على المسلمين الجهاد لتحويل دار الكفر إلى دار إسلام.

وهذا المفهوم لوحدة الأمة الإسلامية يتبعه وحدة التاريخ الإسلامي على مر العصور، ووحدة الحضارة الإسلامية في أطرها ومفاهيمها العامة، ودارس التاريخ يتوجب عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمنين بالله على مر العصور، فيدرس تاريخهم على أنه وحدة واحدة نظراً للاشتراك في المفاهيم والدوافع والمؤثرات التي تساعد على صنع الحدث التاريخي وتشكيله.

والذي يقرأ سير الأنبياء ﷺ وتاريخهم كما ورد في القرآن

الكريم^(١). يجد التوافق في المواقف التاريخية والاتحاد في المفاهيم والنظرة للأحداث، وهذا أمر لا يستغرب لأنهم كلهم يصدر عن مشكاة واحدة، ويتلقون عن رب واحد، ويدعون إلى رسالة واحدة في قواعدها وأصولها، وكذلك تاريخ المؤمنين بالرسول نجد فيه هذا التوافق في المواقف والمفاهيم. وهذا يعبر عن قوانين ثابتة وسنن لا تتغير في حركة الكون ومجرى التاريخ الخاضع لمشيئة الله وقدره القائم بالحق.

فيجب علينا دراسة التاريخ على أساس التوزيع العقدي وأن نبرز وحدة التاريخ الإسلامي بسماته وخصائصه العامة، ونبرز التاريخ الجاهلي بسماته العامة على مدى العصور. وهذا يجنبنا الأخطاء الناشئة من الدراسة على أساس التوزيع الجغرافي أو العائلي أو الزمني، والتي تفتت وحدة العقيدة والرابطة الإيمانية وتأتي بروابط بديلة، من الوطن، والقوم، والإنسانية. وتلوّن التاريخ الإسلامي وتصبغه بألوان غريبة عليه وعلى حركته ودوافع أهله وتوجهاتهم السلوكية والفكرية، وتسلكه في أطر ضيقة من هذه الحدود المكانية والعائلية.

٢ - الحكم الشرعي في مخلفات الأمم الجاهلية^(٢):

ومن قواعد التصور والإيمان معرفة القيمة الحقيقية لمخلفات الأمم وأثارها والحكم الشرعي فيها.

فالمسلم الذي يستمد تصوره من الكتاب والسنة ويهتدي بهديهما لا بد له وهو يدرس تواريخ الأمم أن يزن آثار هذه الأمم ومخلفاتها

(١) انظر ما ورد في سورتي الأعراف، وهود، من سير الأنبياء ووحدة مواقف أقوامهم منهم رغم البعد الزمني والمكاني فيما بينهم.

(٢) نناقش هنا الحكم في المخلفات المادية، أما المخلفات الفكرية فسنعرض لها في قواعد المصادر.

التاريخية بالميزان الشرعي. ليعطيها القيمة الحقيقية على ضوء ذلك الميزان العادل فلا يغالي في تعظيمها وتقديرها كما يفعله فريق من الناس ولا يغمطها حقاً هو لها.

والآثار المتبقية عن الأمم السابقة متنوعة.

فمنها ما له فائدة علمية أو مادية. مثل الوثائق، والنقوش، وقطع النقود، ومثل الجسور والآبار، والعيون والسدود والقناطر، والطرق، فهذه يستفاد منها وتكون قيمتها الحقيقية بقدر الخدمة التي أدتها أو تؤديها للناس، ولا يجوز تعظيم بناتها أو تقديسهم.

ومنها ما في وجوده وبقائه منافاة لعقيدة التوحيد مثل التماثيل والصور والأصنام، وبيوت العبادة لغير الله، والمشاهد التي على القبور والمزارات، فهذا النوع من الآثار يجب تحطيمه وإزالته لأنه يجر إلى الشرك وعبادة غير الله، ومن أصول الإسلام سد كل الذرائع المؤدية إلى المفساد، ولا شيء أفسد من الشرك وصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله، وهذا ما عمله رسول الله ﷺ يوم فتح مكة حيث حطم الأصنام والطواغيت التي كان يعبدها العرب. ويلحق بهذا النوع من المخلفات المادية المخلفات الثقافية والفكرية الضارة ككتب السحر والإلحاد والتهاك والفجور.

وهناك نوع من المخلفات والآثار لا نفع فيه ولا ضرر منه لذاته مثل المباني الخربة وبقايا الأسوار والحصون والبنائيات الكبيرة كالأهرامات التي في مصر، ومثل إيوان كسرى في العراق. فهذا النوع من الآثار يُهمل ولا يعنى به لمجرد أنه أثر من الآثار لأن في تلك العناية تعظيماً لها ولمن خلفوها، وقد أهملها سلفنا الصالح بالفعل ولم يشغلوا أنفسهم بالمحافظة عليها وترميمها فضلاً عن تنظيم الزيارة لها.

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى المنهج الذي نتبعه في دراسة الآثار

والوقوف عليها. وبين لنا الفائدة التي من الممكن أن نستفيد منها من الوقوف على آثار السابقين.

وعرفنا على القيمة الحقيقية للآثار، فالعلم بتاريخ الأمم السابقة والتعرف على أثارها لكي يؤتي ثماره لا بد أن يقترن بالعبارة والعظة التي تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه، فلا يدعها أو يدعهم يقتربون ما اقترب غيرهم من الآثام والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله، فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قبلهم. لأن العلم بأمر الله وشرعه، والنظر الصحيح والاعتبار المثمر في أحوال السابقين وتقلبات الدهر بهم يساعد على تربية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع. أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف على الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا حياة فيها كقولهم، إنهم كانوا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا، وطريقتهم في الأفراح كيت وكيت، وأنهم كانوا يحرقون بالمحراث الذي نحرق به... وحصر الاهتمام بالمظاهر الشكلية، من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة... إلى غير ذلك.

إن مثل هذه الدراسة «الأكاديمية» الجافة لا توقظ في القلب شعوراً ولا تنفخ فيه حياة. ولا تنير البصائر لتتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق. كما أنها لا تتمشى مع المنهج القرآني في عرضه آثار السابقين وطلبه منا أن نسير في الأرض وننظر في سيرنا نظر المستبصر المستفيد، الباحث عن أسباب الدمار الذي حل بأصحاب تلك الآثار ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتُهُمْ فَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [القصاص: ٥٨]. فالله يطلب منا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها.

ومناجاة هذه الآثار والأطلال الباقية وسماع أخبارها سماع العظة والعبرة، ومشاهدة آيات الله وقدرته وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين، والتعرف على القيم الحقيقية التي تطيب بها الحياة وتعمر، وتكون سبباً للنجاة والفوز عند الله، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].. وهذا التأمل في آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلى سلوك ونهج عملي في واقع الحياة ملتزم بأمر الله ونهيه. وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠] كما أنه قد جعل هذا التأمل والنظر في آثار السابقين في مقام الواعظ البليغ وجعله حجة على الغافلين حين ينزل بهم عذابه فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤ - ٤٧].

وفيما يلي نسوق بعض الآيات التي يتبين منها نهج القرآن وطريقته في عرض أخبار السابقين الذين أعرضوا عن منهج الله، ولفته أنظارنا للاتعاظ والعبرة بالشاهد الباقي من مخلفات القوم وآثارهم. قال تعالى واصفاً بعض ما وصلت إليه الحضارات القديمة من

التقدم العمراني: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبا: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢]، وقال عن قوم هود عليه السلام: ﴿اتَّبِنُونَ كُلَّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩] وقال عن قوم فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧]. ولكن لما لم يستقم أصحاب هذه الحضارات على الصراط المستقيم ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم أهلكهم الله ودمرهم وأورث أرض بعضهم قوماً آخرين^(١) وبعضها بقيت خاوية خربة^(٢) لتكون آية للمعتبرين. قال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسولهم وكفرهم بالله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

(١) قال تعالى عن حضارة الفراعنة: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٨ - ٢٩].

(٢) قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بِطَارَتِ مَعِيشَتُهُمْ فَلْيَكِ مَسَكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال في موضع آخر: ﴿فَكَأَيُّ مَن قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] أي أن كثيراً من القرى لما ظلمت أهلها الله أهلها فبقيت خاوية خربة غير مسكونة فانظر إلى آبارها المعطلة وقصورها المشيدة، تحكي واقعها الحضاري وتقدمها العمراني، ولكن ذلك لما كان غير مصحوب بالإيمان بالله واتباع رسله فإنه لم ينفعهم. وقال تعالى - موضحاً أهمية التفكير والتدبر في آثار الغابرين -: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه: ١٢٨] وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧ و ١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩]، وقال عن قوم لوط: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ [٧٣] فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ [٧٤] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ [٧٥] وَإِنَّا لَنَسَبِلُ مُقِيمِ [٧٦] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ [٧٧] [الحجر: ٧٣ - ٧٧]، وقال عنهم في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٣٣] إِذْ بَجَّعْنَاهُ وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ [١٣٤] إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ [١٣٥] ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ [١٣٦] وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ [١٣٧] وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [١٣٨] [الصافات: ١٣٣ - ١٣٨].

ولما مر رسول الله ﷺ بديار ثمود - مدائن صالح - وهو في طريقه إلى تبوك قال لأصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين». وفي رواية: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين. فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم»، ثم قرن ﷺ الفعل بالقول، فَقَنَّعَ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي، وكان بعض القوم قد استقوا وعجنوا العجين فأمرهم أن يكفؤوا الماء وأن يعلفوا العجين الإبل. وقال: «استقوا من البئر التي كانت ترد عليها الناقة»^(١)

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري في أربعة مواضع من كتابه الصحيح من حديث =

فقد أمر رسول الله ﷺ أن لا نمر بمساكن الظالمين وأثارهم وأن لا ندخلها إلا باكين ومتعطين ومستبصرين وخائفين من أن يصيبنا ما أصابهم، لا أن نكون منبهرين ومعظمين لهؤلاء الظالمين، أو لاهين وغافلين. يقول الأستاذ البهي الخولي تعليقاً على هذا الحديث: «إن الأثر العجيب إذا كان لظالم وأعجب به الإنسان فقد أعجب بالظلم من حيث لا يدري وأدخل على قلبه الفساد والجمود وهو لا يشعر، وما الإنسان إلا قلبه الحي وضميره المعتر الذكي فإذا فقد، هان شأنه فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً فانظر إلى حرص رسول الله على حياتنا وبقظة بواطننا»^(١).

فهذا الحديث مع ما قبله من الآيات يدلنا على الشروط في دراسة الآثار والمنهج الذي ينبغي أن يتبع في الدراسة، ويوضح لنا القيمة المستفادة منها، وهي العظة والاعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار والهلاك لما أعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته. وأن هذا سنة من سنن الله الثابتة في كل من يعرض عن شرعه ويتبع هواه.

٣ - الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر:

من القواعد المهمة في منهج كتابة التاريخ الإسلامي الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر، وهذه القاعدة الإيمانية قد انحرف التصور الصحيح لها عند كثير من المسلمين المتأخرين، فمنهم من أنكر ذلك وتَنَقَّص المؤمنين به، ومنهم من فهم القضاء والقدر على أنه تواكل وخمول واستسلام مُذِلٍّ، وَكِلَا الموقفين منحرف ومجانِب للصواب، فالإيمان

= عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في كتاب الصلاة ١/١١٢، وكتاب الأنبياء ٤/١٢٠، وكتاب المغازي ٥/١٣٥، وكتاب التفسير ٥/٢٢١؛ وأخرجه مسلم في كتاب الزهد من صحيحه ٤/٢٢٨٥.

(١) البهي الخولي، تذكرة الدعاة ص ١١٩.

بالقضاء والقدر وبعلم الله وتقديره لما كان، وما هو كائن، أمر لازم لا إيمان لمن لم يؤمن به، إذ هو أحد أركان الإيمان «...» وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١). فالله ﷻ خلق الإنسان وخلق أفعاله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].. فكل أحداث البشرية وأعمالها قد كتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، ولن يحدث في الكون كله فضلاً عن الأرض شيء يخالف مشيئته وقدره لما ثبت في الحديث الصحيح: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح.. الحديث»^(٣).

فهذه الحقائق لا بد من إدراكها والإيمان بها واستحضارها عند مطالعة حوادث التاريخ لأن الإيمان بها هو أحد عناصر التقويم والحكم على الحادثة التاريخية، فمثلاً انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك، لو أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة رغم أن القوتين غير متكافئة لا في عدد الجيش ولا نظام التدريب ولا نوعية السلاح وكثرته.

(١) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب المشهور في قصة جبريل وسؤاله رسول الله ﷺ ٣٧/١.

(٢) رواه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت ٢٢٥/٤ رقم (٤٧٠٠)؛ ورواه الترمذي أيضاً وقال: حديث حسن صحيح غريب. انظر: تحفة الأحوذى ٩/٢٣٣، وقد صححه الألباني. انظر: مشكاة المصابيح ٣٤/١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٤.

(٣) متفق عليه. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢٠٧/٢.

فعدد الروم ستة أضعاف عدد المسلمين، وجيش الروم جيش نظامي مدرب وجيد التسليح، بينما الجيش الإسلامي قليل الأسلحة ضعيف التدريب ويقاقل بعيداً عن مركز خلافته، ومع ذلك حصل له الانتصار. فلو بحثنا في الأسباب المادية المنظورة لنا بحثاً عقلياً مجرداً لما استطعنا أن نقبل نتيجة المعركة، مما يضطرنا إلى رد الأخبار الواردة بهذه المعلومات.

أما إذا بحثنا المسألة من زاوية نظر أوسع، وهي أن الأمر ليس أسباباً مادية لا بد أن تتبعها نتائجها، إنما هناك قدر ومشئته وخالق يدبر، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. وأن الأسباب وحدها لا تؤدي إلى النتيجة إلا بقدر الله وتوفيقه، عند ذلك نقبل مثل هذه النتيجة ولا نستغربها.

فالمسلم الذي يؤمن بقضاء الله وقدره وبمشيئته سبحانه المطلقة لا ينظر إلى التاريخ على أنه قوالب جامدة من الأسباب والمسببات، بل يراه حركة متجددة ومتغيرة مما يدل على أن هناك إلهاً خالقاً مدبراً عليمًا، أمره فوق الأسباب، فقد تكتمل الأسباب المادية في عمل من الأعمال أو معركة من المعارك ومع ذلك لا تأتي النتائج وفقها.

وبهذا يتضح لنا أنه لكي يكون الحكم على الحادثة التاريخية صحيحاً ومستكملاً لعناصره لا بد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وأنها لا تعني ترك التكاليف الشرعية، أو ترك الأخذ بالأسباب المقدورة، والاستعداد بكل الوسائل المستطاعة، وبذل الجهد في تحصيلها، ولا يجوز لأحد أن يترك العمل احتجاجاً بالقدر لأنه لا حجة في ذلك فما يقع من الأقدار هو في حقيقته أمر غيبي بالنسبة لنا ولذلك قال العلماء: «القدر سر الله في خلقه»^(١) وقد نهى المسلمون عن

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٩/٨، ونسبه في شرح العقيدة الطحاوية =

الجدال في القدر^(١). وورد في الحديث: «إذا ذكر القدر فأمسكوا»^(٢).

فالتكاسل وترك العمل ليس مما يوجبه الرضا بالقضاء والقدر، كما أن الاعتماد على الأسباب وحدها هو قطع للصلة بالمسبب والفاعل الحقيقي، ولهذا قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: «إن كثيراً من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فأني انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق»^(٣)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: - في شرح هذه العبارة - والذي ذكره الشيخ هو الذي أمر الله به ورسوله، ولكن كثيراً من الرجال غلطوا فيه، فإنهم قد يشهدون ما يُقدَّر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يُقدَّر على الناس من ذلك بل من الكفر، ويشهدون بأن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره، داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته، فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضى به ونحو ذلك ديناً وطريقاً وعبادة، فيضاهئون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿أَنْطَعُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعْنَاهُ﴾ [يس: ٤٧]، وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]. ولو هُذُوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به، ونصبر على موجهه في المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض

= إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، انظر ص ٢٧٧.

(١) روى ابن ماجه في سننه أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكانما يفتق في وجهه حبَّ الرمان من الغضب فقال: «بهذا أمرتم؟ أو لهذا خلقتهم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم». قال في الزوائد: وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات ٣٣/١، وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح: إسناده حسن ٢٦/١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠٨/٤، وقد صححه الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (٣٤).

(٣) ابن تيمية، العبودية ص ٥٢ - ٥٣.

والخوف... أما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من صنوف المعاييب ويصبر على المصائب^(١). وقال في موضع آخر: «... فإن الله لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان بل أمرنا أن نكره ذلك وندفعه بحسب الإمكان كما قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٢)، والله قد قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فكيف يأمرنا أن نرضى لأنفسنا ما لا يرضاه لنا^(٣)؟».

وبسبب الانحراف في مفهوم القضاء والقدر وقع جملة من الكتاب المعاصرين^(٤) في أخطاء شنيعة في تقديرهم للدولة الأموية والحكم عليها حيث قالوا: إن الدولة الأموية شجعت الاتجاه نحو الجبر والإرجاء،

(١) العبودية ص ٥٣ - ٥٥.

(٢) الحديث رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري. انظر ١/٦٩.

(٣) العبودية ص ١٧٨.

(٤) قال أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام ٣/٨١: وبنو أمية كما يظهر كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة لا دينياً فقط ولكن سياسياً كذلك، لأن الجبر يخدم سياستهم، فالنتيجة للجبر أن الله الذي يسيّر الأمور قد فرض على الناس بني أمية كما فرض كل شيء، ودولتهم بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع للقضاء والقدر. وقال شاكر مصطفى في كتابه دولة بني العباس ١/٢٨: إن خلافة بني أمية تقوم على مبدأين... المبدأ الثاني: أن ما يتم على الأرض فإنما هو بإرادة الله لأن الإنسان مسير لا مخير، وفلسفة الجبرية كانت تقوم في أساس الفكر الأموي، ولو أراد الله غير ما هو كائن لفعل. وقال الدكتور عفت الشرقاوي في كتابه أدب التاريخ عند العرب ص ٢٥٧: وكان عَوَانة يهتم بالصراع السياسي والحربي بين الإمام علي وخصومه مع ميل إلى تأكيد فكرة الجبر في تفسير حوادث التاريخ، وهي الفكرة التي كان يشجع على بثها بين علماء المسلمين خلفاء بني أمية تأكيداً لسلطانهم السياسي.

وقالت إن أعمالها لا تجوز معارضتها لأن من يعارضها يعتبر منكراً
للقدر، إذ لو أراد الله غير ذلك لكان. وقد أطلق هؤلاء الكتاب هذا
القول دون أن يوردوا عليه دليلاً، وهذا يرينا مدى التشويه الذي يلحق
تفسير حوادث التاريخ الإسلامي عندما توضع في منظور غير إسلامي،
وعندما تنحرف المفاهيم والتصورات، وهذا الفهم الذي ذهبوا إليه
والحكم الذي حكموا به مبني على الجهل بمفهوم القضاء والقدر وتوهم
أن بينه وبين التكاليف الشرعية - من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
والجهاد في سبيل الله - معارضة، وليس الأمر كذلك كما أوضحناه.
والوقائع التاريخية الثابتة تكذب هذا الادعاء فقد قُتل كل من غيلان
الدمشقي، ومعبد الجهني اللذين أنكرا القدر في أيام الدولة الأموية، كما
قُتل الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، إماما الجبرية بأمر من الخلفاء
الأمويين.

٤ - الإيمان بالغيب وأثره في توجيه الحوادث التاريخية وتفسيرها :

ومن قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدارس التاريخ الإسلامي
الإيمان بالغيب وهو أحد أركان الإيمان. بل هو من أخص صفات
المؤمنين بالله، قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَلْقَتْ السَّيْفَ فِي يَدَيْهِمْ فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ يَتَرَكُونَ الْكِتَابَ وَتَأْتِيهِمْ بَغْثَةٌ كَمَا يَكُونُ لِمَنْ أَتَاهُ بَغْثَةٌ﴾ [البقرة: ١٠٣].

ودارس التاريخ الإسلامي إن لم يكن مؤمناً بالغيب وصحيح التصور
في ذلك فإنه لا يستطيع أن يعطي تقييماً علمياً وواقعياً لأحداث التاريخ
الإسلامي وحركته الجهادية. لأن المجاهد المسلم عندما يقاتل في
سبيل الله يعلم أنه ليس وحده هو الذي يقاتل الكفار، وأنه لا يقاتلهم
بكثرة عدد الجنود، ولا بتفوق السلاح وإتقان الإعداد المادي وحده، إنما
يقاتلهم بالإيمان الصادق الذي يحمله، وبما يعلمه من تأييد الله

للمجاهدين الصادقين، وما ينزله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة، وبما يمددهم به من الصبر وقوة التحمل، وغير ذلك من الوسائل المنظورة وغير المنظورة. فأحياناً يُنزلُ الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث في معركة بدر وغيرها من المعارك، وأحياناً بما يجريه الله من العوامل الطبيعية كإرسال الريح الشديدة التي فرقت الأحزاب عن المدينة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالبدور»^(١). وأحياناً بما يجريه الله على أيدي بعض المؤمنين من الكرامات، كما جرى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة سارية بن زنيم^(٢) التي رواها ابن جرير الطبري في تاريخه^(٣).

(١) متفق عليه. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٢٠/٢، ومسلم ٦١٧/٢ حديث رقم (٩٠٠).

(٢) هو سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر الدثلي، مختلف في صحبته، ورجح ابن حجر أن له صحبة، وكذا ابن عساكر، وذكره ابن حبان في التابعين، وقد ولّاه عمر ناحية فارس، وله شعر في الاعتذار إلى النبي ﷺ. ابن حجر، الإصابة ٤/٣.

(٣) ذكر الطبري ١٧٨/٤ في حوادث سنة ٢٣ عن فتح «فسا ودارا بجرد» قال: وكان عمر قد رأى المسلمين في المنام وأنهم بصحراء، وأن العدو سيحيط بهم إن أقاموا بها، فنادى في الناس الصلاة جامعة، فأخبر الناس بما رأى، ثم نادى: «يا سارية الجبل الجبل». وقال: إن الله جنوداً ولعلّ بعضها أن يبلغهم، فما كان من سارية إلا أن أجمع هو ومن معه من المسلمين على الإسناد إلى الجبل، ففتح الله لهم وهزم عدوهم. وذكر هذه القصة الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١٣١/٧ من طريق عبد الله بن وهب عن يحيى بن أيوب عن عجلان عن نافع عن ابن عمر، ثم قال: وهذا إسناد جيد حسن؛ وابن حجر في الإصابة ٥/٣ - ٧ وقال: أخرجها البيهقي في الدلائل، واللالكائي في شرح السنّة، وابن الأعرابي، وابن مردويه.

وكما في كتابته البطاقة إلى نهر النيل^(١) عندما توقف فيضان الماء، وكان له سُنَّة عند القبط وهي تقديم جارية بكر «عروس النيل» تلقى فيه فيجري، ولما أرادوا إلقاءها بعد فتح المسلمين لمصر قال لهم عمرو بن العاص: إن هذا أمر لا يكون في الإسلام لأنه يهدم ما قبله، وكتب بالخبر إلى عمر بن الخطاب فقال له عمر: أصبت. ثم كتب بطاقة وأمره أن يلقوها في النيل وقال في هذه البطاقة: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو مجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك» فلما ألقاها عمرو، فاض النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة.

وكما حدث لعقبة بن نافع الفهري الذي بنى مدينة القيروان، روى ابن عبد الحكم، قال: «حدثنا عبد الملك بن مسلمة، حدثنا الليث بن سعد، أن عقبة بن نافع، غزا أفريقية فأتى وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال: يا أهل الوادي اظعنوا فإننا نازلون. قال ذلك ثلاث مرات. فجعلت الحيات تنساب، والعقارب وغيرها مما يعرف من الدواب تخرج ذاهبة، وهم قيام ينظرون إليها من حين أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس، وحتى لم يروا منها شيئاً، فنزلوا الوادي عند ذلك»^(٢).

وكما حدث من خوض المسلمين البحر إلى جزيرة دارين بخيولهم

(١) انظر الخبر عن ذلك ونص الكتاب في: ابن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب ص ١٧٣؛ وابن كثير، البداية والنهاية ١٠٠/٧.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٥؛ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٢١٠. وانظر: البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٦٩ القسم الأول؛ والطبري ٥/ ٢٤٠. وقال الحافظ في الإصابة ٥/ ٦٤: إسناد خليفة إسناد حسن.

وجمالهم وأرجلهم بقيادة العلاء بن الحضرمي، وكأنهم يمشون على الرمل فلم يغرق لهم دابة ولا إنسان، وقد سجل الصحابي عفيف بن المنذر^(١) هذا الحدث بقوله:

ألم تر أن الله ذلّل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شقّ البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل^(٢)

وأيضاً حدث مثل هذا أثناء فتح المسلمين للمدائن حيث خاضوا بقيادة سعد بن أبي وقاص، نهر دجلة^(٣) وهي ترمي بالزبد ومسودة من كثرة الماء وعمقه. ودخلوا النهر أفواجاً حتى غطوه من الساحل إلى الساحل من كثرتهم، وخرجوا منه أفواجاً لم يغرق منهم أحد. وفي ذلك يقول أبو بجيد نافع بن الأسود^(٤):

وأسلّنا على المدائن خيلاً وبخرها مثل برّهن أريضا
فانتثلنا خزائن المرء كسرى يوم ولّوا وحاص منّا جريضا^(٥)

(١) انظر: ترجمة عفيف ابن المنذر في الإصابة ١٣٠/٥ ط. البجاوي، وقد أورد هذين البيتين.

(٢) ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك ٣/٣١٠ - ٣١١؛ وابن كثير، البداية والنهاية ٦/٣٢٩. وقال ابن حجر في ترجمة العلاء من كتاب الإصابة ٤/٥٤١: وخاض البحر بكلمات قالهن وذلك مشهور في كتب الفتوح.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٢٢ - ٣٢٣ القسم الثاني؛ والطبري ٤/١٠ - ١٤؛ وابن كثير، البداية والنهاية ٧/٦٤ - ٦٦ وقال معلقاً على ذلك: وكان يوماً عظيماً وأمرأ هائلاً وخطباً جليلاً وخارقاً باهراً، ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه، لم ير مثلاً في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع سوى قضية العلاء بن الحضرمي المتقدمة، بل هذا أجل وأعظم فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك.

(٤) عن ترجمة نافع بن الأسود. انظر: الإصابة ٦/٤٨٩.

(٥) الطبري ٤/١٠. ومعنى أريضا: أي معجباً للعين، وحاص: أي: ولّى وانهزم. وجريضا: هو المشرف على الهلاك، وفي الكامل لابن الأثير ٢/٣٥٨. وخاض منها جريضا، بدل: وحاص منّا.

فالذي لا يؤمن بالغيب، وأن الله جنوداً كثيرة من غير الإنس يمد بها المؤمنين متى شاء، فإنه لا يستطيع تفسير مثل هذه الحوادث، ولا فهمها الفهم الصحيح، بل تراه إذا جاءه خبر من هذه الأخبار إما أن ينكره بالكلية، أو يتعسف في تأويله ليخرجه عن دلالة المقصودة، وذلك تهرباً من إثبات المعجزات للأنبياء ﷺ، والكرامات للمؤمنين الصالحين، وهؤلاء هم أصحاب المدرسة العقلية^(١)، الذين أقاموا العقل في مقابلة النص الشرعي، بل جعلوا العقل حاكماً على النص، فيؤولون النص ليوافق عقولهم، وقد تلقف المستشرقون في العصر الحديث أفكار هذه المدرسة ونشروها، وعظموا من شأنها لموافقتها لما يحملونه من أفكار مادية تتعارض مع الإيمان بالمغيبات، وقد جاراهم في هذا كثير من الكتاب المسلمين في ظل ظروف وتأثيرات معينة، حتى من الذين حملوا راية التجديد الإسلامي من أمثال الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد فريد وجدي، ومصطفى عبد الرازق، وأحمد أمين، وحسين هيكل. فضلاً عن الكتاب «الليبراليين» الذين تشبعوا بالأفكار العلمانية أثناء بعثاتهم للدول الأوروبية، فلم يعد الإسلام في حسهم إلا مجرد تراث حضاري، أو تعبد شخصي لا علاقة له بحياة الناس، ولا علمهم، ولا أنظمتهم، ولذلك لم يراعوا الالتزام به في دراساتهم وأبحاثهم^(٢)، بل لقد أثار الكثير منهم

(١) عن إنكار المعتزلة وبعض الأشاعرة كرامات الأولياء، انظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية ٣٩٤/٢.

(٢) خذ أي كتاب من هذا النوع من الدراسات تجد أن مؤلفه إذا كان متقيداً بالمنهجية في كتابة البحث يُخَرِّجُ النصوص التاريخية ويحيلك إلى مواضعها، أما النصوص الشرعية فإنه إذا احتاج لذكر شيء فإنما يورده بالمعنى ولا يتكلف في تخريجه أو الدلالة على موضعه من كتب الأصول، وقد يكون الحديث صحيحاً، ومع ذلك يورده بصيغة التمريض والتضعيف، مثل: قيل وروي. وقد يكون ضعيفاً أو لا أصل له، ويورده بصيغة الجزم. وهذا دلالة على الجهل =

شبهات وافتراءات لا أساس لها في الفكر الإسلامي الصحيح، وهذه الطائفة «الليبرالية»^(١) كان لهم دور في إدارة وتوجيه التعليم في العالم الإسلامي ورسم خططه ومناهجه، وقلدوا في ذلك المناهج والدراسات العلمانية في العالم الأوروبي غربية وشرقية، كما أنهم قد أسهموا بنصيب وافر - مع الأسف - في التأليف عن التاريخ الإسلامي وصياغته بما يتناسب والأفكار العلمانية، وقاموا بتفسير حوادث التاريخ الإسلامي تفسيراً يؤكد المذاهب المعاصرة، من العلمانية، والقومية، والاشتراكية، والماركسية، حتى يوجدوا لها سنداً تاريخياً. لذلك لا تخلو مؤلفات مثل هؤلاء سواء عن السيرة النبوية أو صدر الإسلام أو حتى العصور الإسلامية المتأخرة، من انحرافات فكرية وجهل بالدراسات الشرعية، بل إن بعض ما كتبوه قابل للنقض جملة جملة... فإذا كان هذا حال دراسات أبناء المسلمين، فكيف يكون الحال بالدراسات التي أصدرها أعداء الإسلام من طوائف الكفر والإلحاد عن تاريخنا الإسلامي؟ إننا مهما افترضنا فيهم من توفر النزاهة العلمية - وهي غير متوفرة بطبيعة الحال تجاه الإسلام وتاريخه لما للعداء التاريخي العقدي من أثر - فإن هناك عنصراً مفقوداً وهو توفر الإيمان بالغيب. وهو عنصر بالغ الأهمية في تفسير التاريخ الإسلامي، حيث إن فقدانه يصيب الدراسة بكثير من التشويه والانحراف مهما توفر لتلك الدراسة من الموضوعية والجدية، لافتقادها عنصراً مهماً وركناً ركيناً ذا أثر بالغ في إعطاء الصورة الصحيحة عن الواقعة التاريخية وهو الإيمان بالغيب^(٢) فالمسلم يؤمن بالجنة،

= بالدراسات الشرعية، وعدم الاعتداد والاعتزاز بها.

(١) الليبرالي: هو المتحرر من الأديان والمعتقدات ولا يلتزم بمفاهيمها.

(٢) الإيمان بالغيبات، مما ينكره المستشرقون ومن تبعهم من أبناء المسلمين.

وتجد أنهم ينزون المسلمين بذلك وينتقصونهم به فيما يكتبونه من دراسات =

ويؤمن بالنار، ويؤمن بعذاب القبر، ويؤمن بالبعث بعد الموت، وبالحشر بين يدي الله للحساب، ويؤمن بالملائكة، وبالجن، وأن من الجن مؤمناً، وكافراً، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأنه لا ملجأ منه إلا بالاستعانة بالله، وكل هذه الأمور مغيبة عنا، والإيمان بها له أثر كبير على تصرفات الإنسان في هذه الأرض، ومن تلك التصرفات تتشكل الوقائع والأحداث التاريخية.

٥ - معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الثلاثة الأولى:

الأمة الإسلامية أمة متراحمة مترابطة، تعرف لذوي القدر منزلتهم، ولذوي الفضل فضلهم، فتعطي كلاً حقه بالقسط والعدل، وليست كالأمم الجاهلية المفككة الأواصر التي كلما جاءت أمة لعنت أختها، وكلما جاء جيل إما أن يجعل المسؤولية على الجيل السابق، ويتابعه على غير هدى ولا بصيرة، كما حكى الله سبحانه عنهم في كثير من الآيات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَبِيلٍ﴾ [البقرة: ١٧٠] وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا

= عنهم وعن تاريخهم، ويجعلون إيمان المسلمين بالغيب واعتباره في حوادث التاريخ، من جنس التفسير اللاهوتي «التفسير الديني» لحركة التاريخ عند أصحاب المدرسة اللاهوتية النصرانية، وعندهم أن الإيمان بالغيب هو الإيمان بالخرافات والشعوذات السائدة في أوروبا، والتي انتشر شيء منها لدى طوائف من المسلمين في العصور المتأخرة مما يسمونه كرامات السادة والشيوخ وأصحاب القبور. فلم يستطيعوا أن يفرقوا بين الإيمان الصحيح بالغيب، الإيمان الإيجابي الفعال الذي يدفع إلى العمل والحركة، وبين الإيمان المنحرف السلبي، الذي يدعو إلى التكاثر وانتظار الكرامات والمعجزات والاستسلام للعدو وعدم دفع كيده. وللفرق بين الكرامة وما يدّعيه بعض أهل الطرق والشعوذة، انظر: ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٧٩ - ١٨٩.

إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانْتَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانْتَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

أو يحط من قدر الجيل السابق، ويتعالى عليه ويفتخر بما حقق من تقدم مادي لم يحصل لذلك الجيل.

والموقف في كلا الأمرين ظلم للجيل السابق، وإن بدا في الصورة الأولى وكأنه تقدير وتعظيم، لأنه تقدير في غير محله، وعلى غير مستند من الحق والعدل.

أما الأمة الإسلامية التي شرفت بحمل رسالة الله تعالى، وبيعة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فإن الله قد رسم لها منهجها وطريقها المستقيم فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

ولذلك لا بد من معرفة حق أصحاب رسول الله ﷺ، وما لأصحاب القرون الثلاثة الأولى في تاريخ الإسلام من تميز وفضل وفق المقاييس الشرعية، دون غلو أو تفريط، فإن الذي أعطاهم هذا التميز والمنزلة، النصوص الشرعية إذ ليس الأمر اجتهاداً منا، أو افتراء على الحق، فإنه ليس لأحد أن يقرر برأيه المحض - دون مستند من الشرع - حكماً شرعياً لقول رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١)، أي مردود عليه، وستتناول بالبحث في هذه القاعدة ثلاث نقاط هي:

- ١ - تميز أهل القرون الثلاثة الأولى وأفضليتهم.
- ٢ - الحق الخاص لأصحاب رسول الله ﷺ.
- ٣ - الموقف من الأخبار المروية في قدح بعضهم، وفيما وقع بينهم من الخلاف.

(١) رواه مسلم رقم (١٧١٨).

تميز أهل القرون الثلاثة الأولى وأفضليتهم

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: حدثنا أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان فيغزو فئام^(١) من الناس، فيقولون: فيكم من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صحب صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم»^(٢).

وفي رواية عند مسلم: أنه ذكر طبقة رابعة.

قال ابن حجر: وهذه الرواية شاذة، وأكثر الروايات مقتصرة على الثلاث^(٣).

وأخرج البخاري ومسلم أيضاً من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٤). . . الحديث. فهذان النصان من رسول الله ﷺ قد دلا على تميز الطبقات الثلاث الأولى، أو القرون الثلاثة الأولى من هذه الأمة،

(١) فئام - بكسر الفاء - أي جماعة. انظر: الفتح ٥/٧.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣/١٨٠.

(٣) انظر: فتح الباري ٥/٧.

(٤) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣/١٨١.

وأفضليتهم على من سواهم من بقية الأمة، وذلك لخصائص وأعمال كانت فيهم، من قوة الإيمان، ونصرة الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والمحافظة على الشريعة وتبليغها للناس.

وترتيبهم في الفضل هو حسب ترتيبهم في الذكر، فالصحابا أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين، وأتباع التابعين أفضل ممن بعدهم، لما ورد في تنمة حديث عمران بن حصين: «ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر في السَّمَن»^(١) ولما رواه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشد منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ^(٢).

والذي يظهر والله أعلم أن المراد بالأفضلية في هذه الأحاديث، هو أفضلية المجموع بالنسبة إلى المجموع، وليست أفضلية الأفراد، وهذا هو الذي رجحه ابن حجر في الفتح^(٣) وقال إنه قول الجمهور. غير أن فضيلة صحبة رسول الله ﷺ ومشاهدته لا يعدلها عمل، فلا يكون أحد ممن بعد الصحابة مساوياً في الفضل لأحد منهم، لاختصاصهم بمشاهدة رسول الله، والسبق إليه بالهجرة والنصرة، وضبط الشرع المتلقى عنه، وتبليغه لمن بعدهم، وبذلك يظهر فضلهم.

والمراد بالقرن هم أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، مثل زمن نبي، أو رئيس يجمعهم على ملة، أو مذهب، أو عمل^(٤).

واختلف أهل اللغة في تحديد القرن على أقوال كثيرة من عشرة

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/٢٠.

(٤) انظر: فتح الباري ٧/٥.

(١) المصدر نفسه.

(٣) انظر: فتح الباري ٧/٧.

أعوام إلى مائة وعشرين، والمراد بقرن النبي ﷺ هم الصحابة.

قال ابن حجر في تحديد القرون الثلاثة المذكورة في الحديث: «وقد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة، أو دونها، أو فوقها بقليل، على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل^(١)، وإن اعتبر ذلك بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة، أو تسعين أو سبعاً وتسعين.

أما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحواً من سبعين أو ثمانين.

أما الذين بعدهم «أي أتباع التابعين» فإن اعتبر منها كان نحواً من خمسين. فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان.. واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله، من عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت رؤوسها، وامتنح أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن^(٢).

ويظهر من التحديد الذي قاله ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ، أنهم لا يعنون بالقرن الوحدة الزمنية المعروفة، وإنما فَسَّروا لفظة القرن الواردة في الحديث

(١) أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، رأى النبي ﷺ وهو شاب، وحفظ عنه أحاديث. روى عن أبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاذ، وحذيفة، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. قال الإمام مسلم: مات سنة اثنتين ومائة، وقيل: مات سنة سبع ومائة. وقال وهب بن جرير بن حازم: كنت بمكة سنة عشر ومائة فرأيت جنازة فسألت عنها فقيل لي: أبو الطفيل.

انظر: الإصابة ٢٣٠/٧، وقد ذكره ابن سعد في عداد الصحابة الذين نزلوا مكة ولم يذكر سنة وفاته. انظر: الطبقات الكبرى ٤٥٧/٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري ٧/٧.

النبي بالجيل، وهذا التحديد الزمني لنهاية القرون الثلاثة المفضلة الذي نقل ابن حجر اتفاق العلماء عليه هو الذي اتبعه أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات فإنه جعل أمثال الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠هـ) والبخاري (ت ٢٥٦هـ) ومسلم (ت ٢٦١هـ) في الطبقة الرابعة من طبقات الأمة الإسلامية، أي من أتباع أتباع التابعين. وجعل شيوخهم من أمثال الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) وعبد الرزاق بن همام الصنعاني^(١) (ت ٢١١هـ) وأبي نعيم الفضل^(٢) بن دكين (ت ٢١٩هـ) وعبد الله بن مسلمة القعنبي^(٣) (ت ٢٢١هـ) في الطبقة الثالثة أي من أتباع التابعين.

وهذا التحديد الزمني لنهاية القرون الثلاثة، يطابق الواقع التاريخي من حيث السمات العامة، والصفات الواردة، في الأحاديث النبوية. فإنه بانتهاء العصر العباسي الأول (١٣٢هـ - ٢٣٢هـ) بدأ الوهن في الخلافة، وظهرت الدويلات المتغلبة، وتوقف المد الإسلامي المعتمد على الفتوح والجهاد في سبيل الله، ولم يعد أمر الجهاد أكثر من مرابطة في بعض الثغور، فلم يعد الشغل الشاغل للدولة والأمة على مختلف طبقاتها كما كان في العصور الأولى، بل أخلدوا إلى الأرض، واشتغلوا بحطام الدنيا، وبأنواع شتى من العلوم والمعارف، وكان بعضها وبالأعلى عليهم، وسبباً لفرقتهم واختلافهم، مما أضعف وحدتهم واعتصامهم بشريعتهم، التي هي سبب عزهم وعنوان مجدهم، ولا يعترض على هذا بوجود مجموعة كبيرة من الأئمة العلماء الذين يقتدى بهم بعد هذا الوقت، وما

(١) سترجم له في الباب الثالث من هذا البحث.

(٢) هو أبو نعيم الفضل بن دكين، واسم دكين عمرو بن حماد، الحافظ الثبت، سمع الأعمش، وشعبة، وعنه أحمد، ويحيى بن معين، والبخاري. الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٧٢.

(٣) هو عبد الله بن مسلمة بن قعنب، شيخ الإسلام، الحافظ الثقة الثبت، ولد بعد الثلاثين ومائة. الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٨٣.

حصل من الازدهار العلمي، وتدوين العلوم والمعارف، لما تقرر من أن الأفضلية هي أفضلية المجموع إلى المجموع، ولما ورد في الأحاديث الصحيحة من أن الخير باق في هذه الأمة إلى قيام الساعة، وأنه لا تزال طائفة من الأمة على الحق قائمة بأمر الله منصوره إلى قيام الساعة لا يضرها من خالفها^(١). وأن الله يبعث على رأس كل قرن في هذه الأمة من يجدد لها دينها^(٢).

والأمة الإسلامية هي أمة جهاد، وأمة دعوة، فهذه هي وظيفتها الأولى، فإذا تخلت عن شيء من هذه الوظيفة نقصت قيمتها بقدر ذلك. فالتميز والأفضلية للأمة هو بسبب القيام الكامل بالوظيفة الأساسية، وهي الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى شريعته. ولما كانت الأجيال الثلاثة الأولى من هذه الأمة محققة لأكبر قدر من هذه الوظيفة، استحققت هذه الخيرية والأفضلية، فكانت بذلك القدوة والأسوة الحسنة لمن يأتي بعدها.

ومن أجل ذلك يجب علينا إبراز تاريخ هذه الأجيال من السلف

(١) أخرجه الإمام مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». انظر: صحيح مسلم ٣/١٥٢٣، كتاب الإمارة برقم (١٩٢٠). وأخرجه أيضاً من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بلفظ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصاة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة» ٣/١٥٢٤.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة ٤/١٠٩ ولفظه: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». ورواه الحاكم في المستدرک ٤/٥٢٢.

وانظر: صحيح الجامع الصغير ٢/١٤٣ رقم (١٨٧٠)، والأحاديث الصحيحة للألباني رقم (٥٩٩) ٢/١٥٠.

الصالح، والتركيز على المجهود الذي قاموا به في تحملهم أمانة الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وأن نعرف لهم قدرهم وفضلهم، ونحبب شبابنا في التآسي بهم، والاعتزاز بالانتساب إليهم، ليرتبط حاضر الأمة بماضيها العريق، ذي التاريخ المشرق من الجهاد، والدعوة، ونشر العلم، وقيادة البشرية قيادة راشدة إلى مراقي الفلاح.

معرفة حق أصحاب رسول الله ﷺ وعدالتهم

لقد دلت النصوص المتواترة على وجوب حب أصحاب^(١) رسول الله ﷺ وتعظيمهم وتوقيرهم وتكريمهم، والاحتجاج بإجماعهم، والاستئناس بآثارهم وحرمة سب أحد منهم، لما شرفهم الله به من صحبة رسول الله ﷺ، والجهاد معه، والصبر على أذى المشركين، والهجرة عن أوطانهم وأموالهم وأولادهم، وتقديم حب الله ورسوله على ذلك كله.

ويجب على المسلم الاعتقاد بما نطق به القرآن الكريم من أنهم خير أمة أخرجت للناس قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال رسول الله ﷺ: «بعثت في خير القرون»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ومعنى «وسطاً»: أي عدولاً^(٣).

وقال تعالى في وصفهم ﷺ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي

(١) قال ابن حجر: أصح ما وقفت عليه في تعريف الصحابي أنه من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام، فدخل فيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه، أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية بصر ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى. الإصابة ٦/١.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥٦٦/٦.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ من كتاب التفسير ١٧١/٨.

وَجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَزَزَهُ فَأَسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٩﴾

[الفتح: ٢٩] ^(١).

وقال تعالى في مدحهم وذكر ما أعده لهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِن مُّجْرِمِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي حَسَنٍ رَّضَىٰ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ^(١٠٠)

[التوبة: ١٠٠].

وقد أوصى النبي ﷺ الأمة بأصحابه، وأبان فضلهم ومنزلتهم كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه قال: «استوصوا بأصحابي خيراً ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ^(٣). وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» رواه مسلم، وأحمد ^(٤).

(١) قال ابن كثير في تفسيره ٣/٤٤٣: وقد انتزع الإمام مالك رحمته الله من هذه الآية - في رواية عنه - القول بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء.

(٢) الجابية: قرية من قرى الشام تقع إلى جنوب دمشق بالقرب من نوى التي ينسب إليها الإمام النووي، وإلى هذه القرية ينسب باب الجابية أحد أبواب دمشق. الساعاتي، الفتح الرباني ١٢/١٦٨.

(٣) المسند بترتيب الساعاتي ٢٢/١٦٨.

(٤) مسلم بشرح النووي ١٦/٨٢، والفتح الرباني بترتيب مسند أحمد ٢٢/١٦٨. قال النووي في شرحه: الأمانة - بفتح الهمزة والميم - والأمن والأمان بمعنى.

وفي تحريم سبهم قال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(١).

وروى الإمام أحمد، ومسلم، أن سبب هذا الحديث هو ما وقع من خلاف بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف، فسبه خالد، فلما بلغ ذلك لرسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي...» الحديث^(٢).

فإذا كان هذا التفضيل في الإنفاق، وهذا الزجر عن سب الصحابة رضوان الله عليهم موجهاً إلى من تأخر إسلامه عمن تقدم فكيف بمن بعدهم؟! إن ثواب التصديق بالمد من أحدهم يفضل ثواب التصديق بوزن جبل أحد ذهباً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: «وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة، وضيق الحال بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمايته وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم وقد قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ

= ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية فالسمااء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت يوم القيامة وهنت السمااء فانفطرت وانشقت. قوله: وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون؛ أي من الفتن والحروب واختلاف القلوب، وارتداد من ارتد من العرب، وغير ذلك مما أندر به صريحاً فوق، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون. معناه: ظهور البدع والحوادث في الدين، والفتن، وطلوع قرن الشيطان، وانتهاك المدينة ومكة.

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩٢/١٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩٢/١٦، والفتح الرباني بترتيب المسند

وَقَاتِلُواْ كُلَّ مَن كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الشَّقِيقَةِ وَالتَّوَدُّدِ وَالْخُشُوعِ
والتَّوَضُّعِ، والإيثار والجهاد في الله حق جهاده. وفضيلة الصحبة ولو
لحظة لا يوازيها عمل ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ
بالقياس»^(١).

لقد تبين من النصوص التي ذكرناها من الكتاب والسنة حق
أصحاب رسول الله ﷺ على الأمة الإسلامية، وفضلهم وأنه يجب رعاية
هذا الحق وأنه من الواجبات الشرعية التي يُعزَّر من يخالفها.

قال الإمام النووي: «واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم حرام من
فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم وغيره»^(٢).

وقال القاضي عياض: «وسب أحدهم من المعاصي الكبائر،
ومذهبنا ومذهب الجمهور أن من فعل ذلك يُعزَّر»^(٣).
وقال بعض المالكية: يقتل»^(٤).

وقال الإمام أحمد: «إنه يجب على السلطان تأديبه وعقوبته، وليس
له أن يعفو عنه بل يعاقبه ويستتيبه»^(٥).

وصحابة رسول الله ﷺ كلهم عدول بتعديل الله لهم، وثنائه عليهم
وثناء رسول الله ﷺ عليهم...

قال الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية «باب ما جاء في
تعديل الله ورسوله للصحابة وأنه لا يحتاج إلى سؤال عنهم، وإنما
يجب فيمن دونهم كل حديث اتصل إسناده بين من رواه، وبين
النبي ﷺ لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة رجاله، ويجب النظر

(٢) المصدر نفسه.

(١) النووي، شرح مسلم ٩٣/١٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٥) رسالة السنة ص ٧٨.

في أحوالهم سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن^(١).

ثم ساق جملة من الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، إلى أن قال: «والأخبار في هذا المعنى تتسع وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له»^(٢).

ثم قال: على أنه لو لم يرد من الله ﷻ ورسوله ﷺ فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة، والنصرة وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكّين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين^(٣) ثم حكى الإجماع على ذلك بقوله: «هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتد بقوله من الفقهاء»^(٤).

وقال الإمام الذهبي: «تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة، وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا، وبين علمائنا، فينبغي طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفر على حب الصحابة، والترضي عنهم. وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العري من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم،

(٢) المصدر نفسه ص ٩٦.

(١) الكفاية في علم الرواية ص ٩٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٦.

كما علمنا الله تعالى حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: ١٠] فالقوم لهم سوابق، وأعمال مكفرة لما وقع بينهم، وجهاد مَحَّاء، وعبادة مَمَحَّصة، ولسنا ممن يغلو في أحد منهم، ولا ندعي فيهم العصمة، ونقطع أن بعضهم أفضل من بعض، ونقطع بأن أبا بكر، وعمر أفضل الأمة، ثم تتمة العشرة المشهود لهم بالجنة، وحمزة، وجعفر، ومعاذ، وزيد، وأمّهات المؤمنين، وبنات نبينا ﷺ، وأهل بدر مع كونهم على مراتب، ثم الأفضل بعدهم، مثل أبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وابن عمر، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين ﷺ بنص آية سورة الفتح، ثم عموم المهاجرين والأنصار، كخالد بن الوليد، والعباس وعبد الله بن عمرو، وهذه الحَلَبَة، ثم سائر من صحب رسول الله ﷺ وجاهد معه، أو حج معه، أو سمع منه، رضي الله عنهم أجمعين وعن جميع صواحب رسول الله ﷺ المهاجرات، والمدنيات، وأم الفضل، وأم هانئ الهاشمية، وسائر الصحابيات. فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك، فلا نُعَرِّج عليه، ولا كرامة، فأكثره باطل وكذب وافتراء فدأب الروافض رواية الأباطيل، أو رَدَّ ما في الصحاح والمسانيد، ومتى إفاقة من به سُكْرَانُ^(١).

وقال ابن حجر: «اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة»^(٢).

والعدالة المرادة هنا، ليس المقصود بها عدم الوقوع في الذنوب والخطايا، فإن هذا لا يكون إلا لمعصوم، وإنما تعني تجنب تعمد الكذب في الرواية وغيرها. ولهذا قال ابن الأنباري: «المراد من عدالة

(١) سير أعلام النبلاء ٩٢/١٠، ٩٣.

(٢) الإصابة ١٠/١.

الصحابة قبول روايتهم من غير تكلف البحث عن أسباب العدالة، وطلب التزكية»^(١).

وقال الشيخ الدهلوي: «وبالتبع وجدنا أن جميع الصحابة يعتقدون أن الكذب على رسول الله ﷺ أشد الذنوب، ويحترزون عنه غاية الاحتراز»^(٢).

وهذا الذي ذكره العلماء في عدالة الصحابة، وحرمة ثلبهم بما يشينهم هو مذهب أهل العدل والحق من أهل السنة، وعلماء الأثر، ولا عبرة بخلاف من خالف في ذلك من الطوائف المخدولة أهل البدع والأهواء مثل الرافضة والشيعة والمعتزلة والزنادقة وغيرهم، ولا من تابعهم في العصور الحديثة من طوائف الكفار «المستشرقين» الذين اعتنوا بالدراسات الإسلامية، والبحث فيها، ومن قلّدهم من أبناء المسلمين الواقعيين في حرّات الله باسم حرية البحث العلمي، القائلين بأن كل إنسان له أن يقول ما شاء حتى ولو كان في ذلك اعتداء على حرّات المؤمنين، وتكذيب للقرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، تحت ستار حرية الرأي والبحث، وهذا الاتجاه مرفوض في مقياس العلماء المسلمين حيث إن للعلم قواعد وأصولاً وضوابط شرعية يلتزم بها المؤمن، ويكون بحثه واجتهاده في نطاقها. والحرية التي تلقاها «العلمانيون» و«التطوريون» عن الغرب، وطبقوها بمفاهيمها الغربية ليست من سنن المؤمنين ولا سبيل المسلمين، لذا جاءت نتائج أبحاثهم ودراساتهم مناقضة للقواعد الشرعية والأحكام الإسلامية.

روى الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي زرعة الرازي قال: إذا رأيت

(١) السيوطي، تدريب الراوي ٢/٢٥١ (في الحاشية).

(٢) السيوطي، تدريب الراوي ٢/٢٥١ (في الحاشية).

الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق. وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة^(١).

(١) الكفاية في علم الرواية ص ٩٧.

موقف المسلم مما روي من الأخبار في قدح بعض الصحابة

مذهب أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ وسط عدل بين طرفي الإفراط والتفريط، وسط بين الغلاة الذين يرفعون من يعظمونه منهم إلى ما لا يليق إلا بالله ﷻ، أو برسله ﷺ، وبين الجفاة الذين ينتقصونهم ويسبونهم ولا يعرفون لهم قدرهم، فأهل السنة وسط بين هؤلاء وأولئك، يحبون أصحاب رسول الله ﷺ جميعاً، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالإنصاف والعدل، فيعرفون للخلفاء الراشدين قدرهم ومنزلتهم، ولبقية العشرة المبشرين بالجنة، ولأهل بدر ولأهل بيعة الرضوان ولأهل بيعة العقبة ولمن أنفق قبل الفتح وقاتل، ولمن أنفق من بعد وقاتل، وأن الله وعد الكل بالحسنى وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿وَلَا وَعْدَ اللَّهِ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢] فلا يرفعونهم إلى ما لا يستحقون، ولا يقصرون بهم عما يليق بهم، فألستهم رطبة بذكرهم الجميل اللائق بهم وقلوبهم عامرة بحبهم، وما صح فيما جرى بينهم من خلاف فهم فيه مجتهدون، إما مصيبون فلهم أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإما مخطئون فلهم أجر الاجتهاد وخطأهم مغفور، وهم ليسوا معصومين، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ولكن ما أكثر صوابهم بالنسبة لصواب غيرهم، وما أقل خطأهم إذا نسب إلى خطأ غيرهم، وقد وعدوا من الله بالمغفرة والرضوان.

وَكُتِبَ أَهْلُ السَّنَةِ مَمْلُوءَةٌ بِبَيَانِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الصَّافِيَةِ النَّقِيَّةِ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الصَّفْوَةِ الْمُخْتَارَةِ لَصَحْبَةِ خَيْرِ الْبَشَرِ ﷺ.

قال إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: «ومن الحجة الواضحة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين والكف عن ذكر مساوئهم والخلاف الذي شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو أحداً منهم أو تنقصه أو طعن عليهم أو عَرَضَ بعيبهم أو عاب أحداً منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، بل حبه سُنَّةٌ، والدعاء لهم قُرْبَةٌ، والافتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وأصحاب رسول الله هم خير الناس لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص»^(١).

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي^(٢) في عقيدة أهل السنة والجماعة: «وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَبْغُضُ مَنْ يَبْغُضُهُمْ، وَبَغَيْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبَغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ»^(٣).

وقال ابن أبي زيد القيرواني^(٤) المالكي في مقدمة رسالته

(١) رسالة السَّنة للإمام أحمد ص ٧٨.

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي المصري الطحاوي، ولد سنة ٢٣٧هـ، ورحل إلى الشام لطلب العلم، وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر، وصنّف الكثير من التصانيف مثل كتاب: معاني الآثار، وله رسالة في العقيدة اعتنى بها العلماء وأثنوا عليها، مات سنة ٣٢١هـ. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ ٨٠٨/٣.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٨.

(٤) هو عبد الله أبو زيد عبد الرحمن أبو محمد الفقيه القيرواني، شيخ المالكية =

المشهورة: «وإن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وأن لا يذكر أحد من صحابة رسول الله ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب»^(١).

وقال الإمام أبو عثمان الصابوني^(٢) في كتاب عقيدة السلف وأصحاب الحديث: «ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيباً لهم ونقصاً فيهم، ويرون الترحم على جميعهم والموالة لكافتهم»^(٣).

وقال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية في كتاب العقيدة الواسطية التي شرح فيها عقيدة أهل السنة: «ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة للنبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي

= بالمغرب، جمع مذهب الإمام مالك حتى قيل عنه: مالك الأصغر، وكان واسع العلم كثير الحفظ، ذا صلاح وعفة وعقيدة صحيحة، توفي سنة ٣٨٦هـ، وقيل سنة ٣٨٩هـ. انظر: النجوم الزاهرة ٤/٢٠٠، ومقدمة كتاب الجامع له من ١٥ - ٧٦.

(١) مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني ص ٨، طبع جامعة الإمام ١٣٩٦هـ.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد أبو عثمان الصابوني الحافظ النيسابوري، عالم مفسر محدث، كان يلقب في نيسابور بشيخ الإسلام، له رسالة في عقيدة أهل الحديث، توفي سنة ٤٤٩هـ. ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق ٣/٣٠ وما بعدها.

(٣) انظر: مجموعة الرسائل المنيرية ١/١٢٩.

فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(١)، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم»^(٢) وبعد أن ذكر ﷺ مراتبهم وطبقاتهم قال عن أهل السنة: «ويتبرؤون من طريقة الروافض»^(٣) الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ويمسكون «أي أهل السنة والجماعة» عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وَغَيْرَ عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم من كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى أنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم. وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المُدَّ من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون: إما قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بسابقته أو بشفاعه محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته أو ابتليَّ ببلاء

(١) متفق عليه وسبق تخريجه.

(٢) العقيدة الواسطية بشرح الهراس ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) الروافض: قوم اتخذوا حُبَّ علي وأهل بيته والخلو في ذلك شعاراً لهم، مع بغضهم من عداه من كبار الصحابة وسبهم، بل وتكفيرهم، وأول من سماهم بذلك هو زيد بن علي ﷺ لما طلبوا منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر حتى يبايعوه بالإمامة، فأبى ذلك ففرقوا عنه فقال: رفضتموني، فمن يومئذ قيل لهم: رافضة وهم فِرَق كثيرة منهم: الغالية ومنهم دون ذلك. انظر: المصدر السابق ص ١٦٥.

في الدنيا كُفِّرَ به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي هم فيها مجتهدون إن أصابوا لهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور، ثم إن القدر الذي يُنكَرُ من فعل بعضهم قليل نَزَرُ مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما مَنَّ الله به عليهم من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله^(١).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجريْن»^(٢).

فهذه جملة صالحة من كلام أكابر علماء السلف يتبين منها الموقف الواجب على المسلم أن يقفه من الآثار المروية في قدح بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين - بسبب ما وقع بين بعضهم من شجار وخلاف ومقاتلة، خاصة في حرب الجمل بين الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومن معه، وبين أم المؤمنين عائشة، وطلحة، والزبير ومن معهم. وأيضاً في حرب صفين بين علي ومعاوية - وهو صيانة القلم واللسان عن ذكر مساوئهم، وإحسان الظن بهم، والترضي عنهم أجمعين، ومعرفة حقهم ومنزلتهم، والتماس أحسن المخرج لما ثبت صدوره من بعضهم، واعتقاد أنهم مجتهدون، والمجتهد مغفور له خطؤه إن أخطأ. وأن الأخبار المروية

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٦٤ - ١٦٧.

(٢) فتح الباري ٣٤/١٣.

في ذلك، منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه أو نقص منه حتى تحرّف عن أصله وتشوه، ثم إنها لم توضع في سياقاتها الصحيحة.

قال الإمام النووي مبيناً سبب الحروب التي وقعت بين الصحابة: «واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهدهم وصاروا ثلاثة أقسام:

قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته وقاتل الباغي عليه فيما اعتقدوه، ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده.

وقسم عكس هؤلاء، ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدته، وقاتل الباغي عليه.

وقسم اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك»^(١).

فهذا هو التفسير الصحيح لمواقف الصحابة عليهم السلام في تلك الحروب وهو اللائق بحالهم.

ومعنى الإمساك عما شجر بينهم، هو عدم الخوض فيما وقع بينهم من الحروب والخلافات على سبيل التوسع وتتبع التفاصيل ونشر ذلك بين العامة^(٢). أو التعرض لهم بالتنقص لفئة والانتصار لأخرى. وقد

(١) النووي، شرح صحيح مسلم ١٤٩/١٥.

(٢) إن أسوأ الأخطاء المنهجية والتربوية معاً، تدريس الحروب والخلافات التي وقعت بين الصحابة لتلاميذ المدارس، الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية، مع ما يصاحب ذلك من تشويه في العرض وتقصير في تعريف التلاميذ بمنزلة الصحابة وفضلهم وحقهم على الأمة، حيث ينشأ عن ذلك تعارض في أذهانهم بين الصورة الفطرية التي تصورها عن أصحاب رسول الله وما ينبغي أن يكونوا عليه =

ذكرنا آنفاً قول الحافظ الذهبي: «بأن كثيراً مما حدث بين الصحابة من شجار وخلاف ينبغي طيه وإخفاؤه بل إعدامه، وأن كتمان ذلك متعين على العامة بل آحاد العلماء» لأنه لا مصلحة شرعية ولا علمية من وراء هذا النشر، وبالأسلوب أو الطريقة التي ذكرنا. أما في ظل الموازين العلمية المستقيمة المهتدية بالنصوص الشرعية فإن البحث في هذا الموضوع لا يمتنع إذا قصد به بيان الأحكام الشرعية^(١). وما كان ذكر العلماء المعتبرين للحروب والخلافات التي وقعت بين الصحابة ﷺ إلا على هذا السبيل، أو لبيان المواقف الصحيحة

= من الاستقامة وبين الصورة التي تلقوها من المدرسة، فلا يستطيعون معرفة الحق من ذلك ولا يستوعبونه، نظراً لصغر سنهم، ولقلة ثقافتهم حتى لو حاولت أن توضح لهم الصورة الصحيحة فإنهم لا يكادون يقتنعون لأن الشبهة التي أثيرت قد انقدحت في أذهانهم.

وهذه المسارعة في عرض مثل هذه المادة التاريخية على صغار التلاميذ أو عوام الناس، مخالف للقواعد الأصولية مثل قاعدة «سدّ الذرائع» وقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» ومخالف أيضاً للقواعد التربوية التي تقضي أن لا يعرض على الناس أكثر مما لا تحتمله عقولهم. وقد جاء عن الصحابة ﷺ ما يؤيد هذا فقال عبد الله بن مسعود، كما في مقدمة صحيح مسلم ١١/١: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». وقد بَوَّبَ البخاري في صحيحه (١/٢٢٥ الفتح)، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا. وأورد قول علي بن أبي طالب: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟». قال ابن حجر في فتح الباري ١/٢٢٥: «فيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة». فهذه الآثار عن الصحابة ﷺ تدل على صحة هذه القاعدة التربوية وأنه لا ينبغي أن يُدرَّس مثل هذا لتلاميذ المدارس لأنه مما لا تبلغه عقولهم، ومما يؤدي إلى فتنة بعضهم، وهي اعتقاد ما لا ينبغي اعتقاده في أصحاب رسول الله ﷺ.

(١) انظر حول هذا: ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٤/٤٣٤.

وتصحيح الأغاليط التاريخية التي أثّرت حول مواقفهم في تلك الحروب، ومع ذلك انتقد بعض العلماء^(١) طريقة ابن عبد البر في كتابه: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لذكره ما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم من خلاف.

٦ - التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام:

وهذه قاعدة جليلة عظيمة. فمن رزقه الله تصوراً صحيحاً وفهماً في علم الشريعة علم يقيناً أنه لا شيء من أخطاء البشر مهما كانوا ينسب إلى الإسلام، فقواعد الإسلام وأحكامه تتلقى من مصدرها الحق - الكتاب والسنة - لا من عمل الناس وسيرتهم - ما لم يكن إجماعاً ممن ينعقد بهم الإجماع - ولا حجة في عمل أحد ولا قوله إذا كان مخالفاً لنصوص الشرع، ولهذا قال الإمام مالك: «ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ»^(٢). وكثير من الناس يخطئ في هذه المسألة

(١) قال السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٦٤: ورحم الله منقح المذهب المحيوي النووي - يقصد الإمام النووي - فإنه لما أثنى على فوائد الاستيعاب للحافظ الحجة ابن عبد البر قال: لولا ما شأنه من ذكر كثير مما شجر بين الصحابة، وحكايته عن الإخباريين الغالب عليهم الإكثار والتخليط.

(٢) ناصر الدين الألباني، صفة صلاة النبي ﷺ، وقال: إن نسبة هذا القول إلى الإمام مالك هو المشهور عند المتأخرين، وقد صححه عنه ابن عبد الهادي في إرشاد السالك ٢٢٧/١. ورواه ابن عبد البر، في جامع بيان العلم وفضله ٢/٩١؛ وابن حزم، في إحكام الأحكام ١٤٥/٦، ١٧٩ من قول الحكم بن عتيبة، ومجاهد. وأورده تقي الدين السبكي في الفتاوى ١٤٨/١ من قول ابن عباس، ثم قال (أي السبكي): وأخذ هذه الكلمة من ابن عباس مجاهد، وأخذها منهما مالك رضي الله عنه واشتهرت عنه. قال الألباني: ثم أخذها عنهم الإمام أحمد. انظر: مسائل الإمام أحمد لأبي داود ص ٢٧٦.

فيظن أن كل ما حدث في التاريخ الإسلامي هو تطبيق لمبادئ الإسلام أو أن الإسلام أمر بمثل هذه الأفعال التي قام بها المسلمون في ظل الحكم الإسلامي، ويعتبر ذلك الحدوث حجة أو مسوغاً للاقتداء به على اعتبار أنه سابقة تاريخية حدثت في المجتمع الإسلامي، لكن من المعلوم أن السوابق التاريخية لا يجوز العمل بها إذا خالفت النصوص الشرعية، أو حدثت نتيجة انحراف وخطأ في المفهوم الإسلامي، أو كانت صادرة عن لا يحتج بعمله. ولذلك تراهم إذا تحدثوا عن حضارة الإسلام يذكرون أنواعاً من الأفعال والتنظيمات وهي مناقضة تماماً للأحكام الشرعية، دون أن يوضحوا بأن مثل هذا مما يخالف الأوامر والنواهي الشرعية. والأمثلة على ذلك كثيرة في كتابات المتأخرين^(١). فإنك تراهم

(١) انظر على سبيل المثال المؤلفات التالية:

أ - الدكتور سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جزءان، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر. فقد استعرضت الأضرحة والقباب والمساجد المقامة على القبور ووصفتها وصفاً معمارياً. وفي ٤٤/١ حاولت أن تُدَلِّسَ على القارئ بأنها بحث الموضوع بحثاً شرعياً وذلك بنقلها بعض العبارات المجتزأة من كتاب: الفقه على المذاهب الأربعة، ثم قررت أن شد الرحال لزيارة القبور عمل مندوب!! ولم تتعرض لحكم بناء القباب والمشاهد على القبور. ومن المعلوم أن شد الرحال لزيارة القبور منهي عنه وبناء القباب والمشاهد على القبور بدعة، وإذا اقترن ذلك بتقديم شيء من أنواع العبادة فهو شرك، ويتعين إزالتها سداً للذريعة.

ب - عطاء الحديثي، وهناء عبد الخالق: القباب المخروطية في العراق. فقد قدمنا دراسة وصفية لهذا النوع من القباب المقامة على القبور في القطر العراقي، ولم تتعرض الباحثة لحكم الإسلام في ذلك، وهل هذا عمل مشروع أم لا؟

ج - توفيق أحمد عبد الجواد: تاريخ العمارة. قال في ٣٢٤/٢: وتفخر القاهرة بأن فيها مجموعة من هذه الأضرحة. وفي ٣٢٧/٢ قال: مما يلاحظ في العماثر الدينية السلجوقية، أنها لم تكن مقصورة على المساجد بل كثر بناء =

يذكرون في الفنون الإسلامية مثلاً أنواعاً مما حرمه الله، مثل فن الغناء، وفن التصوير والنحت، وفن بناء القباب على القبور، وفي النظم المالية مثلاً يذكرون نظام الضرائب والمكوس^(١) التي تؤخذ من التجار المسلمين، وغير ذلك مما نهى الشارع عنه. فيعرضون مثل هذا على أنه تقدم حضاري ومن نتاج الحضارة الإسلامية، ويفأخرون به غيرهم، وهذا في الحقيقة من فساد التصور والخلط بين انحرافات البشر وأخطائهم وبين أحكام الإسلام. والمفترض في الباحث أن يصطحب التصور الإسلامي الصحيح في كل دراساته وأحواله، وأن يفرق بين أخطاء البشر وبين قيم الإسلام وموازينه، لأن البشر يخطئون ويصيبون، ويستقيمون على الطريق فترة وينحرفون فترات، وتتبدل مفاهيمهم وموازينهم إن لم ترجع إلى ضابط ومقياس شرعي، أما أحكام الإسلام وموازينه فهي ثابتة لا تتبدل

= الأضرحة على شكل أبراج أسطوانية، أو ذات أضلاع، وقد نشأ هذا الطراز من الأضرحة في خراسان وانتشر منها إلى سائر الشرق الإسلامي، ولم يذكر أي تعليق على حكم الشرع في مثل هذه البدع المحدثه.

د - أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها. وهو دراسة وصفية حضارية كسابقة، ففي ص ٢٨ درس المشاهد والقبور في القاهرة على سبيل الإعجاب والتقرير لها.

هـ - أرنست كونل: الفن الإسلامي، ترجمة الدكتور أحمد موسى، أورد في ص ٦٠ أبنية القبور، الطراز السلجوقي. وفي ص ٨٧ أبنية القبور، الطراز الفارسي المغولي، ولم يتعرض المترجم بالتعليق على ذلك كما هو واجبه الإسلامي.

(١) قال ﷺ: «لا يدخل الجنة صاحب مكس». رواه أبو داود ١٣٢/٣، وقال الخطابي في معالم السنن: صاحب المكس هو الذي يعشر أموال المسلمين ويأخذ من التجار إذا مروا عليه مكساً باسم العشر وليس هو الساعي الذي يأخذ الصدقات. معالم السنن، حاشية على مختصر أبي داود ١٩٧/٤.

ولا تتغير، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

والذي ينبغي التنبيه له أنه في مجال إصدار الأحكام التاريخية^(١) على الأشخاص والأحداث أن لا تتأثر أحكامنا بالمنزلة العلمية أو المكانة الاجتماعية للأشخاص الفاعلين في الحدث التاريخي الذي نعالجه مما يدفعنا إلى محاولة تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب. على حساب تشويه المنهج الإسلامي^(٢). «لأن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج»^(٣) فالمنهج أعظم من الأشخاص وأكبر، وصيانتها أولى وأحرى. فالحق لا يعرف بالرجال ولا بكثرة من قاله إنما يعرف الرجال بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القلة. فالجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه^(٤). والمنهج لا بد أن يبقى مصوناً ومحافظاً عليه من التشويه والتحريف.

(١) الحكم التاريخي: هو ما يطلقه المؤرخ من نقد وحكم على أرباب الولايات من الحكام والقادة، وكبار العلماء، أو على عصر من العصور، أو موقف من المواقف الجماعية أو الفردية، ويجب أن يكون هذا الحكم لدى المؤرخ المسلم مبنياً على منهج معياري شرعي يزن به أعمال كل شخص من هؤلاء، لأن المرء يذم بسبب تقصيره في شيء من الأمور الشرعية وما هو مسؤول عنه، ويمدح بما قَدَّم للإسلام من خدمات وأقام من عدل في ولايته وملكه. فالمقياس الشرعي هو المنهج الذي يحاكم له الأشخاص في أعمالهم ومواقفهم. وهذا الحكم التاريخي يختلف عن نقد الرواة عند علماء الحديث، إذ لهؤلاء موازين خاصة معروفة ومفضلة في كتب المصطلح.

(٢) هذا لا يعني أننا نسيء الأدب ولا نلتمس العذر لمن كان له عذر، بل إحسان الظن بالمسلم هو المطلوب، وهناك فرق بين الاعتذار وبين التبرير، والمحذور هو التعصب وتبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب.

(٣) هذه العبارة قالها الكاتب الشهير سيد قطب. انظر: في ظلال القرآن ١/ ٥٣٣.

(٤) ابن القيم، إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.

٧ - الإيمان بالسنن الربانية وأهمية ذلك في التفسير التاريخي :

دراسة التاريخ بوعي وإدراك تساعد الدارس على معرفة السنن الربانية وتكشفها له مما يجعله يستفيد من دراسته ويخطط لمستقبله على ضوء تلك السنن. وسبق أن ذكرنا في الفصل الثاني من الباب الأول أن من ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السنن الربانية، وتناولنا بالبحث هناك معنى السنة الربانية وأنواع السنن وصفاتها.

والذي يهمنا في هذا الموضوع هو بيان ارتباط الإيمان بالسنن الربانية بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك أن الله ﷻ سنناً ثابتة في حركة الإنسان في هذا الكون، وهذه السنن كما عَرَفْنَا عليها القرآن ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر، والعدل والظلم، وبقضايا السلوك الاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات البشرية.

والذي يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم فهو الذي عَرَفْنَا بالخير وبالشر وحدد دلالة ذلك، وعرفنا بالإيمان بالله وبالشرك وبالحق والباطل والعدل والظلم، وأن أظلم الظلم هو الإشراك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وأن الظالم لا بد أن ينال جزاءه، كما أن بسط الدنيا على أحد من الناس ليس دليل محبة الله له وإنما قد يكون من باب الاستدراج قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ حَيًّا لِلْأَنْفُسِ إِنََّّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤْدًا﴾ [٧] [الطارق: ١٧] ثم العاقبة ستكون للمؤمنين، وأن ما يصيبهم في الحياة الدنيا من تعب وعنت وظلم هو للابتلاء والتمحيص وهذا سنة من السنن الربانية. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [١] ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [٣] [العنكبوت: ١ - ٣] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا

الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤] وأن النصر الحقيقي لا يكون إلا من عند الله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وأنه للمؤمنين. متى وقوا بشرط الإيمان ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١٥﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وأن الأيام دول بين الناس قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وأن الحياة الهادئة المباركة الآمنة لا تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله كما قال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمْتُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، وأن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدي بالامة إلى مدارك الهلاك، وضنك الحياة، المادي منها والنفسي. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٦٢﴾﴾ [طه: ١٢٤] وما أشارت له الآية من معيشة الضنك في الحياة الدنيا لمن يعرض عن ذكر الله، واقع ملموس مشاهد، فإن المعرضين عن ذكر الله يعيشون إما ضنكاً مادياً في رزقهم، أو ضنكاً نفسياً شعورياً، أو هُماً جميعاً. لأن المعاصي تكون شؤماً على أصحابها وفساداً في الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وقد ورد في الحديث

الذي رواه الإمام أحمد «وأن الرجل يحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(١).
 وأن الجهاد سنة ربانية فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا^(٢). قال
 تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] فالله ﷻ يدفع بأهل
 الخير والصلاح فساد أهل الشر والضلال.
 فهذه أمثلة من السنن الربانية التي ذكرها القرآن، ولا يدركها إلا من
 قرأ القرآن وآمن به وصدقه.

وإذا بحث الإنسان في الواقع التاريخي للحياة البشرية يجد مصداق
 ذلك فيزداد إيماناً على إيمانه، ومعرفة وعلماً بواقعه التاريخي الحاضر،
 وتتكون لديه القدرة على دراسة هذا الواقع دراسة تمكنه من اكتشاف
 الأخطاء ووصف العلاج اللازم لما أصيبت به الأمة من أمراض
 وانحرافات، حتى تتفادى الوقوع في شر السنة الربانية وتصيب من خيرها.
 وبذلك يتضح الارتباط الوثيق بين منهج كتابة التاريخ الإسلامي
 والإيمان بالسنن الربانية في الكون كما دل عليه القرآن، وكشفتها
 التجارب التاريخية.

وهذه السنن مرتبطة بالأحكام والقوانين الشرعية وتطبيق منهج الله
 في حياة الناس كلها.

قواعد في المصادر:

المصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى لأنه بدون توفر

(١) المسند ٢٧٧/٥، وابن ماجه ١٣٣٤/٢.

(٢) روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا». وقد جاء في الحديث: «إذا تبايعتم بالعينة... وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». أبو داود ٣/٢٧٥، وانظر: صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٤١٦).

المصادر لا يستطيع أن يكتب أي بحث تاريخي، والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر، لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهى، فلا يغني فيه الخيال والرجم بالغيب ولا التجارب العملية، كما يفعل الأديب والقصصي والشاعر والعالم الفيزيائي، وما دامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلا بد أن يعتني بها غاية الاعتناء وأن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة، كدرجة الثبوت والثقة في المصدر وكالقرب من الواقعة التاريخية، سواء قرب المصاحبة والمعاشة أو القرب الزمني. فيقدم ما هو أوثق ثبوتاً كالنقل المتواتر ثم ما هو أقل من ذلك وتقدم رواية من كان ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته، وهنا مجموعة من القواعد التي يلزم الباحث في التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامي على وجه أخص أن يراعيها أثناء نظره في المصادر واستقاء المعلومات التاريخية ونقدها وهي:

١ - اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر

وذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تكفل الله بحفظه من التحريف أو الزيادة والنقصان ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والقرآن قطعي الثبوت. آية آية وكلمة كلمة.

ويأتي بعد القرآن في قوة الثبوت الحديث النبوي الشريف فإن النبي ﷺ - كما أخبر الله عنه - لا ينطق عن الهوى، وقد حفظ الصحابة رضي الله عنهم أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته وأدوها إلى من بعدهم كما سمعوها.

وقد اتبع علماء الحديث والرواية أرقى منهج علمي وأوثقه في تدوين السنة، وفي نقد الرجال والمرويات. وفي الكتاب والسنة ورد كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم، أو

الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية. كما أنه قد جاء في الكتاب والسنة الإشارة إلى الأحداث المستقبلية سواء كان وقوعها في الحياة الدنيا أو في الآخرة. فقد أخبر ﷺ بما تؤول إليه حالة الأمة الإسلامية بعده وما يصيبها من التفرق^(١)، وما يكون فيها من حركات الإصلاح والتجديد^(٢). كما أخبر أنه ستقع أحداث كثيرة بين يدي الساعة^(٣) وهي أشراط الساعة التي اعتنى العلماء بجمعها وتخصيص

(١) قال ﷺ: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة». رواه أبو داود، وأحمد، والدارمي، والحاكم، والآجري في الشريعة. انظر تخريجاته والكلام عليه في: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، المجلد الأول، حديث رقم (٢٠٤).

(٢) قال ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». أخرجه أبو داود ١٠٩/٤، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في المعرفة، وهو صحيح. انظر: صحيح الجامع الصغير ١٤٣/٢؛ وسلسلة الأحاديث الصحيحة، المجلد الثاني، حديث رقم (٥٩٩).

(٣) قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصري». رواه البخاري، ومسلم. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣٠٥/٣. وقد خرجت هذه النار كما أخبر ﷺ وكان خروجها من حرة المدينة في سنة ٦٥٤هـ. انظر ذلك في: ابن كثير، البداية والنهاية ١٨٧/١٤.

كما أخبر ﷺ عن فتح المسلمين للقسطنطينية، وروما، عندما سئل: أي المدينتين تفتح أولاً؟ أقسطنطينة أم رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولاً». يعني القسطنطينية. وهو حديث صحيح. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، حديث رقم (٤)، وأخبر أيضاً بأنه لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر.. الحديث. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٤٤/١٨ - ٤٥.

أبواب لها في مصنفاتهم، بل قد أفردوا بعضهم بكتب مستقلة^(١).

وقد جاء في القرآن والسنة أيضاً الإشارة إلى جملة من القوانين التاريخية والسنن الربانية مما يعطي الباحث أو الدارس سعة وشمولاً في النظرة التاريخية وعمقاً في التحليل للأحداث ومقدرة على تشخيص الداء ووصف الدواء.

فالذين لا يعتمدون القرآن والسنة في مصادر دراساتهم وأبحاثهم، يحرمون هذه الفوائد، مثل النظرة الشمولية، والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث، وحتى لو عرفوا تشخيص بعض الأسباب فإنهم لا يستطيعون وصف العلاج الحقيقي للأمراض الاجتماعية والخلقية التي تصيب المجتمعات فتؤثر في تطور الأحداث وتوجيهها.

لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وعلاج مثل هذه الأمراض والأدواء لا يتلقى إلا من الشارع الحكيم، ولا يصح أن يتكلم فيه من ليس عنده علم من الشرع. لذا فإنه لا بدّ من اعتماد المصادر الشرعية في كل دراسة تعالج وضعاً من الأوضاع الاجتماعية وتساعد على توجيه المجتمع وتنميته سلوكياً واجتماعياً وهذا العمل من أعظم وظائف المؤرخ وأهم ثمرة في دراسته.

فالمصادر الشرعية واجبة التقديم باعتبارين:

لأنها أصدق من كل وثيقة تاريخية فيما ورد فيها من الأخبار وذلك

(١) أفرد لها البخاري كتاباً في صحيحه سمّاه كتاب الفتن ٨/ ٨٦ - ١٠٤؛ ومسلم، كتاب الفتن وأشرط الساعة ٤/ ٢٢٠٧ - ٢٢٧١؛ وأبو داود، الفتن والملاحم ٤/ ٩٤ - ١٢٦؛ والترمذي في جامعه ٤/ ٤٤٦ - ٥٣٠، كما أفردوا بعض العلماء بمصنفات مستقلة مثل: ابن كثير، النهاية في الفتن والملاحم؛ وصديق حسن خان، الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة؛ والتويعري، إتحاف الجماعة بأشرط الساعة.

لصدق مصدرها وعلمه وهيمنته، كما أنها وصلت إلينا بأوثق منهج علمي، فالقرآن وصل بالتواتر الموجب للثبوت القطعي في كل آية وكل كلمة بل وكل حرف. كما أن صحيح السنة وصل إلينا بمنهج علمي دقيق هو أرقى ما تستطيعه الطاقة البشرية.

والاعتبار الثاني.. هو لما تدل عليه من السنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مما يهيئ للباحث المقدرة على اكتشاف القوانين العامة في حركة البشرية وارتباط ذلك بالهدى والضلال والكفر والإيمان سلباً وإيجاباً.

والقرآن والسنة يعطيان الدارس التصورات والمفاهيم والقيم التي في ضوئها تفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها.

وقد حاول كثير من المؤرخين اكتشاف السنن والروابط التي تربط الأحداث، أو ما يسمونه «فلسفة التاريخ» غير أنهم لعدم اهتدائهم بالمصادر الشرعية لم يصلوا إلى نتائج مطمئنة، بل بلغ الجنوح بأكثرهم إلى القول بتفسيرات ومنظورات تاريخية تأخذ بالتفسير «الأحدي» لحركة تاريخ البشرية ولذلك ظهرت مدارس متعددة في تفسير التاريخ مثل المدرسة الاجتماعية، والمدرسة النفسية، والمدرسة المادية، والمدرسة القومية، والجغرافية، واللاهوتية الكنسية وغيرها.

وهذه التفسيرات جميعها - باستثناء التفسير الكنسي^(١) - تغفل دور الأنبياء والرسل ﷺ وأثر رسالاتهم في تاريخ البشرية، ولا تعطي أية أهمية لما جاؤوا به من الهدى والنور والدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ

(١) لم نستثن التفسير الكنسي باعتباره تفسيراً صالحاً، ولكن باعتبار أنه يحمل تصورات عن رسالة المسيح عيسى ﷺ، ولكنها تصورات مشوشة وغير سليمة، فالمسيح في نظرهم هو ابن الله، وأنه قد قدم نفسه قرباناً وتكفيراً عن الخطيئة الأولى خطيئة آدم... إلى آخره.

الشرك والأنداد وإقامة الحكم بين الناس بالقسط. يقول أحد الكتاب المعاصرين مبيناً خطر الدراسات التي لا تعتمد المصادر الشرعية - وإن كان هو لم يسلم من لوثة الاستشراق ولكن شهد شاهد من أهلها -: «المستشرقون سبقوا المسلمين في دراساتهم ذات الطابع الحديث، وكانوا أساتذة للكثيرين من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعلم في الدراسات الإسلامية - هكذا - وطرق البحث فيها، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين، وعادوا فكتبوا.. ونقرأ ما كتبوا فنلمس أن كتاباتهم تجافي روح الإسلام في كثير من الأحيان، والذي سبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية، وكتابات هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابات المستشرقين أنفسهم، ومرجع ذلك إلى أن القراء يقرؤون للمستشرقين بحذر ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه»^(١).

فكل دراسة للتاريخ الإسلامي لا تعتمد المصادر الشرعية لا بد أن تصاب بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامي. لأن التاريخ الإسلامي جزء لا يتجزأ من الدراسات الإسلامية وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة لها، ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها.

وبسبب الفصل الحاصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية أتيحت الفرصة لعدد غير قليل - من الذين لم يتلقوا قدرًا كافيًا من علوم الشريعة - للكتابة في التاريخ الإسلامي. ومن ثم جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الاستشراقية، وتحمل كثيراً من لوثة الانحراف الفكري، والغزو الثقافي، وتمثل الفهم المشوه للشريعة. وحتى المخلصين من هؤلاء الباحثين لا يكادون ينجون من هذه الآثار وذلك راجع إلى قلة البضاعة في الدراسة الشرعية، وللمناهج التي تلقوا بها دراسة التاريخ.

(١) أحمد شلبي، التاريخ والحضارة الإسلامية ٥٨/١.

إن الواجب يقضي بأن كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامي وتدريسه أن يبدأ بدراسة القرآن الكريم ومعرفة أسباب النزول، وأصول علم التفسير، وأصول علم الحديث، ومعرفة الأحكام الشرعية، وعقيدة أهل السنة والجماعة، وعقائد الفرق المخالفة لها، لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإسلامي وخاصة في مجال التحليل والمنظور التاريخي والمنهجية العلمية.

٢ - عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب السماوية السابقة على القرآن لأنها مبدلة ومنسوخة:

قال الله تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم، والواقع يثبت هذا التحريف. فإن الأناجيل قد دونت بعد رفع عيسى بزمان طويل، وهي اليوم مختلفة لا تتفق نسخة مع أخرى. وكذلك التوراة والتلمود، دَوَّنَهَا أَحْبَارُ الْيَهُودِ بَعْدَ مُوسَى بِأَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ. واختلافاتها الكثيرة، وما تحويه من الكلام المنكر والقصاص الفاسد والشرك بالله، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه ﷺ.

فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة. أما أخبارها وقصصها فهي مترددة بين الصواب والخطأ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾»^(١) الآية.

ومن المعلوم أن القصص الإسرائيلي من أوسع القصص تفصيلاً للمعلومات التاريخية لعهود وأزمان سحيقة، لكن بسبب وقوع التحريف فإنه لا يمكن الاعتماد على شيء من ذلك في الأمور الشرعية، أما الأخبار التاريخية مثل زيادة التفصيل لما ورد في القرآن أو السنة مجملًا أو الذي يغطي به النقص والفجوات في الوقائع التاريخية، ولا يترتب على ذلك تقرير حكم شرعي أو مخالفته، فإنه لا بأس من ذكر ذلك على سبيل المعرفة والبيان، لا الاعتماد والاعتقاد، كما قرر ذلك كثير من العلماء المحققين من أمثال الإمام ابن تيمية^(٢)، والحافظ ابن كثير^(٣). فقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات على ثلاثة أقسام وهي كما يلي:

- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.
- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه فذاك كذب.
- ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا، فلا نصدق به ولا نكذبه.

وهذا القسم الأخير تجوز حكايته لما ورد من الإباحة في ذلك وغالب هذا مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا كان بعض

(١) رواه البخاري. انظر شرحه: فتح الباري ٨/ ١٧٠، ١٣/ ٣٣٣.

(٢) انظر رسالته: مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٠.

(٣) انظر: مقدمة تفسيره ١/ ١٤.

الصحابة رضي الله عنهم يسأل مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام^(١)، وكعب الأحبار^(٢)، عن بعض جزئيات الحوادث، وتفصيل مجملات القصص في القرآن بقدر ما يرون أنه مبين للقصة وموضح لما أجمل فيها، ولا يخرج عن دائرة الجواز التي حددها رسول الله ﷺ بقوله: «... وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣).

ومن هذا الباب أورد بعض الأئمة الكبار مثل هذه الأخبار والأحاديث الإسرائيلية في كتبهم وتفاسيرهم، لا ليثبتوا بها حكماً شرعياً أو يعتقدوا صحتها على الإطلاق، وإنما على سبيل المعرفة والاستشهاد، وحكاية الأقوال، وهم مع ذلك ينبهون في الغالب على ما فيها من الخطأ إما تصريحاً أو تلميحاً، وقد يسكتون أحياناً لوضوح الأمر.

يقول أبو العباس بن تيمية: «علماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما ينقل عن النبي ﷺ لأنه واجب القبول، وفيما ينقل عن الصحابة، أما ما ينقل من الإسرائيليات ونحوها فهم لا يكثرثون بضبطها ولا بأحوال نقلتها، لأن أصلها غير معلوم، وغايتها أن تكون عن واحد من

(١) هو عبد الله بن سلام - بالتخفيف - ابن الحارث الإسرائيلي، حليف بني عوف بن الخزرج، أسلم عند قدوم النبي المدينة، وشهد له الرسول ﷺ بالجنة، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية، وتوفي سنة ٤٣هـ. انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٤٩/٥.

(٢) هو كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الأحبار، أدرك الجاهلية وأسلم في أيام أبي بكر، وقيل في أيام عمر، روى عن النبي ﷺ مرسلًا، وكان من يهود اليمن، ثم أسلم وقدم المدينة وخرج منها إلى الشام. روى له مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، ومات سنة ٣٢هـ، وقد بلغ من العمر مائة وأربع سنين. التهذيب ٤٣٨/٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء. انظر شرحه: فتح الباري ٤٩٦/٦.

علماء أهل الكتاب أو من أخذه عن أهل الكتاب، لما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، فقد نهينا عن تصديق ما ينقل عن أهل الكتاب إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه، مثل ما أخبر به نبينا عن الأنبياء وأمهم، فإن ذلك يجب تصديقه مع الاحتراز في نقلته»^(١).

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يعتمدون في مصادرهم التاريخية على التوراة والإنجيل، وينقلون عنهما مباشرة ويعارضون بما فيهما الأحاديث الصحيحة، في حين يعيبون على علماء التفسير وغيرهم رواية الإسرائيليات، ولو فكّروا لعلموا أن الأوائل رجعوا إلى نسخ أقدم وربما أوثق من النسخ التي رجعوا هم لها في العصر الحاضر.

بل إن بعضاً من هؤلاء الكتاب يعتمد التوراة مصدراً تاريخياً^(٢)

(١) ابن تيمية، الرد على البكري ص ٢١ - ٢٢.

(٢) ذكر الدكتور جمال عبد الهادي في كتابه: تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام منذ أقدم العصور، نماذج من مؤلفاتهم عن التاريخ الإسرائيلي، وتصريح بعضهم مثل: الدكتور محمد أنور شكري بقوله: «إن التوراة هي المصدر الوحيد الذي يتضمن هجرة الإسرائيليين إلى مصر وخروجهم منها ودخولهم الأرض الموعودة». انظر ص ٣٤٨. في حين أن القرآن قد ذكر ذلك مفصلاً في كثير من الآيات.

- كما نقل عن كتاب حضارة مصر والشرق القديم، الذي اشترك في تأليفه خمسة أساتذة، أنهم قالوا عن العقائد الإسرائيلية: «بأننا لا نستطيع في دراستها أن نعتمد على وثائق معاصرة فهي قليلة نادرة، لكننا نستطيع أن نعتمد على تحليل النظم الإسرائيلية والعقائد الإسرائيلية في العصور التاريخية. انظر ص ٣٤٥. ولم يرجعوا للقرآن الكريم في إيضاح شيء من تلك العقائد.

- كما نقل نصوصاً من كتاب (س. موسكاتي) الحضارات السامية القديمة، والذي ترجمه الدكتور يعقوب بكر، وراجعته محمد القصاص. فقد رجع إلى النقوش والقصص، والتوراة، والإنجيل، وذلك لوصف الحياة الدينية في جزيرة =

ويستبعد القرآن الكريم والسنة المطهرة. وهذا متابعة للمنهج الاستشراقي الماكر الذي لا يؤمن برسالة النبي ﷺ ولا صدقه.

٣ - معرفة شروط المؤرخ المقبول:

المؤرخ المقبول الرواية يشترط فيه مجموعة من الصفات والشروط، يجعلها بعضهم كشروط راوي الحديث النبوي^(١). غير أن الأمر فيه تفصيل، وذلك بحسب المروي وأهميته التشريعية. فإذا كان المروي متعلقاً بالنبي ﷺ أو بأحد من الصحابة رضي الله عنهم، فإنه يجب التدقيق في رواته والاعتناء بنقدهم، ويلحق بهذا ما كان متعلقاً بثلب أحد من العلماء والأئمة ثابتي العدالة. «لأن كل من ثبتت عدالته لا يقبل جرحه حتى يتبين ذلك عليه بأمر لا يحتمل غير جرحه»^(٢). أما إذا كان الخبر المروي لا يتعلق بشيء من ذلك فإنه - وإن كان الواجب التثبت في الكل - يتساهل فيه، ولهذا قال الخطيب البغدادي: «باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال» ثم روى بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل، أنه قال: «إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكماً ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد»^(٣) ولا يعني هذا التساهل أنهم يروون عن الكذابين وساقطي العدالة، لأن ساقط

= العرب ولم يرجع للقرآن الكريم، ولذلك لم يذكر في كتابه هذا الرسائل السماوية لكل من هود، وصالح، وشعيب رضي الله عنهم، لأنها لم ترد في التوراة. انظر ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(١) انظر: محمد بن سليمان الكافيجي، المختصر في علم التاريخ ص ٣٣٦، حيث قال: وينبغي أن يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوي الحديث من أربعة أمور: العقل، والضبط، والإسلام، والعدالة.

(٢) انظر: ابن حجر، تهذيب ٢٧٣/٧ في ترجمة عكرمة مولى ابن عباس.

(٣) البغدادي، الكفاية في علم الرواية ص ٢١٢ - ٢١٣.

العدالة لا يحمل عنه أصلاً. إنما يقصدون التسامح في ضعف الضبط في الراوي، مثل الغفلة وكثرة الغلط، والتغير، والاختلاط، ونحو ذلك. أو عدم اتصال السند، كإرسال، أو انقطاع.

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية في ثبوتها وعدالة روايتها واتصال أسانيدها، لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا في القليل النادر، مثل ما جاء مروياً من طريق علماء الحديث كأخبار السيرة النبوية، وخلافة الراشدين، وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السنة، وإنما غالب روايات التاريخ محمولة عن الأخباريين، وفيها أسانيد منقطعة، ويكثر فيها المجاهيل، بل إن بعضها يرد بدون إسناد، أو حتى تبين للمصادر التي حمل عنها المؤرخ^(١). ومن أجل هذا فإنه يكون من العسير تطبيق المنهج النقدي عند علماء الحديث النبوي بكل خطواته على كل الأخبار التاريخية، ولذا فرق جمهور العلماء بين الشروط المطلوبة في المؤرخ لكي تقبل روايته، وبين الأمور المشتركة في راوي الحديث النبوي. فتساهلوا في الأول^(٢)، وتشددوا في الثاني وذلك للأهمية

(١) ورغم ذلك فإن التاريخ الإسلامي إذا قورن بغيره من تواريخ الأمم، نجد أنه قد حُفِظَ وحُدِّمَ ودُوِّنَ في وثائق وتناقله الخلف عن السلف، وغالب أخباره وحوادثه الرئيسية قد وصلت إلينا بالاستفاضة والتواتر، وبالروايات المشهورة. ولا يقع الخلاف ويحتاج الأمر إلى التدقيق إلا في تفاصيل الحوادث، وهذا الوضوح التاريخي لا يوجد في تاريخ أمة من الأمم كما هو في التاريخ الإسلامي.

(٢) هذا التفريق والتساهل نلاحظه بوضوح في تصرف الحافظ ابن حجر العسقلاني في جمعه بين الروايات في كتابه: فتح الباري شرح صحيح البخاري، فإنه في الوقت الذي يقرر فيه رفض رواية محمد بن إسحاق، إذا عنعن ولم يصرح بالتحديث، ورفض رواية الواقدي، لأنه متروك عند علماء الجرح والتعديل، فضلاً عن غيرهما من الأخباريين الذين ليس لهم رواية في كتب السنة، من أمثال: عوانة والمدائني.

التشريعية لما يرويه، فالسبب في التفريق راجع إلى موضوع الرواية، وعليه فإنه يمكن القول بأن الرواية التاريخية إذا كانت تتعلق بموضوع شرعي فيه تحليل أو تحریم، أو ما يدخل في باب سب المسلم وتنقصه، أو تدليس حاله على الناس، فإنه لا بدّ من التثبت من روايتها ومعرفة نقلتها. ولا يؤخذ في هذا الباب إلا عن العدول الضابطين الذين سلمت مروياتهم من المعارضة.

= فإنه يستشهد برواياتهم، ويستدل بها على بعض التفصيلات، ويحاول الجمع بينها وبين الروايات الأخرى التي هي أوثق إسناداً. وهذا دليل على قبوله لأخبارهم فيما تخصصوا فيه من العناية بالسير والأخبار، وهذا منهج معتبر عند العلماء المحققين، وإن لم يقبلوا رواياتهم في الأحكام الشرعية، فنجد ابن حجر يقول في محمد بن إسحاق: إمام في المغازي صدوق يدلّس. التقريب ١٤٤/١. ويقول في الواقدي (التقريب ١٩٤/٢): متروك مع سعة علمه. ويقول عنه في التهذيب ٣٦٣/٩: استقر الإجماع على تركه. ونورد فيما يلي بعض النماذج من تصرف ابن حجر واعتباره لروايات الأخباريين:

١ - في أول كتاب المغازي ٢٧٩/٧ ذكر عدد غزوات الرسول ﷺ وعدد بعوثه وسراياه، وعدد الغزوات التي وقع فيها قتال فاستشهد بأقوال أهل السير مثل: ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وذكر خلافهم وجمع بين أقوالهم وأقوال من هم أوثق منهم، من رواة الصحيح. وفعل مثل هذا في ٢٩١/٧ عند حديثه عن عدد أهل بدر.

٢ - في ٢٩٦/٧ جعل رواية ابن إسحاق جامعة بين الروايات رغم مخالفتها لما في الصحيح، وذلك في قصة مقتل أبي جهل يوم بدر.

٣ - في ٣٣١/٧ في قصة بني النضير ومتى كان حصارهم، ذكر ابن إسحاق أنها كانت بعد أحد، وبعد استشهاد القراء في بئر معونة. والذي في البخاري عن عروة أنها كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر؛ أي قبل أحد، وقد مال ابن حجر إلى ترجيح رواية ابن إسحاق رغم إirاده سبباً للغزوة غير ما ذكر ابن إسحاق وصححه.

في ٦٥/١٣ استشهد برواية لعوانة بن الحكم.

في ٥٧/١٣ استشهد برواية للمدائني.

أما إذا كانت الرواية التاريخية لا يتعلق بها إثبات حكم شرعي أو نفيه كما هو الغالب على الروايات التاريخية، فإن الأمر عندئذٍ يختلف. ويقبل في هذا الباب من الروايات الضعيفة ما لا يقبل في سابقه، لا سيما وقد قال بعض الفقهاء بجواز العمل بالحديث الضعيف^(١) في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب.

والشروط المطلوبة في المؤرخ ليكون مقبول الرواية نوعان:

شروط تتعلق به ذاته، وأخرى تتعلق بما ينقله ويرويه.

أما الشروط المتعلقة بذاته فهي:

١ - العدالة^(٢).

٢ - القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات.

وذلك بمعرفة الرواة وما قيل فيهم من جرح أو تعديل. ومعرفة الأصول المنهجية في النقد، والموازنة بين الروايات المتعارضة، وكيفية الجمع بينهما.

يقول ابن تيمية: «لا بدّ أن يكون مع الإنسان أصول كلية يردُّ إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل بالجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم»^(٣).

(١) تقدم قريباً قول الإمام أحمد بن حنبل، وقد كان هو وعبد الرحمن بن مهدي، وابن المبارك، وأبو داود يرون العمل بالحديث الضعيف وهو عندهم مقدم على آراء الرجال، ومن الذين منعوا العمل به أبو بكر بن العربي. انظر تفصيل ذلك في: السيوطي، تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ٢٩٨/١ وما بعدها. واستكمالاً لذلك انظر: تعليق أحمد شاكر في الباعث الحثيث ص ٩١.

(٢) العدل: هو المسلم البالغ العاقل، الذي سلم من الفسق وخوارم المروءة. انظر: أحمد شاكر الباعث الحثيث ص ٩٢.

(٣) الذهبي، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٣٢٠.

٣ - العلم بأصول الأحكام الشرعية وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم وبمدلولات الألفاظ ومواقعها.

وللإمام ابن تيمية كلام في غاية الأهمية حول هذا الشرط، ذكره في مستهل جوابه عندما سئل عن حكم قتال التتار. فذكر أن هناك أصليين ينبغي أن يستكملا قبل الفتوى «أحدهما المعرفة بحالهم، والثاني معرفة حكم الله في أمثالهم. وهذان الأصلان يقومان على العلم المنافي للجهل. إذ الكلام في الناس لا يجوز بغير علم وبصيرة»^(١).

٤ - مصاحبة الورع والتقوى.

فلا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تختلف خوفاً من الدخول تحت قوله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(٢) ومتى لم يكن ورعاً فإنه - وإن كان عالماً - لا يجد من الورع والتقوى ما يحجزه ويوجب له الفحص والاجتهاد وترك المجازفة^(٣).

٥ - تجنب الغرض والهوى.

وهذا أمر يعزُّ وجوده إلا في القلة النادرة. ولكنه مع الشرط السابق ومع الشعور بالمسؤولية والخوف من الله واستحضاره ذلك في الذهن يستطيع التخلص بحول الله من الهوى المضل.

٦ - الضبط لما يراه أو يسمعه^(٤).

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٥١٠/٢٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه ٨٨/٧، ومسلم في كتاب البر والصلة حديث رقم (٢٥٦٣).

(٣) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص ٧١.

(٤) هذا الشرط - كما ذكرنا سابقاً - قد يتساهل فيه في بعض الأخبار التاريخية، فيؤخذ عن خف ضبطه، أو كان كثير الغلط والغفلة، وذلك لأنه شرط خارجي لا يتعلق بأمر قادح في العدالة والأمانة، إلا أن علماء الحديث وضعوه =

٧ - حسن التصور للموضوع الذي يكتب فيه، وذلك بأن يفهم الموضوع الذي يبحثه فهماً جيداً ويحيط به من كافة جوانبه، فإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

٨ - أن يكون جيد العبارة عَفَّ اللسان عن المنكر من القول^(١).

وبخصوص الشروط التي تتعلق بما يرويه المؤرخ فقد ذكر السبكي^(٢) في طبقات الشافعية قاعدة في المؤرخين^(٣) وجعل من الشروط اللازمة لما يرويه المؤرخ ما يلي:

١ - اعتماد اللفظ دون المعنى، وذلك بأن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه بتقديم أو تأخير أو تدوين المعنى. ومن هنا انتقد العلماء ابن حبان حيث تصرف في ألفاظ الجرح والتعديل المروية عن العلماء في نقد الرواة^(٤) وعبر عنها من عند نفسه.

٢ - أن يسمي المؤرخ المصدر الذي نقل عنه معلوماته، وبذلك تتضح مصادره وتعرف.

٣ - أن يكون نقله مضبوطاً، فلا يجوز أن يأخذ من الشيخ أثناء

= للاحتياط لغرض الوصول إلى اللفظ النبوي.

(١) حول الشرطين الأخيرين انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات ٤٦/١.

(٢) هو الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، ولد سنة ٧٢٧هـ. وجدَّ في طلب الحديث فكتب كثيراً وألَّف كثيراً، وانتشرت مؤلفاته في حياته، وتولى التدريس في غالب مدارس دمشق وخطابة الجامع الأموي، وتولى رئاسة القضاء، وحصل له محن في ولايته أبانت فيها عن شجاعة وقوة مناظرة، وتوفي سنة ٧٧١هـ. الشوكاني، البدر الطالع ٤١٠/١.

(٣) ذكر ذلك في ترجمة أحمد بن صالح المصري ٢٢/٢، وقد طبعت هذا القاعدة مع قاعدة أخرى في الجرح والتعديل مستقلة، بتحقيق عبد الفتاح أبو غدة.

(٤) انظر: الذهبي، ميزان الاعتدال ٥٠٧/٣ في ترجمة ابن حبان. وانظر كذلك: الميزان ٢٧٤/١، ٨/٤.

المذاكرة ثم يدونه بعد ذلك، لأنه في هذه الحالة ربما ينسى بعض الكلام فيقل الضبط.

٤ - زاد السخاوي شرطاً آخر وهو «التحري فيما يراه من الوقائع التي كانت بين أعيان الصدر الأول من الصحابة رضي الله عنهم، لما أمرنا به من الإمساك عما كان بينهم، والتأويل له بما لا يحط من مقدارهم، ويلتحق بذلك ما وقع بين الأئمة، سيما المتخالفين في المناظرات والمباحثات»^(١) وهذا الشرط مهم للغاية، وعدم مراعاته كان السبب في وقوع كثير من الأخطاء والانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي. وكان ما دون من مثل هذه الأخبار عوناً للمستشرقين والحاquدين على الإسلام وعلمائه، فيما نشره من دراسات عن التاريخ الإسلامي، حتى أخفوا معالمه الأساسية وأظهروه في صورة قاتمة شوهاء لا تزيد على كونها صراعاً على السلطة، وتكالباً على الشهوات، وفسروا التاريخ الإسلامي كما يحلو لهم تفسيراً مادياً، أو قومياً أو علمانياً.

يقول السبكي: «لا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض»^(٢).

ويقول الشوكاني^(٣) في جواب من سأله عن مذهب أهل الحق في شأن ما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم في الخلافة: «إن كان هذا السائل طالباً

(١) الإعلان بالتبويخ ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين ص ٥٣.

(٣) هو العلامة محمد بن علي الشوكاني، وُلد بهجرة شوكان باليمن سنة ١١٧٣هـ، ونشأ في مدينة صنعاء، وطلب العلم على شيوخها، ولم يرحل في طلب العلم لظروف ذكرها في ترجمته لنفسه، وقد بلغ رتبة الاجتهاد، وترك الالتزام بالمذهب الزيدي الذي تفقه به، ومصنفاته في فنون العلم كثيرة في التفسير، والحديث، والفقه، والعقائد، والتراجم، وتوفي بصنعاء سنة ١٢٥٠هـ. انظر: البدر الطالع له ٢١٤/٢ - ٢٢٥.

للنجاة، فليدع الاشتغال بهذه الأمور في هذا المضيق الذي تاهت فيه الأفكار، فإن هؤلاء الذين تبحث عن حوادثهم وتتطلع لمعرفة ما شجر بينهم قد صاروا تحت أطباق الثرى ولقوا ربهم في المائة الأولى من البعثة وها نحن في المائة الثالثة^(١) عشر، فما لنا والاشتغال بهذا الشأن الذي لا يعيننا «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٢) وأي فائدة لنا في الدخول في الأمور التي فيها ريبة، وقد أرشدنا إلى أن ندع ما يربينا إلى ما لا يربينا^(٣). ويكفيينا من تلك القلائل والزلازل، أن نعتقد أنهم خير القرون وأفضل الناس^(٤). إلى أن قال: «فرحم الله امرءاً اشتغل بما أوجبه الله عليه وطلبه منه، وترك ما لا يعود عليه بنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يعود عليه بالضرر، ومن ظن خلاف هذا فهو مغرور مخدوع، قاصر الباع عن إدراك الحقائق، ومعرفة الحق على وجهه كائناً من كان»^(٥).

وما أحسن ما قال إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل وقد سئل عن الفتن أيام الصحابة فما زاد على أن تلا قول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]^(٦).

وهذا الذي قرره الأئمة رحمهم الله هو الحق الذي تؤيده النصوص الشرعية، وتقتضيه القواعد المنهجية. قال تعالى زاجراً المؤمنين عن

(١) أي: عصر المؤلف. (٢) رواه مسلم في المقدمة ١٠/١.

(٣) جزء من حديث رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وسنده صحيح كما قال محقق المشكاة ٨٤٥/٢.

(٤) إرشاد السائل إلى دلائل المسائل ص ٤٥.

(٥) المصدر نفسه ص ٤٦.

(٦) انظر: معارج القبول للشيخ حافظ حكمي ٤٩١/٢.

مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] فقد أمرهم بالرجوع إلى ما علموا من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم، ولا يعتبروا كلام أهل السوء الذي يناقضه ويقدح فيه. وقد دلت الآيتان على قاعدة جليلة وهي «الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق للخروج من الشبهات والتوهمات». وقد يُعَبَّرُ عنها «بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقق»^(١). وقد قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا...﴾ [الحجرات: ١٢] وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] فقد أمر سبحانه بالتبين والتثبت في خبر الفاسق دون العدل والثقة، حتى لا نصيب أحداً بجهالة وظلم، وقالة سوء، وقد جاء في الحديث: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(٢)، وقوله: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(٣).

لقد دلت هذه النصوص على القاعدة المنهجية التي يجب التمسك بها وهي: الرجوع إلى الأمر المعلوم الثابت، وأن هذا الأمر لا يُدْفَعُ

(١) انظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القواعد الحسان لتفسير القرآن ص ١٩٥.

(٢) متفق عليه وسبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ١٠/١.

بالظنون والشبهات والأوهام. وأنه لا بدّ من الرجوع إلى المصادر الأصلية لمعرفة الحقيقة^(١). فلا يؤخذ من الكذابين والفاستين، لأن فسقهم يدفعهم إلى تصوير الأمر على خلاف ما هو عليه، وأن المرء المسلم لا بدّ له من التثبت والتحقق مما يسمع، وأن لا يأخذ عن كل من هبّ ودبّ^(٢)، ثم يرويه قبل معرفته لحاله، ثم بيان ذلك، وإلا كان من الكاذبين.

٤ - معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء من المبتدعة والزنادقة:

من الأمور المهمة في المصادر معرفة الحدود التي تراعى عند الرجوع إلى كتب أصحاب الأهواء من الفرق التي ضلت الطريق وفارقت الصراط المستقيم، إما بدعوى تأويل غير سائغ، أو استجابة لشهوة وهوى، أو عن زندقة وكفر. وقد اعتنى العلماء بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم لكي تعلم وتعرف حتى أفرد بعضهم ذلك بمؤلفات خاصة، مثل أبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٠) في مقالات الإسلاميين، وأبي الحسن الملطبي الشافعي (ت ٣٧٧) في «التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع»، وأبي محمد بن حزم (/ت ٤٥٦) في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ومثل أبي الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨) في كتابه «الملل والنحل» كما أن أصحاب الفرق أنفسهم قاموا بتدوين مذاهبهم ومعتقداتهم

(١) قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٣]. فردّهم إلى المصدر الأصلي، ولم يصدقهم بمجرد الدعوى. انظر تفسيرها في: ابن كثير ٦١/٢.

(٢) كان السلف رضي الله عنهم لا يحملون العلم إلا من الثقات العدول، لذلك تجد في كتبهم مثل هذه الأبواب: نهى الرجل أن يأخذ العلم إلا ممن تقبل شهادته ويكون مشهوراً بالطلب، وباب صفة من لا يؤخذ عنه العلم، وباب صفة من يؤخذ عنه العلم. انظر: مقدمة الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ص ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٧.

وأخبارهم وتراجم رجالهم وعلمائهم، ومناظراتهم وردودهم على المخالفين لهم، ومنهم من اشتغل بالتاريخ العام، فدون الأخبار وصاغها وفقاً لمعتقده الديني ومذهبه السياسي، فأبرز مثالب خصومه وأخفى كثيراً من جهودهم وحسناتهم، ولأجل هذا فإنه لا بدّ للمؤرخ المسلم أن يتعرف على مؤلف ما يرجع إليه من المصادر، فيتعرف على عقيدته واتجاهه السياسي والمذهبي، لأن هذه المعرفة تمكنه من التعامل مع النصوص التي يوردها ذلك المؤرخ، بما تكون لديه من خلفية عن اتجاهاته وآرائه، ثم يقارنها بغيرها مما عند أصحاب الفرق الأخرى، وبما عند الثقات العدول من المسلمين.

والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا هي - بحسب موضوع الرواية -:

١ - ما كان متعلقاً بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته. فإن علماء أصول الحديث قد قرروا في كتبهم، أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين^(١): فمن كانت بدعته مكفرة مثل الروافض الذين يسبون أبا بكر وعمر ويكفرون الصحابة، ومثل طوائف الباطنية من قرامطة، وإسماعيلية، ونصيرية، وغيرهم من الزنادقة كالخُرَمية، والحلولية، والثنوية، فهؤلاء لا تقبل روايتهم ولا كرامة^(٢).

(١) هذا التقسيم هو الذي استقر عليه العمل عند المتأخرين من نقاد الحديث وعلماء الجرح والتعديل، ورجحه ابن الصلاح، والنووي، والذهبي، والعراقي، وابن حجر، وغيرهم. أما المتقدمون من علماء الجرح والتعديل فقد نُقِلَ عن جمع منهم أقوال تفيد ردّ رواية كل مبتدع دون تفريق، مثل: محمد بن سيرين، كما في صحيح مسلم ١٥/١، وعبد الله بن المبارك، المصدر نفسه ١٦/١، ومالك بن أنس، كما في الكفاية للخطيب ص ١٩٤.

(٢) راجع الذهبي، ميزان الاعتدال ٤/١ في ترجمة أبان بن تغلب فقد فصل في ذلك وبين بياناً شافياً.

والقسم الثاني: المبتدعة الذين لا تصل بدعتهم إلى الكفر والخروج من الملة، فمن كان منهم معروفاً بالكذب أو قِلَّة الضبط فلا تقبل روايته. وهذا شرط في كل راوٍ مبتدعاً أو غير مبتدع. ومن كان مشهوراً بالورع والتقوى والضبط لما يرويه، فتقبل روايته، حتى وإن كان داعية لبدعته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيداً لبدعته، واحتجوا لهذا بإخراج البخاري في صحيحه لعمران بن حطان الخارجي مادم عبد الرحمن بن ملجم - قاتل علياً عليه السلام - فهو من أكبر الدعاة إلى بدعته. ولكن لَمَّا عُرِفَ بالورع والتقوى وأنه لا يكذب أخرج الأئمة حديثه^(١).

٢ - ما كان متعلقاً بالإخبار عن أهل السنة سواء في التاريخ العام أم في التراجم الشخصية، فهذا ينظر فيه إلى تعصب الراوي من عدمه. فمن لاحت عليه أمارات التعصب أسقط خبره، لأن الخصومة حجاب سائر عن رؤية الحقيقة وكما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

أما من لا يلحظ عليه التعصب وكان عدلاً في ذاته، فيسبر خبره ويقارن بغيره من الأخبار، وبالوجهة العامة للمجتمع الإسلامي.

٣ - روايتهم الأخبارَ عن أهل طائفتهم ومذهبهم، وهذا كالأقرار منهم، فهو حجة عليهم، خاصة حكاية أقوالهم ومذاهبهم، فهم أعرف ببعضهم بعضاً، وبأصول مذهبهم ومنطلقاته الفكرية. وكما قيل في المثل: «مَنْ فَمِكَ أَدِينُكَ».

وها هنا مسألة يجدر التنبيه عليها وهي أن بعض الباحثين المعاصرين

(١) انظر: الحافظ ابن كثير، اختصار علوم الحديث ص ١٠٠، السيوطي، تدريب الراوي ١/ ٣٢٤ - ٣٢٩، ويلاحظ أن البخاري لم يخرج له في صحيحه إلا حديثاً واحداً في المتابعات، كما قال الحافظ ابن حجر في هدي الساري ص ٤٣٣، ط. السلفية.

يطلقون القول بأنه لا تقبل أقوال أهل المذاهب والأديان والفرق المتخالفة بعضهم في بعض فلا يقبل - مثلاً - قول اليهود في النصارى، ولا قول النصارى في المسلمين، ولا قول المسلمين في النصارى واليهود، ولا قول الشيعة في السنة، ولا قول السنة في الشيعة والمعتزلة^(١). وهذا القول فيه خطأ منهجي علمي من عدة وجوه.

أولاً: أقوال أهل الفرق وشهادة بعضهم على بعض ليست مرفوضة بإطلاق إنما كل قول ظهر أن الحامل عليه هو التعصب فهو الذي يرفض، أما ما عدا ذلك فمن الممكن قبوله وفق معايير معينة سبقت الإشارة إلى بعضها.

ثانياً: أقوال العدول الثقات - ولا عدالة مع غير الإسلام - التي إذا سُيرت وتبعت وجدت مطابقة للحق والواقع مقبولة بإطلاق.

وليس من العدل والإنصاف أن نساوي بين المسلمين والكافرين والحق والباطل. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُتَّبِعِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ

(١) انظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام (ص د)، من مقدمة الجزء الثالث. انظر كذلك: زهدي جار الله، المعتزلة (ص ك ل) من المقدمة، ط. القاهرة ١٣٦٦هـ. وانظر: الشيخ جمال الدين القاسمي، تاريخ الجهمية والمعتزلة. فقد أشار إلى هذا من طرف خفي، وبناءً كتابه يدل على ذلك. وانظر على وجه الخصوص الصفحات (١٦، ٤٣، ٦٩، ١٠٣)، وانظر: خالد العسلي، جهنم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي، ط. بغداد ١٩٦٥م، الصفحات (٢٢، ٢٤، ٢٥) حيث اتهم كلاً من الإمام أحمد، وابن قتيبة، والدارمي، وابن القيم، بالتحيز والتعصب على الجهمية وإبراز مساوئهم. وفي (ص ٢٠، ٢٠٧) ذكر أن الأحاديث النبوية الواردة في الصحاح لا تعبر إلا عن وجهة نظر بعض المسلمين، وخاصة المحدثين، وأنهم أثبتوا هذه الأحاديث لكي يُفهموا المسلمين أن آراء جهنم مناهضة للإسلام. وانظر أيضاً: محمد أبو زهرة، الإمام زيد بن علي (ص ٢٣٤) حيث ذهب إلى عدم قبول تجريح أهل السنة في علماء ورواة الفرق الأخرى بسبب الاختلاف في العقيدة.

تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] لأن المسلم هو الوحيد الذي يقوم على رعاية الحق وحراسته والعمل بمقتضاه بموجب تكليف رباني، لذلك فهو الشاهد على البشرية بما عملت. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فإذا أغينا شهادته - كما يرى هؤلاء الكتاب - فمن يقيم بالحق ويشهد به...؟ أيكون الملحدون والعلمانيون المتحررون من الأديان، أولى بالشهادة وقول الحق من المسلم؟ إن هذا لا يقول به عاقل. وذلك أن المسلم لديه من الموانع عن الكذب ما ليس لدى غيره. يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن المعلمي (ت ١٣٨٦): «وأما كُتَّابُ العصر فإنهم مقتدون بكتاب الإفرنج الذين يتعاطون النظر في الإسلاميات ونحوها، وهم مع ما في نفوسهم من الهوى والعداء للإسلام إنما يعرفون الدواعي إلى الكذب ولا يعرفون معظم الموانع منه.

فمن الموانع: التدين، والخوف من رب العالمين الذي بيده ملكوت الدنيا والآخرة، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥] وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «علامة المنافق ثلاث وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. إذا حَدَّثَ كَذِبًا، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف»^(١) وإخلاف الوعد أغلب ما يكون إذا كان الوعد كذبًا. والخيانة تعتمد الكذب كما لا يخفى. وقال أبو بكر الصديق: «الكذب مجانب للإيمان» وأولئك الكتاب لا يعرفون هذا المانع لأنهم لا يجدونه في أنفسهم، ولا يجدون فيمن يخالطونه مَنْ يَقْهَرُهُمْ سيرته على اعتقاد اتصافه بهذا المانع لضعف الإيمان في غالب الناس ورقة الدين، ولا يعرفون من أحوال سلف المسلمين ما يقهرهم على العلم باتصافهم بذلك المانع، لأنهم إنما يطالعون التواريخ وكتب الأدب

(١) رواه البخاري ١٤/١، ومسلم ٧٨/١.

كالأغاني ونحوها وهذه الكتب يكثر فيها الكذب، والحكايات الفاجرة، كان فجرة الأخباريين يضعون تلك الحكايات لأغراض، منها دفع الملامة عن أنفسهم، وترويج الفجور والدعاية إليه، وترغيب الأمراء والأغنياء في الفجور وتشجيعهم عليه، والتقرب إلى الأمراء والأغنياء بالحكايات الفاجرة التي يلذ لهم سماعها إلى غير ذلك. وما في هذه الكتب من الصدق إنما يصور طائفة مخصوصة من الأمراء والشعراء والأدباء. ولو عكف أولئك الكتاب على كتب السنة ورجالها وأخبارهم لعلموا أن هذه الطائفة كان ذلك المانع غالباً فيهم.

ومن الموانع من الكذب خوف الضرر الدنيوي، وأولئك الكتاب يعرفون شطر هذا المانع وهو لحوق الضرر المادي، أما شطره المعنوي فإن أولئك الكتاب لا يَقْدِرُونَ قدره.

وقد كان العرب يحبون الشرف، ويرون أن الكذب أفحش العيوب المسقط للرجل، كما في قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل الروم، عندما سألته عن النبي ﷺ وطلب من أصحابه أن إذا كذب أن يكذبوه، قال أبو سفيان. «فوالله لولا الحياء أن يأتروا عَلَيَّ كذباً لكذبت عليه»، ولا شك أن أبا سفيان كان واثقاً أن أصحابه لن يكذبوه أمام هرقل ولكنه أنف من الكذب وخاف أن يعير به فيما بعد^(١).

٥ - معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين:

عرفنا في القاعدة السابقة أنه يتوجب على المؤرخ عندما يرجع إلى أي مصدر أو مرجع أن يتعرف على مؤلفه، واتجاهه الفكري والسياسي وعلى ضوء هذه المعرفة يستطيع أن يأخذ منه وفق ضوابط محددة.

(١) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ٢٧/١ - ٢٨، وقصة أبي سفيان رواها البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي باب رقم (٦).

وفي هذه القاعدة نحاول التعرف على الضوابط الواجب مراعاتها والالتزام بها عند الحاجة إلى الرجوع لمصدر مؤلفه غير مسلم.

وهذه الضوابط لا بدّ منها لأن المسلم صاحب منهج مستقل في تصويره وغايته وطريقة عمله، ومنهج رباني متلقى من الله بواسطة رسوله ﷺ، ومن خصائصه الكمال، والشمول، ولذلك لا يحتاج إلى شيء من غيره. كما أن له الهيمنة والحكم على كافة المناهج، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...﴾ الآية [المائدة: ٤٨].

والرجوع إلى كتب غير المسلمين للأخذ منها يصنف حسب الموضوع.

- فإذا كان الموضوع متعلقاً بديانتهم وهي ديانة وثنية، فإنه حينئذٍ لا بأس من الأخذ عنهم مع النظر والمقارنة، أما إذا كانوا من أهل الكتاب وما يذكرونه عن ديانته ينسبونه إلى الله ﷻ، أو إلى رسولهم أو غيره من رسل الله عليهم الصلاة والسلام، فإن هذا لا يقبل منهم ولا يؤخذ عنهم إلا وفقاً لضوابط رواية الإسرائيليات التي مرت في القاعدة الثانية من قواعد المصادر، حتى لا ننسب إلى الله أو إلى رسولٍ من رسله ما لم يقله.

- وإذا كان الموضوع متعلقاً بديننا من شرح أو تفسير، أو إطلاق أحكام على الشخصيات الإسلامية، أو على علمٍ من علوم الإسلام، أو نظام من النظم الإسلامية، أو دراسة لسيرة النبي ﷺ، فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه، ولا يحل للمسلم أن يأخذ عنهم في هذا المجال لأنهم ليسوا أهلاً أن يؤخذ عنهم شيء من دين الله، ولأن من شروط البحث في هذه القضايا: الإيمان بالله، ورسله، واليوم الآخر. فإذا كان علماء

الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة! بل يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين وأهله ما الله به عليم. إن القول في الأحكام الشرعية وفي النظم الإسلامية، وفي تقدير رجال الإسلام وتاريخه، لا يؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة، أما غير ذلك فلا اعتبار لقوله ولا لخلافه لو خالف^(١).

- أما إذا كان ما في كتبهم ليس له تعلق بشيء من الأنواع السابقة فإنه يخضع لموازين النقد العلمي، وما ثبت منه لا شيء على من أخذ به. ولا سيما إذا كان ذلك وصفاً لحالهم وأوضاعهم ومعاشهم لأنهم بها أخبر، ولها أدرى.

(١) علماء الأصول يقسمون الخلاف في فروع الأحكام إلى خلاف معتبر وهو ما يكون بين الصحابة وعلماء الصدر الأول وأئمة المذاهب الأربعة والعلماء المجتهدين، نظراً لوحدة المصدر واختلاف الفهم.

وخلاف غير معتبر مثل خلاف الشيعة الإمامية وغيرهم من الطوائف الضالة، لأن مصدر التلقي عندهم غير مصدر التلقي عند جمهور الأمة، ولذلك لا يعتد بخلافهم ولا يذكر في كتب الفقه، فكيف الحال بمن يذكر خلاف الكفار الأصليين؟.

قواعد في الأسلوب والعرض

لما كان الأسلوب هو الأداة التي يعرض بواسطتها المؤرخ موضوعه فإنه يلزمه أن يعتني به، ويراعي المستوى العلمي والوسط الاجتماعي الذي يكتب له بحيث يكون واضحاً ومؤدياً للأهداف العلمية التي قصدها من بحثه.

وبما أن دراسة التاريخ في حس المسلم مرتبطة بعقيدته، والتاريخ أداة من أدواته في الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته بإقامة منهجه وتحكيم شريعته فإنه يجب عليه ملاحظة بعض القواعد في أسلوب الكتابة وطريقة العرض والتي نوردها فيما يلي:

١ - أن تكون العقيدة الإسلامية المحور الأساسي في العرض:

وذلك بتركيزه على التصورات الإسلامية الصحيحة أثناء العرض الموضوعي للحادثة التاريخية، مع ملاحظة المحافظة على الوقائع التاريخية وعدم الإخلال بها وعرضها كما جاءت في مصادرها الصحيحة. وعلى أن يتابع تأثير العقيدة في الحوادث والوقائع وتوجيهها لها، وعليه أن يعتني بعرض النتائج المترتبة عن الالتزام بالعقيدة من حصول النصر والتمكين^(١) في الأرض، وتدفق الخيرات^(٢)، وانتشار الأمن

(١) قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَن أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا لَأَنقَضْنَا عَنْهُمْ بَرَكَاتِي مِنَ السَّمَاءِ =

والطمأنينة في النفوس وانقطاع سبل الفساد، وأيضاً عرض النتائج المترتبة عن الانحراف العقدي، أو التقصير في ذلك.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧] فإن هؤلاء القوم لما أعرضوا عن دين الله وظلموا أنفسهم أرسل الله عليهم سيل العرم فشتتهم ومزقهم كل ممزق حتى قيل في المثل: «تفرقوا أيدي سبأ» وهذه سنة الله في كل من أعرض عن عبادته وكذب رسله.

وإن البشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى هذه العقيدة وتمسكت بها حصل لها السعادة والتمكين في الأرض، وكلما بعدت عنها أصيبت بالأمراض الاجتماعية والخلقية وفشا فيها الظلم والجور وسلط عليها الأعداء.

فالارتكاز على محور العقيدة والتذكير به في كل مناسبة، وربط الحوادث به وبمقتضياته هو أسلوب القرآن وطريقته في عرضه لتاريخ الأنبياء ﷺ، فإنه يركز على الوحدةانية وإخلاص العبودية لله، ونبذ الشرك والمشركين وبيان تناقضهم، ويجعل القصص ونتائجه مرتبطاً بذلك.

٢ - التركيز في عرض الموضوع على الأهداف والغايات:

المؤمن له في الحياة هدف وغاية عُليا يسعى دائماً لتحقيقها، هي عبادة الله وحده. وعند دراسته لحقبة معينة من الزمن أو حادثة من الحوادث، فإنه ينظر إلى هذه الدراسة على أنها وسيلة من الوسائل

= وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَالْوِاسْطِيُّ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: ١٦].

للوصول إلى الغاية العليا، فلا ينفق كل جهده في الوسيلة ويترك الغاية. ولذلك ينبغي أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث، والرؤية الشاملة له، ولا عن الاعتبار الذي يترك في النفس أثراً. وإن إنفاق الوقت والجهد في البحث عن أمور لا طائل تحتها، ولا تعود على البحث بفائدة، ليس من هدف المسلم ولا غايته في الحياة، إلا أن يكون البحث في التفاصيل متعلقاً به مقصد شرعي فلا بأس حينئذٍ من البحث عنه ومحاولة إثباته. وهذا هو ما يلحظ من توجيه القرآن للذين تجادلوا في عدد أصحاب الكهف حيث قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وَیَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢] فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص منه، أن الناس دائماً يتعلقون بالأمور الجانبية التي لا فائدة تُرجى من وراء معرفتها، ويختلفون في ذلك، ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ويتركون المقاصد والأمور المهمة، وهي أخذ العبرة من وراء سياق القصة. وإنه ليستوي في أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة أو أقل أو أكثر، فالعبرة في أمرهم حاصلة بالعدد القليل أو الكثير^(١). ولكن إذا وجد علم صحيح بعددهم فإنه لا مانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية، فالذي يجب على المسلم هو التركيز على الأهداف والغايات والتذكير بها في كل مناسبة.

٣ - أن يكون العرض موحياً بتحبيب الخير وتبغيض الشر:

المؤرخ المسلم ليس ناقلاً لما قيل وما حدث في الزمن الماضي

(١) حول تفسير الآية راجع: تفسير ابن كثير ١٤٤/٥، وسيد قطب في ظلال القرآن

فقط، إنما هو صاحب رسالة، وحامل مشعل هداية للبشرية، وميزانه في معرفة الخير والشر، ليس عرف الناس، ولا ما تواضع عليه أهل زمن، أو قررته هيئة من الهيئات، أو زعيم من الزعماء. إنما ميزانه شرع الله، ولذلك فإنه إذا درس تاريخ واقعة معينة، أو تاريخ شخصية من الشخصيات، أو دولة من الدول، وجب عليه أن يعرض ذلك بأمانة وصدق، وأن يفحص ويدقق وينقد المصادر والمراجع، ويتثبت غاية التثبت، ثم عليه أن لا يظهر الباطل بمظهر الحق، ولا يظهر الخير بمظهر الشر، إنما يسمي الأشياء بأسمائها الشرعية، فالحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله. فإذا رأى غَدْرَةً، أو ظلمًا، أو إهانة لأحد، أو تعدياً لحدود الله، فإنه لا بد أن ينبه ويوضح أن ذلك تجاوز ومخالفة لشرع الله، وإذا رأى عدلاً وإحساناً، وجهاداً في سبيل الله، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، أشاد به ومدح صاحبه ليكون قدوة في هذا الفعل الطيب، وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته.

٤ - إبراز دور الأنبياء وأثرهم في تاريخ البشرية:

الأنبياء ﷺ يمثلون خط الاستقامة ومنهج الحق في هذا الوجود، بما علمهم الله وأنبأهم به من الوحي. وقد جاؤوا بعقيدة واحدة هي إفراد الله بالعبادة والاستسلام له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

والإسلام بهذا المعنى هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، وهو الدين الذي لا يقبل الله سواه. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ دِينٍ كُنْتُ عَلَىٰهِ نَبِيًّا ۚ وَبَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ ۚ وَلَقَدْ جَاءُوكُم بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَكُفَرْتُمْ بِهِ فَتُخَدَّعُونَ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ۚ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ودور الأنبياء وأتباعهم يمثل في تاريخ البشرية كلها طريقاً مستقيماً متصلاً بعضه مع بعض، من آدم ﷺ إلى محمد ﷺ، وتمثل الجاهليات

على تعدد أنواعها واختلاف عصورها طرقاً مختلفة ومسالك متعرجة، لكنها جميعاً تشكل أمة واحدة وحزباً واحداً، في مقابل أمة الإسلام، ودعوة الحق، وحزب الرحمن، وأتباع الرسل والأنبياء.

والتاريخ البشري كله منذ أن خلق الله آدم ﷺ وأسكنه الأرض وكلفه بالخلافة فيها وأنزل عليه الهدى، يمثل صراعاً بين الحق والباطل، بين أتباع الهدى وأتباع الضلال. فالأنبياء وأتباعهم يريدون تطبيق شرع الله وتنفيذه، وأعداؤهم من دعاة الباطل يريدون تنفيذ آرائهم وأهواء طواغيتهم، وكل فترة يتغلب فيها دعاة الحق وَيُنْفَذُوا منهج الله نجد البشرية تنعم بالأمن والاستقرار وتفيض فيها الخيرات، وذلك أن منهج الله هو الحق الموافق للفطرة البشرية والمتسق مع ناموس الكون. قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] وقال: ﴿وَالْوِاسْطُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَا أَشْفِينَهُمْ مَاءٌ عَذَقًا﴾ [الجن: ١٦].

كما أننا نجد أن كل فترة تسيطر فيها الجاهليات تصاب البشرية بالشقاء ويسود فيها الظلم - ولا أظلم من الشرك بالله - وتبتلى بالمصائب^(١). حتى أن الأرض لتئن من ذلك الظلم وتفرح بزوال الظالمين. قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] بل إن قطع دابر الظالمين من النعم التي تستوجب شكر الله وحمده، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) الأمثلة الواقعية في التاريخ على كلتا الحالتين أكثر من أن تحصى. وانظر على سبيل المثال: أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ فصل الإنسانية في الاحتضار، وفصل رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام، وفصل المجتمع المسلم. وانظر كذلك: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، فصل تيه وركام.

الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام: ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١) فأتباع الرسل هم الذين استثنوا من هذا المقت والسخط.

ولأجل ذلك فإن على المؤرخ المسلم أن يبرز هذا الأثر وهذا العمل الذي قام به رسل الله ﷺ وخلفهم عليه أتباعهم، وأن يتتبع آثاره في الحياة البشرية؛ في عمارة الأرض، وفي أخلاق الناس وفي آدابهم وثقافتهم ونظمهم، وفي أفكار دعاة الإصلاح وخططهم.

فإن كلمة الحق لا تضيع هباء ولا بد أن تترك أثراً. ولقد امتن الله ﷻ على الأمة الإسلامية وعلى العرب خاصة ببعثة محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿كَأَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وفي آية سورة الجمعة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

فهو الذي زكى أخلاقهم، وعلمهم الكتاب والحكمة، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ورفعهم من الضلال المبين الذي كانوا فيه قبل بعثته ﷺ إلى الهدى والنور والصراط المستقيم.

٥ - استعمال المصطلحات الإسلامية وتحري ذلك:

لقد كان من تأثير الغزو الفكري الأوروبي للمسلمين أن شاعت بينهم مصطلحات وألفاظ ومفاهيم غريبة عن عقيدتهم وثقافتهم حتى كادت تختفي المصطلحات الإسلامية، ووقع في ذلك كثير من الكتاب الذين

(١) طرف من حديث طويل رواه مسلم في كتاب الجمعة ٤/٢١٩٧.

كتبوا في التاريخ الإسلامي، مع أن كثيراً منهم لا يهتمون في دين ولا صدق نية، لكنهم كانوا ضحايا الفكر العلماني الوافد الذي لم يعد يَسْلَمُ منه حتى أصحاب الثقافة الشرعية. فنجد مع الأسف أنه قد شاع استعمال كثير من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامي ليس في مجال التاريخ الإسلامي وحده، وإنما في أغلب كتب الثقافة الإسلامية. ومن تلك المصطلحات نوع له بريق ومعانٍ مضللة مثل: الوحدة العالمية، الإخاء الإنساني، السعي لخدمة البشرية، السلام الدولي، التعاون العالمي، المساواة، الحرية، زمالة الأديان، التقارب بين المؤمنين بالله في مواجهة الإلحاد والشيوعية... إلخ تلك العبارات الموهمة غير المحددة الدلالة. والمسلم قبل أن ينساق وراء هذه الألفاظ الرنانة ويأخذه بريقها يجب عليه أن يزن مثل هذه المصطلحات بالميزان الشرعي، ويسأل نفسه ما هي أصول الوحدة التي ندعو لها بمثل هذه العبارات، وما ركائزها؟ وعلى أي أساس نقيم هذه الوحدة العالمية؟ ثم هذه الدعوة للمساواة والحرية والعدالة، على أي منهاج تقام؟ وما هو المفهوم والميزان الذي يحدد دلالة هذه الألفاظ؟ وما ضوابط ذلك؟ ثم هذا التقارب بين الأديان، وهذه الزمالة والتعاون ضد الإلحاد، على أي منهاج يقوم؟ إن هناك منهجاً ربانياً واحداً، ومئات من المناهج والمفاهيم الجاهلية.

فهل المقصود هو إقامة البشرية على المنهج الرباني والعبودية لله وحده وتحكيم شريعته؟ أم المقصود إقامة خليط من هذه المناهج والمفاهيم المتضادة؟! يجب أن يكون واضحاً في تصور المسلم أن من مقتضيات عقيدته، أنه لا التقاء بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والضلال، ولا بين الإسلام والكفر. وأن الكفر وإن اختلفت مناهجه، وتعددت طرقه، وتباينت درجاته، فإنه ملة واحدة. سواء كانوا نصارى أو يهوداً أو مشركين وثنيين أو شيوعيين.. وليعلم أن منهج الرسل ﷺ في

إقامة الدين الحق لم يكن على شيء من هذا الخلط، إنما قام على البراءة من الشرك والمشركون وإقامة الحنيفية السمحة ملة الإسلام.

كما أن هناك مجموعة من المصطلحات الأوروبية جرى ترجمتها واستعمالها لدى طائفة من الكُتّاب المسلمين، وهي ذات مضامين ودلالات محلية وتاريخية، ولا يمكن فصلها عن ذلك الوسط الاجتماعي والظروف التاريخية والثقافة التي لا بدت نشوء هذا المصطلح أو ذاك. مثال ذلك: مصطلح الديمقراطية، والاشتراكية، والشيوعية، والدكتاتورية، والأمبراطورية، واليمين واليسار، والليبرالي، والإمبريالي، والأحرار، والأرستقراطية... إلخ. فمثلاً الديمقراطية تعني في أبسط معانيها «حكم الشعب بالشعب للشعب» أي أن الشعب هو مصدر التشريع.. ومثال آخر: مصطلح الاشتراكية، لا يمكن أن يكون بديلاً لمعنى التكافل الإسلامي. لأن هذا التكافل يرتبط بأهداف ودوافع إيمانية لا تلتقي مع أهداف المذهب الاقتصادي الاشتراكي في طريق ولا منهج. وقد تابعنا المستعمرين - مع الأسف - حتى في التقسيم الجغرافي، والتقسيم التاريخي، الذي استخدموه، وتلقينا مصطلحاتهم في ذلك وسَلَّمنا لهم بها، ولو فكرنا قليلاً لأدركنا المعاني الحقيقية لهذه المصطلحات، وأنه لا ارتباط لها بواقعنا ولا تاريخنا. فمثلاً في التوزيع الجغرافي يقولون: الشرق الأدنى، والشرق الأوسط، والشرق الأقصى. وذلك أن المستعمر الأوروبي اعتبر نفسه في مركز الأرض، فأطلق هذا التوزيع بالنسبة لموقعه^(١). وكذلك التوزيع التاريخي مثل: العصور

(١) لما كان المسلمون في أوجّ عزهم وكانت بغداد هي عاصمة الأرض الإسلامية كلها، كانت الدويلات التي قامت في ظل الخلافة العباسية شرق بغداد تسمى الدويلات المشرقية، والتي غرب بغداد تسمى الدويلات المغربية، فجعلوا بغداد هي المركز، وشرقها هو المشرق، وغربها هو المغرب.

القديمة، والعصور الوسطى، والعصور الحديثة. وهذا التوزيع متميز عندهم بمراحل وتقلبات تاريخية عاشتها أوروبا، مما يجعل لكل فترة من هذه الفترات مميزات وخصائص ومفاهيم مستقلة تبعاً للتطورات والانقلابات الفكرية والعقائدية التي عاشتها أوروبا في كل حقبة من هذه الحقب، بينما التاريخ الإسلامي بما فيه تاريخ الأنبياء جميعهم، يمثل وحدة واحدة بالنظر إلى المفاهيم والنظم السائدة، والتي لا تتبدل تبعاً لتبدل الزمان، والدول، والحكام؛ لأنه تاريخ أمة ذات عقيدة واحدة لم تتبدل عبر العصور. وإذا كان القصد من التوزيع إلى عصور لغرض التأليف والدراسة، فليس بلازم أخذ هذا التوزيع الأوروبي، ولا متابعتهم عليه؛ لأنه يفتت تاريخنا ويوجد الحواجز بين عصوره. ومما يبعث في النفس أسىً وحسرةً أن نرى طائفة من المسلمين عندما يعرضون لتاريخ أمة من الأمم الكافرة قديماً، ينهرون من تقدمها المادي، فيُضْفُون عليها روح التقدم والحضارة، ويشنون عليها ثناءً كثيراً، ويفخرون بمنجزاتها وأثارها، وتجدهم كذلك يخلعون مثل هذه الألقاب على الدول الكافرة المعاصرة كقولهم: العالم المتحضر، والعالم المتقدم، والدول العظمى، في حين يسمون الدول الإسلامية، بالبلدان النامية، والعالم المتخلف أو دول العالم الثالث.

وكل هذا الانبهار والإعجاب راجع إلى فقدانهم للميزان القرآني لمعنى التقدم والحضارة، ولانخداعهم بالتيسيرات المادية التي وجدت في هذه الدول، ومن نسيانهم للسنة الربانية التي دَلَّ عليها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

ومن فقدانهم لمفهوم الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله الذي هو أوثق عرى الإيمان.

٦ - الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء:

ومما يلزم المؤرخ ملاحظته في عرضه أن لا يستعمل أسلوب التعميم وأن تكون عباراته محددة الدلالة، واضحة المعنى، وأن لا يطلق حكماً عاماً على أهل بلد، أو على أهل زمان، أو على جنس من الأجناس، أو ينفي حدوث واقعة معينة، قبل حصول الاستقراء التام.

فمثلاً حادثة مقتل الخليفة الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه وموقف أهل المدينة من ذلك لا يصح أن نقول: إن أهل المدينة كلهم تخاذلوا عن نصرته، أو رغبوا في قتله. أو نقول كما تقول الطائفة المخذولة - الروافض - إن الصحابة أجمعوا على قتله. وأنى لهم مثل ذلك!! بل نقول: إن أهل المدينة قد وقفوا إلى جانب خليفتهم ودافعوا عنه، كما تدل على ذلك الأخبار الصحيحة، ولكنه رضي الله عنه منعهم من ذلك، وألزم كل من يرى أن له عليه طاعة بالخروج من الدار؛ لأنه لا يريد إراقة الدماء ووقوع مذبحة بين المسلمين من أجله، ورأى أن أقصى ما يصل إليه أمر الثوار هو قتله، وفرح بالشهادة وتناول حديث رسول الله ﷺ في تبشير به الجنة على بلوى ستصيبه^(١) بهذا الأمر الذي وقع له من حصار الثوار.

ومثل أن نأتي إلى مجتمع من المجتمعات أو عصر من العصور فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة أو حتى عشرة من الشعراء الماجنين. فنقول إن ذلك العصر عصر مجون وتهتك وخلاعة..

فمن المعروف أن كل مجتمع يحوي عناصر مختلفة من الصالحين

(١) رواه البخاري. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٣٠/٧. وقد روي عن عثمان أنه رأى رسول الله في المنام، أثناء حصار الثوار، فسأله رسول الله ﷺ، ودعاه للإفطار معه، مما شوقه ﷺ للقاء الله، فمنع الحرس وطلب منهم الخروج عنه والتخلى بينه وبين الثوار. انظر ذلك تفصيلاً في كتاب: البداية والنهاية ١٨١/٧ - ١٨٣.

والطالحين، والحكم إنما يكون للغالب منها، كما أنه لا يجوز أن نطلق مثل هذه الأحكام على أسرة من الأسر أو طائفة من الطوائف، فنقول مثلاً: إن أسرة بني أمية أسرة ظالمة، أو نقول: إن فرقة المرجئة، أو المعتزلة، كلهم زنادقة ومنافقون؛ لأن كل طائفة لا تخلو من بعض الخيِّرين، أو العوامِّ أو المجتهدين المتأولين، غير أن الحكم يكون للغالب.

الباب الثالث

تطور التدوين ومناهج المؤرخين المسلمين حتى نهاية القرن الثالث الهجري

تمهيد:

الفصل الأول: أنواع التأليف التاريخي.

الفصل الثاني: تراجم لبعض الأخباريين والرواة.

الفصل الثالث: عرض لمناهج بعض مؤرخي هذه الفترة.

تمهيد

إن محاولة التعرف على دوافع التدوين التاريخي عند المسلمين وتتبّع المحاولات الأولى التي تمت في هذا الحقل أمر له أهميته في دراسة التدوين التاريخي، وظهور الرواد الأوائل في التأليف المنهجي المتخصص، من حوالي منتصف القرن الثاني الهجري وما بعد. وفي هذا التمهيد سنحاول إيضاح دوافع التدوين التاريخي عند المسلمين ونتبع البدايات الأولى، والمراحل التي مرّ بها التدوين التاريخي.

دوافع التدوين التاريخي:

لقد كان الغالب على العرب قبل البعثة النبوية «الأمية» أي شيوع الجهل بالقراءة والكتابة. وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢] وقال ﷺ: «إِنَّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(١)، وبسبب هذه الأمية الشائعة فيهم كان التدوين عندهم قليلاً جداً، وكان جل اعتمادهم على الذاكرة والحفظ.

وكان اهتمامهم التاريخي ينصب على جانبين اثنين هما:

- أخبار الأيام والمنافرات.

- ذكر الأنساب والمفاخر والمآثر والمثالب.

وكانوا يصوغون أخبار هذه الموضوعات في نسق قصصي مُشوّق

(١) رواه البخاري في صحيحه. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٣٠/٢.

يتذكرونه في الأسفار والأسمار، وربما نظموه شعراً ليسهل عليهم حفظه واستذكاره.

و«الشعر ديوان العرب»^(١) الذي يجمع أخبارها وأنسابها. ونظراً لقلة التدوين عندهم فإنه لم يصل إلينا عنهم أي كتاب مصنف من ذلك العصر في تاريخهم، وإنما نُقِلَ هذا التاريخ رواية شفوية وأشعاراً محفوظة، وهذا لا يمنع أن تكون هناك مدونات^(٢) غير مرتبة في الشعر والأنساب، أو بعض الأخبار، لكنها لم تأخذ صفة التدوين التألفي لأن العرب لم يكن لهم في الجاهلية عناية بالتأليف، ثم لم يكن لهم من سعة النظرة وشمولها ومن الرابطة الجامعة ما يدفعهم إلى الاهتمام بالتدوين والتأليف التاريخي المنظم. وإنما نظرة أحدهم ورابطته لا تتعدى منطقته التي يعيش فيها، وقبيلته التي يحيا في كنفها وحمايتها ويتغنى بمآثرها وأيامها.

لكن لما بعث الله محمداً ﷺ بهذا الدين الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وقرأ عليهم القرآن ودونه في صحف يقرؤونها - فكان بذلك أول كتاب كامل عرفه العرب مدوناً بلغتهم - تغيرت نظرتهم هذه وتغير حالهم، وعلموا منه التصور الصحيح لمعنى ربوبية الله وأن حق

(١) هذا القول منسوب لعمر بن الخطاب ﷺ. انظر: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي ص ١٥٢، وقال: إن السيوطي قد نسب في كتابه المزهر، إلى عبد الله بن عباس ﷺ.

(٢) تدل الأخبار على وجود بعض المدونات عن تاريخ الدول التي قامت في اليمن، مثل: التبابعة، والحميريين، وكذلك في أديرة الحيرة في شمال الجزيرة عن تاريخ المناذرة، كما أنه قد كان عند عرب الجزيرة بعض الصحف التي دُونوا فيها بعض أشعارهم، مثل: المعلقات التي علقت بالكعبة، ومثل بعض الأخبار وقوائم الأنساب والمعاهدات والصكوك. انظر: المصدر السابق ص ٥٩ وما بعدها.

هذه الربوبية ولازمها هو توحيد الألوهية، أي إفراد الله بالعبادة ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

كما علموا منه وحدة أصل البشرية وبداية نشأتها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعلموا منه وحدة الدين الذي ارتضاه الله لهذه البشرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

كما وضح لهم المصير والنهاية، وأن ذلك يكون بحسب الأعمال في هذه الحياة الدنيا. كما بين لهم سنن التقدم والانحيار، وقيام الحضارات والدول وأسباب سقوطها، وذلك من خلال ما قصه عليهم من تاريخ الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم، حيث أتى هذا القرآن بنظرة جدية إلى تاريخ الماضين والتفكر في أحوالهم.

كما أنه قد بين لهم أن الله ﷻ في هذا الكون سنناً لا تبدل ولا تتحول، كما قال تعالى: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

كل هذا كان له أثره في تصورهم واهتمامهم، مما أعطى لهم بعداً زمنياً في النظر إلى الماضي، قوامه التاريخ البشري كله من خلال سلسلة الأنبياء والرسل، وتتابعهم من آدم ﷺ حتى ختمت الرسالات بمحمد ﷺ، وبذلك تصحح تصورهم عن الكون منذ الخلق حتى يوم القيامة، فعلموا أن هناك حياة أخرى أوسع من هذه الحياة وأطول هي الحياة الآخرة.

فلما تصححت مفاهيمهم واستقام تصورهم، تحولت رابطتهم من النظرة القريبة الجذور، الضيقة الحدود، إلى رابطة الإسلام والإيمان الممتدة في شعاب الزمن، والمتطاولة على مدى التاريخ البشري، فربطهم بأبيهم آدم أول البشر وأول الأنبياء، وبنوح أول الرسل، وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وموسى وعيسى وتلك السلسلة الكريمة الطويلة من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين.

فلما تغيرت نظرة العربي إلى الماضي - بعد أن دخل في الإسلام واهتدى بهديه - الذي كان يراه قريباً ضيقاً في نطاق قبيلته وأرضه التي ولد فيها، وعمره الذي يحياه، انفتح له باب الدراسة التاريخية المرتبطة بتاريخ الماضين من الأنبياء والأمم، والمرتبطة أيضاً بسيرة الرسول ﷺ، وبذلك وجدت النظرة العالمية الشاملة عند المسلمين إلى التاريخ، وإن كان جل عنايتهم في البداية قد انصب على دراسة سيرة الرسول ﷺ وتاريخ المسلمين من بعده، وهذا شيء طبيعي لأهمية هذه الفترة في حياة الأمة الإسلامية، ولتوفر المعلومات عن السيرة النبوية وتاريخ المسلمين مما لم يتوفر مثله ولا قريباً منه في معرفتهم بالتاريخ الماضي.

وبجانب هذه النظرة التي أوجدها الإسلام في أتباعه عن الماضي وأهميته، وعن الحاضر وأثره، وعن المستقبل وضرورة العمل والتخطيط له، كانت هناك دوافع أخرى، نشأت وصاحبت تكون الأمة الإسلامية وحاجاتها العلمية والعملية. فمن تلك الدوافع:

أهمية السنة النبوية في التشريع وفي حياة المسلم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٢١] فلكي يعرف المسلم سنة النبي ﷺ، لا بد أن يعرف هديه في حياته الخاصة، وفي مغازيه، وفي تعامله مع أصحابه ومع المخالفين له، ليتعرف على الأحكام الشرعية إذ إن سيرته منهج عملي، وسوابق تاريخية في كيفية تطبيق التشريع الإسلامي، وفي منهج الدعوة إلى الله، وطريقة بناء المجتمع الإسلامي وتأسيس الدولة الإسلامية، ولتحقيق هذه الحاجة بدأ العمل في جمع أخبار السيرة النبوية والمغازي وتدوينها.

أما تدوين الأنساب والعناية بها فقد كانت وراءه دوافع شرعية، مثل أحكام المواريث والتركات، ومعرفة الأرحام والأقارب لغرض برهم وصلتهم، وحاجات عملية، فعندما دُونت الدواوين وخاصة ديوان الجند، وديوان العطاء، فقد رتبت حسب القبائل والأسر^(١)، فكانت كل فرقة أو سرية من الجيش تتكون من قبيلة من القبائل ويرأسها أحد أفراد القبيلة، خاصة في حروب الردة، وفي فتوح العراق والشام. كما أن ديوان العطاء قد جعلَ عمر بن الخطاب أُسسَ التوزيع فيه على أساس القرابة من رسول الله ﷺ، ثم السابقة في الإسلام. مما أدى إلى البحث في تاريخ الصحابة رضي الله عنهم، وأخبارهم ومآثرهم ومعرفة طبقاتهم وأنسابهم، كما أن للعصبية القبلية والعناية بأدب الأيام وشعر النقائض والحركة الشعبية أخيراً أثراً واضحاً في العناية بالإنسان وتدوينها وظهور كتب المثل.

أما أخبار فتوح البلدان فقد احتيج لمعرفة تاريخها ولتدوينها لأغراض ومطالب شرعية مختلفة، لعل من أبرزها معرفة البلدان التي فتحت عنوة وتمييزها عما فتح صلحاً، وكذلك معرفة أي سكان البلاد أهل عهد،

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية ٦/٣٢٥.

وأيهم أهل ذمة، لما يترتب على هذه المعرفة من أحكام شرعية في التعامل مع أهل البلاد، وجباية الأموال لبيت مال المسلمين من الخراج والحزبة وغيرها.

أما العناية بتراجم الرجال وتدوين ذلك مرتباً على نظام الطبقات أو حسب البلدان والمدن، أو حسب تاريخ الوفيات أو على حروف المعجم^(١) فقد كان من أول دوافعه، التدقيق في رواة الأخبار النبوية لتمييز الصحيح من السقيم، حيث ينبنى على ذلك معرفة ما في السند من علل كالاتصال أو الانقطاع ونحو ذلك، وقد نشأ عن هذا التدوين ظهور تواريخ المدن ممثلة في تراجم رجالها وعلمائها.

كما أنه قد كان لظهور الفرق مثل الخوارج، والشيعة، والمرجئة، والقدرية، وغيرهم، أثر واضح في التدوين التاريخي؛ لأن كل فرقة قد اهتمت بأخبار فرقته والأحداث التي صارت لها، وبيان مذهبها والرد على خصومها.

كما كان للقصاص والوعاظ أثر في إيجاد الحس التاريخي عند العامة، والتنبه إلى أهمية الأخبار والقصص، مما أوجد الرغبة في حفظها وتدوينها.

فقد كان القصاصون يستعينون بالحكايات والأخبار والقصص التاريخي في إبلاغ ما يريدون من المواعظ، وكسب جمهور العامة وإقناعهم بالقضية التي يدعون لها. كما أن الفرق قد حاولت استغلال وضع القصاصين فقامت بنشر بعض القصص المؤيدة لمذهبهم بل ربما اشتغل بعض دعائها بالقصاص لبلوغ ما يريدون.

فهذه هي أبرز الدوافع في التدوين التاريخي وهناك دوافع أخرى

(١) حول أسس تنظيم كتب علم الرجال. انظر: أكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنة ص ٦٤.

ثانوية - فردية كانت أو جماعية -، مثل الرغبة في تدوين تاريخ خليفة معين، أو طائفة أو قبيلة أو بلد، ومثل وضع التاريخ الإسلامي^(١)

(١) المشهور أن الذي وضع التاريخ الهجري هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك في السنة الرابعة من خلافته الموافقة للسنة السابعة عشرة من الهجرة. وكان سبب وضعه للتاريخ هو ما كتبه أبو موسى الأشعري، وكان والياً على البصرة أنه تأتينا من قبلك كتب ليس لها تاريخ. وقيل: قد رفع له صك محله شعبان، فقال: ما ندري أي الشعبانين المتقدم أم الآتي. فاستشار عمر الصحابة في ذلك، فقال بعضهم: أرّخ بمبعث النبي، وقال بعضهم: أرّخ بوفاته، فقال عمر: لا، بل نؤرخ بمهاجره، فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل، فأرّخ بالهجرة. وفي رواية أخرجها الحاكم في مستدركه، أن الذي أشار عليه بالتاريخ من الهجرة هو علي بن أبي طالب، وقد قال البخاري في صحيحه باب التاريخ: من أين أرّخوا التاريخ؟ فكأن هذا الاستفهام إشارة إلى الخلاف الحاصل في ذلك ثم ساق بسنده عن سهل بن سعد أنه قال: «ما عدّوا من مبعث النبي ولا من وفاته، ما عدّوا إلا من مقدمه المدينة». وفي مسند أحمد - كما يذكر ابن كثير - أن أول من أرّخ يعلى بن أمية عندما كان باليمن أميراً لعمر بن الخطاب.

وذكر الحاكم في الإكليل، عن الزهري، أن أول من أرّخ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مقدمه المدينة. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: إن سند هذه الرواية معضل. وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرّخ بعض كتبه مثل عهد أهل نجران سنة خمس من الهجرة، ومثل عهد أهل مقنا سنة تسع، ولكن الذي يظهر أنه لا يصح سند شيء من هذه العهود. انظر: التعليق في هامش فتوح البلدان ٧٢/١.

أما ما يذكر بأن عمر بن الخطاب والصحابة قد استشاروا الهرمزان، فأشار عليهم بأن للعجم تاريخاً يسمونه «ماه روز»؛ أي حساب الأيام والشهور. فقد قال عنه الدكتور مصطفى الأعظمي: إن هذه القصة إقحام بلا سبب. انظر: كُتّاب النبي ص ٢٣، وحول وضع التاريخ الهجري انظر: تاريخ خليفة بن خياط ص ٥٠، والتاريخ الصغير للبخاري ص ١٥ - ١٦، ومستدرك الحاكم ١٣/٣، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٠٦/٣، وفتح الباري ٢٦٨/٧، وصبح الأعشى ٢٤٠/٦؛ والسخاوي، الإعلان ص ٧٨؛ والسيوطي، الشماريخ في علم التاريخ ص ١٩ - ٢٣.

وتحديد بداية ذلك بالهجرة النبوية إلى المدينة، مما ساعد على ضبط الأحداث وترتيبها.

وقد كانت الرغبة العلمية الخالصة وحب تدوين العلم وحفظه دافعاً للكثيرين لجمع المعلومات التاريخية وتبويبها وتنسيقها. ثم إن التدوين بصفة عامة ظاهرة من ظواهر التمدن واستقرار الدولة وتوسع أنشطتها.

كيفية التدوين:

نظراً لأنه لم يصل إلى أيدي الباحثين في العصور الحديثة مؤلفات تاريخية من القرن الأول الهجري^(١)، فقد اختلفت آراؤهم في بداية التدوين التاريخي وكيفيته. بل وفي تدوين العلوم الإسلامية عموماً ووصل الأمر ببعض الباحثين وخاصة المستشرقين منهم إلى آراء غريبة وأحكام ساقطة^(٢). حيث تصور هؤلاء الباحثون أن العلم الإسلامي ومن ضمنه

(١) أقدم ما وصل إلينا من المؤلفات التاريخية: كتاب التيجان في ملوك حمير المنسوب إلى وهب بن منبه وهو مطبوع، وكتاب الملوك وأخبار الماضين لعبيد بن شريه، الذي استقدمه معاوية من اليمن وأمر بتدوين أخباره كما يروي ابن النديم في الفهرست ص ١٠٢. وقد طبع الجزء الذي وجد من الكتاب في حيدرآباد باسم «أخبار عبيد بن شريه الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها». انظر: نشأة التدوين التاريخي لحسين نصار ص ١٥. ومن أقدم المؤلفات كتاب السيرة النبوية، لمحمد بن إسحاق، بعد أن هذبها عبد الملك بن هشام، وقد وجد في المغرب جزء من السيرة لابن إسحاق وطبع أخيراً.

ويذكر هورفتش أنه توجد قطعة من المغازي منسوبة لوهب بن منبه في مكتبة «هيدلبرج» كما توجد قطعة من المغازي لموسى بن عقبة في المكتبة البروسية وقد نشرها «سخاو» مع ترجمة ألمانية عام ١٩٠٤م، المغازي الأولى ومؤلفوها ص ٣٤، ٧١.

(٢) انظر حول هذا: فؤاد سزكين فصل تدوين الحديث، وفصل التدوين التاريخي من كتابه تاريخ التراث العربي، المجلد الأول وخاصة الصفحات (٨٧ - ٨٨، ٩٠، ٩٤ - ٩٥، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، ٣٩٥ - ٣٩٦).

الروايات التاريخية قد جرى نقله بالرواية الشفوية دون تدوين طوال القرن الأول، وحتى منتصف القرن الثاني الهجري.

ووصل شذوذ الرأي وقلة الفهم ببعضهم إلى القول باختراع الأسانيد ووضعها في وقت متأخر. وقد ناقش الأستاذ الباحثة فؤاد سزكين^(١) هذه الآراء والاختلافات والشطط في الأحكام، وأرجعها إلى عدم فهم هؤلاء الباحثين لطرق تلقي العلم وتحمله^(٢) عند العلماء المسلمين، وخاصة أهل العصور الأولى، وفوق ذلك ينبغي أن لا ننسى الرغبة المبيتة لدى الكثيرين منهم في تشويه العلم الإسلامي والتشكيك في صحته.

(١) المصدر السابق ١/١٠٧، ١٠٩.

(٢) طرق تحمل الحديث ثمانية أنواع هي:

١ - السماع من لفظ الشيخ وهو أعلاها ويروى عنه بلفظ: حدثنا وأخبرنا وسمعت.

٢ - القراءة على الشيخ حفظاً أو من كتاب وتسمى العرض عند بعضهم، ويروى عنه بلفظ: قرأت على فلان أو أخبرنا أو حدثنا قراءةً عليه.

٣ - الإجازة وهي أن يقول الشيخ لتلميذه: أجزتك رواية هذا الكتاب، وهي أنواع، ويقول في الرواية بها: حدثني فلان أو أخبرني إجازة.

٤ - المناولة مثل: أن يناول الشيخ الطالب كتاباً من سماعه ويقول له: ارؤ هذا عني.

٥ - المكاتبه بأن يكتب إليه بشيء مما يرويه سواء قرنها بالإجازة أم لا، ويكفي في صحتها معرفة المكتوب إليه خط الشيخ أو كاتبه. ويقول فيها: كتب إلي فلان أو حدثني مكاتبه.

٦ - إعلام الشيخ لتلميذه أن هذا الكتاب سماعه من فلان.

٧ - الوصية مثل: أن يوصي الشيخ بكتابه الذي يرويه إلى شخص آخر.

٨ - الوجداء وصورتهما: أن يجد حديثاً أو كتاباً بخط شخص ويتأكد له صحة نسبة الكتاب إليه، فله أن يأخذ منه بلفظ: وجدت في كتاب فلان. انظر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ص ١٠٩ - ١٢٩؛ وابن حجر، شرح نخبه الفكر ص ١٣٥ - ١٤٠؛ وتدريب الراوي للسيوطي ٨/٢ - ٦٠.

وإنه بالبحث المتأنّي في الأخبار الكثيرة في كتب التراث^(١) عن التدوين وكتابة الصحف من عصر الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم .

وبمحاولة إعادة ترتيب المادة العلمية المدونة في المؤلفات الأولى .
وبتفهم طرق الرواية والتعليم التي كانت سائدة في تلك العصور .
ومعرفة كيفية إدارة مجالس العلم . . بالنظر في ذلك كله يزول الغموض الذي أحدثته بعض المؤلفات المعاصرة عن تدوين العلم في الإسلام، وتبين لنا الخطوات والمناهج التي اتبعت في تدوين العلوم الإسلامية - والتاريخ بطبيعة الحال جزء منها - ويتضح أن التدوين قد تم منذ البداية .

فمن المعروف أنه ليس من طرق تلقي العلم عند المسلمين الأخذ من الكتب والصحف^(٢) وكان العلماء يعيبون طريقة من يتلقى من

(١) أشبع هذه القضية بحثاً كلٌّ من: د. محمد عجاج الخطيب في رسالته العلمية: السنة قبل التدوين، ود. محمد مصطفى الأعظمي في رسالته العلمية أيضاً: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه. وقد ناقشا الشبهات التي أثيرت حول تدوين العلم في الإسلام وردا عليها ردّاً علمياً موثقاً بالنصوص والشواهد التاريخية.

(٢) من طرق التحمل التي أوضحناها قريباً الإجازة، والمناولة، والمكاتبة، والإعلام، وهي تعني موافقة صاحب الصحف أو الكتاب على أن تروى هذه المؤلفات عنه، لكنه لا يجيز ذلك غالباً إلا بعد المطابقة على أصله وبعد أن يرى أهلية من أجازته وقدرته على تحمل العلم وروايته. أما الوجادة فلم يعتبرها العلماء من طرق الرواية وإنما هي ملحقة بها كما يقول الشيخ أحمد شاكر، في الباعث الحثيث ص ١٣٠. وقد أجاز العلماء العمل بها عند حصول الثقة بما يجده القارئ، ويثق بأن هذه الصحيفة بخط الشيخ الذي يعرفه؛ أو يثق بأن هذا الكتاب الذي ينقل منه ثابت النسبة إلى مؤلفه.

وحول نظم الدراسة في القرنين الأول والثاني، انظر: محمد مصطفى =

الصحف مباشرة دون إجازة من الشيوخ، ولا يحملون الرواية عنه.

ومن أقوالهم المشهورة: «لا تأخذ العلم من صُحفي ولا من مُصَحفي»^(١)، ولعل هذا النظام التعليمي هو السبب في تأخر انتشار الكتب والاعتماد عليها. غير أن هذا لا ينفي حصول التدوين منذ وقت مبكر، وهو غير التصنيف والتأليف المُرتَّب للكتب.

فالكتابة والتدوين مرحلة مستقلة وسابقة على مرحلة تصنيف الكتب وتبويبها الذي تأخر إلى حوالي منتصف القرن الثاني^(٢) الهجري.

ولقد كان علماء الصحابة ومن بعدهم يدونون ما يحتاجون إليه من الأحاديث والأخبار حتى يتمكنوا من إتقان حفظها، ولكي يرجعوا إليها وقت الحاجة^(٣). ولم يكن هدفهم من التدوين نشر هذه المدونات

= الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ص ٣٢٨ - ٣٧٠.

(١) يقصدون بقولهم: لا تأخذ العلم من صحفي، النهي عن أخذ العلم والرواية ممن كان مصدره الصحف المكتوبة دون أن يكون له إجازة بروايتها، ولا حصل له السماع من شيوخ العلم. وبقولهم: ولا من مصحفي؛ أي الذي يأخذ القرآن من المصحف ولم يتلقه من القراء المتخصصين بذلك.

(٢) ينقل ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة ١/ ٣٥١ نصاً عن الإمام الذهبي يقول فيه: «في سنة ثلاث وأربعين ومائة، شرع علماء الإسلام في تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنّف ابن جريج التصانيف بمكة... وصنّف ابن إسحاق المغازي، وصنّف معمر باليمن. إلى أن قال: وكثر تبويب العلم وتدوينه ورتبت ودوّنت كتب العربية واللغة، والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون من حفظهم، ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة. فسهل والله الحمد تناول العلم وأخذَ الحفظ يتناقص، فلله الأمر كله»، وينقل هذا القول أيضاً: السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٢٦١. وانظر قول الذهبي في: تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٠ ولكن باختلاف يسير في السياق.

(٣) حول أخبار التدوين في القرن الأول راجع: د. محمد مصطفى الأعظمي، =

والصحف بين الناس ليتناقلوها كما هو الحال في المؤلفات اليوم. وإنما كان هدفهم هو حفظ العلم حتى لا يضيع، ومساعدة الذاكرة على الحفظ. ولذلك وردت الأخبار عن الكثير منهم أنه كان يكتب فإذا حفظ محاه^(١)، ومنهم من أوصى أن تحرق صحفه بعد وفاته^(٢). ومنهم من كره أن يكتب عنه ما يحدث به أو يقول من فتاوى ورأي، وكره الكتابة مطلقاً ويقول: احفظوا كما كنا نحفظ^(٣).

وقد ناقش الخطيب البغدادي في كتابه تقييد العلم^(٤) سبب كراهية من كره من السلف الأولين كتابة العلم والتصنيف فيه، وأن ذلك يرجع إلى خوفهم من إهمال القرآن والانكباب على درس غيره، وإلى خوف الاتكال على الكتاب وترك الحفظ، وإلى خوف أن يصير العلم إلى غير أهله. حتى قال الإمام الأوزاعي (٨٨ - ١٥٧): «كان هذا العلم شيئاً شريفاً إذ كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذكرونه فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله»^(٥).

= دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ص ٤٣ - ٧٠ والباب الرابع من نفس الكتاب بأكمله من ص ٢٨٤ - ٣٢٦.

(١) انظر: السنن لأبي داود ٣/٣١٩؛ والبغدادي، تقييد العلم ص ٥٨، ٥٩، ٦٠؛ وابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ص ٨٠، ٨٤، ٨٦؛ والقاضي عياض، الإلماع ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) ابن أبي خيثمة، كتاب العلم ص ١٣٦؛ والبغدادي، تقييد العلم ص ٦١، ٦٢.

(٣) روي ذلك عن زيد بن ثابت. وانظر قصته مع: معاوية بن أبي سفيان ومع مروان بن الحكم في: أبي داود ٣/٣١٩، وجامع بيان العلم ص ٧٩، وتهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٥٢. كما روي عن غير واحد من الصحابة والتابعين، انظر تفصيل ذلك في: تقييد العلم ص ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٤٦.

(٤) انظر القسم الثاني من الكتاب، باب وصف العلة في كراهة كتابة الحديث من ص ٤٩ - ٦٣.

(٥) روي هذا القول عن الأوزاعي ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٨٦ =

وكانت طريقة العلماء في التعليم^(١)، هي الجلوس في المساجد في الغالب أو في منازلهم أحياناً - إذ لم تكن هناك مبان مخصصة للمدارس - وكان طلاب العلم يأتونهم فيسألونهم، كل فيما يحتاجه ويهتم به، وكان الشيوخ يملون عليهم الإجابات، ويروون لهم الأحاديث والأخبار مسندة إلى من تلقوها عنه، فكان منهم من يملّي من حفظه ولا يرجع إلى الكتاب. ومنهم من يملّي من كتابه وصحفه التي جمعها ودونها لنفسه، وكان الطلاب أيضاً على شاكلتهم منهم من يدون، ومنهم من يحفظ، كما أنهم إذا انتهوا من نسخ ما يحتاجون إليه وتدوينه عرضه^(٢) على الشيخ أو على نسخته المقابلة، وذلك احتياطاً في التوثق وزيادة الضبط، ولم يكن أحد من العلماء يأذن في نشر مروياته وكتبه إلا عن طريق التحديث أو الإجازة، ولهذا نشطت الحركة العلمية في المدن والحوضر الإسلامية؛ حيث كان الطلاب يقصدون كل من لديه علم أو رواية، فكانت الرحلة في طلب العلم^(٣) من ألزم ما ينبغي على طالب العلم، وذلك رغبة في التلقي من أفواه الشيوخ وطلباً لعلو الإسناد.

= والبغداد في تقييد العلم ص ٦٤.

(١) عن طريقة التدريس في العصور الأولى. انظر: الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ص ٣٣٧ - ٣٥٥.

(٢) كان عروة بن الزبير ممن يأمر بذلك. فقد روى عنه ابنه هشام أنه كان يقول له: كتبت؟ فأقول نعم. قال: عرضت كتابك؟ قلت: لا. قال: لم تكتب. انظر: محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ص ١٥٨.

(٣) أخبار الرحلة في طلب العلم وما حصل للعلماء في سبيل ذلك تملأ التاريخ الإسلامي، وخاصة كتب التراجم، ومعجمات الشيوخ. وقد رحل جابر بن عبد الله الصحابي المشهور إلى الشام ليسمع حديثاً من عبد الله بن أنيس الجهني. انظر: فتح الباري ١/ ١٧٤ - ١٧٥. وقد وضع الخطيب البغدادي كتاباً في أخبار الرحلة في طلب الحديث، وخصه بأخبار من رحل في طلب الحديث الواحد فقط.

فقد كان الاعتماد في الرواية، على السماع من الشيوخ، أو القراءة عليهم حتى تحصل لهم الإجازة بالرواية عنهم، ولم يكن يُلجأ إلى الوجادة إلا في أضيق الحدود، وحتى بعد شيوع التصنيف وظهور الكتب، لم يكن الاعتماد عليها وحدها، وإنما كانت في درجة ثانوية نظراً للنظام التعليمي السائد وطرائق تحمل العلم وتلقيه. فكان دور الكتب مقصوراً على حفظ المعلومات مدونة، ومساعدة الذاكرة وتصحيح أوهامها.

وبعد هذا الاستعراض لكيفية تدوين العلم ونظام التعليم نستطيع أن نبين المراحل التي مرّ بها التدوين التاريخي حتى اكتملت مناهجه.

المرحلة الأولى:

مرحلة التدوين الشخصي بالنسبة للهدف من التدوين، حيث كان الأخباري أو المؤرخ يدون ما يسمعه من أفواه الرواة الذين شاهدوا الحدث، أو سمعوه ممن شاهدوه، أو ما شاهدته بنفسه من أحداث معاصرة له، وكل ذلك في صحف غير مرتبة ولا مبوبة، فقد تجد في الصحيفة الواحدة، الخبر عن السيرة النبوية، والقصيدة من الشعر، وقائمة النسب وغيرها. فالهدف هو جمع المادة العلمية وتسجيلها لا تنسيقها وتبويبها. وحينما يروى أحدهم فإنما يروي - في غالب الأحيان - من حفظه رغم أن الأصول مدونة عنده.

المرحلة الثانية:

هي مرحلة تدوين الموضوعات المفردة المستقلة، وظهور الرسائل التاريخية الصغيرة، فقد بدأ الأخباريون في هذه المرحلة بفصل المواد العلمية بعضها عن بعض، وتخصيص كل موضوع بكتاب، أو رسالة تحمل عنواناً خاصاً، وقد لا يتجاوز بعضها بضع صفحات. وهذه

المرحلة قد امتدت خلال القرن الثاني كله تقريباً. وعند التدقيق في أسماء الكتب التي ألفت في هذه الفترة نجد أنها قد شملت مساحة واسعة في التاريخ واهتمت بعدة جوانب من حياة الناس واهتماماتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية.

ومن الذين ألفوا في هذه المرحلة:

- محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) الذي كتب في الأنساب والأخبار وغيرها^(١).

- عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ) الذي ألف كتاباً سماه «التاريخ» كما أنه ألف كتاباً آخر في: سيرة معاوية وبني أمية^(٢).

- محمد بن إسحاق، صاحب السيرة (ت ١٥١) الذي أكمل بناءها التاريخي، ووضعها في سياقها من التاريخ العالمي حيث شملت كتابته المبتدأ^(٣) - وهو سياق موجز لتاريخ الأنبياء ﷺ وتاريخ العرب قبل البعثة النبوية - والسيرة، والمغازي، وتاريخ الخلفاء، فقد ذكر ابن النديم أن له كتاباً في تاريخ الخلفاء رواه عنه الأموي^(٤).

- أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧هـ) أورد له صاحب الفهرست أكثر من ثلاثين كتاباً تشمل: الفتوح والردة، والجمل، وصفين، والنهروان، ومقتل علي، ومقتل حجر بن عدي، ومقتل

(١) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٧ حيث يذكر أنه ألف كتاباً في التفسير والأنساب.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣.

(٣) جعل المبتدأ كالتمهيد والتوطئة للكتابة في السيرة والمغازي، وربما كان منفصلاً عن السيرة، ولذلك نجد ابن حجر في فتح الباري ٥٠٥/٦ ينقل عنه مشيراً إليه بقوله: «وقد ساق ابن إسحاق قصتهم» - أي أصحاب الأخدود - في المبتدأ مطولة.

(٤) المصدر السابق ص ١٠٥. والأموي هو سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان بن العاصي.

الحسين، وكتاب الشورى، ووقعة الحرة، وكتاب مصعب وولايته على العراق، ومقتل عبد الله بن الزبير^(١)... وغيرها.

- أبو اليقظان النسابة (ت ١٧٠هـ) الذي اهتم بالأنساب والمثالب، وله كتاب حلف تميم، وكتاب أخبار تميم، وكتاب نسب خندف وأخبارها، وكتاب النسب الكبير^(٢).

- سيف بن عمر التميمي (ت ١٨٠هـ) وله كتاب الفتوح الكبير، وكتاب الردة، وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي^(٣).

- هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٦هـ) الذي كتب في الأنساب والأخبار أكثر من مائة وخمسين كتاباً في^(٤) موضوعات متعددة من المآثر والأحلاف والمنافرات وأخبار الأوائل وأخبار الإسلام وأخبار البلدان وأخبار الشعراء وأيام العرب والأنساب والأسمار.

- الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) صاحب كتاب تاريخ العجم وبني أمية، وكتاب التاريخ على السنين، وكتاب طبقات الفقهاء والمحدثين^(٥).
- محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) صاحب كتاب أخبار النبي، وكتاب طبقات الصحابة^(٦).

- أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) الذي نسب له أكثر من مائة كتاب في الأنساب والمثالب والغريب والفتوح وال نوادر^(٧).

- نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٣هـ) الذي كتب في موضوعات متعددة وله: كتاب الغارات، وصفين، والجمل، ومقتل حجر بن عدي، ومقتل الحسين بن علي^(٨).

(١) المصدر السابق ص ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) نفسه ص ١٠٨ - ١١٠.

(٥) نفسه ص ١١٢.

(٦) نفسه ص ١١١.

(٧) نفسه ص ٥٩.

(٨) نفسه ص ١٠٦.

- أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٤هـ) الذي ترك وحده حوالي (٢٤٠) كتاباً^(١) تشمل مساحة واسعة وجوانب متعددة من تاريخ صدر الإسلام.

وقد امتازت هذه الفترة بظهور هذه المجموعة من الأخباريين الذين أكثروا من تأليف الرسائل التاريخية في الموضوعات المفردة. وباستثناء ابن إسحاق، والواقدي، لم نجد للبقية كبير عناية بالسير، ولعل هذا راجع إلى أن البحث في السيرة كانت قد استقرت مناهجه وبحث مختلف جوانبه منذ المرحلة الأولى على يد عروة، والزهري، وموسى بن عقبة، وغيرهم، كما أن السيرة كانت مما يعتني به المحدثون، ويتداولون روايتها ضمن الحديث النبوي.

المرحلة الثالثة:

هي ظهور المؤلفات التاريخية الشاملة على أساس الترتيب الزمني المتسلسل، فيبدأ المؤرخ (مثلاً) ببداية الخليقة، ثم يذكر الأجيال والأمم بعد ذلك حتى يأتي إلى البعثة النبوية، ثم يذكر الأحداث مسلسلة سنة بعد سنة على نظام الحوليات، وهذا الترتيب يقوم على فكرة أساسية ويؤدي غرضاً مهماً، ففكرته الأساسية تنطلق من الشعور بوحدة التاريخ الإسلامي، أي تاريخ النبوات المتعاقبة لأن دين الأنبياء ودعوتهم واحدة. والغرض الذي يؤديه مثل هذا العرض للأحداث هو معرفة مواقف الأمم والأقوام - عبر التاريخ البشري - من دعوة الأنبياء ﷺ، والاطلاع على النتائج التي ترتبت على تلك المواقف؛ فأما الذين آمنوا بالله وصدقوا أنبياءهم وآزروهم فقد أنجاهم الله ومكَّن لهم في الأرض، ووعدهم في الآخرة بحسن المآب؛ وأما الذين كذبوا الأنبياء واتبعوا ما كان عليه

(١) المصدر نفسه ص ١١٣ - ١١٧.

آبائهم من جهل وضلال، وأطاعوا طواغيتهم، فقد أهلكهم الله وسلط عليهم عذابه في الدنيا، وأوعدهم في الآخرة بسوء المصير. وأهم من يمثل هذه المرحلة هو خليفة بن خياط، وأبو حنيفة الدينوري، واليعقوبي، ومحمد بن جرير الطبري.

وهناك نوع من التأليف في هذه المرحلة اتخذ الترتيب على الطبقات منهجاً له كما فعل محمد بن سعد، وخليفة بن خياط، وغيرهما.

وفي الحقيقة أن النظرة العالمية للتاريخ والترتيب على الأساس الزمني قد ظهرت أولياته عند بعض كتاب المرحلة الثانية^(١) من مراحل التأليف والتدوين التاريخي، كما فعل ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) حيث قسم كتابه في السيرة على ثلاثة أقسام هي: - المبتدأ، والسيرة، والمغازي، وكتب كتاباً في تاريخ الخلفاء^(٢)، وكما فعل عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ) الذي سمي أحد كتبه «كتاب التاريخ» جمع فيه الحديث عن الردة والفتوح وعهد الراشدين^(٣)، وكذلك الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) الذي سمي أحد كتبه «التاريخ على السنين»، ونسب له كتاب في تاريخ العجم^(٤). والتاريخ على نظام السنين والحواليات، أو على نظام الطبقات هو الذي استقر عند مؤرخي القرن الثالث واستمر إلى عهود متأخرة كما هو عند ابن الجوزي، وابن الأثير، وابن كثير، والذهبي.

(١) هذا فيما وصل إلينا من المؤلفات، وقد تشكل روايات عروة بن الزبير، والزهري - لو جمعت - مثل هذه النظرة.

(٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣.

(٤) المصدر السابق ص ١١٢.

أنواع التأليف التاريخي

لقد شمل التأليف التاريخي في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة أنواعاً شتى من فعاليات الأمة، واحتياجاتها العلمية والعملية، واتخذ مسارات متعددة عند العلماء على مختلف اتجاهاتهم وتخصصاتهم العلمية.

التأليف في السيرة:

كان أقدم أنواع التأليف التاريخي ظهوراً هو الاهتمام بسيرة المصطفى ﷺ وجمع أخبارها والتأليف فيها؛ لأن الرسول ﷺ هو المعلم لهذه الأمة، فقد أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، فصاروا به أمة بعد أن كانوا شيعاً وأحزاباً، بل صاروا خير أمة أخرجت للناس. والاهتمام بسيرته ﷺ نشأ مقروناً بالاهتمام بسنته؛ لأن سيرته جزء من السنة، وفيها أحكام وتشريعات، والأسوة بها مطلوبة بنص القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقد اهتم المسلمون على مختلف مستوياتهم بالسيرة النبوية المطهرة وعلموها أبناءهم كما يعلمونهم السورة من القرآن^(١). ولذلك كانت روايتها وتدوينها والتأليف فيها ممتزجاً مع تدوين السنة النبوية أحياناً، ومفرداً عنها في أحيان أخرى؛ لكنه مرّ في نفس المراحل التي مر بها تدوين السنة.

(١) نقل ابن كثير في البداية والنهاية ٢٤٢/٣ عن علي بن الحسين قال: «كنا نُعَلِّمُ مغازي النبي كما نُعَلِّمُ السورة من القرآن». وقال الزهري: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا».

اهتمام الصحابة بالسيرة:

تدل الأخبار أن كثيراً من الصحابة قد دونوا أخبار سيرة الرسول ﷺ ومغازيه وأولوها عناية خاصة، وكانوا يملونها على تلاميذهم. روى ابن سعد بسنده إلى أبي عمرو بن حريث العُذري قال: «وقد وجدت في كتاب آبائي. قالوا: قدم على رسول الله ﷺ في صفر سنة تسع وفدنا اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن النعمان العُذري»^(١) كما يصف عبيد الله بن عبد الله بن عتبة سعة علم ابن عباس بقوله: «... ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب...»^(٢). ومن المعروف أن ابن عباس رضي الله عنهما قد ترك من الكتب ما يوصف في كثرته بأنه حمل بعير، وقد كان ذلك عند مولاه كُريب، ثم تركها كُريب عند موسى بن عقبة صاحب المغازي^(٣) المشهور. كما أننا نجد في السيرة روايات كثيرة عن طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده^(٤). وجده هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص الذي كان من أبرز الصحابة اهتماماً بتدوين أحاديث الرسول ﷺ حتى أنه كان يكتب كل ما يسمع من رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة: «ما من أحد من أصحاب النبي ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ١/ ٣٣١.

(٢) نفسه ٢/ ٣٦٨.

(٣) روى ابن سعد في طبقاته ٥/ ٢٩٣ بسنده إلى موسى بن عقبة قال: وضع عندنا كريب حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عباس قال: فكان علي بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعث إليّ بصحيفة كذا وكذا قال: فينسخها فيبعث إليه بإحدهما.

(٤) انظر في ذلك: المسند للإمام أحمد ٢/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨٤، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٢٢. فقد روى أشياء تتعلق بما كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار، وأخرى عن غزوة بني المصطلق، وعن فتح مكة، وغزوة هوازن، وغزوة تبوك.

من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب»^(١). وكان من كتبه صحيفة يسميها «الصادقة».

وقد ترك هذه الصحف عند أحفاده، فرواها عمرو بن شعيب. ولذلك اختلف علماء الجرح والتعديل في رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وانتقدها بعضهم معللاً ذلك بأنه إنما يروي من صحيفة. قال الذهبي: «وبعضهم تعلل بأنها صحيفة رواها وجادة ولهذا تجنبها أصحاب الصحيح. والتصحيح يدخل على الرواية من الصحف بخلاف المشافهة بالسمع»^(٢). ويروي ابن أبي خيثمة في «العلم» وكذلك البغدادي في «تقييد العلم» عن وكيع عن أبيه عن عبد الله بن حنشل قال: «رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البراء»^(٣) مما يدل على أن البراء بن عازب رضي الله عنه كان يملي على من يحضر مجلسه، ويذهب الدكتور محمد مصطفى الأعظمي إلى أنه قد أملى شيئاً كثيراً من مغازي رسول الله ﷺ مستدلاً بما رواه أبو إسحاق السبيعي عن البراء بن عازب في المغازي، فقد أحصى روايته عنه في صحيح البخاري والتي تتعلق بأحداث السيرة فقط فبلغت ٢٥ رواية شملت هجرة الصحابة إلى المدينة، ثم هجرة رسول الله ﷺ، وغزوة بدر، وأحد، وقتل أبي رافع اليهودي، وغزوة الخندق، والحديبية، وعمره القضاء، وفتح مكة، وغزوة حنين^(٤).

دور التابعين في تدوين السيرة:

ثم بعد جيل الصحابة رضي الله عنهم قام التابعون على تدوين السيرة وجمع

(١) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ١/٢٠٦.

(٢) الذهبي، ميزان الاعتدال ٣/٢٦٦.

(٣) ابن أبي خيثمة، كتاب العلم ص ١٤٤؛ البغدادي، تقييد العلم ص ١٠٥.

(٤) محمد مصطفى الأعظمي، مغازي رسول الله لعروة بن الزبير ص ٢٥، ٢٦.

أخبارها ومدارسها وتدريسها وكان من أشهر القائمين بذلك، أبان ابن^(١) عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) الذي تدل الأخبار على أنه دون شيئاً من أخبار سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه.

قال ابن سعد في ترجمة المغيرة بن عبد الرحمن: «ثقة قليل الحديث إلا مغازي رسول الله ﷺ أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيراً ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها»^(٢) والملاحظ قلة الرواية في كتب السيرة عن أبان بن عثمان؛ ولعله لم يرزق التلامذة الذين يقومون بنشر علمه من بعده^(٣).

ومن المهتمين بجمع أخبار السيرة عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٣هـ) فقد كان يجلس للناس يحدثهم بالمغازي. وقد مر على مجلسه عبد الله بن عمر فقال: «لقد شهدت القوم فلهو أحفظ لها وأعلم بها»^(٤). وقد ذكر له صاحب مجمع الزوائد^(٥) روايته للسرية التي أغارت على رعية - بفتح الراء وإسكان العين - السحيمي، الذي كتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً في أديم أحمر فرقع به دلوّه. كما روى عنه خبر سرية بكر بن وائل، وخبراً آخر عن قتال أهل الردة.

- مقسم بن بجرة (ت ١٠١هـ) ويُقال: ابن نجدة. مولى ابن عباس سمي بذلك للزومه له^(٦).

(١) هو أبان بن عثمان بن عفان، تولى إمارة المدينة سبع سنين. قال ابن سعد: ثقة. روى عن أبيه وقد أخرج له مسلم والأربعة، توفي بالفالج سنة ١٠٥هـ. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٥١/٤ - ٣٥٢.

(٢) الطبقات الكبرى ٢١٠/٥. (٣) الأعظمي، مغازي عروة ص ٢٧.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٦٧/٥.

(٥) الهيثمي، مجمع الزوائد ٢٠٥/٦، ٢٠٦، ٢٢٠.

(٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٨٨/١٠.

وقد احتفظ عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه بنقول عنه شملت عدد غزوات النبي وسراياه، وأسر العباس بن عبد المطلب يوم بدر، وتآمر عقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف على اغتيال رسول الله ﷺ، وعن أحداث تتعلق بغزوة فتح مكة وغير ذلك^(١).

- عروة بن الزبير (٢٢ - ٩٣هـ) وهو أحد الفقهاء السبعة في المدينة، وقد قام بدور متميز في إرساء قواعد الكتابة في سيرة النبي ﷺ، فكان الخلفاء والأمراء والعلماء يكتبون إليه ويسألونه، وينقل لنا الطبري نصوصاً طويلة من كتابات عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان^(٢)، وقد أورد الحافظ بن حجر في الفتح نقلاً عن عمر بن شبة في كتاب مكة نص كتاب عروة بن الزبير إلى الوليد: «أمّا بعد: فإنك كتبت إلي تسألني عن قصة الفتح...»^(٣) وقال ابن حجر أيضاً: «وقد أخرج الإسماعيلي من طريق عبد الله بن محمد بن يحيى عن هشام عن أبيه أنه كتب إلى الوليد: «أنك سألتني متى توفيت خديجة...»^(٤)، ومن الثابت أن لعروة كتاباً في المغازي كان معروفاً ومتداولاً بين العلماء، قال محمد بن عمر: «كان عروة فقيهاً عالماً حافظاً ثباتاً حجة عالماً بالسير وهو أول من صنف في المغازي»^(٥)، ويذكر ابن النديم أن له كتاباً في المغازي^(٦) وكذلك الذهبي^(٧)، وابن حجر^(٨)، وحاجي خليفة^(٩)، والسخاوي^(١٠)، وقد قام

(١) عبد الرزاق، المصنف ٢٩٤/٥ - ٢٩٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٧٤ - ٣٧٩، ٣٨٩.

(٢) تاريخ الأمم والرسول ٣٢٨/٢، ٤٢١، ٤٢٢.

(٣) ابن حجر، فتح الباري ٢٧/٨. (٤) المصدر السابق ٢٢٥/٧.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠١/٩. (٦) الفهرست ص ١٢٣.

(٧) سير أعلام النبلاء ١٥٠/٦. (٨) فتح الباري ٣٣٣/٥.

(٩) كشف الظنون ١٧٤٧/٢.

(١٠) الإعلان بالتوبيخ ص ٨٨.

الدكتور محمد مصطفى الأعظمي باستخراج ما رُوِيَ عن عروة في المغازي من طريق أبي الأسود فقط، فتبين أنها تشمل فترة طويلة من حياة الرسول ﷺ من نزول الوحي عليه حتى وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى^(١)، وقد شارك أبا الأسود في رواية مغازي عروة بن الزبير، كل من الزهري، وهشام بن عروة، ويحيى بن عروة. ومنهج عروة في كتابة المغازي حسبما يتضح من النسخة المستخرجة يقوم على الاستشهاد بالآيات القرآنية ويستعمل الأشعار لكن بقله ويهتم كثيراً بالأنساب وله عناية بإيراد الوثائق والكتب التي كتبها رسول الله ﷺ، كما أنه قليل الاستعمال للأسانيد. بينما تجد نفس الروايات في كتب السنة مسندة وخاصة ما كان من طريق الزهري. ويرى الدكتور محمد مصطفى الأعظمي أن هذا راجع إلى طبيعة كتب السيرة التي يفقدها تكرر الأسانيد عند كل جزئية سببها وتسلسلها الزمني والسرد المتتابع للأحداث^(٢).

ومن هذه الطبقة شرحبيل بن سعد الخطمي المدني مولى الأنصار المتوفى سنة ١٢٣هـ عن أكثر من مائة سنة. قال علي بن المديني: قلت لسفيان بن عيينة: كان شرحبيل بن سعد يفتي؟ قال: نعم ولم يكن أحد أعلم بالمغازي والبدرين منه...^(٣)، وهذا النص وإن كان لا يعطي دلالة صريحة على أن شرحبيل كتب كتاباً في السيرة والمغازي إلا أنه يدل على أنه قد احتفظ بقوائم فيها أسماء البدرين، وأسماء المهاجرين الأوائل، ومن حضر أحداً، كما تدل بعض النصوص الأخرى^(٤).

(١) انظر: مغازي عروة بن الزبير، نسخة مستخرجة، طبع مكتب التربية بدول الخليج بالرياض سنة ١٤٠٠هـ.

(٢) مغازي عروة بن الزبير ص ٦٥ - ٦٧.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٢١/٤.

(٤) انظر: المصدر السابق ٣٦١/١٠.

ومنهم أيضاً وهب بن منبه اليماني (ت ١١٤هـ) من الأبناء وكان مطلعاً على الكتب السابقة ويعزى له أنه قال: «قرأت ثلاثة وتسعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء»^(١). ويقول عنه حاجي خليفة: «إنه جمع المغازي»^(٢). وقد وُجِدَتْ قطعة من هذه المغازي تنسب له. عثر عليها المستشرق «بيكر» بين مجموعة أوراق بردي «شتارينهت» المحفوظة الآن بهيدلبرج وتاريخ نسخ القطعة سنة ٢٢٨هـ وتبدأ بهذه العبارة: «أخبرنا محمد بن أبي بكر أبو طلحة حدثنا عبد المنعم عن أبيه عن أبي إلياس عن وهب، ويتكرر هذا الإسناد إلى وهب»^(٣).

وعبد المنعم هذا، كذاب كان يكذب على وهب وعلى أبيه^(٤). وهو حفيد لوهب من جهة بنته.

وعلى كُلِّ فلم يصل إلينا من هذه الطبقة والتي قبلها كتب تامة في السيرة النبوية، وإنما روايات هنا وهناك، في كتب السنة ومجاميعها، وفي كتب السيرة والتاريخ.

وقد جاء بعد هؤلاء طبقة أخرى فيها بعض الأسماء التي تتمتع بشهرة واسعة في السيرة وهم: عبد الله بن أبي بكر بن حزم^(٥)،

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير، المنسوب لوهب، من رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام ص ٩.

(٢) كشف الظنون ٣٧٤٧/٢.

(٣) يوسف هورفتش، المغازي ومؤلفوها ص ٣٤، ٣٥.

(٤) قال الذهبي في الميزان ٦٨٨/٢: عبد المنعم بن إدريس اليماني، قصاص مشهور ليس يعتمد عليه. وأفصح أحمد بن حنبل فقال: كان يكذب على وهب بن منبه. وقال البخاري: ذاهب الحديث. وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره، مات سنة ٢٢٨هـ ببغداد.

(٥) عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، إمام ثقة ثبت، خرَّج حديثه الجماعة. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ١٦٤/٥ - ١٦٥.

وعاصم بن عمر بن قتادة^(١)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري^(٢)، وأبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل المعروف ببيتيم عروة بن الزبير^(٣).

فأما عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، فقد توفي سنة ١٣٥هـ وقيل: ١٣٠هـ عن سبعين عاماً^(٤). وله روايات كثيرة في السيرة تراها عند ابن إسحاق^(٥)، وعند ابن جرير^(٦).

ومما يدل على أنه كتب في السيرة ورتب أحداثها حسب الترتيب الزمني، واستوعب المغازي والبعوث بوجه خاص، النص الطويل الذي أورده ابن جرير في تاريخه^(٧)، حول عدد بعوث رسول الله ﷺ وسراياه وقد ساقها مرتبة وعددها خمس وثلاثون سرية.

أما عاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٦هـ وقيل: ١٢٧هـ. فلا نشك أيضاً أنه قد جمع المغازي وحدث بها لما رواه ابن سعد قال:

(١) عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري الظفري المدني، روى له الجماعة، وهو ثقة، ولم يتكلم فيه أحد بجرح. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ٥٣/٥ - ٥٤.

(٢) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، الحافظ، أحد الأئمة الأعلام، روى عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن جعفر، وأنس، وجابر بن عبد الله، وغيرهم من الصحابة. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ٤٤٥/٩.

(٣) محمد بن عبد الرحمن بن نوفل بن الأسود الأسدي أبو الأسود المدني، يتيم عروة، أخرج حديثه الجماعة، وهو ثقة. انظر: تهذيب التهذيب ٣٠٧/٩.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٦٥/٥.

(٥) سيرة ابن هشام في أكثر من عشرين موضعاً، انظر منها: ٣٦/١، ٥٧، ٨٢، ٨٦، ١٦٨، ٢٠٣، ٤٣٥، ٤٤٦، ٣٨٢/٢، ٥٩٠، ٥٢٢.

(٦) روى عنه ابن جرير في تاريخه ٧٢ قطعة، كلها في أحداث تتعلق بالسيرة.

(٧) تاريخ الرسل والأمم ١٥٤/٣ - ١٥٨.

«كان راوية للعلم وله علم بالمغازي والسير، أمره عمر بن عبد العزيز أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل»^(١).

وقد ذكر ابن هشام في السيرة له أكثر من ٢٧ قطعة^(٢) وذكر له الطبري قريباً من ذلك^(٣). وقد شملت أحداثاً متفرقة من السيرة ومن المغازي كما أن له عناية بالشعر وروايته، وقد أورد ابن إسحاق قصيدة كعب بن زهير: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول» التي أنشدتها بين يدي الرسول ﷺ من روايته^(٤)، كما أورد من روايته أيضاً قصيدة كعب الأخرى في مدح الأنصار^(٥) والتي مطلعها:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ فِي مِقْنَبٍ^(٦) مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ

وثالث هؤلاء هو الإمام الحجة الثقة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ وقد كان واسع المعرفة له مشاركات في علوم كثيرة. وقد روى السيرة عن عروة بن الزبير كما يذكر السخاوي^(٧) وروى عنه يونس بن يزيد، مشاهد النبي^(٨) ﷺ. ونقل أبو القاسم السهيلي، عن سيرة الزهري، في قصة بحيرى الراهب^(٩)، وفي زواج الرسول ﷺ بخديجة^(١٠)، وقد وصفها بقوله: «وهي أول سيرة ألفت في

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٥٤.

(٢) انظر منها على سبيل المثال: ٤٦٦/١، ٥٠٧، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٤١، ٤٨/٢، ١٦٩، ٢٩٠، ٥٥٣، ٥١٤، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٦، ٤٩٨.

(٣) انظر منها: ٣٥١/٢، ٣٥٣، ٣٦٣، ٣٨٦، ٤٤٨، ٧٤/٣، ٧٦، ٩٣، ١٠١، ١٠٥، ١٠٩، ١١٥، ١٤٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية ٢/٥٠٣. (٥) المصدر السابق ٢/٥١٤.

(٦) المِقْنَب: الجماعة من الخيل، يريد به القوم على ظهور جيادهم.

(٧) الإعلان بالتوبيخ ص ٨٨. (٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٩) الروض الأنف ١/٢٠٥. (١٠) المصدر نفسه ١/٢١٤.

الإسلام»^(١). وقد روى عنه الطبري في تاريخه في أكثر من مائة موضع جملها في السيرة النبوية^(٢). وإذا رجعنا لأبواب المغازي والسير في كتب الحديث النبوي نجد عشرات الروايات عن الإمام الزهري. ففي كتاب المصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني - مثلاً - نجد هذا الإسناد «عبد الرزاق عن معمر عن الزهري...» يتكرر كثيراً في القسم الذي خصصه للمغازي^(٣). وأيضاً في كتاب الجهاد^(٤). وهذا كله يدل

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) انظر: فهارس تاريخ الطبري ص ٢٨٦.

(٣) أورد في كتاب المغازي وحده ٤٣ حديثاً من روايته من مجموع أحاديث كتاب المغازي البالغ عددها ٦٧ حديثاً، تشمل الأحاديث من رقم (٩٧١٨) حتى (٩٧٨٤) من المجلد الخامس من كتاب المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، مما جعل الدكتور سهيل زكّار يقتطع هذا الجزء من المصنف وينشره مستقلاً بعنوان: المغازي النبوية من تصنيف الإمام محمد بن مسلم الزهري. وقد ادعى أن هذه هي السيرة التي كتبها الزهري، وقد كتب لها مقدمة تحتاج إلى نقد، كما أنه لم يتبع منهجاً معيناً في ترتيب المرويات وإنما نقلها كما هي في المصنف، وأدخل معها ما ليس من رواية الزهري، كما علّق بعض التعليقات التي فسّر فيها الحوادث على غير وجهها الصحيح، وشكّك في بعض الروايات رغم صحتها وثبوتها في كتب السنة الأخرى، ومن أشدها شناعة ما ذكره في ص ١٢٥ في الحاشية، إذ قال عن قصة أصحاب الأخدود: «هذه رواية شاذة حول مسألة أصحاب الأخدود التي عالجها أصحاب كتب السيرة والتواريخ، مع كتب التفسير، وهي لا تتوافق مع شهادات شهود العيان للحادثة التي حفظتها لنا اللغة السريانية». وطلب من القارئ أن يراجع كتاب الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، تأليف أغناطيوس يعقوب الثالث. ومن المعلوم أن قصة أصحاب الأخدود وردت الإشارة لها في القرآن الكريم في سورة البروج، وزادت السنة فأوضحت ما أجمل القرآن كما في صحيح مسلم ٢٢٩٩/٤ وغيره من دواوين السنة. فهل نكذب بهذه الأحاديث الصحيحة لنصدق أغناطيوس ومن جرى مجراه؟!.

(٤) انظر في كتاب الجهاد من مصنف عبد الرزاق الصفحات ٢٦٦/٥، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٤ - ٢٩٥ حيث ذكر في الموضع الأخير عدد غزوات النبي ﷺ.

على أن الزهري قد جمع أحاديث السيرة النبوية، ورتب مغازي رسول الله ﷺ كما صرح بذلك السهيلي. لكن لم يصل إلينا من ذلك شيء بشكل مستقل، وإنما وصلت إلينا روايات في كتب السنة وكتب السير والتواريخ^(١).

أما أبو الأسود الذي عرف بيتيم عروة بن الزبير، لأن أباه عبد الرحمن بن نوفل قد أوصى إليه بتربيته. فقد روى عن عروة، وعلي بن الحسين، وسليمان بن يسار، وعكرمة، وغيرهم وروى عنه الزهري وهو من أقرانه، وابن إسحاق، ومالك، وعمرو بن الحارث، والليث، وابن لهيعة، وشعبة. وقد أخرج له الشيخان وأصحاب السنن وغيرهم^(٢)، وله كتاب في المغازي أخذه عن شيخه عروة بن الزبير وحدث به في مصر عندما نزلها^(٣). ورواه عنه عبد الله بن لهيعة^(٤) المحدث المعروف^(٥). وقد توفي في آخر سلطان بني أمية في سنة بضع وثلاثين ومائة، كما يقول الواقدي^(٦).

(١) ذكر الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في المغازي لعروة بن الزبير ص ٢٩ أنه يعمل على إخراج سيرة الزهري من كتب السنة. قلت: قد جمعها الدكتور محمد عواجي في رسالته للدكتوراه وطبعها الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥٠/٦؛ وابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٠٧/٩ - ٣٠٨.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥٠/٦.

(٤) عبد الله بن لهيعة، القاضي العلامة محدث ديار مصر مع الليث، ولد سنة خمس أو ست وتسعين، وطلب العلم في صباه ولقي الكبار بمصر والحرمين. وكان من بحور العلم على لين في حديثه، روى له مسلم مقروناً. . وروى له البخاري مقروناً دون أن يسميه في عدة مواضع من صحيحه، كما قال الحافظ ابن حجر. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ١١/٨ - ٣١، تهذيب التهذيب ٣٧٣/٥ - ٣٧٩.

(٥) السخاوي، الإعلان بالتبويخ ص ٨٨.

(٦) تهذيب التهذيب ٣٠٨/٩.

ويرى الذهبي أن عداده في صغار التابعين»^(١) وقال ابن البرقي: لا يعلم له رواية عن أحد من الصحابة مع أن سنّه يحتمل ذلك^(٢).

وسبق أن ذكرنا أن الدكتور محمد مصطفى الأعظمي قد قام باستخراج مغازي عروة بن الزبير؛ من رواية أبي الأسود عن طريق ابن لهيعة. وقد نقل عن هذه السيرة العلماء المتأخرون مثل ابن كثير في البداية والنهاية^(٣) وابن حجر في فتح الباري^(٤)، وفي الإصابة^(٥)، ولكن فيما يبدو أن النسخة التي نقلها عنها - وكانت معروفة ومتداولة باسم المغازي - هي منسوبة لابن لهيعة من روايته عن أبي الأسود، وقد نسبها ابن حجر مرة إلى أبي الأسود فقال: «وعند أبي الأسود في المغازي عن عروة أن جبريل نزل إليه^(٦)...».

ظهور المؤلفات في السيرة:

بعد الإمام الزهري وطبقته، قام بعبء التأليف ثلاثة من أشهر المؤلفين في السيرة وهم: موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ)، ومعمّر بن راشد (ت ١٥٤هـ)، ومحمد بن إسحاق المطلبي (ت ١٥١هـ)، وقد كان لهؤلاء الثلاثة أثر بارز في التأليف في السيرة ودفَعوا بها خطوات إلى الإمام.

أما موسى بن عقبة، فقد كان من الثقات المتخصصين في هذا الفن، وكان الإمام مالك يثني على مغازيه ويوصي بها فيقول: «عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن يُقَيَّد من شهد

(١) سير أعلام النبلاء ٦/١٥٠. (٢) تهذيب التهذيب ٩/٣٠٨.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٤/٤٨، ٨٨، ٩٩.

(٤) انظر: فتح الباري ٧/٣٧٧.

(٥) انظر: الإصابة ١/٢١٣، ٢٨١، ٢٩/٢، ٤٥، ٥٠، ٧٢.

(٦) انظر: فتح الباري ٨/١٣٨.

مع رسول الله ﷺ ولم يكثر كما كثر غيره»^(١) وقال مرة، وقد سأله أحدهم عن المغازي: «عليك بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازي»^(٢) وقد كانت مغازي موسى بن عقبة معروفة متداولة إلى عصور متأخرة قال الذهبي في وصفها: «وأما مغازي موسى بن عقبة فهي في مجلد ليس بالكبير سمعناها، وغالبها صحيح ومرسل جيد، لكنها مختصرة تحتاج إلى زيادة وبيان وتتمة»^(٣)، وقد روى الجماعة لموسى بن عقبة^(٤) واعتمد البخاري مغازيه في صحيحه.

وهذه المغازي تعتبر اليوم في حكم المفقود، وقد وجدت قطعة من تهذيب لها وقام بنشرها المستشرق «سحاو» مع ترجمة بالألمانية لها سنة ١٩٠٤^(٥) ولكن الكثير من مغازي موسى بن عقبة موجود في كتب السنة، والمغازي، والدلائل.

أما معمر بن راشد الأزدي مولاهم، البصري، نزيل اليمن، فقد كان من أوعية العلم مع الصدق والتحري والورع والجلالة وحسن التصنيف^(٦). وقد أخذ العلم عن قتادة، والزهري، وهمام بن منبه، وأبي إسحاق السبيعي، وثابت البناني، وغيرهم. وأخذ عنه عمرو بن دينار والسفيانيان^(٧)، وابن المبارك، ومحمد بن عمر الواقدي، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وغيرهم^(٨). والرواية عنه في السيرة ومغازي رسول الله منثورة في الكتب الستة، ومسند أحمد، ومصنف عبد الرزاق، ومعاجم

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١١٥/٦.

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه ١١٦/٦. (٤) المصدر نفسه ١١٤/٦.

(٥) يوسف هورفتش، المغازي الأولى ومؤلفوها ص ٧١.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٦/٧.

(٧) السفيانيان هما: سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري.

(٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٦٠٥/٧.

الطبراني، وفي كتابات من جاء بعده من كتاب السيرة مثل: الواقدي فقد روى عنه في الجزء الموجود من مغازيه قرابة خمسين قطعة^(١) وقد ذكر له صاحب الفهرست، كتاب المغازي^(٢)، وكان من أكثر من حَمَلَ عنه العلم عبد الرزاق بن همام الصنعاني، حيث يقول: كتبت عن معمر عشرة آلاف حديث^(٣). والمطلع على كتاب المصنف لعبد الرزاق يجد مصداق هذا القول^(٤). قال الذهبي: «وقع لي من جامعته الجزء الأول الثاني والثالث»^(٥).

وثالث هؤلاء هو إمام أهل المغازي ومقدمهم، محمد بن إسحاق المطلبي مولاهم، ولد سنة ٨٠هـ، ورأى مالك بن أنس بالمدينة^(٦). كان كثير الرواية وتخصص في علم المغازي والأخبار، وأخذ عن أهل الكتاب^(٧). قال الزهري: «لا يزال بالمدينة علم جم ما دام فيهم ابن

(١) انظر: مغازي الواقدي. وعلى سبيل المثال: ١٨٤/١ قصة قتل كعب بن الأشرف، ١٩٦/١ غزوة بني سليم ببحران، ١٩٩/١ غزوة أحد، ٣٥٤/١ غزوة الرجيع، ٣٦٣/١ غزوة بني النضير، ٣٨٤/١ غزوة بدر الموعد، ٢/ ٤٤١ غزوة الخندق.

(٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٦.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١١/٧.

(٤) انظر: كتاب الجهاد، وكتاب المغازي في مصنف عبد الرزاق في المجلد الخامس.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٤/٧. وقال محقق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء ٧/ ١٤ في الحاشية: بأن كتاب الجامع لعمر قد طُبِعَ مدرجاً في مصنف عبد الرزاق وهو يبدأ من الجزء العاشر ص ٣٧٩ وينتهي بنهاية الكتاب. ولم يشر محقق المصنف إلى ذلك. وذكر محمد حميد الله في تقديمه لمغازي ابن إسحاق المطبوعة في المغرب ص/ يز/ أنه يوجد مخطوطان في تركيا لكتاب الجامع لمعمر بن راشد.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٤، ٣٥.

(٧) المصدر السابق ٧/ ٥٣.

إسحاق^(١). وقال الشافعي: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق^(٢). وقد تكلم بعض علماء الجرح والتعديل في محمد بن إسحاق^(٣)، وقد روى له البخاري في الصحيح معلقاً^(٤). واستشهد به وأكثر عنه في غير صحيحه فيما يحكى في أيام النبي وأحواله.

أما مسلم فقد روى له مقروناً مع غيره^(٥). ومن أبرز من تكلم في ابن إسحاق، الإمام مالك، وهشام بن عروة^(٦). قال الذهبي: وقد أمسك

(١) المصدر نفسه ٣٦/٧. (٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) استوعب الكلام في عدالة ابن إسحاق: ابن سيد الناس في مقدمة كتابه عيون الأثر ص ١٥ - ٢٣، وكذلك الذهبي في الميزان ٤٦٨/٣ - ٤٧٥ وانتهى إلى أنه صدوق يدلّس، فلا تقبل روايته إذا عنعن. كما وصل إلى هذه النتيجة في الحكم على ابن إسحاق: الحافظ ابن حجر، فقال في التقريب ١٤٤/٢: إمام في المغازي صدوق يدلّس.

(٤) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ٣٧٨/٧.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٥٥/٧؛ وابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٥/٩.

(٦) قال عنه مالك: دجال من الدجاجلة نحن نفينا من المدينة. انظر: المصدر السابق ٥٠/٧ - ٥١، وقال هشام بن عروة: إنه كذاب ونفى أن يكون سمع من زوجته فاطمة بنت المنذر. المصدر السابق ٥١/٧ وقد ردّ الناقد ابن المديني قول مالك وقال: إن مالك لم يجالسه ولم يعرفه وأي شيء حدث به ابن إسحاق بالمدينة ٤٤/٧. ورأى غير ابن المديني أن قول مالك هذا ليس للحديث إنما لأنه اتهم بالقدر ٤٢/٧. وقال علي بن المديني: الذي قال: هشام بن عروة ليس بحجة لعلّه دخل على امرأته وهو غلام فسمع منها ٤٤/٧. وقال الذهبي: إن فاطمة بنت المنذر زوجة هشام أكبر منه بنيف عشرة سنة وأسند منه، فإنها روت عن أسماء بنت أبي بكر، وصحّ أن ابن إسحاق سمع منها وما عرف بذلك هشام، أبمثل هذا القول الواهي يكذب الصادق. كلا والله!! نعوذ بالله من الهوى والمكابرة. ولكن صدق القاضي أبو يوسف إذ يقول: من تتبع غريب الحديث كُذّب. وهذا من أكبر ذنوب ابن إسحاق فإنه =

عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء لأشياء؛ منها تشيعه، ونُسب إلى القدر، ويدلس في حديثه. فأما الصدق فليس بمدفوع عنه^(١). ثم قال في موضع آخر: «وهذان الرجلان - مالك، ومحمد بن إسحاق - كل منهما قد نال من صاحبه لكن أئثر كلام مالك في محمد بعض اللين، ولم يؤثر كلام محمد فيه ولا ذرة، وارتفع مالك وصار كالنجم، والآخر فله ارتفاع بحسبه، ولا سيما في السير، وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن، إلا فيما شذَّ فيه فإنه يُعدُّ منكراً، هذا الذي عندي في حاله والله أعلم»^(٢)، أما على ابن المديني فقد قال: «إنه لَيَبِين - بفتح اللام والياء - في حديثه الصدق. يقول مرة: حدثني أبو الزناد، ومرة: ذكر أبو الزناد. ويقول: حدثني سفيان بن سعيد، عن سالم أبي النضر، وهو من أروى الناس عن أبي النضر. ويقول: حدثني ابن دينار، عن عمرو بن شعيب.. وهو من أروى الناس عن عمرو، ولم أجده له سوى حديثين منكبين»^(٣).

وقد أسس ابن إسحاق مدرسة في علم السيرة تكاد تكون مستقلة في منهجها عن مدرسة أهل الحديث، وكان من أتباعها الواقدي، وابن سعد، وغيرهما، وسنأتي على دراسة مناهجهم في الفصل القادم.

السيرة في مدرسة علماء الحديث:

أما مدرسة علماء الحديث فقد استمرت عنايتها بالسيرة النبوية سواء بالتأليف المستقل، أو بتخصيص بعض الأبواب في المسانيد، والجوامع، والسنن، للسيرة النبوية والشمائل والدلائل والمغازي وأحاديث الجهاد ومناقب الصحابة وفضائلهم.

= يكتب عن أحد، ولا يتورع سامحه الله ٤٩/٧ - ٥٠.

(١) المصدر السابق ٣٩/٧. (٢) المصدر نفسه ٤١/٧.

(٣) المصدر نفسه ٥١/٧.

ولقد لقيت السيرة النبوية في هذه الكتب العناية الكثيرة من النقد والتحقيق لأنها نقلت بالأسانيد وخضعت لموازن الجرح والتعديل، وعُرفت أحوال الرجال الذين رووها، ففي الصحيحين كتب مستقلة للمغازي والسير والفضائل عدا الأخبار المنثورة في مختلف الموضوعات والأبواب المرتبة على الأحكام الفقهية خاصة باب الجهاد وأحكامه.

وفي غيرهما من كتب السنن مثل سنن الترمذي، وأبي داود، وابن ماجه، والنسائي، ومستدرك الحاكم، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، ومصنف عبد الرزاق، ومسند أحمد، وموطأ مالك، ومسند عبد بن حميد، والحميدي، والطيالسي، والسنن الكبرى للبيهقي، ومعجم الطبراني، وغيرها من دواوين السنة؛ فإنه لا يخلو كتاب من هذه المدونات الحديثية من أخبار السيرة والمغازي، وما يلحق بها من تاريخ الخلافة الراشدة، والفتن والحوادث العظام التي أخبر عنها الرسول ﷺ.

وقد أفردت هذه المدرسة السيرة والمغازي النبوية بمؤلفات مستقلة شملت كافة جوانب حياة الرسول ﷺ فهناك كتب في المغازي وأخرى في المعجزات ودلائل النبوة وكتب في الشمائل النبوية.

فمن الذين أفردوا المغازي بمصنفات مستقلة:

سليمان التيمي (ت ١٤٣هـ):

هو سليمان بن طرخان التيمي أبو المعتمر البصري المتوفى سنة ١٤٣هـ عن سبع وتسعين سنة روى عن أنس بن مالك وطاوس وأبي إسحاق السبيعي وأبي عثمان النهدي والأعمش وهو من أقرانه، وثابت البناني وأبي مجلز وغيرهم، وعنه ابنه معتمر، وشعبة، والسفيانيان، وابن عُلَيَّة، وابن المبارك، وأبو عاصم النبيل^(١).

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٠١/٤ - ٢٠٢.

وقد أخرج له الجماعة وهو من رجال الجرح والتعديل الذين يقبل قولهم في نقد الرجال^(١)، وكان كثير الحديث ومن العبّاد المجتهدين^(٢). وقد جمع أخبار السيرة وأفردتها بمصنف رواه عنه ابنه معتمر^(٣) وروى هذه السيرة عن معتمر، محمد بن عبد الأعلى^(٤) وقد صرح بذلك الحافظ ابن حجر - ويبدو أنها كانت تحت يده ينقل عنها - فقال: «وقع في السيرة التي جمعها سليمان التيمي فرواها محمد بن عبد الأعلى، عن ولده معتمر بن سليمان، عن أبيه، أن جبريل أتى النبي ﷺ في حراء وأقرأه ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ...﴾ [العلق: ١]»^(٥).

وقد ذكر هذه السيرة أبو بكر بن خير الأشبيلي في فهرسته^(٦) فقد كانت ضمن مرويّاته وساق سنده بها إلى مؤلفها. كما ذكرها أبو القاسم السهيلي ونقل عنها في الروض الأنف^(٧). ويظهر أن نسخة المغازي كانت تحت يدي السهيلي فقد كان يقارن بينها وبين كل من مغازي موسى بن عقبة، ومغازي ابن إسحاق. كما أشار لهذه المغازي الحافظ السخاوي^(٨).

(١) المصدر السابق ٤٥/٩. (٢) المصدر السابق ٢٠٢/٤.

(٣) معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي، البصري، روى عن أبيه، وحמיד الطويل وغيرهم، وروى عنه الثوري وابن المبارك وابن مهدي وعبد الرزاق. وقد أخرج له الجماعة. قال ابن سعد: كان ثقة وُلد سنة مائة ومات سنة سبع وثمانين ومائة. انظر: تهذيب التهذيب ٢٢٧/١٠.

(٤) محمد بن عبد الأعلى الصنعاني القيسي أبو عبد الله البصري، روى عن معتمر بن سليمان وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدي، وروى عنه مسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي. قال ابن حبان: ثقة. وقال أبو زرعة وأبو حاتم: ثقة، مات بالبصرة سنة ٢٤٥هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٢٨٩/٩.

(٥) فتح الباري ٢٣/١، وانظر كذلك ٤٩٨/٧، ٧١٠/٨.

(٦) الإشبيلي، فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٢٣١.

(٧) انظر: ٢٧١/١، ٢٧٣، ٤٨/٢، ٥٣.

(٨) الإعلان بالتويخ ص ٨٩.

ويعتبر كل من الزهري ومحمد بن إسحاق من أقران التيمي ومع ذلك فإنه لم يرو عن أحد منهما، أما ابن إسحاق فإنه لم يرتضه، بل كذبه^(١). وأما الزهري فلم يذكر الذهبي^(٢) ولا ابن حجر^(٣) أنه من شيوخه. وهذا يدل كما يقول الدكتور فاروق حمادة^(٤) على أن مخرج السيرة النبوية لم يكن واحداً وإنما وصلت إلينا من مصادر متعددة موثوقة من غير طريق ابن إسحاق، والواقدي، وأضرابهم من الذين ورد القدح في عدالتهم.

أبو معشر السندي (ت ١٧٠هـ):

الإمام المحدث صاحب المغازي نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني أبو معشر^(٥). وكان يعاصر ابن إسحاق ولكنه تأخر عنه في الوفاة إلى سنة ١٧٠هـ وقد ذكره ابن سعد في الطبقة السادسة من التابعين من أهل المدينة وقال فيه: «مات ببغداد سنة سبعين ومائة، كان كثير الحديث ضعيفاً»^(٦)، وقيل: كان أمياً^(٧) إلا أنه حفظ المغازي والسير وأخبار الناس فقد حدث عنه ابنه محمد بن أبي معشر بالمغازي له^(٨)، وقال ابن

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٩/٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/١٩٦.

(٣) تهذيب التهذيب ٤/٢٠١.

(٤) مصادر السيرة النبوية وتقويمها ص ٦١.

(٥) انظر ترجمته في: الجرح والتعديل ٨/٤٩٣، والفهرست ص ١٠٥، وتذكرة الحفاظ ١/٢٣٤، وميزان الاعتدال ٤/٢٤٦، وسير أعلام النبلاء ٧/٤٣٥، وتهذيب التهذيب ١٠/٤١٩.

(٦) انظر: الطبقات ٥/٤١٨.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٧/٤٢٧، ٤٣٩؛ وابن حجر، تهذيب التهذيب ١/٤٢٢.

(٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٧/٤٣٦.

أبي حاتم: سمعت أبي وذكر مغازي أبي معشر فقال: كان أحمد بن حنبل يرضاه ويقول: كان بصيراً بالمغازي^(١)، ونجد رواياته كثيرة عند الواقدي^(٢) والطبري^(٣) وهي لا تقتصر على مغازي رسول الله ﷺ وسيرته بل تشمل أحداث التاريخ الإسلامي حتى وفاته في سنة سبعين ومائة من الهجرة. وكان يهتم بسنوات الوفاة للخلفاء ومددهم، ومن أقام الحج للناس في كل عام. وإذا صح الخبر عنه بأنه كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة كما يحكي ابنه فإنه ربما اتخذه كاتباً يدون له ما يبلغه من الأخبار ولعله ابنه محمد هذا، وهو أمر لا يستغرب فإن أبا معشر كان من الحفاظ فقد ترجمه الذهبي في تذكرة الحفاظ كما ترجمه السيوطي في طبقات الحفاظ. وذكر صاحب الفهرست أن له كتاباً في المغازي^(٤). وهذه المغازي غير موجودة اليوم - فيما نعلم -، لكن معظمها موجود مفرق في بعض الكتب وخاصة مغازي الواقدي، وتاريخ الطبري.

أما عدالة أبي معشر فقد قال عنه الحافظ ابن حجر: «ضعيف، أسنَّ واختلط»^(٥) وقال عنه أبو حاتم: «صدوق»^(٦). وقال أبو زرعة:

(١) الجرح والتعديل ٤٩٤/٨.

(٢) يروي عنه الواقدي في مغازيه، ويذكره دائماً ضمن رواته الذين يصدر بهم الخبر عند الحديث عن الغزوات.

انظر مثلاً ص ١، ١٩، ١٤٩، ١٥٢، ١٩٩، ٣٤٦، ٣٨٤، ٤٠٤، ٤٤١، ٦٣٣، ٨٨٥، ٩٢٢.

(٣) روى عنه الطبري في تاريخه في أكثر من مائة موضع تشمل أحداثاً متفرقة غالبها في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي. انظر منها: ١/٤٤، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٣/١٢٣، ٢٤٠، ٣١٣، ٤٢٠، ٤/٦٠، ٩٦، ١٠٤، ١١٤، ١٤٦، ٦/٢٠٩، ٤١٧ - ٤١٩، ٨/١٢٣، ١٧١، ٢١٣.

(٤) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٥.

(٥) تقريب التهذيب ٢/٢٩٨.

(٦) الجرح والتعديل ٨/٤٩٥.

«صدوق في الحديث وليس بالقوي»^(١).

وقال ابن مهدي: «أبو معشر تعرف وتنكر»^(٢) وقال البخاري: «منكر الحديث»^(٣)، وقال أبو داود والنسائي: «ضعيف»^(٤)، وقال ابن معين: «هو ضعيف يكتب من حديثه الرقاق»^(٥).

أبو إسحاق الفزاري (ت ١٨٥هـ):

هو إبراهيم بن محمد أبو إسحاق الفزاري، الإمام الثقة صاحب التصانيف، فقد روى عن حميد الطويل وأبي إسحاق السبيعي والأعمش وموسى بن عقبة ومالك وشعبة والثوري، وروى عنه الأوزاعي وهو من شيوخه وابن المبارك ومحمد بن كثير المصيصي^(٦). وقد وثقه الأئمة وكان ثقة صالحاً صاحب سنة، وهو الذي أدب أهل الثغر وعلمهم السنة وكان يأمر وينهى، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه. وكان كثير الحديث وله فقه. وقال الخليلي: أبو إسحاق إمام يقتدى به وهو صاحب كتاب السير نظر فيه الشافعي وأملى كتاباً على ترتيبه ورضيه. وقال الحميدي: «قال لي الشافعي: لم يصنف أحد في السير مثله»^(٧).

مات سنة ١٨٥هـ^(٨) وقال البخاري سنة ١٨٦هـ^(٩). وقد بقيت هذه السيرة حتى أعصر متأخرة، فقد رواها ابن خير الأشبيلي في فهرسته عن شيوخه^(١٠). وذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح^(١١). ويوجد جزءان من

(١) المصدر نفسه.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٣٦/٧. (٣) المصدر نفسه ٤٣٧/٧.

(٤) المصدر نفسه. (٥) المصدر نفسه.

(٦) انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٥١/١.

(٧) المصدر السابق ١٥٢/١. (٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٩) التاريخ الصغير ٢٣٨/٢. (١٠) انظر: فهرست ابن خير ص ٢٣٦.

(١١) انظر: فتح الباري ٢٢/١، ٧٧/٦.

هذا الكتاب في مكتبة القرويين بالمغرب^(١).

الوليد بن مسلم الأموي (ت ١٩٥هـ):

هو أبو العباس الوليد بن مسلم الأموي الإمام الحافظ ولد سنة ١١٩هـ وتوفي في المحرم سنة ١٩٥هـ^(٢) روى عن صفوان بن عمرو، والأوزاعي وابن جريج وابن عجلان وابن أبي ذئب والثوري وخلق غيرهم، وروى عنه الليث بن سعد وهو من شيوخه والحميدي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ومحمد بن عائذ وابن المديني وغيرهم^(٣). صنف التصانيف وعني بهذا الشأن أتم عناية وقالوا: إن تصانيفه بلغت سبعين كتاباً. قال أحمد: ما رأيت في الشاميين أعقل منه، وكان من أحفظ الناس للأحاديث الطوال والملاحم^(٤). وقال أبو زرعة الرازي: كان الوليد أعلم من وكيع بأمر المغازي^(٥). قال الذهبي: «كان من أوعية العلم ثقة حافظاً لكن رديء التدليس فإذا قال: حدثنا فهو حجة»^(٦). وقال في تذكرة الحفاظ: «قلت: لا نزاع في حفظه وعلمه وإنما الرجل مدلس فلا يحتج به إلا إذا صرح بالسماع»^(٧).

وقد خرج حديثه الجماعة. وذكر كتابه في السير غير واحد من

(١) فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها ص ٦٢. قلت: وتوجد صورة عن هذه النسخة في مكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة، وهي على رق قديم وبخط صعب القراءة، وقد نشرها د. فاروق حمادة سنة ١٤٠٨هـ عن دار الرسالة في بيروت.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢١٣/٩، وانظر: التذكرة ٣٠٤/١.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١١/١٥١ - ١٥٢، وانظر: سير أعلام النبلاء ٩/٢١٢.

(٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣٠٣/١. (٥) تهذيب التهذيب ١١/١٥٣.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء ٩/٢١٢.

(٧) تذكرة الحفاظ ٣٠٤/١.

العلماء فذكره ابن النديم في الفهرست^(١) وقال ابن خير الأشبيلي: «كتاب سير الوليد بن مسلم عن الأوزاعي حدثني به أبو محمد بن عتاب وساق سنده، أخبرنا أبو العباس الوليد بن محمد^(٢) بن مسلم قال: سألت أبا عمرو الأوزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣). وذكره أيضاً الحافظ السخاوي في الإعلان بالتوبيخ^(٤) ويظهر أن أكثر الأحاديث الواردة فيها هي من روايته عن الأوزاعي، ومن المعروف أن الأوزاعي قد كتب كتاباً في السير^(٥) ولكن من خلال بعض النصوص التي ذكرها ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر يتبين أن الوليد بن مسلم يروي في السير من غير طريق الأوزاعي، وقد روى عنه هذه السيرة محمد بن عائذ القرشي صاحب المغازي^(٦) وهو من تلاميذه.

عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١هـ):

هو عبد الرزاق بن همام الصنعاني الإمام صاحب التصانيف رحل

(١) انظر: الفهرست ص ١٢٢، ٢٨٤. (٢) يظهر أن محمد هنا زائدة.

(٣) فهرست ابن خير ص ٢٣٦ - ٢٣٧. (٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٨٨.

(٥) كتب الإمام الأوزاعي كتاباً في السير - وَيَعْنُونُ بهذا الاسم «السير» أحكام الجهاد وسيرة رسول الله وصحابته مع غير المسلمين - وكان الأوزاعي صاحب غزو وجهاد، وقيل: إنه لما وقع في يده كتاب السير الصغير لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، قال: لمن هذا الكتاب؟ فقالوا: لمحمد العراقي، فقال: ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب، فإنه لا علم لهم بالسير، ومغازي رسول الله وأصحابه إنما كانت من جانب الحجاز والشام دون العراق فإنها محدثة فتحاً، فلما بلغت مقالته أهل العراق رَدَّ عليه أبو يوسف القاضي بكتابه المعروف بالرد على سير الأوزاعي، وهذا الرد مطبوع. أما محمد بن الحسن الشيباني فقد فَرَّغَ نفسه للتأليف في السير وأحكام الجهاد من خلال السيرة النبوية وعمل الصحابة، فصنَّف كتابه المعروف بـ«السير الكبير» وقد شرحه الفقيه الحنفي محمد بن أحمد السرخسي، وهذا الشرح مطبوع في خمسة مجلدات كبيرة بعناية معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

(٦) انظر: عيون الأثر ٢/ ٢٠، ٩٥، ١١٧.

في طلب العلم، روى عن ابن جريج ومعمّر فأكثر عنه، والأوزاعي وسفيان الثوري، وروى عنه الأئمة أحمد بن حنبل، وإسحاق، وابن معين، والذهلي، وعلي بن المديني، وأحمد بن صالح المصري^(١). ولد سنة ١٢٦هـ وتوفي سنة ٣١١هـ عن ٨٥ سنة^(٢) وعمي في آخر عمره ولقن ما ليس في كتبه، ونقم عليه التشيع وما كان يغلو فيه^(٣) قال أحمد بن حنبل: أتينا عبد الرزاق قبل المائتين وهو صحيح البصر ومن سمع منه بعدما ذهب بصره فهو ضعيف السماع^(٤). وحديث عبد الرزاق مخرج في الصحيحين.

له من المؤلفات كتاب المصنف مطبوع وله كتاب في المغازي ذكره ابن خير في مرويّاته^(٥) والسخاوي في الإعلان بالتبويخ^(٦). وكتاب المغازي في مصنف عبد الرزاق يغطي جُلَّ أحداث السيرة النبوية، وغالب رواياته عن مَعْمَر عن الزهري^(٧) والذي يبدو أن دور عبد الرزاق في السيرة هو مجرد الرواية عن شيخه معمّر بن راشد.

محمد بن عائذ القرشي (ت ٢٣٣هـ):

محمد بن عائذ القرشي الدمشقي الإمام المؤرخ صاحب المغازي. تولى ديوان الخراج بالشام أيام المأمون^(٨)، وكانت ولادته سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ٢٣٣ وقيل أربع وثلاثين^(٩). وقد اعتنى بالمغازي وجمعها

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٦٤ - ٥٦٥.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦٤. (٣) المصدر السابق ١/ ٣٦٤.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٦٥.

(٥) فهرست أبي بكر بن خير ص ٢٣٦.

(٦) ص ٨٨.

(٧) ذكرنا في ترجمة الزهري أن الدكتور سهيل زكار قد سلخ هذا القسم وطبعه في كتاب باسم: المغازي النبوية من تصنيف الإمام الزهري.

(٨) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٠٥. (٩) المصدر السابق ١١/ ١٠٦.

حتى لقب بصاحب المغازي^(١) قال الذهبي: «جمع كتاب المغازي وسمعت معظمه. وله كتاب الفتوح، والطوائف»، ونجد ابن سيد الناس^(٢) وابن كثير^(٣) وابن حجر^(٤) يكتشرون النقل عن مغازيه، وقد سمعها الذهبي كما صرح آنفاً، وكذلك ابن سيد الناس ساق سنده بها في آخر كتابه^(٥) وأغلب رواياته عند ابن سيد الناس عن طريق الوليد بن مسلم عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير، والوليد من شيوخه فكأنه تلقى المغازي منه، وقد ذكرها السخاوي^(٦). أما عن عدالته فقد وثقه غير واحد من العلماء وقد خرج له أبو داود والنسائي في سننهما^(٧).

سعيد بن يحيى الأموي (ت ٢٤٩هـ):

سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان بن العاص الأموي القرشي البغدادي أبو عثمان، روى عن أبيه وعمه محمد ووكيع وابن المبارك، وعنه الجماعة سوى ابن ماجه. توفي سنة ٢٤٩هـ^(٨). كتب في المغازي، وكانت مغازيه معروفة متداولة لدى العلماء حتى القرن التاسع الهجري،

(١) انظر: المصدر السابق. البداية والنهاية ٣١٣/١٠، وتهذيب التهذيب ٢٤١/٩.

(٢) انظر: عيون الأثر ١٠/٢، ٢٠، ١١٧، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٩، ١٦٤.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٣/٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥.

(٤) انظر: فتح الباري ٣٠٢/٧، ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٦.

(٥) عيون الأثر ٢/٤٢٨.

(٦) الإعلان بالتبويخ ص ٨٨.

(٧) انظر ترجمته في: الميزان ٥٨٩/٢، وسير أعلام النبلاء ١٠٤/١١ - ١٠٦، وتهذيب التهذيب ٢٤١/٩ - ٢٤٢.

(٨) تهذيب التهذيب ٩٧/٤ - ٩٨.

رواها ابن خير الأشبيلي عن شيوخه^(١) وذكرها الذهبي^(٢) وكذلك السخاوي في الإعلان بالتوبيخ^(٣)، ونقل عنها ابن جرير الطبري في تاريخه^(٤) وابن كثير في البداية والنهاية^(٥) وفي التفسير^(٦)، وقد تكون هذه المغازي هي التي تلقاها من والده يحيى بن سعيد، ولذلك نسبها إليه ابن عبد البر في كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير^(٧)، والكتاني في الرسالة المستطرفة^(٨) وكان والده قد تلقى المغازي من ابن إسحاق وزاد فيها^(٩).

وقد كتب في السيرة النبوية من غير هؤلاء الذين ذكرتهم عدد لا يحصى من العلماء في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، منهم من أفردوها بمؤلف مستقل، ومنهم من جعلها ضمن جامعة ورواياته في الحديث، أو مؤلفاته التاريخية. وسنكتفي بذكر بعض الأسماء التي كان لها مشاركة في رواية السيرة النبوية والتأليف فيها مثل يزيد بن رومان الأسدي^(١٠).

(١) فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٢٣٧.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/٣٢٦. (٣) ص ٨٨.

(٤) انظر ١/٢٤٦، ٢/٣٦٤، ٣/٢٧، ٦٨، ١٦٢، ١٩٤.

(٥) انظر ٣/٥٧، ٢٧٨، ٢٨٢، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٤٣.

(٦) ٢٤٩/٧.

(٧) انظر ص ٢٣٥. وانظر كذلك: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/١٣٢ - ١٣٣.

(٨) انظر ص ١٠٩، وكذلك تاريخ التراث لسزكين ١/٤٦٨.

(٩) الذهبي، العبر ١/٣١٥.

(١٠) يزيد بن رومان الأسدي، ثقة، روى له الجماعة. كان محدثاً ومؤلفاً في

المغازي روى عن عروة والزهرى، وتوجد مقتطفات من مروياته عند الطبري

تبلغ ١٥ موضعاً. انظر: فهرس تاريخ الطبري ١٠/٤٥٦، وترجمته في التهذيب

١١/٣٢٥، وتاريخ التراث ١/٤٥٥.

وداود بن الحصين الأموي^(١)، وعبد الرحمن بن عبد العزيز بن حنيف الأنصاري^(٢)، ويونس بن يزيد الأيلي^(٣)، ويونس بن بكير الشيباني^(٤)، وسعيد بن المغيرة المصيبي^(٥)، وأحمد بن محمد بن أيوب البغدادي الوراق^(٦)، وحجاج بن يوسف بن أبي منيع الرصافي^(٧)، وعبد الرحمن بن عمرو أبو زرعة الدمشقي^(٨)، ومحمد بن صالح بن دينار

- (١) داود بن الحصين، روى له الجماعة، وتوفي سنة ١٣٥هـ. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ١٨١/٣، وتاريخ التراث لفؤاد سزكين ٤٥٦/١ وقد سماه داود بن الحسين، ولعل هذا التصحيف من «المرجم».
- (٢) عبد الرحمن الأنصاري، خرّج له مسلم ووثقه ابن حبان وغيره، وقال ابن سعد: كان كثير الحديث عالماً بالسير، توفي سنة ١٦٢هـ. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ٢٢٠/٦، وانظر: تاريخ التراث ٤٦٥/١.
- (٣) يونس بن يزيد الأيلي، إمام حافظ، روى له الجماعة، توفي سنة ١٥٩هـ. انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ للذهبي ١٦٢/١، وتهذيب التهذيب ٤٥٠/١١. قال السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ص ٨٨، روى عن الزهري مَشَاهِدَ النَّبِيِّ ﷺ.
- (٤) يونس بن بكير الشيباني، شيخ صدوق، وهو أحد رواة السيرة عن ابن إسحاق، وقد لقبه الذهبي في تذكرة الحفاظ بصاحب المغازي ٣٢٦/١، وتوفي سنة ١٩٩هـ.
- (٥) سعيد بن المغيرة الصياد أبو عثمان المصيبي، ثقة، من الطبقة العاشرة، مات في حدود سنة ٢٢٠هـ، روى له النسائي وذكر كتابه في السيرة في عمل اليوم والليلة. وقد حَدَّثَ بالسيرة في قرية المصيصة من قرى الشام. انظر ترجمته في: التهذيب ٨٨/٤، وتقريب التهذيب ٣٠٦/١، ومصادر السيرة النبوية لفاروق حمادة ص ٦٧.
- (٦) أحمد بن محمد أبو جعفر الوراق، وثّقه غير واحد من العلماء، توفي سنة ٢٢٨هـ، وله كتاب في المغازي نقل منه ابن حجر في فتح الباري ٢٦٤/٧. وانظر ترجمته في: التهذيب ٧٠/١، ومصادر السيرة لفاروق حمادة ص ٦٧.
- (٧) حجاج بن أبي منيع. قال عنه في التهذيب ٢٠٧/٢: شيخ ثقة، روى عن جده عن الزهري نسخة. وقد ذكرها السخاوي في الإعلان ص ٨٨.
- (٨) عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان أبو زرعة الدمشقي، إمام ثقة، توفي سنة ٢٨١هـ، =

التمار^(١)، وعبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى الغساني^(٢).

المؤلفات في دلائل النبوة:

ومن الذين أفردوا دلائل النبوة والمعجزات بمؤلفات مستقلة الإمام أبو زرعة الرازي المتوفى سنة ٢٦٤هـ. فقد ألّف كتاباً في دلائل النبوة نقل منه الحافظ بن كثير ووصفه بأنه كتاب جليل^(٣)، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٦٧هـ، فقد ذكّر أن له كتاباً في دلائل النبوة^(٤)، وإبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥هـ^(٥)، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٥هـ^(٦)، وأبو بكر جعفر بن محمد الفريابي المتوفى سنة ٣٠١هـ، ولم يصل إلينا من هذه الكتب شيء فيما نعلم عدا ما ذكره فؤاد سزكين في كتابه تاريخ التراث^(٧) من أن كتاب الفريابي في دلائل النبوة توجد مخطوطة له في

= وله كتاب التاريخ، مطبوع محقق، يلتزم فيه الإسناد، أورد جملة من أحداث السيرة وخلافة الراشدين وأيام بني أمية وطرفاً من خلافة بني العباس، وهو موجز، وبقية كتابه في تاريخ الرجال. انظر لترجمته: طبقات الحنابلة لأبي يعلى ٢٠٥/١، وتهذيب التهذيب ٢٣٦/٦، وسنقدم دراسة عن كتابه التاريخ في الفصل الثالث.

(١) محمد بن صالح التمار، ثقة، روى له الأربعة وهو من أهل المغازي. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ٢٢٥/٩.

(٢) عبد الأعلى بن مسهر الغساني أبو مسهر الدمشقي، روى له الجماعة، وكان عالماً بالمغازي وأمر الناس، توفي سنة ٢١٨هـ. انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ ٣٨١/١، وتهذيب التهذيب ٩٨/٦.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٢٥٩/٤.

(٤) ابن النديم، الفهرست ص ٨٦، وكشف الظنون ٧٦٠/١.

(٥) كشف الظنون ٧٦٠/١.

(٦) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة، وسماه في الرسالة المستطرفة بأعلام النبوة.

(٧) فؤاد سزكين، تاريخ التراث ١٦٤/١.

المكتبة الظاهرية بدمشق في ١٦ ورقة تحت رقم (٢٧ سيرة)^(١) وعليه سماع في عام ٥٧٤هـ. وأقدم ما وصل إلينا من المؤلفات في دلائل النبوة كتابان من القرن الخامس الهجري هما كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٣٠هـ وهو مطبوع، وكتاب دلائل النبوة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، صاحب السنن الكبرى. المتوفى سنة ٤٥٨هـ. وهو أجود من سابقه يقول فيه الإمام الذهبي: «عليك به فإنه كله هدى ونور»^(٢). وقد نشر من كتاب البيهقي جزءان^(٣).

المؤلفات في الشمائل:

أما الشمائل والصفات النبوية، فأقدم من ذكر أنه أفردا بمؤلف مستقل هو أبو البختري وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة الأسدي (ت ٢٢٠هـ) وقد نسب له ابن النديم كتاب صفة النبي ﷺ^(٤).

وأبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٤هـ) الأخباري المعروف ذكر له ابن النديم^(٥) كتاب صفة النبي ﷺ.

وداود بن علي الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠هـ. الذي كتب كتاباً في صفة أخلاق النبي ﷺ^(٦).

ومحمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩هـ وله كتاب في

(١) ذكر الدكتور أكرم ضياء العمري في مناقشته لهذه الرسالة: أن فؤاد سزكين قد وهم في نسبة هذه المخطوطة، والصحيح أنها لمحمد بن يوسف الفريابي المتوفى سنة ٢١٢هـ. انظر ترجمته في: التهذيب ٥٣٥/٩.

(٢) انظر: الكتاني، الرسالة المستطرفة ص ١٠٥.

(٣) نشرته المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، وآخر المنشور هو غزوة بدر. ثم نشر كاملاً في سبعة مجلدات عن دار الكتب العلمية في بيروت.

(٤) انظر: الفهرست ص ١١٢، وانظر ترجمته في: ميزان الاعتدال للذهبي ٣٥٣/٤.

(٥) المصدر السابق ص ١١٣. (٦) المصدر السابق ص ٢٧٢.

الشمائل النبوية مروى بالأسانيد على طريقة المحدثين وهو مطبوع متداول.

ومن هذا الاستعراض للكتابات الأولى في السيرة النبوية، ما كان منها في المغازي أو أخبار البعثة، وما كان في المعجزات والدلائل على نبوة النبي ﷺ، أو في الشمائل والصفات النبوية، يتبين لنا مدى الاهتمام الذي لقيته سيرة المصطفى ﷺ على كافة المستويات الثقافية لأن سيرته الشريفة جزء من سنته، وسنته هي المصدر الثاني للتشريع.

ولقد وصلت إلينا - والله الحمد والمنة - سيرة الرسول ﷺ مروية بالأسانيد المتصلة الجياد من غير طريق الأخباريين والمؤرخين، وبالأخص ما كان متوقفاً على معرفته حكم شرعي، ولم يتفرد أمثال ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، إلا بأمور لا يتوقف على معرفتها شيء من أحكام الشرع مع أن محمد بن إسحاق إمام في المغازي، حسن الحديث، إذا لم يعنعن. وقد جمع الإمام البخاري في صحيحه الذي سماه «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» الكثير من أصول السيرة وقد استطاع شارحه الحافظ ابن حجر العسقلاني بما أوتي من سعة الاطلاع وقوة الحفظ أن يَنْخُلَ كتب المغازي والسير والرجال والتواريخ والمسانيد والسنن ويستخلص أوثق رواياتها ويجمع بينها، وبذلك يكون كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري من أوثق مصادر السيرة النبوية وأشملها. ولا غنى عنه لباحث في تاريخ النبوة والخلافة الراشدة وما كان فيها من الأحداث.

التأليف في التراجم:

لقد صاحب الاهتمام بتدوين السنة النبوية ودراستها الاهتمام بمعرفة نقلتها والبحث في أحوالهم لمعرفة عدالتهم وإمكانية الاحتجاج بما يروونه، ومن المعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم لا يبحث عنهم لغرض الجرح

والتعديل لأنهم كلهم عدول، وإنما يبحث عنهم لأنهم الطبقة الأولى التي حملت السنة عن رسول الله ﷺ وللتأكد من اتصال الأسانيد ومعرفة المرفوع من المرسل إلى غير ذلك من مباحث علم المصطلح، فمعرفتهم تعتبر من ألزم الأمور لمن يشتغل بعلم الحديث^(١).

ولأجل هذا كان الاهتمام بمعرفة الصحابة وتمييزهم عن غيرهم، ثم معرفة الطبقة التي حملت عنهم رواية السنة ثم الذين بعدهم، وهكذا. ومن أوائل الذي صنفوا في تراجم الصحابة:

- محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ) ضمن كتابه الطبقات الكبرى.

- علي بن المديني (ت ٢٢٢هـ) في كتابه معرفة من نزل من الصحابة سائر البلدان^(٢).

- خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ) ضمن كتابه الطبقات.

- محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) في كتابه تاريخ الصحابة^(٣).

- يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ) ضمن كتابه المعرفة والتاريخ.

- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) في كتابه تسمية أصحاب رسول الله ﷺ^(٤).

- محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي المعروف بمطّين (ت ٢٩٧هـ).

(١) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب ١/١.

(٢) الكتاني، الرسالة المستطرفة ص ١٢٧، وانظر: السخاوي، الإعلان بالتبويخ ص ٩٢.

(٤) المصدر السابق.

(٣) السخاوي، الإعلان ص ٩٢.

- محمد بن يحيى بن إبراهيم بن مَنده (ت ٣٠١هـ).
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في كتابه ذيل المذيل
من تاريخ الصحابة والتابعين.
أما الرواة من غير الصحابة فقد أخذ تدوين تراجمهم عدة
اتجاهات، فمنهم من كتب عن الضعفاء والمجروحين^(١). ومنهم من كتب
عن الثقات^(٢) فقط. ومنهم من جمع بينهما^(٣) ومنهم من كتب في معرفة
الكنى^(٤). ومنهم من كتب في تراجم الرواة عن شيخ مُعَيَّن^(٥). ومنهم

(١) من الذين كتبوا في الضعفاء: يحيى بن معين، وعلي بن المديني، وأبو حفص
الفلاس، ومحمد بن عبد الله البرقي، والبخاري في كتابه الضعفاء الكبير
والضعفاء الصغير، وأبو زرعة الرازي، والجوزجاني، والنسائي، والعقيلي.
انظر: أكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنة ص ٨٩ - ٩٠، وقارن
بالسخاوي ص ١٠٩.

(٢) من الذين أفردوا الثقات بكتب مستقلة: أحمد بن عبد الله العجلي (ت ٢٦١هـ)،
وأبو العرب محمد بن أحمد التميمي، وأبو حاتم بن حبان البستي. المصدر
السابق. وقارن بالسخاوي ص ١٠٩.

(٣) ومن الذين جمعوا بينهما: الليث بن سعد (ت ١٧٩هـ)، وعبد الله بن المبارك،
ومحمد بن سعد في الطبقات الكبرى، ويحيى بن معين في كتاب التاريخ، وابن
المديني، وأبو بكر عبد الله بن أبي شيبه، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن
إسماعيل البخاري في كتبه الثلاثة: التاريخ الكبير، والأوسط، والصغير،
ويعقوب بن سفيان الفسوي، وأبو زرعة الدمشقي، وابن ماجه القزويني صاحب
السنن، وابن أبي خيثمة في كتابه التاريخ الكبير. انظر: المصدر السابق
ص ١٠٢ - ١٠٣، وقارن بالسخاوي ص ١١٠.

(٤) اشتهر بعض الرواة بلقبه أو بكنيته، وبعض الأسماء تتفق في الكنى مما يوقع في
لبس فيظن الشخصين شخصاً واحداً، لذلك ظهرت الكتب توضح الكنى، وتوضح
المتفق والمفترق، والمتشابه من الأسماء والكنى، ومن أوائل من ألف في ذلك:
علي بن المديني في كتاب الكنى، وكذلك الإمام أحمد في كتاب الأسماء
والكنى، وأيضاً البخاري ومسلم والنسائي. المصدر السابق ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٥) كما فعل مسلم بن الحجاج حيث صنف في (رجال عروة)، وفي القرن الرابع =

الذي كتب معجم شيوخه^(١). ومنهم من ترجم لرجال العلم والرواية في بلد معين^(٢)، ومن أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع اتسع نطاق علم التراجم فلم يعد مقتصرًا على ذكر الصحابة والمحدثين، وإنما شمل بقية المشتغلين بالعلم على مختلف الحقول العلمية، وتعدى ذلك إلى المشتغلين بالإدارة ووظائف الدولة، وكل من عرف برأي أو مذهب أو حرفة. فظهرت كتب^(٣) في تاريخ الخلفاء وأخرى في تاريخ الوزراء وتراجمهم، وفي تراجم الأمراء، وفي طبقات الفقهاء عامة ثم في طبقات فقهاء كل مذهب من المذاهب الأربعة، وكتب في طبقات القُرَّاء، وفي طبقات الحفاظ، وفي طبقات النحاة، وفي طبقات اللغويين، وطبقات الشعراء، وفي العُباد والصوفية، وفي تراجم القضاة، والأطباء، وفي تراجم أصحاب الفرق مثل الشيعة، والخوارج، والمعتزلة.. وغيرهم. حتى شمل التأليف في التراجم المغنين والحمقى والمغفلين وعقلاء المجانين، والعرجان والعميان وغيرهم من أصحاب العاهات. وإن كان بعض هذه الأنواع لم يظهر إلا في القرن الخامس وما بعد.

= ظهرت مؤلفات في رواة الكتب الستة وخاصة رجال الصحيحين ورجال الموطأ.

- (١) من أول من فعل ذلك: يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ)، وأحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، وأبو يعلى الموصلي (ت ٣٠٧هـ).
- (٢) كتب محمد بن علي بن حمزة الفراهيدي (ت ٢٤٧هـ): كتاب التاريخ في رجال المحدثين بمرور، كما كتب أبو الحسن أحمد بن سيار المروزي (ت ٢٦٨هـ) كتاباً في أخبار مرو، وكذا ابن ماجه القزويني (ت ٢٧٣هـ) في تاريخ قزوين، وأسلم بن سهل الواسطي المعروف ببخشل (ت ٢٨٨هـ) في تاريخ واسط، وأغلب الكتب المنسوبة للمدن تُعنى بتراجم علمائها ورواة الحديث بها ولا تتعرض للخطط ومتابعة الأحداث التاريخية التي مرّت على المدينة إلا نادراً.
- (٣) حول هذه الأنواع من التراجم وأسماء المؤلفات التي كتبت فيها، انظر: السخاوي، الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ، الصفحات ٨٥، ٩٥ - ١٠٨.

- والتأليف في التراجم من الأهمية بمكان للمؤرخ لأنه يحوي أخباراً تاريخية قد تكون نادرة، وقد يجد الباحث في دراسة التراجم ما يسد به الثغرات التي تبقى عادة في المؤلفات التاريخية ولا تتعرض لها، كما أن هذه الأخبار التي تأتي عرضاً تكون عادة أقرب إلى الصواب والخلو من الدس والغرض.

ولكتب التراجم أهمية خاصة في التعريف بالحياة الثقافية للمدن والأقطار التي تناولت تراجم علمائها، كما أنها مهمة لمعرفة الأصول التاريخية ودراستها لما تحويه من التعريف برواة الأخبار وبيان أحوالهم وعقائدهم واتجاهاتهم الفكرية ودوافعهم وأغراضهم. كما تُظهر أهمية خاصة في نوع من الدراسات التاريخية التي ظهرت حديثاً والتي تعنى بعلم «تاريخ التاريخ» لمعرفة الرواد الأوائل في الدراسات التاريخية عند العلماء المسلمين^(١).

وقد أطلق كثير من المؤلفين في علم الرجال على كتبهم اسم «التاريخ»^(٢)، وقد اعتبرت كتبهم في التراجم فرعاً من فروع التاريخ حتى عند العلماء المتأخرين الذين كتبوا، في مفاهيم علم التاريخ وتحديد مجالاته وفوائده وأغراضه من أمثال السخاوي (ت ٩٠٢هـ)^(٣) والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤).

(١) حول أهمية علم الرجال للدراسات التاريخية انظر: أكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنة ٢٠١ وما بعدها.

(٢) أطلق الإمام البخاري على بعض مصنفاته في الرجال اسم التاريخ وهي: التاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ الصغير، كذلك فعل علي بن المديني، وأحمد بن حنبل، وابن أبي خيثمة، وأبو زرعة الدمشقي، وغيرهم.

(٣) اعتبر السخاوي علم التاريخ فناً من فنون الحديث النبوي. انظر: الإعلان ص ٤٤.

(٤) انظر: الشماريخ في علم التاريخ ص ٢٦ حيث جعل من فوائد التاريخ معرفة =

فتوح البلدان:

من المجالات التي شملها التأليف التاريخي في القرون الثلاثة الأولى البحث في فتوح البلدان، وقد ذكرنا في التمهيد للباب الثالث الدوافع والعوامل التي أدت إلى الاهتمام بهذا النوع من الجانب التاريخي.

وبالنظر إلى أسماء الكتب التي ألفت في الفترة موضوع البحث نجد أن من المؤلفين من اهتم بجمع أخبار فتح بلد معين، مثل فتح الأبلّة، فتح بُرقة، فتح الأهواز. ومنهم من جمع أخبار الفتوح في جهة من الجهات، مثل فتوح الشام، فتوح العراق، فتوح خراسان، فتوح مصر وأفريقية.

ومنهم من جمع أخبار فتوح قائد من القواد، مثل فتوح خالد، فتوح قتيبة.

ومنهم من جمع أخبار الفتوح بصفة عامة، مثل كتاب الفتوح الكبير، وكتاب فتوح البلدان.

ومن أوائل الذين ذكر عنهم الاهتمام بتصنيف الكتب في أخبار الفتوح:

- يزيد بن عبيدة بن أبي المهاجر السكوني الدمشقي. له كتاب في الفتوح^(١).

- أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧هـ) له كتاب فتوح العراق وفتوح الشام^(٢).

= وفيات الشيوخ ومواليدهم، والرواة عنهم فيعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين.

(١) انظر: تاريخ أبي زرعة الدمشقي ١/١٧٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٥.

- سيف بن عمر التميمي (ت ١٨٠هـ) صاحب كتاب الفتوح الكبير^(١) والردة.
- عبيد الله بن سعد الزهري. ذكر له صاحب الفهرست كتاب فتوح خالد بن الوليد^(٢).
- إسحاق بن بشر. من أصحاب السير والأحداث ونسب له كتاب الفتوح^(٣).
- محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) له كتاب فتوح الشام، وكتاب فتوح العراق^(٤).
- أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) له كتاب فتوح أرمينية وكتاب فتوح الأهواز^(٥).
- أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٤هـ) الذي كتب العديد من الكتب في الفتوح، منها ما هو شامل، ومنها ما هو على شكل رسائل صغيرة وموضوعات مفردة عن بعض المعارك، أو بعض القادة، ومن كتبه في الفتوح، كتاب فتوح الشام أيام أبي بكر، كتاب فتوح العراق، كتاب فتوح خراسان، كتاب فتوح سجستان، كتاب فتوح مصر، كتاب فتوح الجزيرة، كتاب فتوح جرجان وطبرستان، كتاب فتح الأبله، كتاب فتح برقة، فتح مكران، كتاب خبر سارية بن زنيم، كتاب موادة النوبة^(٦).

(١) المصدر السابق ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦.

(٤) المصدر نفسه ص ١١١، وكتابه عن فتوح الشام، مطبوع متداول، لكنه قد أعيدت صياغته في فترة متأخرة على نسق القصص الشعبي وأدخلت فيه بعض الروايات الأسطورية.

(٥) المصدر السابق ص ٥٩.

(٦) انظر قائمة كتبه في الفتوح في المصدر السابق ص ١١٥، ١١٦ ولكن مع =

- أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي (من أهل القرن الثاني) له كتاب فتوح الشام^(١).
- عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) صاحب كتاب فتوح مصر وأفريقية^(٢).
- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ) صاحب كتاب فتوح البلدان^(٣) وهو من أشمل كتب الفتوح التي وصلت إلينا وأجودها.

كتب الأموال:

- لقد شمل التأليف التاريخي في القرون الثلاثة الأولى البحث في النظم المالية للدولة الإسلامية، وخاصة الموضوعات التي لها علاقة وارتباط بحركة الفتوح، فقام العلماء بتدوين أحكام الخراج، والأموال التي تؤخذ من أهل الذمة، أو أهل العهد، وحكم أموال أهل الحرب، وقد اعتمدوا في ذلك على النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وعلى فتاوى الصحابة، وعلى السوابق التاريخية (السنة العملية) للخلفاء الراشدين عليهم السلام.
- وكان القاضي أبو يوسف (ت ١٨٢هـ) من أول من صنف كتاباً

= الأسف لم يصل إلينا شيء من كتب المدائني رغم كثرتها.

(١) كتاب فتوح الشام للأزدي مطبوع. وانظر عن نسبة الكتاب إليه: ابن حجر، تهذيب التهذيب ٦/٤٢٨، وسوف نترجم للأزدي في فصل تراجم الأخباريين والرواة الآتي.

(٢) انظر: ابن خير الإشبيلي، فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٢٣٨، وقد طبع القسم التاريخي من هذا الكتاب، وسوف تقدم عنه دراسة في الفصل القادم، أما القسم الثاني وهو خاص بتراجم القضاة والمحدثين ومروياتهم، فلا يزال مخطوطاً حسبما قال محقق الكتاب.

(٣) كتابه في فتوح البلدان، معروف ومتداول، ومن أجود طبعاته، الطبعة التي حققها صلاح الدين المنجد.

مستقلاً في أحكام الأموال والذي سماه كتاب الخراج وذلك استجابة لطلب الخليفة العباسي هارون الرشيد^(١).

- يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ) الذي كتاب كتاباً سماه الخراج^(٢).

- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) فقد صنف كتاباً جليلاً سماه الأموال^(٣).

التأليف في الأنساب:

من أنواع التأليف التاريخي في القرون الثلاثة الأولى، التصنيف في الأنساب وتدوينها، وعلم الأنساب من العلوم المعروفة عند العرب في جاهليتهم وقد كانوا يصرفون هذا العلم للمفاخرة، وللمحط من قدر مجهولي النسب، أو من كان في نسبهم قدح - حسبما تعارفوا عليه من قيم وموازين - وقد وجه الإسلام هذا الاهتمام بما يتمشى مع أصوله ومبادئه فجعل من أغراض العناية بالأنساب ومعرفتها، صلة الأرحام، وحفظ الحقوق في الموارث والتركات، فقد جاء في الحديث: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»^(٤) كما جعل من أغراض علم

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف من أشهر الكتب المصنفة في موضوع الخراج وسوف نُقدِّم عنه دراسة في الفصل الآتي.

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم، كتاب معروف مطبوع، ومن أجود طبعاته الطبعة التي حققها الشيخ أحمد محمد شاكر.

(٣) كتاب الأموال لأبي عبيد، مطبوع عدة طبعات وسنقدم عنه دراسة في الفصل القادم.

(٤) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً ٣٥١/٤ وقال عنه: حديث غريب من هذا الوجه. وانظر: صحيح الجامع الصغير ٤٥/٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (٢٧٦) ورقم (٢٧٧).

الأنساب معرفة العاقلة^(١).

وقد صرف الإسلام المفارقة بالنسب التي كانت تحدث بين عرب الجاهلية إلى حب الله ورسوله والافتخار بالإسلام والانتساب إليه، وإلى ما قدم الإنسان من عمل في خدمة أمته، كما وجه غريزة حب الاقتتال والمنافرة إلى حب الاستشهاد في سبيل الله، ثم قرر ميزاناً للتفاضل بين الناس وهو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات ١٣]، وبذلك أحل أخوة الإسلام ورابطة الإيمان محل أخوة النسب ورابطة القبيلة، أو القومية العرقية أو الوطنية الضيقة، كما قرر موازين الولاء والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين، وموازين البغض والبراء لمن حاد الله ورسوله والمؤمنين.

وقد كان تدوين الأنساب والتأليف فيها مدفوعاً باهتمامات وأغراض متعددة، شخصية كانت، أو رسمية، فنجد مثلاً أحد أفراد القبيلة يعمد بدافع شخصي إلى تدوين أنساب قبيلته وفروعها وبعض أخبارها ومشهور رجالاتها وشعرائها، ولقد كان للأحداث الداخلية المبكرة في الدولة الإسلامية وظهور الأحزاب والفرق أثر في عودة العصبية القبلية، كما كان لنظام الإسكان في المدن الجديدة في البصرة والكوفة، والذي تم على الأساس القبلي أثر في المحافظة على العصبية القبلية، وإن كان لا يخلو من الفوائد من ناحية التنظيم العسكري. فكان لهذه العوامل أثرها في علم الأنساب مما يوجب الاحتياط والتثبت في صدق المعلومات التاريخية التي تحويها.

كما كان للاهتمامات الرسمية من قبل الخلافة أثر في التصنيف في

(١) عاقلة الرجل: هم عصبته وقربته من جهة الأب، وهم الذين يتحملون دية من قتله خطأ، وقال أهل العراق: هم أهل الدواوين. اهـ. وهذا يشير إلى أن الدواوين قد سُجِّلَتْ حسب الأنساب والعواقل. انظر: الرازي، مختار الصحاح ص ٤٧٧.

هذا العلم، ومن المعروف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد دون ديوان العطاء على أساس الأنساب^(١). كما أن ديوان الجند قد دون على هذا الأساس، فكان المجاهدون يوزعون في المعارك إلى كتائب ووحدات عسكرية على أساس قبلي^(٢)، لما يحققه مثل هذا التوزيع من تضامن وتآلف وحرص على الثبات والنكابة في العدو.

وقد ساهم مجموعة من الأخباريين في رواية الأنساب وحفظها، وفي التصنيف والكتابة فيها، وكان بعض مؤلفاتهم مقتصرًا على النسب، وبعضها دون التاريخ من خلال الأنساب، أي ترتيب المعلومات التاريخية ترتيباً نسبياً، ومن الذين كانت لهم مشاركة في ذلك:

- دغفل النسابة، وهو من أوائل من اهتم بالأنساب كان حياً أيام معاوية ووفد عليه ويقول ابن النديم: إنه لا مصنف له^(٣).

- صَحَّار بن العباس العبدي، وكان معاصراً لدغفل^(٤).

- محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) الذي وصفه ابن النديم بقوله: «ويتقدم الناس بالعلم بالأنساب»^(٥).

- عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ) قيل: إنه جمع ديوانه العرب

(١) روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ٢٩٥: أن عمر بن الخطاب لما دَوَّن الديوان دعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكان ثلاثتهم من نسابي قريش فقال: اكتبوا الناس على منازلهم فكتبوا، فبدأوا ببني هاشم، ثم بنو تيم رهط أبي بكر، ثم بنو عدي رهط عمر، فلما نظر فيه عمر اعترض وقال: ابدأوا بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ فإذا استوى القوم في القرابة من رسول الله ﷺ قدم أهل السابقة.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية ٦/ ٣٢٥، وانظر: أخبار معركة القادسية في الطبري ٣/ ٥٢٩ - ٥٦٨.

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٢.

(٣) الفهرست ص ١٠١.

(٥) المصدر نفسه ص ١٠٧.

وأشعارها وأنسابها^(١).

- حماد بن سabor بن المبارك (ت ١٥٦هـ)، قال ابن النديم: «ولم نر لحامد كتاباً وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده»^(٢).

- سعيد بن عبد الحكم بن أبي مريم، له كتاب النسب، وكتاب المآثر^(٣).

- خالد بن طليق الخزاعي. ولأه المهدي قضاء البصرة وهو من النسابين^(٤).

- أبو اليقظان النسابة، واسمه سحيم بن حفص (ت ١٩٠هـ) كان أخبارياً نسباً له كتاب خندف، وحلف تميم، وكتاب النسب الكبير^(٥).

- الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) ومن كتبه كتاب المثالب الكبير، وتاريخ الأشراف الكبير^(٦).

- أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) له كتب كثيرة في الأنساب والمثالب^(٧).

- هشام بن محمد بن السائب الكلبي، له كتاب النسب الكبير وله رسائل مفردة في أنساب القبائل^(٨).

- أبو الحسن علي بن محمد المدائني، له كتاب نسب قریش وأخبارها^(٩).

- أبو خالد الغنوي، له كتاب في الأنساب^(١٠).

(١) المصدر نفسه ص ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٩.

(٥) انظر قائمة كتبه في المصدر السابق ص ١١٠.

(٦) المصدر السابق ص ١١٤.

(٧) المصدر نفسه ص ١١٧.

(٨) المصدر نفسه ص ١١٧.

(٩) المصدر نفسه ص ١١٧.

(١٠) المصدر نفسه ص ١١٧.

- محمد بن عبدة العبدي، له كتاب النسب الكبير على مثال كتاب هشام الكلبي.

- علان الشعوبي، من أهل فارس، كان ينسخ للرشيد والمأمون والبرامكة، في بيت الحكمة عمل كتاب الميدان^(١) في مثالب قبائل العرب، وهو يعبر عن الصراع الشعوبي بين العرب والفرس.

- مصعب بن عبد الله الزيري (ت ٢٣٦هـ) له كتاب النسب الكبير وكتاب نسب قريش^(٢) وسوف نقدم دراسة لكتابه «نسب قريش» في الفصل القادم.

- أبو جعفر محمد بن حبيب العالم النسابة (ت ٢٤٥هـ) وله كتب في التاريخ والأنساب واللغة والشعر، منها كتاب المؤتلف والمختلف في النسب، وكتاب المحبر، كتاب العمائر^(٣) وسوف نقدم دراسة عنه وعن كتابه المحبر في الفصل القادم.

أبو عبد الله الزبير بن بكار الزيري (ت ٢٥٦هـ) قاضي مكة، له كتب كثيرة في الأنساب والأخبار والأيام^(٤).

- أحمد بن محمد بن حميد بن حذيفة العدوي المعروف بالجهمي، عاش أيام المتوكل، له كتاب أنساب قريش وأخبارها^(٥)، وكتاب الانتصار في الرد على الشعوبية.

أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ) مؤرخ جغرافي نسابة، له كتاب البلدان، وكتاب الفتوح وكتاب أنساب الأشراف^(٦)، وهو كتاب كبير يجمع بين الأخبار والأنساب، بل لعل أثر الأنساب فيه لا يتعدى كونه اتخذ ذلك وسيلة لترتيب الكتاب، فدون التاريخ على أساس دور الأسر والأفراد ومساهماتهم في ذلك.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٣.

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٣.

(٦) المصدر نفسه ص ١٢٦.

(١) المصدر نفسه ص ١١٨.

(٣) المصدر نفسه ص ١١٩.

(٥) المصدر نفسه ص ١٢٤.

ومن استعراض هذه القائمة لأسماء الذين ساهموا في القرنين الثاني والثالث بالكتابة والتأليف في حقل الأنساب - وهي بالطبع ليست شاملة لكل من ساهموا في هذا الميدان - يتضح لنا كثرة المشتغلين بهذا العلم، وربما يظهر لنا من خلال ذلك أثر الاتجاهات التي صاحبت تدوين الأنساب، مما صبغ ذلك بصبغة لا تخلو من العصبية لقبيلة أو بلد أو نحلة.

تواريخ المدن وخططها:

ومن أنواع الكتابات التاريخية التي ظهرت في هذه الفترة. العناية بتواريخ المدن الإسلامية وتسجيل أخبارها وتراجم علمائها وخططها، وكانت المدينتان، مكة والمدينة، من أول المدن التي اهتم بها المؤرخون، نظراً لأهميتهما الدينية فهما موطن الرسالة، فمكة قبله المسلمين وموطن حجهم لوجود المسجد الحرام بها، والمدينة عاصمتهم الأولى بها مسجد رسول الله ﷺ، الذي شرعت زيارته.

ومن أوائل من أثر عنه التصنيف في تواريخ المدن والأمصار الإسلامية:

- محمد بن الحسن بن زبالة (ت ١٩٩هـ) صنف كتاباً في تاريخ المدينة نقل عنه السهودي في وفاء الوفاء^(١).

- محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) الذي كتب كتاباً سماه أخبار مكة^(٢).

- الهيثم بن عدي الثعلبي (٢٠٧هـ) له كتاب في خطط الكوفة^(٣).

(١) انظر: ٣٩١/١، ٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤١٢، ٤٢٥ وغيرها.

(٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٠١. (٣) المصدر نفسه ص ١١٢.

- أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى (كان حياً سنة ٢٤٤هـ) الذي كتب «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار»^(١).

- محمد بن إسحاق الفاكهي «كان حياً سنة ٢٧٢هـ» كتب كتاباً في تاريخ مكة على منوال الأزرقى ويقول الفاسي^(٢): إنه أجود من كتاب الأزرقى ويغني عنه، وكتاب الأزرقى لا يغني عنه.

- أبو زيد عمر بن شبة النميري (ت ٢٦٢هـ) وهو من المؤرخين الثقات، وقد كتب في تواريخ كثير من المدن الإسلامية. فله كتاب في تاريخ مكة، وآخر في تاريخ الكوفة، وثالث في تاريخ البصرة، ورابع في تاريخ المدينة^(٣).

وكتب ابن شبة في تواريخ المدن، كما يتضح من النقول التي وصلت إلينا في كتب المتأخرين^(٤)، ومن القسم الذي وجد من تاريخ أخبار المدينة^(٥) تُركِّزُ على دراسة الخطط، وتتناول الأحداث التاريخية التي مرت بها المدينة، وليس له كبير عناية بالتراجم.

- أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب المعروف بابن طيفور (ت ٢٨٠هـ) الذي كتب كتاباً في تاريخ بغداد وهو يؤرخ للمدينة تاريخاً

(١) هذا الكتاب مطبوع متداول، وسنقدم دراسة عنه في الفصل القادم.

(٢) انظر: تقي الدين الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٤١١/١، وكتاب الفاكهي توجد له مخطوطة في أوروبا وقد طبع المستشرقون منه الزيادات على الأزرقى ضمن مجموعة تواريخ مكة المكرمة، ثم نشره الشيخ عبد الملك بن دهيش محققاً، وصنع له فهرس مفصلة.

(٣) انظر: ابن النديم، الفهرست ص ١٢٥.

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري ٥٤/١٣.

(٥) وجدت منه نسخة ناقصة، وطبعت بتحقيق فهم شلتوت، على نفقة السيد حبيب المدني.

سياسياً، كما يتضح من القسم الذي وجد من الكتاب^(١)، وربما أنه قد تعرض للخط في أول الكتاب.

- أسلم بن سهل الواسطي المعروف ببخشل (ت ٢٨٨هـ) ألّف كتاباً في تاريخ واسط^(٢)، وهو كتاب تراجم، وركز فيه على رجال الحديث ورواته.

- أبو عبد الله محمد بن يحيى بن منده (ت ٣٠١هـ) كتب تاريخ أصبهان^(٣) وهو كتاب في تراجم المحدثين من أهل أصبهان.

وقد تتابع بعد ذلك ظهور المصنفات في تواريخ المدن الإسلامية، منها ما يركز على دراسة الخطط والأحداث التاريخية بها، ومنها ما يؤرخ للمدينة من خلال تراجم علمائها. وربما كان للمنافسة العلمية بين المدن، والعصبية للأمصار أثر في كثرة تواريخ المدن، والتركيز على تراجم العلماء لأن العلماء هم أهم ما تتميز به المدن المتنافسة^(٤).

وقد استمر التنافس طيلة القرنين الرابع والخامس حيث ظهر كثير من المؤلفات في تواريخ المدن والأمصار، مثل تاريخ الرقة، لمحمد بن سعيد القشيري، الذي أملاه سنة ٣٣٤هـ. وتاريخ مصر، لعبد الرحمن بن يونس (ت ٣٤٧هـ). وطبقات المحدثين بأصبهان، لأبي الشيخ الأنصاري (ت ٣٦٩هـ) وتاريخ داريا، للقاضي عبد الجبار الخولاني (ت ٣٧٠هـ)، كما كتب الحافظ أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) كتاباً سماه «ذكر أخبار

(١) وجد منه الجزء السادس، وهو يتحدث عن بغداد في عهد الخليفة المأمون ويهتم بالأحداث التاريخية دون التراجم والوفيات، وقد نشرته مكتبة المشنى ببغداد سنة ١٣٨٨هـ.

(٢) كتاب تاريخ واسط لبخشل، طبع في العراق سنة ١٣٨٧هـ بتحقيق كوركيس عواد.

(٣) انظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ٢٤/٣.

(٤) انظر: أكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنة ص ١٩٤.

أصبهان»، وكذا أبو عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ) الذي كتب تاريخ نيسابور، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) صاحب تاريخ بغداد، وابن عساكر (ت ٥٥٧هـ) صاحب تاريخ دمشق، وغيرهم.

أخبار الخلافة والأحداث الداخلية:

من الأنواع التي شملها التأليف التاريخي، أخبار الخلافة، سواء كان التأليف يشمل كل الخلفاء حسب ترتيب خلافتهم، أو الاقتصار على أخبار خليفة واحد، أو الخلفاء الراشدين، أو خلفاء بني أمية، أو خلفاء بني العباس، كما شمل التأليف، الأخبار الداخلية في الدولة، مثل الفتن والمعارك التي وقعت بين المسلمين، ومثل أخبار الثورات التي قامت بها الفرق الخارجة على الخلافة، مثل الخوارج، والشيعة الإمامية، والزيدية، والباطنية، أو الثورات التي تزعمها بعض الطامعين في الخلافة، أو كانت استجابة لدوافع عصبية، أو دفعاً لظلم وقع من الخلافة، أو أحد عمالها وولاتها.

وهذه قائمة بمن عرفنا أنهم أسهموا في هذه الموضوعات.

- عوانة بن الحكم الكلبي (ت ١٤٧هـ) بكتابه^(١): سيرة معاوية وبني أمية، والوليد بن يزيد بن عبد الملك.

- أبو مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ) بكتبه^(٢) التي منها: الشورى ومقتل عثمان، مقتل الحسين، كتاب المختار بن أبي عبيد، مقتل عبد الله بن الزبير، كتاب الجمل، كتاب صفين، أهل النهروان، الخوارج، حديث الأزارقة.

- سيف بن عمر التميمي (ت ١٧٠هـ) له كتاب الجمل ومسير عائشة

(١) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٣.

(٢) انظر قائمة كتبه في المصدر السابق ص ١٠٥ - ١٠٦.

وعلي، وكتاب في الردة^(١).

- هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٦هـ) له كتاب أولاد الخلفاء، أمهات الخلفاء، أخبار زياد بن أبيه^(٢).

- محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، وقد أسهم بكتب كثيرة، منها الجمل، صفين، سيرة أبي بكر ووفاته، وضع عمر الدواوين وتصنيف القبائل على أنسابهم^(٣).

- الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) له كتاب تاريخ الخلفاء، الخوارج، أخبار الحسن بن علي^(٤).

- نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٣هـ)، له من الكتب: الجمل، صفين، مقتل حجر بن عدي^(٥).

- خالد بن خدّاش بن عجلان (ت ٢٢٣هـ) له كتاب الأزارقة وحروب المهلب، أخبار آل المهلب^(٦).

- أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٤هـ) أسهم في هذا الموضوع بكتب كثيرة^(٧) بعضها كبير وبعضها على عادته في شكل بحوث ورسائل صغيرة، فمن كتبه: تسمية الخلفاء وكتابهم، تاريخ أعمار الخلفاء، حلي الخلفاء، كتاب الخلفاء الكبير، يحتوي على تاريخ الخلفاء الراشدين وبني أمية وبني العباس حتى المعتصم، كتاب مقتل عثمان، كتاب الردة، كتاب الجمل، كتاب الخوارج، كتاب مرج راهط، كتاب أخبار الحجاج ووفاته.

(١) المصدر السابق ص ١٠٦.

(٢) انظر قائمة كتبه في المصدر السابق ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) انظر قائمة كتبه في المصدر نفسه ص ١١١.

(٤) المصدر السابق ص ١١٢. (٥) المصدر نفسه ص ١٠٦.

(٦) المصدر نفسه ص ١٢١.

(٧) انظر قائمة كتبه في المصدر السابق ص ١١٥.

- خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) له كتاب التاريخ خصصه لتاريخ الخلافة والأحداث التي وقعت في ظلها، وكتابه مطبوع.
- محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) له كتاب تاريخ الخلفاء^(١).
- عمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ) له كتاب مقتل عثمان، أخبار المنصور، كتاب محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن حسن^(٢).
- ابن أبي طيفور، واسمه محمد بن أحمد الجرجاني، له كتاب أبواب الخلفاء^(٣).
- إسماعيل بن عيسى العطار، له كتاب الفتن، كتاب الردة، كتاب الجمل، كتاب صفين^(٤).
- أبو عبد الله محمد بن زكريا الغلابي، له كتاب صفين، الجمل، الحرة، مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كتاب التوابين وعين الوردة^(٥).

التاريخ العام (العالمي):

من الأنواع التي شملها التأليف التاريخي في الفترة موضوع البحث، الكتابة في التاريخ العالمي، أو ما يمكن أن يسمى المؤلفات الجامعة في التاريخ.

لقد أورث هذا الدين للباحثين المسلمين سعة في النظر إلى الكون، وشمولاً في النظرة التاريخية وضرورة الاستفادة من التجارب البشرية على

(١) المصدر نفسه ص ١١٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٥. وقد نقل الطبري أخبار ثورتهما على المنصور - فيما يبدو - من هذا الكتاب. انظر: تاريخ الطبري ٥٥٢/٧ - ٦٠٩، ٦٢٢ - ٦٣٣.

(٣) ابن النديم، الفهرست ص ١٢٢ وقال: إن معنى أبواب الخلفاء، أي الذين يأنسون بهم ويستسرونهم.

(٥) المصدر نفسه ص ١٢١.

(٤) المصدر السابق ص ١٢٢.

مدار التاريخ العالمي، وملاحظة سنن الله الجارية من خلال حركة التاريخ البشري، ولذلك أخذ المؤرخون المسلمون يؤلفون في تاريخ البشرية من مبدئها، ويعتبر ابن إسحاق من الرواد الأوائل الذين كتبوا بهذا الشمول وربما بهذه النظرة أيضاً وذلك بكتبه عن المبتدأ، وعن السيرة النبوية، ثم عن تاريخ الخلفاء إلى عصره.

ولعل من أبرز من كتب في هذا النوع من التأليف - في الفترة موضوع الدراسة - ثلاثة^(١) من المؤرخين المسلمين هم:

- أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ) صاحب كتاب الأخبار الطوال.
- أحمد بن إسحاق بن واضح اليعقوبي (ت حوالي ٢٨٤هـ) له كتاب التاريخ المعروف بتاريخ اليعقوبي.
- محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) بكتابه تاريخ الرسل والملوك، والمشتهر باسم تاريخ الطبري.

وقد شمل التأليف التاريخي بالإضافة إلى ما مضى، التأليف في القصص التاريخية، وأيام العرب في الجاهلية، ولكن غلب على هذا النوع الخيال والأساطير، والاختلاق والوضع، وكان للتعصب للقبيلة أو للموطن أثر على هذه المؤلفات، ويمثل هذا النوع كتاب التيجان في ملوك حمير^(٢) المنسوب لوهب بن منبه (ت ١١٤هـ).

كما شمل التأليف النوادر، والطرائف، والحكايات التي هي في حقيقتها أخبار تاريخية لكنها لا تندرج تحت نوع من الأنواع السابقة. فبعض العلماء جمع نوادر وحكايات فئة محددة، مثل البخلاء الذين جمع الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في أخبارهم ونوادرهم كتاباً سماه كتاب

(١) تحدثنا في فصل مناهج المؤرخين دراسة عن كل واحد منهم وعن كتابه.

(٢) هذا الكتاب طبع مراراً فكان أول طبعاته في الهند سنة ١٣٤٧هـ، ثم طبع في اليمن عن مركز الدراسات اليمنية بصنعاء.

البخلاء^(١). ومثل معلمي الصبيان أو العميان أو المكاريين... ومنهم من جمع طرائف وحكايات مختلف الطوائف مع شيء من الحكمة والأدب، كما جمع ذلك ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتابه «عيون الأخبار»^(٢)، وكما جمع ذلك ابن عبد البر النمري (٤٦٣هـ) في كتابه «بهجة المجالس وأنس المجالس»^(٣).

ومن هذا الاستعراض يتضح لنا تعدد المناحي التي شملها التأليف التاريخي، واتساع نطاق الدراسات التاريخية، فهي لم تكن قاصرة على سرد أخبار الدولة ووقائع المعارك الحربية، كما يتبادر إلى أذهان البعض، فيتصور نتيجة لذلك أن التاريخ عند المسلمين لم يعتن بغير الجانب السياسي والعسكري، وقد ساعد على مثل هذا الوهم واقع الدراسات التاريخية في معاهدنا وجامعاتنا ومناهج تدريسها، غير أن هذا لم يكن مفهوم علماء الصدر الأول للتاريخ. ولعل خير دليل على ذلك أسماء مؤلفاتهم، فهذا الإمام البخاري يكتب ثلاثة كتب في الرجال ويسمّيها، التاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ الصغير. وهذا بحشل الواسطي يسمي كتابه في تراجم العلماء والمحدثين في مدينة واسط بتاريخ واسط، ومثله السهمي صاحب تاريخ جرجان، والحاكم النيسابوري في تاريخ نيسابور.

فقد دون العلماء تاريخ الأمة والمجتمع بكل اتجاهاته ونشاطاته الفكرية والعملية، فكما شمل الفتوح وتاريخ الخلفاء، والأحداث الداخلية، مثل حروب الردة، والفتن التي كانت بين المسلمين، شمل

(١) كتاب مشهور طبع مراراً في مصر وبيروت.

(٢) طبع في أربعة مجلدات في مصر عن دار الكتب وعن المؤسسة المصرية للتأليف.

(٣) طبع بمصر في مجلدين كبيرين في سلسلة تراثنا.

أيضاً تاريخ العلم والعلماء، وطبقات الصحابة والتابعين والقضاة والمحدثين والحفاظ والفقهاء والشعراء والأدباء والأطباء والكتاب والوزراء، وأخبار الرحلات في طلب العلم، وفي التجارة والسياحة، وتواريخ الفرق والمذاهب والملل، وحتى الحكم والنوادر والفكاهات والطرائف والأخبار المتفرقة كان لها نصيبها من الاهتمام؛ وكان قمة هذا التأليف وجامعة التاريخ العالمي الذي يؤرخ للخلقة من بدايتها ويتتبع سِيرَ الأنبياء والأمم القديمة، حتى يأتي للتاريخ الإسلامي فيؤرخ له حسب الترتيب الزمني، سواء على نظام الحوليات، كما فعل الطبري، أو على نظام الموضوعات، كما فعل الدينوري.

تراجيم لبعض الأخباريين والرواة

كان للأخباريين والرواة جهود في توفير المادة العلمية بما دونوا من رسائل وكتب، وإن كان غالبها مفقوداً ولم يبق منها إلا ما نقل عنهم في مؤلفات الآخرين، كما كان لهذه المرويات أيضاً أثر في توجيه الكتابات التاريخية، لما يحمله بعض الرواة من اتجاهات فكرية، ونظرات مذهبية انعكست آثارها على صياغة المرويات، والتركيز على نوع من هذه الأخبار دون نوع.

وبما أن هذا البحث مطلوب إنجازه في زمن محدد، فإنه ليس بالإمكان حصر كل الرواة والأخباريين الذين ساهموا في الكتابة في القرون الثلاثة الأولى، ودراسة مناهجهم، لذا فإننا سنخصص هذا الفصل لتراجيم موجزة لواحد وخمسين من هؤلاء الرواة، ونحاول - في الترجمة - أن نوضح عقائد الرواة، واتجاهاتهم، وأقوال علماء الجرح والتعديل فيهم، لما للاتجاهات والمذاهب الفكرية من أثر على صياغة المرويات بل وصحتها، وسوف نرتب أسماءهم على حسب حروف المعجم لتيسير المراجعة. وقد عدّلنا عن الترتيب التاريخي في إيراد أسماء هؤلاء الرواة والأخباريين، لأننا سبق أن ناقشنا التطور التاريخي للتدوين والتأليف في شتى الموضوعات التاريخية في التمهيد والفصل الأول من هذا الباب، مما أغنى عن ضرورة ترتيبهم وفق زمن الوفيات.

١ - أبان بن عبد الحميد اللاحقي (ت ٢٠٠هـ):

أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي اللاحقي، كان

شاعراً، وقد اهتم بنقل الكتب المنثورة في الأدب الفارسي ونظمها شعراً، ومما نقل: كتاب كليلة ودمنة، وكتاب سيرة أردشير، وكتاب سيرة أنوشروان^(١)، وغيرها، اتصل بالبرامكة وبهارون الرشيد، وله أخبار ومواقف - ذكرها صاحب كتاب الأغاني^(٢) - ليست جيدة ولا تدل على ثقته. فالله أعلم بحاله، ولم أجد له ترجمة في كتب الرجال، وكانت وفاته سنة مائتين للهجرة^(٣).

٢ - إبراهيم بن محمد الثقفي (ت ٢٨٣هـ):

إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي، قال أبو نعيم: كان غالباً في الرفض، وذكره الطوسي في رجال الشيعة^(٤)، وقال: كان زيدياً ثم صار إمامياً، وقد هجره أخوه - علي - وبأينه بسبب الرفض، وله كتب تاريخية منها: كتاب المغازي، وكتاب السقيفة، وكتاب صفين، وكتاب الحكمين، وكتاب مقتل علي، وكتاب مقتل الحسين، وقد أرّخ الطوسي وفاته سنة مائتين وثلاث وثمانين للهجرة^(٥).

٣ - أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ):

هو أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، الأخباري المؤرخ الشيعي، وهو ضعيف عند أهل الحديث^(٦)، وصنف كتاباً في الفتوح إلى أيام الرشيد^(٧)، وكتاباً آخر في التاريخ العباسي من أيام المأمون حتى آخر

(١) ابن النديم، الفهرست ص ١٣٢.

(٢) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني ٥٤/١٢٣ وما بعدها.

(٣) الأتاكبي، النجوم الزاهرة ١٦٧/٢ - ١٦٨.

(٤) انظر ترجمته في: ابن حجر، لسان الميزان ١٠٢/١ - ١٠٣.

(٥) المصدر السابق ١٠٣/١.

(٦) انظر: ياقوت، معجم الأدباء ٢٢٠/٢؛ وابن حجر، لسان الميزان ١٣٨/١.

(٧) هذا كما يقول ابن حجر نقلاً عن ياقوت، وقد سقطت هذه العبارة من مطبوعة =

دولة المقتدر؛ قال ياقوت: يوشك أن يكون هذا ذيلًا على الأول، وقال: قد رأيت الكتابين^(١)، وقد طبع كتاب الفتوح لأول مرة على الحجر في الهند سنة ألف ومائتين وسبعين للهجرة^(٢)، ثم أعيد طبعه في دائرة المعارف العثمانية وصدرت طبعته الأولى سنة ألف وثلاثمائة وخمس وتسعين، وذكر بروكلمان أن وفاته كانت في حدود سنة ثلاثمائة وأربع عشرة^(٣) ولم يوضح مصدره.

٤ - أحمد بن ثابت الرازي (ق ٥٣هـ):

أحمد بن ثابت بن عتاب الرازي المعروف بفرخويه، روى عن عبد الرزاق، وعمر بن عثمان الرقي، وعفان، والنضر بن محمد الجرشي، وسمع منه أبو حاتم الرازي، وأبو جعفر الطبري، قال أبو العباس الطهراني: «كانوا لا يشكون أن فرخويه كذاب»^(٤)، وهو من شيوخ الطبري في التفسير، وفي التاريخ، وأخذ عن طريقه مرويات أبي

= معجم الأدباء. وكتاب الفتوح لابن أعثم طبع في ثمانية أجزاء عن دائرة المعارف العثمانية، ويبدأ الكتاب بذكر خبر السقيفة وبيعة أبي بكر، لكن يوجد فيها سقط ثم يذكر حروب الردة، والفتوح على عهد الراشدين والأحداث الداخلية، والفتوح في العهد الأموي، ويطول في هذا كثيراً لكنه يعرض ذلك من وجهة النظر الشيعية، أما العهد العباسي فيوجز فيه ووصل في كتابه إلى أيام المعتصم وسجل وفاته، ثم يشير في أسطر إلى خلافة المنتصر والمستعين وبذلك ينتهي الكتاب، وكأن كتاب الفتوح قد دمج مع كتاب التاريخ العباسي، وربما وقع سقط في آخر المخطوطة التي اطلع عليها ياقوت.

(١) المصدر السابق.

(٢) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ٥٦/٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٤٤/٢.

معشر^(١)، وأكثر عنه، حيث بلغت مروياته عنه في التاريخ مائة وتسعة^(٢) مواضع.

٥ - أحمد بن زهير بن أبي خيثمة (ت ٢٧٩هـ):

أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب بن شداد المعروف بابن أبي خيثمة، الحافظ الكبير ابن الحافظ، ولد سنة مائتين وخمسة للهجرة^(٣)، سمع أباه، وأبا نعيم، وعفان، وأبا غسان النهدي، وأحمد بن حنبل، وخلقا غيرهم، وهو أوسع دائرة من أبيه^(٤)، قال الخطيب: «كان ثقة، عالماً، متفنناً، بصيراً بأيام الناس، راوية للأدب، أخذ علم الحديث عن: يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل. وعلم النسب عن مصعب الزبيري. وأيام الناس عن: أبي الحسن المدائني. وله كتاب: التاريخ، الذي أحسن تصنيفه وأكثر فائدته»^(٥)، وقال في موضع آخر: «لا أعرف أغزر فوائد من كتاب التاريخ، الذي صنفه ابن أبي خيثمة، وكان لا يرويه إلا على الوجه»^(٦) وذكره الدارقطني فقال: «ثقة مأمون»^(٧) وكانت وفاته سنة مائتين وتسع وسبعين للهجرة^(٨)، وقد كان من مصادر الطبري في كتابه: التاريخ، فقد روى عنه في ثمانية وستين موضعاً^(٩).

(١) انظر - على سبيل المثال -: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠، ٩٦، ١٠٢، ١٠٤، ١١٣، ١١٤. ويروي بهذا الإسناد: حدثني أحمد بن ثابت الرازي قال: حدثت عن إسحاق بن عيسى عن أبي معشر.

(٢) انظر: فهرس تاريخ الطبري ١٠/ ١٦٩.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان ١/ ١٧٤.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٩٣.

(٥) تاريخ بغداد ٤/ ١٦٢، ١٦٣. (٦) المصدر نفسه ٤/ ١٦٣.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٩٣.

(٨) تاريخ بغداد ٤/ ١٦٤.

(٩) ينظر: فهرس تاريخ الطبري ١٠/ ١٧.

٦ - أحمد بن أبي طاهر طيفور (ت ٢٨٠هـ):

أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (طيفور) الكاتب، أحد الشعراء، والبلغاء، والرواة، ومن أهل الفهم المذكورين بالعلم، كان مولده سنة مائتين وأربع للهجرة، وهي السنة التي دخل فيها المأمون بغداد بعد مقتل أخيه الأمين، وذكر له ابن النديم نيفاً وأربعين كتاباً^(١) منها: كتاب بغداد، المصنف في أخبار الخلفاء وأيامهم، طبع منه الجزء السادس^(٢) عن: أيام المأمون، ومن كتبه المطبوعة: كتاب بلاغات النساء، وكانت وفاته سنة مائتين وثمانين للهجرة، وترجم له الخطيب البغدادي في: تاريخ بغداد^(٣) ترجمة موجزة، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وترجم له ياقوت في: معجم الأدباء^(٤)، وذكر له أخباراً ليست جيدة.

٧ - أحمد بن محمد البرقي (ت ٢٧٤هـ):

أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، مؤرخ شيعي، قتل جده في سجن الكوفة بسبب مناصرته لزيد بن علي، فانتقل إلى قُم، واشتغل بالتصنيف في إطار المذهب الشيعي، ومن كتبه^(٥): كتاب التاريخ وأنسب الأمم، وكتاب الجمل، وكتاب بنات النبي ﷺ، وكتاب التبيان في التاريخ، وهذا الكتاب من مصادر المسعودي في كتابه: مروج الذهب^(٦)، وله كتاب الرجال، وقد طبع في طهران سنة ١٣٨٣هـ؛ وقد رتب كتابه على طبقات حسب أصحاب الأئمة الاثني عشر، وختمه بفصل

(١) ينظر: قائمة كتبه في فهرست ابن النديم ص ١٦٣.

(٢) طبعته مكتبة المثنى ببغداد، سنة ١٣٨٨هـ.

(٣) تاريخ بغداد ٤/ ٤١١.

(٤) معجم الأدباء ٤/ ٨٧ وما بعدها.

(٥) انظر قائمة كتبه في الخوانساري: روضات الجنات ١/ ٤٥، ط دار المعرفة

بيروت.

(٦) انظر: مروج الذهب ١/ ١٢.

ذكر فيه أسماء الصحابة الذين زعم أنهم أنكروا خلافة أبي بكر وأرادوها لعلي بن أبي طالب^(١)، وقال الحافظ ابن حجر في: لسان الميزان: ذكره ابن يونس وقال: كذاب، وكان يفهم الحديث^(٢)، وكانت وفاته في حدود سنة مائتين وأربع وسبعين للهجرة.

٨ - أحمد بن محمد الهروي (٢٣٤هـ):

أحمد بن محمد بن ياسين أبو إسحاق الهروي الحداد، صاحب تاريخ هراة، سمع عثمان الدارمي، ومعاذ بن المثنى، قال السلمي: سألت الدارقطني عن أبي إسحاق بن ياسين الهروي فقال: شر من أبي بشر المروزي وكذبهما^(٣)، وقال الإدريسي: كان يحفظ، سمعت أهل بلده يطعنون فيه ولا يرضونه^(٤)، وقال الخليلي: ليس بالقوي، روى نسخاً لا يتابع عليها، وقد كانت وفاته سنة مائتين وأربع وثلاثين للهجرة^(٥).

٩ - إسحاق بن بشر البخاري (٢٠٦هـ):

إسحاق بن بشر البخاري أبو حذيفة، صاحب كتاب المبتدأ والفتوح، وصفين، والجمل، شيعي اتهم بالكذب^(٦)، كذبه علي بن المديني، وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا على جهة التعجب، وقال الدارقطني: كذاب متروك، وقال الذهبي: يروي العظام عن ابن إسحاق وابن جريج والثوري^(٧)، وقال: تفرد الدارابجردي بتوثيق أبي

(١) شاکر مصطفی، التاريخ والمؤرخون ١/ ٢٢١.

(٢) انظر: لسان الميزان ١/ ٢٩٣، واسمه عنده، أحمد بن محمد بن هارون أبو جعفر البرقي.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٩١.

(٤) المصدر نفسه.

(٦) تاريخ بغداد ٦/ ٣٢٦.

(٥) المصدر نفسه.

(٧) ميزان الاعتدال ١/ ١٨٥.

حذيفة فلم يلتفت إليه أحد لأن أبا حذيفة بين الأمر لا يخفى حاله على العميان^(١)، وقد مات ببخارى سنة مائتين وستة للهجرة^(٢)، وله ترجمة في أعيان الشيعة^(٣).

١٠ - أسلم بن سهل الواسطي (ت ٢٩٢هـ):

أسلم بن سهل بن زياد بن حبيب الرزاز أبو الحسن الواسطي، المعروف بـ (بحشل) لینه أبو الحسن الدارقطني^(٤)، وقد ألّف: تاريخ واسط وضبط أسماء أهلها ورتب طبقاتهم. وكان لا مزيد عليه في الحفظ والإتقان^(٥).

وقال السلفي: سألت خميس الحوزي عن بحشل، فقال: إمام ثبت جامع يصلح للصحيح^(٦).

وقال أبو نعيم: كان من كبار الحفاظ العلماء^(٧)، وقيد الذهبي وفاته سنة مائتين واثنين وتسعين للهجرة^(٨)، أما ياقوت فيرى أنها سنة مائتين وثمانية وثمانين قبلها أو بعدها بقليل^(٩)، وكتابه: تاريخ واسط مطبوع متداول.

١١ - إسماعيل بن عيسى العطار (ت ٢٣٢هـ):

أبو إسحاق إسماعيل بن عيسى العطار البغدادي، روى عن إسماعيل بن زكريا الخلقاني، والمسيب بن شريك، وزياد بن عبد الله البكائي، وروى عن أبي حذيفة - المتقدم - كتاب المبتدأ والفتوح^(١٠)،

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال ١٨٥/١ (٢) المصدر نفسه ١٨٦/١.

(٣) أعيان الشيعة ٢٣١/٢ بواسطة تاريخ التراث ٤٦٩/١.

(٤) ابن حجر، لسان الميزان ٣٨٨/١ (٥) ياقوت، معجم الأدباء ١٢٧/٦.

(٦) ابن حجر، لسان الميزان ٣٨٨/١ (٧) المصدر نفسه.

(٨) انظر: تذكرة الحفاظ ٦٦٤/٢ (٩) معجم الأدباء ١٢٧/٦.

(١٠) الخطيب، تاريخ بغداد ٢٦٣/٦.

وله من الكتب غير هذا الكتاب: الردة، وكتاب الجمل، وكتاب الألوية، وكتاب صفين، وكتاب حفر زمزم^(١)، وقد ضعفه الأزدي، ووثقه الخطيب، وابن حبان، وأبو حاتم، وتوفي سنة مائتين واثنين وثلاثين للهجرة^(٢).

١٢ - الحارث بن أبي أسامة (ت ٢٨٢هـ):

الحارث بن محمد بن أبي أسامة التميمي، سمع علي بن عاصم، ويزيد بن هارون، والواقدي، ومحمد بن سعد، كان حافظاً عارفاً بالحديث عالي الإسناد، ووصفه الذهبي بقوله: «صاحب المسند»، وقال: «تكلم فيه بلا حجة»^(٣)، وقال الدارقطني: اختلف فيه، وهو عندي صدوق^(٤)، وقال ابن حزم: ضعيف^(٥)، كما لينه بعض البغاددة لكونه يأخذ أجراً على الرواية^(٦)، ووثقه إبراهيم الحربي والخطيب البغدادي^(٧)، روى عنه الطبري في تاريخه، وأخذ من طريقه مرويات ابن سعد. وكان الحارث قد تتلمذ لابن سعد وروى كتبه، وبلغت مقتبسات الطبري عن ابن سعد من طريقه حوالي مائة وخمس عشرة قطعة^(٨)، توفي سنة مائتين واثنين وثمانين عن ست وتسعين سنة^(٩).

١٣ - أبو حسان الزيادي (ت ٢٤٢هـ):

الحسن بن عثمان بن حماد البغدادي الزيادي أبو حسان، ولد في

(١) انظر: الفهرست ١٢٢.

(٢) ابن حجر، لسان الميزان ٤٢٦/١.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال ٤٤٢/١.

(٤) ابن حجر، لسان الميزان ١٥٧/٢. (٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه. (٧) الخطيب، تاريخ بغداد ٢١٩/٨.

(٨) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٢١٥/١٠.

(٩) الخطيب، تاريخ بغداد ٢١٩/٨.

حدود سنة مائة وستين للهجرة^(١)، وسمع إسماعيل بن جعفر، وإبراهيم بن سعد، وجريير بن عبد الحميد، والوليد بن مسلم، ومحمد بن عمر الواقدي، والهيثم بن عدي، وحدث عنه ابن أبي الدنيا، وإسحاق الحربي، ومحمد الباغندي، تولى قضاء شرقي بغداد في خلافة المتوكل^(٢)، قال الخطيب: كان أبو حسان أحد العلماء الأفاضل ومن أهل المعرفة والثقة والأمانة^(٣)، ووصفه الذهبي بقوله: الإمام العلامة الحافظ مؤرخ العصر قاضي بغداد^(٤)، وقد كانت له خزانة حسنة كبيرة كما يقول ابن النديم، وله من الكتب: معالي عروة بن الزبير، وكتاب طبقات الشعراء^(٥)، وله كتاب التاريخ، وهو تاريخ حسن أمضى زمناً طويلاً في جمع مادته^(٦)، وقد كان من مصادر تاريخ الطبري^(٧) والمسعودي^(٨)، والخطيب البغدادي^(٩) ومات في رجب سنة مائتين واثنين وأربعين للهجرة^(١٠).

١٤ - الحسن بن علي الكوفي (ت ٢٢٤هـ):

الحسن بن علي بن فضال بن عمرو التيمي مولا هم الكوفي أبو

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٩٦/١١.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٩٧/١١.

(٣) تاريخ بغداد ٣٥٦/٧. (٤) سير أعلام النبلاء ٤٩٦/١١.

(٥) انظر: الفهرست ١٢٣.

(٦) يذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤٩٧/١١ عن سليمان الطوسي أنه سمع أبا حسان يقول: أنا أعلم في التاريخ من ستين سنة.

(٧) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٢٢٢/١٠.

(٨) انظر: مروج الذهب ١٣/١.

(٩) أكرم ضياء العمري، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ص ١٣٠.

(١٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٣٦٠/٧ وكذا أرخه الطبري في تاريخه ٦/

بكر. روى عن موسى بن جعفر وابنه علي بن موسى، وإبراهيم بن محمد الأشعري، وروى عنه الفضل بن شاذان وأثنى عليه، ومحمد بن عبد الله التميمي، وابن عقدة وغيرهم، وهو من مصنفي الشيعة، وله كتاب الزيارات والبشارات، والنوادر، وكتاب الابتداء والمبتدأ^(١)، وله كتاب في تراجم الرجال عند الشيعة^(٢)، ومات سنة مائتين وأربع وعشرين للهجرة^(٣).

١٥ - ابن زنجويه (٢٥١هـ):

حميد بن مخلد بن قتيبة الأزدي النسائي، المعروف بابن زنجويه إمام حافظ كبير، كان مولده في حدود سنة مائة وثمانين للهجرة^(٤)، سمع النضر بن شميل، ويزيد بن هارون، ووهب بن جرير، ومحمد بن يوسف الفريابي، وحدث عنه أبو داود، والنسائي، وإبراهيم الحربي، والبخاري ومسلم في غير صحيحيهما^(٥)، وقال النسائي: ثقة، وقال أبو حاتم: «هو الذي أظهر السنة بنسأ»^(٦)، وكان واسع الرحلة، حيث ارتحل في آخر عمره ناشراً لعلمه حتى وصل إلى مصر، ثم خرج فأدركته المنية في سنة إحدى وخمسين ومائتين^(٧)، وله كتاب الترغيب والترهيب، وهو مجموعة أحاديث، وله كتاب في النظام المالي سماه كتاب «الأموال»^(٨). وكان

(١) ابن حجر، لسان الميزان ٢/٢٢٥.

(٢) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص ٥٧٩، طبعة روزنثال.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان ٢/٢٢٥.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٢/١٩ - ٢٠.

(٥) المصدر نفسه ١٢/٢٠. (٦) المصدر نفسه.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٢/٢١.

(٨) لا زال هذا الكتاب مخطوطاً لم ينشر فيما أعلم. قلت: تم نشره من قبل مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية سنة ١٤٠٦هـ. بتحقيق شاکر فياض.

معاصراً لأبي عبيد، الذي ألّف كتاباً بهذا العنوان، وقد أثنى أبو عبيد على ابن زنجويه^(١).

١٦ - الزبير بن بكار الزبيري (ت ٢٥٦هـ):

أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيري المدني المكي، مولده سنة مائة واثنين وسبعين للهجرة^(٢)، تولى قضاء مكة وبقي عليها حتى توفي، وقدم بغداد عدة مرات، وقد سمع سفيان بن عيينة، والنضر بن شميل، وأبا الحسن المدائني، ومحمد بن الحسن بن زبالة^(٣)، وحدث عنه ابن ماجه في سننه، وأبو حاتم الرازي، وأبو بكر بن أبي الدنيا، وأحمد بن يحيى ثعلب^(٤)، قال الدارقطني: ثقة^(٥)، وقال الخطيب، كان ثقة، عالماً بالنسب عارفاً بأخبار المتقدمين وسائر الماضين^(٦)، وصنف كثيراً من الكتب في: الأنساب، والأخبار، ومن أهمها: كتاب نسب قریش وأخبارها^(٧)، وكتاب الموفقيات في الأخبار، ألفه للأمير الموفق بن الخليفة العباسي المتوكل على الله؛ وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم^(٨)، وقد دافع الذهبي في الميزان^(٩)، وابن حجر في تهذيب التهذيب^(١٠)، عن عدالة الزبير بن بكار وردا جرح السليمان له،

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢١/١٢.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٧١٢/١٢.

(٣) البغدادی، تاریخ بغداد ٤٦٧/٨.

(٤) انظر قائمة شيوخه وتلاميذه في: تاريخ بغداد ٤٦٧/٨، وسير أعلام النبلاء ٣١٢/١٢.

(٥) البغدادی، تاریخ بغداد ٤٦٩/٨. (٦) تاريخ بغداد ٤٦٧/٨.

(٧) طبع جزء من هذا الكتاب بتحقيق محمود محمد شاكر.

(٨) انظر: الفهرست ١٢٣. (٩) انظر: ميزان الاعتدال ٦٦/٢.

(١٠) انظر: التهذيب ٣١٣/٣، وقال: هذا جرح مردود، ولعله استنكر إكثاره عن الضعفاء، مثل محمد بن الحسن بن زبالة، وعمر بن أبي بكر المؤملي، =

وكانت وفاته بمكة سنة مائتين وست وخمسين للهجرة^(١).

١٧ - السري بن يحيى التميمي (ق ٥٣هـ):

السري بن يحيى بن السري التميمي الكوفي، روى عنه قبيصة، وأبي غسان، وعثمان بن زفر، قال ابن أبي حاتم: لم يقض لنا السماع منه، وكتب إلينا بشيء من حديثه، وكان صدوقاً^(٢). والسري هذا من أكثر الشيوخ الذين روى عنهم الطبري، حيث روى عنه في تاريخه مائتين وثمان وأربعين قطعة^(٣)، وغالبها بهذا الإسناد: «كتب إلي السري عن شعيب عن سيف»، فكأن السري يروى كتاب الفتوح والردة للأخباري سيف بن عمر التميمي.

١٨ - سليمان بن داود الشاذكوني (ت ٢٣٤هـ):

سليمان بن داود بن بشر المنقري البصري الشاذكوني، روى عن حماد بن زيد، وجعفر بن سليمان، ومعتز بن سليمان وطبقتهم، وحدث عنه أبو قلابة الرقاشي، وإبراهيم بن محمد الأصبهاني، والحسن بن سفيان، وأبو يعلى الموصلي، وكاناً يُدَلِّسُانه ويقولان: حدثنا أبو أيوب المنقري^(٤)، كان له علم بأحوال الرجال ونقدهم حتى ذهب عمرو الناقد، وأحمد بن حنبل ليتعلما منه^(٥). وعلق على هذا الذهبي بقوله:

= وعامر بن صالح الزبيري وغيرهم، فإن في كتاب: النسب عن هؤلاء أشياء كثيرة منكورة.

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٤٧١/٨.

(٢) الجرح والتعديل ٢٨٥/٤.

(٣) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٢٨٥/٤.

(٤) انظر عن شيوخه وتلاميذه: تاريخ بغداد ٤٠/٩، وميزان الاعتدال ٢٠٥/٢، وسير أعلام النبلاء ٦٧٩/١٠.

(٥) سير أعلام النبلاء ٦٧٩/١٠.

«كفى بها مصيبة أن يكون رأساً في نقد الرجال ولا ينقد نفسه»^(١). وكان قد وصفه بقوله: «أحد الهلكى»^(٢)، واتهمه ابن معين وصالح جزرة بالكذب في الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال البخاري: هو أضعف عندي من كل ضعيف^(٣)، وله تاريخ في طبقات أهل العلم ومن نسب منهم إلى مذهب، رواه ابن خير الأشبيلي من طريق ابن عبد البر النمري^(٤)، وكانت وفاته سنة مائتين وأربع وثلاثين للهجرة^(٥).

١٩ - سهل بن هارون الفارسي (ت ٢١٥هـ):

سهل بن هارون بن راهبون أبو محمد الفارسي الأصل، دخل البصرة، واتصل بالمأمون فولاه خزانة بيت الحكمة^(٦)، وكان أديباً شاعراً شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب^(٧)، وكان مشهوراً بالبخل، وله في ذلك أخبار، وله من الكتب كتاب ديوان الرسائل، وكتاب تدبير الملك والسياسة، وكتاب ثعلة وعفراء، على مثال كليلة ودمنة^(٨)، وغيرها، توفي سنة خمس عشرة ومائتين للهجرة^(٩).

٢٠ - سيف بن عمر التميمي (ت حوالي ١٨٠هـ):

سيف بن عمر التميمي البرجمي، ويقال: السعدي الضبي، ويقال: الأسدي، صاحب كتاب الردة والفتوح، روى عن هشام بن عروة، وموسى بن عقبة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ومحمد بن إسحاق،

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٦٧٩/١٠.

(٤) انظر: فهرسة ما رواه ابن خير الإشبيلي عن شيوخه ٢١١.

(٥) البغدادي، تاريخ بغداد ٤٨/٩. (٦) ياقوت، معجم الأدباء ٢٦٦/١١.

(٧) ابن النديم، الفهرست ١٣٣.

(٨) انظر: قائمة كتبه لدى ابن النديم ١٣٤، ومعجم الأدباء ٢٦٧/١١.

(٩) ياقوت، المصدر السابق ٢٦٧/١١.

ومحمد بن السائب الكلبي، وغيرهم^(١)، اعتمده أبو جعفر الطبري في أخبار الفتوح، وذكر رواياته في الفتنة، وقد أكثر عنه بهذا الإسناد: «كتب إلى السري عن شعيب عن سيف بن عمر» أو «حدثني السري عن شعيب، عن سيف بن عمر» ومجموع مروياته في تاريخ الطبري مائتين وست وستين رواية^(٢)، وهو ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ^(٣)، قال أبو حاتم: متروك يشبه حديثه حديث الواقدي^(٤)، وقال ابن معين: ضعيف، وقال النسائي والدارقطني: ضعيف^(٥)، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات، واتهم بالزندقة^(٦)، ولم يرض ابن حجر بهذا الاتهام فقال - في التقريب -: أفحش ابن حبان القول فيه^(٧)، وذكر الذهبي أنه مات زمن الرشيد^(٨).

٢١ - شعيب بن إبراهيم الكوفي:

هو راوية كتب سيف بن عمر التميمي عنه، ذكره ابن عدي وقال: «ليس بالمعروف، وله أحاديث وأخبار، وفيه بعض النكرة، وفيها ما فيه تحامل على السلف»^(٩)، وقال الذهبي في الميزان: «فيه جهالة»^(١٠)، وقال ابن حجر: «في ثقات ابن حبان، شعيب بن إبراهيم من أهل الكوفة يروي عن محمد بن أبان البلخي، وروى عنه يعقوب بن سفيان، فيحتمل

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤/ ٢٩٥.

(٢) انظر: فهارس تاريخ الطبري ١٠/ ٢٨٠.

(٣) ابن حجر، تقريب التهذيب ١/ ٣٤٤.

(٤) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٤/ ٢٧٨.

(٥) انظر: تهذيب التهذيب ٤/ ٢٩٥.

(٦) ابن حبان، المجروحين والضعفاء ١/ ٣٤٥.

(٧) انظر: التقريب ١/ ٣٤٤. (٨) انظر: الميزان ٢/ ٣٥٦.

(٩) ابن حجر، لسان الميزان ٣/ ١٤٥.

(١٠) الذهبي، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٧٥.

أنه هو، والظاهر أنه غيره»^(١)، وقد روى عنه الطبري في تاريخه بواسطة شيخه السري بن يحيى، ومقتبسات الطبري عن طريقه أكثر من خمسين ومائتي مرة^(٢).

٢٢ - أبو اليقظان النسابة (ت ١٧٠هـ)^(٣):

هو عامر بن حفص، المعروف بسحيم، وله أسماء كثيرة أوضحها المدائني بقوله: إذا قلت: حدثنا أبو اليقظان فهو أبو اليقظان، وإذا قلت: سحيم بن حفص، وعامر بن حفص، وعامر بن أبي محمد، وعامر بن الأسود، وسحيم بن الأسود، وعبد الله بن فايد، وأبو إسحاق فهو أبو اليقظان^(٤)، ووصفه ابن النديم بقوله: كان عالماً بالأخبار، والأنساب، والمآثر، والمثالب، ثقة فيما يرويه^(٥)، عاش في البصرة في القرن الثاني الهجري، وله كتب في الأنساب والأخبار^(٦)، واستفاد منها الأخباريون من بعده مثل محمد بن حبيب، وخليفة بن خياط، والبلاذري^(٧)، ولم يكن له عناية برواية الحديث، ولذلك لم يترجم له المحدثون في كتبهم.

(١) ابن حجر، لسان الميزان ٣/ ١٤٥.

(٢) انظر: فهارس تاريخ الطبري ١٠/ ٢٨٤.

(٣) هكذا في الفهرست طبعة طهران المحققة ص ١٠٧. أما في طبعة بيروت المصورة عن المصرية ففيها أن وفاته سنة ١٩٠هـ، وكذا قيده ياقوت في معجم الأدباء ١١/ ١٨٠ نقلاً عن ابن النديم، وقد أشار محقق طبعة طهران (رضا تجدد) في الهامش بأن سنة وفاته في طبعة فلوجل ١٩٠هـ، وهذا يوافق النسخة التي نقل منها ياقوت.

(٤) ابن النديم، الفهرست ١٠٧. (٥) المصدر السابق.

(٦) انظر أسماء كتبه في المصدر السابق وفي: معجم الأدباء ١١/ ١٨٠.

(٧) انظر مقدمة طبقات خليفة بن خياط التي كتبها د. أكرم ضياء العمري عن موارد ابن خياط في: الطبقات ١٥ - ٢٣.

٢٣ - عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٤هـ):

وُلد في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورأى جمعاً من الصحابة، وحدث عنهم، وأخرج حديثه الجماعة^(١)، وكان راوية للشعر، والأخبار، والسير، والأنساب، شديد الحافظة يقول عن نفسه: «ما كتبت سوداء في بيضاء ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته»^(٢)، وقد وقف عبد الله بن عمر على حلقة الشعبي - وهو يحدث بالمغازي - فقال: «لقد شهدتُ القومَ، فَلَهُوَ أَحْفَظُ لَهَا وَأَعْلَمُ بِهَا»^(٣)، قال ابن حجر - في التقريب -: «ثقة مشهور وفقه فاضل»^(٤)، مات بعد المائة، ورجح الذهبي أن وفاته سنة أربع بعد المائة^(٥).

٢٤ - العباس بن بكار الضبي (ت ٢٢٢هـ):

ويُقال له: العباس بن الوليد، بصري النشأة والوفاة، وهو شيعي غالٍ في التشيع، وذكر ابن حجر نماذج من أكاذيبه، منها أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: يا أهل الجمع غضوا أبصاركم عن فاطمة حتى تمر على الصراط^(٦). وكانت ولادته سنة مائة وتسع وعشرين للهجرة، ووفاته سنة اثنتين وعشرين ومائتين للهجرة^(٧)، وله كتاب الوافدين والوافدات على معاوية من أهل الكوفة والبصرة^(٨).

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٦٥/٥.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٦٧/٥. (٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن حجر، تقريب التهذيب ٣٨٧/١.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء ٣١٨/٤. (٦) انظر: لسان الميزان ٢٣٧/٣.

(٧) انظر الزركلي: الأعلام ٢٥٩/٣.

(٨) يوجد منه نسخة في مكتبة الأسكوريال كما يذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٨٣/٣. وقد طبع بتحقيق سكيئة الشهابي عن دار الرسالة عام ١٤٠٤هـ.

٢٥ - عبد الله بن جبلة (ت ٢١٩هـ):

عبد الله بن جبلة بن الحر الكناني، من الشيعة الإمامية، له كتاب في رجال الشيعة، توفي سنة تسع عشرة ومائتين للهجرة^(١).

٢٦ - عبد الله بن عبد الحكم المصري (ت ٢١٤هـ):

عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث أبو محمد المصري المالكي، وُلد سنة خمس وخمسين ومائة للهجرة، سمع الليث بن سعد، ومالك بن أنس، وحدث عنه بنوه: محمد، وسعد، وعبد الرحمن، وعبد الحكم، والربيع بن سليمان، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي^(٢). وثقه أبو زرعة، وقال ابن يونس: كان فقيهاً حسن العقل، وقال العجلي: مصري ثقة^(٣)، وقال الساجي: كذبه يحيى بن معين^(٤)، وقال الذهبي: لم يثبت قول ابن معين: إنه كذاب^(٥). وكانت وفاته سنة أربع عشرة ومائتين للهجرة^(٦)، وذكر له الذهبي كتاب: الأموال، وكتاب فضائل عمر بن عبد العزيز^(٧)، وهذا الكتاب الأخير طبع بعنوان: «سيرة عمر بن عبد العزيز - على ما رواه الإمام مالك وأصحابه»^(٨)، وهي من رواية ابن المؤلف محمد بن عبد الله، وأخبار هذه السيرة غير مسندة وإنما اكتفى المؤلف بإسناد جمعي في أولها، حيث قال: حدثني مالك بن أنس،

(١) انظر عنه: الرجال للنجاشي ص ١٥٠، وقال الذهبي في الميزان ٢/٤٠٠: قال الأزدي: متروك. والزركلي، الأعلام ٤/٧٦، وشاكر مصطفى، التاريخ والمؤرخون ١/٢٠٦.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) انظر هذه الأقوال في المصدر السابق.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٢٨٩.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/٢٢١.

(٦) المصدر السابق ١٠/٢٢٣. (٧) المصدر السابق ١٠/٢٢٢.

(٨) طبع بتحقيق أحمد عبيد عن دار العلم للملايين بيروت، سنة ١٣٤٦هـ.

والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن لهيعة، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وموسى بن صالح، وغيرهم من أهل العلم ممن لهم اسم بجميع ما في هذا الكتاب بأمر عمر بن عبد العزيز على ما سميت ورسمت وفسرت، وكل واحد منهم قد أخبرني بطائفة فجمعت ذلك كله^(١).

٢٧ - أبو بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ):

عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان أبو بكر العبسي الكوفي المعروف بابن أبي شيبة وُلد سنة ١٥٩هـ^(٢) صاحب كتاب المسند المصنف وغيره، روى عنه البخاري ومسلم، وأكثر عنه مسلم فأخرج من طريقه ألفاً وخمس مائة وأربعين حديثاً^(٣) وهو إمام حافظ ثقة ثبت. قال الذهبي: وثقه الجماعة، وما كاد يسلم. وقال أيضاً: «أبو بكر ممن قفز القنطرة وإليه المنتهى في الثقة»^(٤)، وتوفي في المحرم من سنة ٢٣٥هـ^(٥) وذكر له ابن النديم كتاب التاريخ، وصفين، والجمل، والفتوح^(٦).

٢٨ - ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ):

أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي الأموي مولا هم، المعروف بابن أبي الدنيا البغدادي، صاحب التصانيف المشهورة، ومؤدب أولاد الخلفاء، له كتب في المواعظ، ومؤلفات في التاريخ، مثل تاريخ الخلفاء^(٧) والنوادر وأخبار قريش^(٨). قال عنه أبو حاتم: صدوق^(٩)،

(١) انظر ص ٢٢ من الطبعة الخامسة، سنة ١٣٨٧هـ.

(٢) الخطيب، تاريخ بغداد ٦٦/١٠. (٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤/٦.

(٤) انظر: ميزان الاعتدال ٤٩٠/٢.

(٥) الخطيب، المصدر السابق ٧١/١٠.

(٦) انظر: الفهرست ص ٢٨٥. (٧) السخاوي، الإعلان ص ٩٥.

(٨) ابن النديم، الفهرست ص ٢٣٧. (٩) ابن حجر، التهذيب ١٣/٦.

وكانت ولادته سنة ٢٠٨هـ ووفاته سنة ٢٨١هـ^(١).

٢٩ - ابن المقفع (ت ١٤٥هـ):

عبد الله بن المقفع، كاتب مشهور كان مجوسياً فأسلم، ونقل إلى العربية كثيراً من آداب الفرس وكُتِبَ حكمتهم ونُظِمَهُمْ، مثل كلیلة ودمنة، وسیر ملوك العجم، وخداي نامه، وأیین نامه، وكتاب مزدك^(٢). اتهم بالزندقة، وقيل: إنه واضع الرسالة التي عارض بها القرآن^(٣)، وقد ردَّ على هذه الرسالة الإمام الزيدي القاسم بن إبراهيم العلوي المتوفى سنة ٢٤٦هـ^(٤). وقُتل سنة ١٤٥هـ^(٥).

٣٠ - عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ):

عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي المرداسي القرطبي أبو مروان. رحل إلى المشرق ثم رجع إلى الأندلس وقد حصل علماً كثيراً، وسمع في رحلته من عبد الملك بن الماجشون، وإبراهيم بن المنذر، وأسد بن موسى، وغيرهم^(٦).

قال ابن الفرضي: كان عبد الملك بن حبيب نحوياً عروضياً شاعراً حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار، طويل اللسان متصرفاً في فنون العلوم، روى عنه مطرف بن قيس، وبقي بن مخلد، وابن وضاح^(٧). وله

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٣٢.

(٣) انظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ١٠١/٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٠٦/٦؛ وابن كثير، البداية والنهاية ٩٦/١٠.

(٦) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ٢٧٠/٢. وقد أرخ ابن حجر في التهذيب

٣٩٠/٦ رحلته إلى المشرق، سنة ٢٥٨هـ مع أنه سجل وفاته سنة ٢٣٨هـ، ولم

يبد اعتراضاً مما يدل على أن هذا الرقم قد تصحف.

(٧) المصدر نفسه ٢٧٢/١.

مؤلفات في الفقه، والتواريخ، والآداب، منها: الواضحة، وكتاب فضل الصحابة، وغريب الحديث، وحروب الإسلام، وطبقات الفقهاء والتابعين^(١)، وقال أيضاً: لم يكن له علم بالحديث ولا كان يعرف صحيحه من سقيمه^(٢). وقال ابن أبي شيبة: ضعفه غير واحد^(٣).

وقال ابن حجر: وقد أفحش ابن حزم القول فيه ونسبه إلى الكذب، وتعقبه جماعة بأنه لم يسبقه أحد إلى رميّه بالكذب^(٤). وكانت وفاته سنة ٢٣٨هـ^(٥).

٣١ - ابن هشام (ت ٢١٨هـ):

هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي، وقيل: الحميري^(٦). روى سيرة ابن إسحاق عن زياد بن عبد الله البكائي. وقام بتهذيبها، فخفف من الأشعار وزاد فيها ونقص منها، وحرر أماكن واستدرك أشياء، ونسبت السيرة له فيقال: سيرة ابن هشام^(٧). وهو من أئمة اللغة والنحو، كان مقيماً بمصر واجتمع بالشافعي حين ورودها وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً^(٨)، وينسب له كتاب التيجان في ملوك حمير، والصحيح أنه لوهب بن منبه، ولكنه وصل إلينا من طريق ابن هشام. وكانت وفاته سنة ٢١٨هـ^(٩). وليس لابن هشام رواية في الكتب الستة فهو من أهل اللغة والأخبار وليس من أهل الحديث.

(١) المصدر نفسه ١/ ٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن حجر، التهذيب ٦/ ٣٩١.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) ابن الغرضي، تاريخ علماء الأندلس ١/ ٢٧٢؛ وابن حجر، التهذيب ٦/ ٣٩١.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٢٨.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/ ٢٨١.

(٨) السيوطي، حسن المحاضرة ١/ ٥٣١، وانظر المصدرين السابقين.

(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٢٩ وخطأ السهيلي الذي قال: إن وفاته سنة

٣٢ - الأصمعي (ت ٢١٥هـ):

أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، ولد سنة بضع وعشرين ومائة^(١)، لغوي، أخباري، أحد الأعلام الحفاظ، قال عمر بن شبة: سمعت الأصمعي يقول: «أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة»^(٢) وله تصانيف كثيرة في اللغة والأدب والتاريخ وال نوادر^(٣)، وقد فقد أكثرها، ومما بقي من كتبه «كتاب تاريخ ملوك العرب الأولية»^(٤).

قال أبو داود: «صدوق»، وقال ابن معين: «لم يكن ممن يكذب» وقال الأزدي: «ضعيف في الحديث»^(٥) مات سنة ٢١٥هـ وقيل: ٢١٦هـ^(٦).

٣٣ - ابن خرداذبة (ت حوالي ٣٠٠هـ):

أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة، مؤرخ جغرافي، أصله من فارس، تولى البريد والخبر في نواحي الجبل للمعتمد العباسي^(٧) (٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ)، ألف عديداً من الكتب ذكرها ابن النديم^(٨)، وله كتاب في التاريخ بالغ المسعودي في الثناء عليه، وكان من مصادره في كتابه: مروج الذهب^(٩).

قال ابن حجر: كان يأتي في تصانيفه بالغرائب، حتى قال بعضهم

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/١٧٦.

(٢) المصدر نفسه ١٠/١٧٧.

(٣) انظرها في: فهرست ابن النديم ص ٦٠.

(٤) طبع بالعراق سنة ١٣٧٩هـ بتحقيق محمد حسن آل ياسين.

(٥) انظر هذه الأقوال في الذهبي: ميزان الاعتدال ٢/٦٦٢.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/١٨١.

(٧) الزركلي، الأعلام ٤/١٩٠ (٨) انظر: الفهرست ١٦٥.

(٩) انظر: مروج الذهب ١/١٤.

في شيء نقله عنه: كذا زعم ابن خرداذبة، وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وقال: وممن كذبه أبو الفرج الأصبهاني^(١).

٣٤ - عبيد بن شرية الجرهمي (مخضرم):

أخباري راوية، من أهل اليمن، عمر طويلاً، فقد عاش في الجاهلية وأدرك حرب داحس والغبراء^(٢). وبقي إلى أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وقيل: إلى أيام عبد الملك بن مروان، وقد استقدمه معاوية من صنعاء وسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب، وسبب تبلبل الألسنة^(٣) وغير ذلك.

وأمر معاوية كُتِّبَ أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر وأن ينسب ذلك له^(٤)، فكتبوا ما أملاه فكان في كتابين أحدهما في أخبار اليمن وأشعارها، والثاني في الأمثال.

وقد طبع الكتاب الأول في دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٤٧هـ ملحقاً بكتاب «التيجان في ملوك حمير» لوهب بن منبه رواية عبد الملك بن هشام، بعنوان «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها»، والكتاب عبارة عن أسئلة من معاوية وإجابات عبيد بن شرية عليها، وقد أديرت بطريقة حوارية في أسلوب قصصي رائع، يناسب المجالس والمسامرات، ويظهر فيها المبالغة والتهويل^(٥) وإعلاء شأن

(١) انظر: لسان الميزان ٩٧/٤، وهذا على ما في أبي الفرج من الكذب.

(٢) وهب بن منبه، التيجان في ملوك حمير ص ٢١٩.

(٣) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٢. (٤) أخبار عبيد بن شرية ص ٣٢٧.

(٥) ذهب المستشرق الألماني (كرنكو) إلى أن عبيد بن شرية شخص خيالي لا وجود له، واتهم ابن النديم باختراع اسمه، ولكن في الحقيقة أن ابن النديم لم ينفرد بذكره، بل ذكره قبله ابن هشام، في كتاب التيجان ص ٢١٩، وأبو حاتم السجستاني، في كتاب المعمرين، كما أن المسعودي قد نقل عن كتاب عبيد بن =

اليمن، ولذلك لا يمكن اعتباره كتاباً في التاريخ، ولا يوثق بأخباره، ويظهر أنه قد تصرف في صياغته في وقت متأخر، وعلى كل فإنه إذا صح هذا الكتاب فإنه يعتبر أول كتاب وصل إلينا من كتب الأيام والأخبار.

٣٥ - علي بن مجاهد الكابلي (ت بعد ١٨٢هـ):

علي بن مجاهد بن مسلم بن رفيع أبو مجاهد الرازي، المعروف بالكابلي، روى عن محمد بن إسحاق، وأبي معشر، والثوري، وروى عنه جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن عيسى الطباع، وأحمد بن حنبل، سئل عنه ابن معين فقال: كان يضع الحديث، وصنف كتاب المغازي فكان يضع لكل إسناداً^(١)، وقال يحيى بن الضريس: «لم يسمع علي بن مجاهد من ابن إسحاق»^(٢)، وقال أحمد: «كتبنا عنه وما أرى به بأساً»^(٣)، وقال ابن حجر: متروك^(٤)، ولعلي بن مجاهد مرويات عند الطبري بلغ مجموعها خمساً وثلاثين رواية^(٥).

٣٦ - المدائني (ت ٢٢٤هـ):

أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني. أخباري حافظ صنف الكثير من الكتب والرسائل في شتى الحوادث والموضوعات التاريخية^(٦)، قال الذهبي: «كان عجباً في معرفة السير

= شرية، وقد ذكر ابن شرية الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، كما نقل ذلك ياقوت في ترجمة عبيد بن شرية، ولمزيد من المعلومات عن هذه المسألة انظر: فؤاد سزكين: تاريخ التراث ٤١٩/١.

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٧٧/٧ - ٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه ٣٧٨/٨٧. (٣) الخطيب، تاريخ بغداد ١٠٧/١٢.

(٤) ابن حجر، تقريب التهذيب ٤٣/٢.

(٥) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٣٤٣/١٠.

(٦) انظر: قائمة مؤلفاته عند ابن النديم ص ١١٣ - ١١٧.

والمغازي والأنساب وأيام العرب، مصدقاً فيما ينقله، عالي الإسناد^(١). ولد عام ١٣٢هـ ونشأ بالبصرة، وسمع شعبة، وعوانة بن الحكم، وحماد بن سلمة، وطبقتهم، وحدث عنه خليفة بن خياط، والزيبر بن بكار، والحاترث بن أبي أسامة، وأحمد بن أبي خيثمة، وابن شبة^(٢). قال ابن معين: ثقة ثقة ثقة^(٣). وقال أبو العباس النحوي: «من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبي عبيدة، ومن أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني»^(٤). وقال الطبري: «كان عالماً بأيام الناس صدوقاً في ذلك»^(٥)، وذكره ابن عدي في كتاب الكامل في الضعفاء وقال: ليس بالقوي^(٦). وقال ابن حجر: «لم أره في ثقات ابن حبان وهو على شرطه»^(٧). أكثر ابن جرير عنه في تاريخه^(٨) وغالب رواياته أخذها من طريق ابن شبة، وبعضها من كتبه مباشرة، ومات سنة ٢٢٤هـ وقيل: ٢٢٥هـ^(٩). وجعلها الطبري في سنة ٢٢٨هـ^(١٠).

٣٧ - عمارة بن وثيمة (ت ٢٨٩هـ):

هو عمارة بن وثيمة بن موسى أبو رفاعة الفارسي. كان والده وثيمة بن موسى راوية لأخبار الأوائل. وله كتاب في الردة، وآخر في المبتدأ وقصص الأنبياء، وفي هذا الكتاب أحاديث كثيرة موضوعة كما

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/٤٠٠ - ٤٠١.

(٢) الذهبي، المصدر السابق ١/٤٠١. (٣) الخطيب، تاريخ بغداد ١٢/٥٥.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابن حجر، لسان الميزان ٤/٢٥٣. (٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) انظر: فهارس تاريخ الطبري ١/٣٤٤، وقد تكرر ذكره ٢٢٩ مرة.

(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/٤٠٢.

(١٠) تاريخ الطبري ٩/١٢٤.

يقول ابن حجر^(١).

أما ابنه عمارة فقد ألّف كتاباً في التاريخ ورّثه على السنين، ذكره الحافظ ابن كثير في وفيات سنة تسع وثمانين ومائتين وقال: ولد بمصر وحدث عن أبي صالح كاتب الليث وغيره^(٢)، وذكره السيوطي في حسن المحاضرة^(٣).

وقال الزركلي: إن جزءاً من كتابه التاريخ على السنين يوجد ضمن مخطوطات الفاتيكان^(٤).

٣٨ - عمر بن سعد الأسدي (ت حوالي ١٨٠هـ):

عمر بن سعد الأسدي الشيعي، روى عن الأعمش، ومحمد بن إسحاق، وليث بن أبي سليم، وروى عنه أبو سعيد الأشج وغيره، قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه فقال: «شيخ قديم من عتق الشيعة متروك الحديث»^(٥)، وقال الذهبي: «شيعي بغيض»^(٦). أكثر عنه نصر بن مزاحم في كتابه: صفين. وصرح في بعض المواضع بالنقل من كتاب عمر بن سعد^(٧): فربما كان له كتاب في أخبار صفين، كما أخذ عنه أبو الفرج في كتابه: مقاتل الطالبين^(٨).

(١) ابن حجر، لسان الميزان ٢١٧/٦، وانظر: ياقوت معجم الأدباء ٢٤٧/١٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٩٦/١١.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة ٥٥٣/١.

(٤) الزركلي، الأعلام ٣٨/٥.

(٥) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ١١٢/٦.

(٦) الذهبي، ميزان الاعتدال ١٩٩/٣.

(٧) نصر بن مزاحم، كتاب صفين ص ٥٠٨.

(٨) فؤاد سزكين، تاريخ التراث ٤٩٨/١.

٣٩ - أبو حفص عمرو الفلاس (ت ٢٤٩هـ):

عمرو بن علي بن بحر أبو حفص الباهلي البصري الصيرفي الفلاس، إمام حافظ، وُلد سنة نيف وستين ومائة، حدث عنه الأئمة الستة في كتبهم^(١)، قال الدارقطني: أبو حفص من الحفاظ الثقات^(٢)، له كتاب في التاريخ رواه ابن خير الأشبيلي في فهرسته^(٣)، وذكره الذهبي من مصادره في تاريخ الإسلام^(٤). كما ذكره السخاوي^(٥)، وقد روى له ابن خير كتاباً آخر في تضعيف الرجال^(٦)، وتوفي سنة تسع وأربعين ومئتين للهجرة وهو من الرواة في تاريخ الطبري^(٧).

٤٠ - عوانة بن الحكم الكلبي (ت ١٤٧هـ):

عوانة بن الحكم الكلبي، من أهل الكوفة، كان عالماً بالأخبار، والآثار، والشعر، والنسب، وكان فصيحاً ضريراً^(٨) روى عن كثير من التابعين، روى عنه الأصمعي، والهيثم بن عدي^(٩)، وهشام الكلبي^(١٠)، وأكثر عنه المدائني، قال الذهبي: «قُلُّ أن روى حديثاً مسنداً»^(١١)، وقال ابن حجر: كان صدوقاً في نقله^(١٢)، وله كتاب التاريخ، وكتاب سيرة

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٧١/١١.

(٢) الخطيب، تاريخ بغداد ٢١١/١٢. (٣) انظر: فهرست ابن خير ص ٢١٢.

(٤) انظر: التاريخ الكبير الجزء الأول القسم الأول ص ٦٨، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة، ط الهيئة المصرية، عام ١٩٧٥م.

(٥) الإعلان بالتوبيخ ص ٥٢٢، ط روزنثال.

(٦) ابن خير، في فهرسته ص ٢١٢.

(٧) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٣٥٤/١٠.

(٨) الزركلي، الأعلام ٣٨/٥. (٩) انظر: الفهرست ص ١٠٣.

(١٠) ياقوت، معجم الأدباء ١٣٤/١٦.

(١١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٠١/٧.

(١٢) ابن حجر، لسان الميزان ٣٨٦/٤.

معاوية وبني أمية^(١) مات سنة سبع وأربعين ومائة للهجرة، وقيل: سنة ثمان وخمسين ومائة^(٢)، وقيل: كان عثمانياً يضع أخباراً لبني أمية^(٣).

٤١ - عيسى بن داب (من أهل القرن الثاني):

عيسى بن يزيد بن بكر بن داب الليثي المدني، قدم بغداد وأقام بها، وحدث عن صالح بن كيسان، وهشام بن عروة، وابن أبي ذئب، وروى عنه محمد بن سلام الجمحي، وشبابة بن سوار^(٤).

قال الخطيب: «وكان ابن داب راوية عن العرب، وافر الأدب عالماً بالنسب، عارفاً بأيام الناس. حافظاً للسير»^(٥). وكان من أكثر أهل الحجاز أدباً وأعذبهم ألفاظاً، ولذلك حظي عند موسى الهادي وأجازه مرة بثلاثين ألف دينار^(٦)، وقد اتهم ابن داب بالوضع في الأحاديث، قال البخاري: منكر الحديث^(٧)، وقال خلف الأحمر: «آفتنا - بين المشرق والمغرب - ابن داب يضع الحديث بالمدينة، وابن شوكر يضع الحديث بالسند»^(٨)، وقال ابن حجر: «كان إخبارياً علامة نسابة لكن حديثه واه»^(٩).

٤٢ - أبو مخنف (ت ١٥٧هـ):

لوط بن يحيى الأزدي، الكوفي، صاحب تصانيف ورسائل مفردة

(١) الذهبي، المصدر السابق. (٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٠٣.

(٣) المصدر السابق، ومعجم الأدباء ١٦/١٣٦.

(٤) الخطيب، تاريخ بغداد ١١/١٤٨. (٥) المصدر السابق ١١/١٤٨.

(٦) المصدر نفسه ١١/١٥٠.

(٧) ابن حجر، لسان الميزان ٤/٤٠٨.

(٨) الخطيب ١١/١٥٢ وقد نبه ابن حجر في اللسان ٤/٤٠٩ إلى أن قوله: ابن شوكر وهم، وأن المراد شوكر نفسه لا ابنه.

(٩) لسان الميزان ٤/٤٠٨.

في الأحداث الكائنة في صدر الدولة الإسلامية. روى عن جابر الجعفي، ومجالد بن سعيد، وصقعب بن زهير، وطائفة من المجهولين. وعنه عبد الرحمن بن مغراء، وعلي بن محمد المدائني^(١)، قال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء، وقال الدارقطني: ضعيف، وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم، وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا حاتم عنه فنفض يده وقال أحد يسأل عن هذا^(٢). وقد ذكر ابن النديم قائمة بأسماء كتبه تقارب الخمسين كتاباً^(٣). قال أحمد بن الحارث الخزاز: «إن العلماء قالوا: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسير، واشتركوا في فتوح الشام»^(٤). وقال الذهبي في الميزان: «لوط بن يحيى أخباري تالف لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره»^(٥) وقال في سير أعلام النبلاء: «هو من بابة سيف بن عمر التميمي صاحب الردة، وعبد الله بن عياش المتنوف»^(٦)، وعوانة بن الحكم^(٧): أي أن أبا مخنف مثل هؤلاء الأخباريين في اهتمامه وضعفه، وإن كان يزيد عليهم بتشيعه الشديد. وكتب أبي مخنف كانت من المصادر التي أخذ عنها الطبري^(٨)،

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٠١/٧ - ٣٠٢.

(٢) انظر هذا الأقوال في: لسان الميزان ٤٩٢/٤.

(٣) انظر: الفهرست ص ١٠٥ - ١٠٦. (٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) انظر: ميزان الاعتدال ٤١٩/٣.

(٦) انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال ٤٧٠/٢ حيث قال: أخباري صدوق توفي سنة ١٥٨هـ.

(٧) انظر: سير أعلام النبلاء ٣٠٢/٧.

(٨) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٣٨٣/١٠ فقد روى له ٣٤٦ رواية كلها في أحداث وقعت في تاريخ الخلفاء الراشدين والعهد الأموي وقيام الدولة العباسية.

والدينوري، والمسعودي، وغيرهم. وكانت وفاته سنة ١٥٧هـ^(١).

٤٣ - الفاكهي (ت بعد ٢٧٢هـ):

محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي، مؤلف أخبار مكة، وروى فيه عن أبي عمر العدني، وحسين بن حسن المروزي، وغيرهم. ذكره ابن النديم في كتابه ولم يترجم له، واكتفى بذكر كتابه «أخبار مكة»^(٢).

وقد أثنى تقي الدين الفاسي (ت ٨٢٣هـ) على كتاب الفاكهي فقال: «وكتابه في أخبار مكة حسن جداً لكثرة ما فيه من الفوائد النفيسة، وفيه غنية عن كتاب الأزرق، وكتاب الأزرق لا يغني عنه؛ لأنه ذكر فيه أشياء كثيرة حسنة مفيدة جداً، لم يذكرها الأزرق، وأفاد في المعنى الذي ذكر الأزرق أشياء كثيرة لم يفدها الأزرق»^(٣).

وليس للفاكهي ترجمة في كتب العلماء السابقين، وقد تعجب الفاسي من هذا الإهمال له وللأزرق صاحب أخبار مكة. وقال: «إن كتابه يدل على أنه من أهل الفضل»^(٤).

- ولعدم ذكر السابقين له فإنه يعتبر في حكم مستور الحال بالنسبة للجرح والتعديل. وسنة ولادته غير معروفة وكذلك سنة وفاته إلا أنه يُستفاد من خبر ذكره في كتابه أنه كان حياً سنة اثنتين وسبعين ومائتين للهجرة^(٥). وكتابه أخبار مكة طبع خلاصة منه ضمن مجموعة تواريخ مكة التي نشرها المستشرق وستفلد سنة ١٨٥٨م ولم ينشر كاملاً^(٦).

(١) سير أعلام النبلاء ٣٠٢/٧. (٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٢٢.

(٣) الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٤١١/١.

(٤) المصدر نفسه. (٥) المصدر نفسه.

(٦) سبق الإشارة إلى أن عبد الملك بن دهيش قد نشره كاملاً سنة ١٤٠٧هـ بمكة المكرمة.

٤٤ - محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ):

محمد بن السائب بن بشر أبو النضر الكلبي، العلامة الأخباري المفسر، كان رأساً في الأنساب، إلا أنه شيعي متروك الحديث^(١)، وكان يتتبع الآثار ويأخذ من المدونات في كنائس الحيرة. قال ابن حبان: «الناس مجمعون على ترك حديثه، هو ذاهب الحديث لا يشتغل به»^(٢)، وقال النسائي: ليس بثقة ولا يكتب حديثه^(٣)، وقال البخاري تركوه^(٤)، وقال أحمد بن حنبل: تفسير الكلبي كذب لا يحل النظر فيه^(٥).

وقال ابن حبان: «كان سبئياً من أولئك الذين يقولون: إن علياً لم يمت وأنه راجع إلى الدنيا، وإذا رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها»^(٦) وقال أيضاً: «مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه، فهو يروي عن أبي صالح عن ابن عباس، وأبو صالح لم ير ابن عباس، ولا سمع منه، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف، فما رواه الكلبي لا يحل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به؟»^(٧) وكانت وفاة الكلبي سنة ١٤٦هـ، وقد ذكر ابن النديم مصادره في علم الأنساب^(٨).

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٤٨/٦ وقال في ترجمة ابنه هشام في سير أعلام النبلاء ١٠٢/١٠: وكان أبوه مفسراً ولكنه لا يوثق به أيضاً وفيه رفض كابنه.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٨٠/٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الذهبي، ميزان الاعتدال ٥٥٧/٣.

(٥) أبو حاتم بن حبان، المجروحين من المحدثين ٢٥٤/٢.

(٦) الذهبي، ميزان الاعتدال ٥٥٨/٣، وقارن بابن حبان ٢٥٣/٢.

(٧) ابن حبان، المجروحين من المحدثين ٢٥٥/٢.

(٨) الفهرست ١٠٧ - ١٠٨.

٤٥ - أبو إسماعيل الأزدي (ت في القرن الثاني):

أبو إسماعيل، محمد بن عبد الله الأزدي، (صاحب كتاب فتوح الشام) ذكر كتابه منسوباً له ابن خير الأشبيلي، في فهرسته^(١). وكذا المزي، في تهذيب الكمال^(٢)، ولم يترجم له، وكذا الحافظ ابن حجر^(٣)، كما ذكره السخاوي^(٤). وقد كان معاصراً لأبي مخنف لوط بن يحيى، حيث اشتركا في الرواية عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق^(٥)، وفي مخطوطة كتاب الثقات لابن حبان، ترجمة لمحمد بن عبد الله الأزدي من أهل البصرة، روى عن عاصم بن هلال، وعبد الوهاب بن عطاء. حدثنا عنه الحسن بن سفيان أبو يعلى، ربما خالف، وكان من الحفاظ^(٦)، والذي يظهر أن لفظة الأزدي في مخطوطة كتاب الثقات مصحفة من الأرزى بدلالة أن كلاً من الحافظ المزي^(٧)، والذهبي^(٨)، وابن حجر^(٩)، قد نقلوا كلام ابن حبان في ترجمة أبي جعفر محمد بن عبد الله الأرزى، ويقال: الرزي^(١٠). ولم يترجموا لأبي إسماعيل الأزدي، وإنما ذكروه عرضاً. ومما يؤيد هذا أن الشيوخ الذين ذكرهم ابن حبان في ترجمة الأزدي، هم شيوخ الأرزى كما في تهذيب الكمال^(١١).

(١) فهرست ابن خير ص ٢٣٨.

(٢) المزي، تهذيب الكمال خ ٢/ ٨٦٤، ٣/ ١٥٤٥ مصورة دار المأمون.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ٦/ ٤٢٨. (٤) انظر: الإعلان بالتوخيخ ص ١٢٦.

(٥) انظر ترجمة عبد الملك بن نوفل بن مساحق في: تهذيب التهذيب ٦/ ٤٢٨.

(٦) ابن حبان، كتاب الثقات خ ٢/ ٢٦، أ مصورة، دار الكتب الوطنية بالقاهرة.

(٧) المزي، تهذيب الكمال خ ٣/ ١٢٢٨.

(٨) الذهبي، تهذيب التهذيب خ ٣/ ٢٢٣، أ.

(٩) تهذيب التهذيب ٩/ ٢٨٥.

(١٠) انظر ضبط هذا في: الأنساب للسمعاني ورقة ٢٥ ب.

(١١) راجع تهذيب الكمال ٢/ ٦٤٠، ٨٧٠، ٣/ ١٢٢٨.

والأزدي - صاحب فتوح الشام - لم يرو عن هؤلاء الشيوخ في كتابه^(١)، وكتاب فتوح الشام لأبي إسماعيل الأزدي، نشره المستشرق الإيرلندي ناسوليس سنة ١٨٥٤م^(٢)، ثم أعاد نشره بالقاهرة عبد المنعم محمد عامر، لكنه كتب ترجمة للمؤلف أخطأ فيها، فنقل ترجمة محمد بن عبد الله أبي جعفر الرزي، على أنها ترجمة لأبي إسماعيل الأزدي، وقال: روى له مسلم، وأبو داود^(٣). بينما أبو إسماعيل الأزدي، غير معروف الحال، ولم يترجم له الذهبي في كتاب الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة وإنما ترجم لأبي جعفر الرزي^(٤)، كما أنني لم أجد له ترجمة فيما اطلعت عليه من كتب الرجال^(٥) وذكر الزركلي في الأعلام: بأن أبا إسماعيل الأزدي ليس له ذكر في المتقدمين، وجعل وفاته في حدود سنة ١٦٥هـ ولم يوضح مستنده في هذا التحديد، لكنه ليس بعيداً، خاصة وقد تبين أنه كان معاصراً للأخباري الشيعي لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ)، ومن شيوخ أبي إسماعيل في كتاب فتوح الشام، يزيد بن يزيد بن جابر الأزدي (ت ١٣٣هـ)^(٦)، وهشام بن عروة (ت ١٤٦هـ)^(٧)، والمجالد بن سعيد (ت ١٤٤هـ)^(٨)، وعبد الملك بن

(١) راجع فهرس الأعلام في كتاب فتوح الشام للأزدي.

(٢) أكرم العمري، دراسات تاريخية ص ٧٠.

(٣) انظر: مقدمة فتوح الشام للأزدي ص/ك.

(٤) الذهبي، الكاشف ٦٦/٣.

(٥) كتب الدكتور أكرم ضياء العمري دراسة نقدية لكتاب فتوح الشام للأزدي، نشرها في كتابه دراسات تاريخية وقال: إنه لم يعثر له على ترجمة، وأن هناك شخصاً ينقل عنه الطبري كثيراً هو محمد بن عبد الله بن سويد بن نويرة قد يكون هو، ولكن لم يجزم بذلك.

(٦) الزركلي، الأعلام ٢٢١/٦.

(٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٧١/١١.

(٨) نفسه ٥١/١١.

نوفل بن مساحق، وبهذا يتضح أن أبا إسماعيل قد عاش في القرن الثاني الهجري وهو في حكم المستورين من جهة التعديل والتجريح^(١).

٤٦ - أبو غسان المدني (ت بعد المائتين):

محمد بن يحيى بن علي بن عبد الحميد الكناني أبو غسان المدني، روى عن مالك بن أنس، وابن عيينة، وابن مهدي، وحسين بن زيد بن علي العلوي، وروى عنه الزبير بن بكار، والذهلي، وعمر بن شبة^(٢)، وقال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: ربما خالف، وقال الدارقطني: ثقة^(٣)، ورد ابن حجر كلام السليماني فيه، وكلام ابن حزم، الذي قال: «إن أبا غسان مجهول»^(٤)، وقد أخرج له البخاري. ويظهر من مرويات ابن شبة عنه في تاريخ المدينة، أن له كتاباً في خططها وتاريخها، وقد صرح ابن شبة بالنقل من كتاب لأبي غسان ولكنه لم يسمه^(٥). وقد اقتبس الطبري في تاريخه عن أبي غسان في سبعة وثلاثين موضعاً^(٦)، وأخذها عن طريق عمر بن شبة الذي يظهر أنه روى كتب أبي غسان، وقد جعله ابن حجر في التقريب من الطبقة العاشرة^(٧).

٤٧ - محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦هـ):

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد البصري، أخباري ولغوي مشهور، وثقه الخطيب وجماعة^(٨). قال نفطويه: «ما

(١) نفسه ٤٠/١٠.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥١٧/٩.

(٣) المصدر نفسه ٥١٨. (٤) المصدر نفسه.

(٥) تاريخ المدينة لابن شبة ٦٨٨/٢.

(٦) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٤٠٨/١٠.

(٧) انظر: التقريب ٢١٨/٢.

(٨) ابن حجر، لسان الميزان ٤٣٠/٥.

رأيت أحفظ للأخبار بالأسانيد منه»^(١) له كتاب الكامل وتصانيف أخرى كثيرة^(٢)، وكتاب الكامل لا يمكن اعتباره مصدراً تاريخياً موثقاً إنما هو من جنس كتب الحكايات والقصص والنوادر والطرف، التي يغلب على أخبارها التزويد والتحسين، وقد كانت ولادته سنة ٢٠٦هـ، وتوفي سنة ٢٨٦هـ^(٣).

٤٨ - مَعْمَرُ بن المَثْنَى (ت ٢١١هـ):

أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، مولا هم البصري، النحوي، روى عن هشام بن عروة، وأبي عمرو بن العلاء، وعنه أبو عبيد القاسم بن سلام، وعمر بن شبة، وإسحاق الموصلي^(٤)، وكان من أعلم الناس بأنساب العرب وأيامهم، وهو كثير التصانيف، وقد عد ابن النديم من كتبه مائة وعشرة^(٥)، قال الجاحظ: «لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه»^(٦) وقد أثنى عليه ابن المديني، وذكره البخاري في صحيحه^(٧) لا على سبيل الرواية وإنما استشهد بكلامه في تفسير بعض الألفاظ. وقال ابن معين: ليس به بأس. وذكره ابن حبان في الثقات^(٨).

وقال ابن قتيبة: «كان الغريب وأيام العرب أغلب عليه، ويخطئ إذا قرأ القرآن نظراً، وكان يبغض العرب، وألف في مثالبها كتباً، وكان يرى

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر قائمة مؤلفاته عند ابن النديم في: الفهرست ص ٦٥.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٣/٥٧٧؛ وابن حجر، لسان الميزان ٥/٤٣٢.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٠/٢٤٦.

(٥) انظر المصدر السابق وفهرست ابن النديم ٥٩ - ٦٠، وذكر الذهبي في سير

أعلام النبلاء ٩/٤٤٦: أنها تقارب مئتي مصنف.

(٦) ابن حجر، المصدر السابق ١٠/٢٤٧.

(٨) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

رأي الخوارج»^(١)، وقال أبو حاتم السجستاني: كان يميل إليّ نظراً لأنه يظنني من خوارج سجستان^(٢). وقال الدارقطني: لا بأس به إلا أنه كان يتهم بشيء من رأي الخوارج^(٣). وقال أبو منصور الأزهري في تهذيب اللغة: «كان متهماً في روايته مغرى بنشر مثالب العرب، فهو مذموم من هذه الجهة غير موثوق به»^(٤). وقال الذهبي: «وقد كان هذا المرء من بحور العلم ومع ذلك فلم يكن بالماهر بكتاب الله، ولا العارف بسنة رسول الله، ولا البصير بالفقه»^(٥)، وقد كانت كتبه من المصادر التي اعتمد عليها جلة المؤرخين من بعده، فقد ذكر الطبري عنه في تاريخه ٤٦ رواية^(٦) غالبها يتعلق بأخبار الخوارج. كما أن المسعودي قد ذكر أبا عبيدة ضمن مصادره في كتاب مروج الذهب^(٧). وله من الكتب: مجاز القرآن، وغريب الحديث، ومقتل عثمان، وأخبار الحجاز، وفضائل الفرس. وقد كانت ولادته سنة ١١٤هـ ووفاته ٢١١هـ^(٨).

٤٩ - نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ):

أبو الفضل نصر بن مزاحم المنقري العطار الكوفي. أحد علماء الشيعة ومؤلفيها، من طبقة أبي مخنف. كان عارفاً بالتاريخ والأخبار، وهو من الغلاة، جلد في ذلك^(٩).

قال العقيلي: شيعي في حديثه اضطراب وخطأ كثير. وقال أبو

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٤٦/٩.

(٢) ابن حجر، المصدر السابق ٢٤٨/١٠، وانظر: سير أعلام النبلاء ٤٤٧/٩.

(٣) المصدر السابق. (٤) المصدر نفسه.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤٤٧/٩.

(٦) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٤٢١.

(٧) مروج الذهب ١٢/١. (٨) الفهرست ص ٥٦.

(٩) ياقوت، معجم الأدباء ٢٢٥/٩، وانظر: الفهرست ص ١٠٦.

حاتم: زائع الحديث متروك. وقال العجلي: كان رافضياً غالياً، وكان على السوق أيام أبي السرايا، ليس بثقة ولا مأمون. وقال الخليلي: ضعفه الحفاظ جداً. وقال أبو خيثمة: كان كذاباً^(١). وقال الذهبي: رافضي جلد تركوه^(٢). وقال الجوزجاني: نصر بن مزاحم العطار كان زائغاً عن الحق مائلاً.

قال الخطيب: أراد بذلك غلوه في الرفض^(٣) مات سنة ٢١٢هـ^(٤). له كتاب صفين، الغارات، كتاب الجمل، مقتل حجر بن عدي، مقتل الحسين بن علي^(٥).

وكتاب وقعة صفين، طبع قديماً على الحجر في إيران، ثم طبع في القاهرة بتحقيق عبد السلام هارون، ومعظمه عند ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة^(٦).

٥٠ - أبو المنذر هشام الكلبي (٢٠٤هـ):

هشام بن محمد بن السائب الكلبي أبو المنذر الكوفي الرافضي^(٧)، علامة، أخباري، نسابة حافظ لكنه متروك كأبيه، روى عن أبيه، وعن مجالد، وأبي مخنف، وطائفة. وعنه ابنه العباس، ومحمد بن سعد، وخليفة بن خياط، وابن أبي السري^(٨). قال الإمام أحمد: «إنما كان

(١) انظر هذه الأقوال في: لسان الميزان ١٥٧/٦.

(٢) انظر: ميزان الاعتدال ٢٥٣/٤. (٣) تاريخ بغداد ٢٨٣/١٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر قائمة كتبه في: ابن النديم ص ١٠٦، وياقوت ٢٢٥/١٩.

(٦) انظر مقدمة المحقق لكتاب وقعة صفين، وقد عمل جدولاً بالنقول التي أخذها ابن أبي الحديد د، ك الطبعة ٣.

(٧) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣٤٣/١.

(٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠١/١٠.

صاحب سمر ونسب ما ظننت أحداً يحدث عنه»^(١) وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث، وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة^(٢). وقال يحيى بن معين: ليس بثقة ولا يُروى عن مثله الحديث.

واتهمه الأصمعي، وذكره العقيلي، وابن الجارود، وابن السكّن، وغيرهم في الضعفاء^(٣). ومصنفاته كثيرة في الأنساب والمثالب، وأخبار الأوائل، وأخبار الخلفاء، وفي البلدان، وخبار الشعراء، وأيام العرب، وفي القصص والأسماء، وقد أورد ابن النديم قائمة بها^(٤)، وكذلك ياقوت في معجم الأدباء^(٥). ومن أجود كتبه كتاب النسب الكبير^(٦)، ويوجد مختصر له عمله ياقوت الحموي في ١٦٧ ورقة^(٧). ومختصر آخر بعنوان: المقتضب من جمهرة النسب.

ومن كتبه المطبوعة كتاب نسب الخيل، وكتاب الأصنام، كلاهما طبع بالقاهرة بتحقيق أحمد زكي.

ورغم ضعف هشام الكلبي وأبيه، إلا أن المؤرخين كابن سعد، وخليفة بن خياط، والطبري، قد أكثروا الرواية والنقل عنهما في الأخبار والأنساب والطوائف، ولكن يذكرون ذلك مسنداً لهما، وقد ينبهون في مواضع من كتبهم إلى ضعفهما ورد مروياتهما.

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٤٦/١٤.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠١/١٠ - ١٠٢.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان ١٩٧/٦.

(٤) انظر: الفهرست ص ١٠٨ - ١١٠، وقد ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/١٠٢ أن مصنفاته تبلغ ١٥٠ مصنفًا.

(٥) ياقوت، معجم الأدباء ٢٧٧/١٩ - ٢٩٢.

(٦) طبع الجزء الأول منه على نفق وزارة الإعلام بالكويت بتحقيق عبد الستار أحمد فراج.

(٧) انظر: سير أعلام النبلاء ١٠٢/١٠ في الهامش.

وكانت وفاة هشام الكلبي سنة ٢٠٤هـ وقيل: ٢٠٦هـ^(١).

٥١ - الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ):

الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الطائي الكوفي، النسابة المؤرخ، حدث عن هشام بن عروة، ومحمد بن إسحاق، ومجالد بن سعيد، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلي. وروى عنه محمد بن سعد، وعلي بن عمرو الأنصاري، وأحمد بن عبيد بن ناصح^(٢).

قال يحيى بن معين: الهيثم بن عدي، كوفي ليس بثقة، كان يكذب. وقال مرة: ليس بشيء. وقال علي بن المديني: الهيثم بن عدي أوثق عندي من الواقدي، ولا أرضاه في الحديث ولا في الأنساب ولا في شيء^(٣).

وقال الجوزجاني: ساقط قد كشف قناعه^(٤). وقال يعقوب بن شيبه: كانت له معرفة بأمور الناس وأخبارهم ولم يكن في الحديث بالقوي ولا كانت له معرفة به، وبعض الناس يحمل عليه في صدقه^(٥). وقال أحمد بن حنبل: كان صاحب أخبار وتدليس^(٦).

وقال الحاكم.. حدث عن الثقات بأحاديث منكرة وذلك مع علمه ومحلته^(٧).

وقال أبو حاتم: متروك الحديث محله محل الواقدي^(٨).
وقال البخاري: سكتوا عنه^(٩).

(١) انظر الخطيب، لسان تاريخ بغداد ٤٦/١٤.

(٢) المصدر السابق ٥٠/١٤ - ٥١.

(٣) انظر هذه الأقوال في المصدر السابق ٥٢/١٤.

(٤) ابن حجر، لسان الميزان ٢١٠/٦. (٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه. (٧) المصدر السابق.

(٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠٤/١٠.

وقال النسائي وغيره: متروك الحديث^(١).
 وقال الذهبي: هو من بابة الواقدي وقلمما روى من المسند^(٢).
 وقال في ترجمة الواقدي: قلت: أجمعوا على ضعف الهيثم^(٣).
 وتوفي سنة ٢٠٧هـ وله ثلاث وتسعون سنة^(٤).
 وله مصنفات كثيرة في الأخبار والمثالب والمناقب والأنساب
 وذكرها محمد بن إسحاق النديم^(٥)، وعنه ياقوت الحموي في معجم
 الأدباء^(٦).
 وكل هذه الكتب مفقودة ولكن منها روايات عند المؤرخين الذين
 جاؤوا من بعده كالطبري، والدينوري، والمسعودي^(٧).

-
(١) المصدر السابق.	(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه ٤٦٢/٦.	(٤) المصدر نفسه ١٠/١٠٤.
(٥) انظر: الفهرست ص ١١٢ - ١١٣.	(٦) انظر ٣٠٩/١٩ - ٣١٠.
(٧) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٤٤٦/١٠، ومقدمة كتاب مروج الذهب للمسعودي ١٢/١.	

عرض لمناهج مؤرخي هذه الفترة

عرضنا في فصل سابق للمسارات التي شملها التدوين التاريخي في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية، ورأينا ازدياد المادة التاريخية واتساع نطاقها وتشعبه وشموله أنواعاً كثيرة من اهتمامات الأمة وحاجاتها، يؤكد ذلك كثرة المشتغلين بهذا الجانب من المعرفة.

ولذا فإننا سوف ندرس في هذا الفصل نماذج من هؤلاء المؤرخين نرجو أن تكون شاملة لكافة الاتجاهات والمناحي في التأليف التاريخي لأنه من الصعب أن نقوم بحصر كل الذين كتبوا في التاريخ الإسلامي خلال ثلاثة قرون ونقدم دراسة عن كل واحدٍ منهم في مثل هذا الفصل. وقد سبق في الفصل الثاني من هذا الباب التعريف بواحد وخمسين أخبارياً وراوياً ممن لم نأت على ذكرهم في هذا الفصل.

وستكون عناصر الترجمة لمن ندرسهم مركزة على الأمور التالية:

- ١ - تعريف موجز بحياة المترجم، وطلبه العلم.
- ٢ - توثيقه، وبيان عقيدته.
- ٣ - مؤلفاته، على أن يكون التأكيد على المؤلفات التاريخية.
- ٤ - بيان منهجه في الكتابة التاريخية.

١ - من المؤلفين في السيرة النبوية

١ - ١ - محمد بن إسحاق بن يسار^(١) (٨٠ - ١٥١هـ):

هو العلامة الحافظ الأخباري أبو بكر القرشي، المطلبية مولا هم المدني، صاحب السيرة النبوية، ولد سنة ثمانين ورأى أنس بن مالك الصحابي بالمدينة، وسعيد بن المسيب من كبار التابعين، وطلب العلم بالمدينة من أول صباه على عادة أهل تلك الفترة في التلقي من الشيوخ.

يقول عنه الذهبي: «إنه أول من دَوَّن العلم بالمدينة قبل مالك وذويه، وكان في العلم بحرّاً عجّاجاً ولكنه ليس بالمجود كما ينبغي»^(٢).

وكان من شيوخه، أبوه إسحاق، وكذلك عمه موسى، وأبان بن عثمان، وسعيد المقبري، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وعمرو بن شعيب، والزهري، والتمي، ومكحول، وفاطمة بنت المنذر، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم، وصالح بن كيسان، وشعبة، ومحمد بن السائب الكلبي^(٣)، وغيرهم. خرج من المدينة فأتى الجزيرة والكوفة والري وبغداد، وقدم على أبي جعفر المنصور بالحيرة فكتب له المغازي^(٤).

(١) للاستزادة في ترجمته، انظر ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١٩١/٧، الخطيب، تاريخ بغداد ٢١٤/١ ابن سيد الناس، عيون الأثر ٧/١، والذهبي، تذكرة الحفاظ ١٧٢/١، وسير أعلام النبلاء ٣٣/٧، وميزان الاعتدال ٣/٤٦٨، وابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٨/٩.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٥/٧. (٣) المصدر السابق ٣٤/٧.

(٤) المصدر السابق نفسه ٤٨/٧.

وكان قد رحل قبل ذلك إلى مصر ودخل الإسكندرية سنة ١١٥هـ وروى عن جماعة من أهل مصر منهم عبيد الله بن المغيرة، ويزيد بن أبي حبيب^(١).

وقد روى عن ابن إسحاق خلق كثير غالبهم من العراقيين لأنه خرج من المدينة قديماً فلم يرو عنه من أهلها غير إبراهيم بن سعد^(٢). ولعل انتقاد الإمام مالك، وهشام بن عروة له - والذي ذكرنا أسبابه في فصل أنواع التأليف التاريخي - كان السبب في عزوف أهل المدينة عن حديثه، روى عنه يزيد بن أبي حبيب شيخه المصري، ويحيى بن سعيد الأنصاري وهما تابعيان. وشعبة، والثوري، وابن عيينة، وجريز بن حازم، وزيد البكائي، ويونس بن بكير، ويحيى بن سعيد الأموي^(٣).

وقد ذكر ابن سعد أنه توفي سنة ١٥١هـ^(٤) أما خليفة بن خياط فذكر أن وفاته سنة ١٥٣هـ أو ١٥٢هـ^(٥) ورواية ابن سعد هي المشهورة في وفاة ابن إسحاق. والفرق بين الروایتين سير.

وبالنسبة لعقيدته فإنه قد رُمي بالتشيع، ونُسب إلى القدر^(٦)، ولكن تشيعه لم يكن له أثر في كتابته للسيرة، مما يدل على ضعف هذا الاتهام، أو ربما يكون تشيعه من جنس ما أثر عن بعض السلف من التشيع الذي لا يحمل صاحبه على التزوير والكذب.

أما رميّه بالقدر فإن بعض العلماء ينفيه عنه، كما روى أبو العباس بن عقدة قال: حدثنا موسى بن هارون بن إسحاق، سمعت

(١) المصدر نفسه ٤٨/٧.

(٢) المصدر نفسه ٤٨/٧.

(٣) عن أسماء شيوخه، انظر المصدر السابق ٣٥/٧، وتهذيب الكمال للمزي خ ورق ١١٦٧.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣٢٢/٧.

(٥) طبقات خليفة بن خياط ٢٧١.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٥/٧.

محمد بن عبد الله بن نمير يقول: «كان ابن إسحاق يُرمى بالقدر وكان أبعد الناس منه»^(١).

أما عدالته فقد سبق أن استعرضنا أقوال علماء الجرح والتعديل فيه^(٢)، حيث اتضح أنه «يدلس» وهو صدوق في نفسه، ويروي الغرائب ويحدث عن المجهولين بأحاديث باطلة^(٣)، كما أنه كان يحمل عن أهل الكتاب، فإذا صرح بالتحديث يزول التدليس ويكون حديثه حسناً. وهو إمام في المغازي.

منهجه في السيرة النبوية:

وقد ألف ابن إسحاق سيرة النبي ﷺ وهي تشمل حياة الرسول ﷺ قبل البعثة وشيئاً من أخبار الجاهلية، ثم سيرته ﷺ بعد البعثة حتى الهجرة، ثم حياته في المدينة ومغازيه وبعوثه حتى وفاته ﷺ. وينسب له كتاب في تاريخ الخلفاء^(٤) وآخر في تاريخ الأنبياء^(٥) ﷺ.

وبذلك يكون مجموع ما كتبه محمد بن إسحاق، يمثل نظرتة لوحدة التاريخ الإسلامي تبعاً لوحدة الرسالة والمنهج الرباني.

أما طريقته في الترتيب والتأليف. فلا نكاد نتيقن أنها كاملة لأن كتبه لم تصل إلينا إلا من خلال بعض النقول التي وجدت في مؤلفات العلماء الذين جاؤوا بعده، وأقربها هو تهذيب السيرة، الذي قام به عبد الملك بن هشام. وقد أبان ابن هشام عن منهجه في الاختصار فقال: «وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ومنَّ وَلَدَ - بفتح

(١) المصدر السابق ٤٣/٧.

(٢) في الفصل الأول من الباب الثالث.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٣/٧.

(٤) انظر: ابن النديم، الفهرست ١٠٥ وقال بأن الأموي قد رواه عنه.

(٥) انظر السخاوي: الإعلان بالتبويخ ص ٩٢ حيث قال: وفي قصص الأنبياء المبتدأ لمحمد بن إسحاق.

اللام والبدال - رسول الله ﷺ من ولده وأولادهم لأصلابهم الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار، إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه^(١)، وعلل صنيعة هذا بأنه لأجل الاختصار، ثم ترك بعض الأشياء انتقاداً لابن إسحاق فقال: «وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي^(٢) بروايته^(٣)».

وقد حافظ ابن هشام فيما يبدو على نص ابن إسحاق وذلك أنه يقدم له بقوله: قال ابن إسحاق. ثم يورد نص كلام ابن إسحاق. وإذا عقب عليه فإنه يفصل ذلك بقوله: قال ابن هشام. وإذا كان لديه رواية تخالف قول ابن إسحاق فإنه يسوقها بسنده هو^(٤). وغالب إضافاته هي في تصحيح الأنساب^(٥) أو شرح بعض الجمل والاستشهاد لذلك بالشعر^(٦)، وعند المقارنة بين تهذيب ابن هشام لسيرة ابن إسحاق من

(١) ابن هشام، السيرة ٤/١.

(٢) هو زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي أحد رواة السيرة عن ابن إسحاق، قال ابن حجر في التقريب ٢٦٨/١: «صدوق ثبت في المغازي، وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين» وروايته هي التي اختصرها ابن هشام وقد روى له البخاري حديثاً واحداً مقروناً مع غيره، كما في تهذيب التهذيب ٣/٣٧٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٤/١.

(٤) انظر على سبيل المثال ١/١٩٠، ١٦٣، ٢٠٠.

(٥) انظر الصفحات ٤١/١، ٤٧، ٤٠٩ و ٤٧٥.

(٦) انظر الصفحات ٦١/١، ٣٥٥، ٣٥٦.

رواية زياد البكائي، وبين ما وجد من رواية يونس بن بكير^(١) لسيرة ابن إسحاق، نجد بعض الاختلافات الطفيفة في السياق وفي التقديم والتأخير، وبعض الزيادات^(٢) في الأخبار والأشعار وهي التي نص ابن هشام على أنه يحذفها.

ومنهج ابن إسحاق في جملته يقوم على إيراد الأخبار بالأسانيد التي وصلت إليه، وهذه الأسانيد منها الموصول، ومنها المنقطع، والمعضل، في حين أن بعض الأخبار يوردها بدون إسناد، ويظهر هذا بشكل واضح في القسم الأول من السيرة، وهو قد يعتمد في معلوماته على مجهولين فيقول: «حدثني بعض أهل العلم»^(٣)، أو «حدثني بعض بني فلان»^(٤)، أو «حدثني بعض أهل مكة»^(٥)، «حدثني من لا أتهم»^(٦)،

(١) يونس بن بكير الشيباني هو الراوي الثاني لسيرة ابن إسحاق.

قال فيه النسائي: ليس بالقوي. وقال أبو حاتم: محله الصدق. وقد روى له مسلم في المتابعات، سير أعلام النبلاء ٢٤٥/٩ وروايته للسيرة كانت مفقودة ثم وجدت منها بعض القطع في المغرب، وقطعة صغيرة في الظاهرية بدمشق. ونشر هذه القطع سهيل زكار، وصدرت عن دار الفكر في بيروت، سنة ١٣٩٨هـ، وقبل ذلك نشرها محمد حميد الله، بالمغرب.

(٢) كل من ابن هشام، ويونس بن بكير، زاد في السيرة روايات عن طريقة ليست في أصل ابن إسحاق، وربما تصرفا في الترتيب، انظر عن زيادات يونس بن بكير: الصفحات ٥، ٦، ٢٨، ٣٣، ٤١، ٤٤، ٤٣، ٥٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، من النسخة التي طبعت في المغرب بتحقيق محمد حميد الله، سنة ١٣٩٦هـ. وقد نص الحافظ في الفتح على زيادة يونس بن بكير في سيرة ابن إسحاق ونقل عنها. انظر: الفتح ٢٧/٨، ط السلفية.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ١/٣٩١، ٥٣٧، ٦٣٩.

(٤) المصدر نفسه ١/٤٧٥، ٤٨٠، ٤٨٤، ٥١٦، ٥٢١، ٥٣٨، ٥٦٤.

(٥) المصدر نفسه ١/٦٤٤.

(٦) المصدر نفسه ١/٢٠٩، ٥٤٧، ٦٠٧، ٦٣٣، ٦٣٤.

«زعم رجال من بني فلان»^(١)، «حدثت عن فلان»^(٢) - والملاحظ أنه إذا شك في صحة الرواية عبر عن ذلك بقوله: فيما يذكرون^(٣). أو «فيما يزعمون»^(٤) وإذا أورد أكثر من رواية ولم يستطع الترجيح ختم كلامه بقوله: «فالله أعلم أي ذلك كان»^(٥)، كما أنه يجمع الروايات أحياناً مع بعضها دون تمييز لها، ويقدم لها بذكر الأسانيد مجموعة^(٦)، ويسوق ملخصها. ويستشهد بالآيات القرآنية، ويذكر أسباب النزول، ويشرح بعض المعاني في الآيات^(٧)، وأحياناً يقدم بين يدي الروايات بتمهيد من عنده يلخص فيه الخبر، أو يبين سبب الحادثة التاريخية ونتيجتها^(٨).

وهذا المنهج الذي سلكه ابن إسحاق، حاول أن يجمع فيه بين منهج المحدثين القائم على الأسانيد لغرض التوثيق العلمي، وبين منهج الأخباريين المتحررين من الالتزام بالأسانيد التي كانت سمة العلم والمعرفة في ذلك العصر، ولعله كان يهدف إلى إخراج السيرة النبوية في صورة مترابطة الأجزاء، متسلسلة الأحداث، ليسهل على الناس حفظها. وقد لقيت سيرته قبولاً عند عامة المسلمين - خاصة بعد التهذيب الذي أجراه ابن هشام - فأصبحت سهلة الحفظ والتلقين للطلاب المبتدئين وللعمامة الذين لا يهمهم الإسناد، وحتى العلماء فإنهم اشتغلوا بها تهذيباً وشرحاً واختصاراً ونظماً. ورغم ذلك فإنها لم تسلم من النقد، فقد عاب نقاد الحديث على ابن إسحاق منهجه في دمج الروايات وجمع الأسانيد وسياقها مساقاً واحداً دون أن يميز ألفاظ الرواة كما هو الشأن عند علماء

(٢) المصدر نفسه ٥٧١/١.

(١) المصدر نفسه ٦٣٦/١.

(٤) المصدر السابق ٥٢٠/١، ٦٣٦.

(٣) المصدر نفسه ٤٥٩، ٥٢١.

(٦) المصدر نفسه ٦٠٦/١.

(٥) المصدر نفسه ٦٠٠/١.

(٧) المصدر السابق ٤٦٧/١، ٤٧٥، ٤٨٣، ٤٨٤، ٥٢١، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٥،

٥٣٦، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩.

(٨) المصدر نفسه ٤٢٨/١، ٤٣٤، ٤٣٨، ٥٤٥، ٤٦٨.

الحديث^(١). وجمع ابن إسحاق للأسانيد - والذي تبعه فيه تلاميذ مدرسته في السيرة مثل الواقدي، وابن سعد - ليس كجمع ابن شهاب الزهري^(٢)، وعروة بن الزبير، وغيرهما من ثقات المحدثين كما ادعى ذلك بعض الكتاب المعاصرين^(٣). لأن هؤلاء يجمعون الأسانيد إذا كان الرواة كلهم ثقات، وزيادة الثقة مقبولة إذا لم تخالف رواية من هو أوثق منه، كما هو مقرر في علم المصطلح^(٤)، أما ابن إسحاق، فإنه يجمع بين رواية الثقة

(١) انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٣/٩. فقد سئل الإمام أحمد عن ابن إسحاق فقال: «إني رأيته يحدث عن جماعة بالحديث الواحد ولا يفصل كلام ذا من كلام ذا».

(٢) الذي روي عن الزهري واحتج به بعضهم على أن الزهري استعمل الإسناد الجمعي، هو رواية واحدة ذكرها البخاري في صحيحه ٤/٦. كتاب التفسير، عند قوله تعالى: ﴿أَوَّلًا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا...﴾ الآية... عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن مسعود، عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا. وكل حديثي طائفة من الحديث، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض. الذي حدثني عروة عن عائشة أن عائشة قالت: ... ثم ساق حديث الإفك. فقد نص على أن هذا لفظ عروة. وبذلك ينتفي قول من قال: إنه جمع الأسانيد ولم يفرق بين ألفاظ الرواة كجمع ابن إسحاق وغيره، ولمزيد ذلك انظر: فتح الباري ٤٥٦/٨ - ٤٥٧. أما عروة فلم أجد له جمعاً للأسانيد إلا في قصة الحديبية التي أخرجها البخاري في صحيحه ٦٧/٥ حيث قال: حدثني... ثم ساق سنده إلى عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم يزيد أحدهما على صاحبه قالاً: خرج النبي ﷺ... الحديث. والمسور ومروان تابعيان خرج حديثهما البخاري كما ترى وجمع الثقات لا بأس به.

(٣) انظر: يوسف هورفتش، المغازي الأولى ومؤلفوها ص ٦٨. وعبد العزيز الدروي، نشأة علم التاريخ عند العرب ص ٩٤.

(٤) انظر: ابن حجر، شرح نخبة الفكر ص ٤٥.

وغير الثقة ويسوقها مساقاً واحداً^(١)، دون أن يميز بين الحروف وألفاظ الرواة، فيختلط قول الثقة مع غيره، ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى أنه نظراً لتوسع ابن إسحاق في مصادره فقد تفرّد بزيادات منها الصحيح، ومنها الضعيف، كما أن له شذوذات خالف بها الصحيح، مثل قوله: إن الأمير في سرية الرجيع هو مرثد بن أبي مرثد، وأن عدد أصحاب السرية ستة نفر^(٢). والذي في البخاري أن الأمير عاصم بن ثابت وأن عددهم عشرة^(٣).

ومثل ما أورده من أن القراء الذين قتلوا في بئر معونة أربعون رجلاً^(٤)، والذي في صحيح البخاري أن عددهم سبعون^(٥).

ومثل قوله: إن أصحاب الحديبية سبعمائة^(٦)، والذي في الصحيحين أنهم ألف وأربعمائة^(٧). ومثل عدّه أبا موسى الأشعري في المهاجرين إلى الحبشة^(٨)، بينما ورد عن أبي موسى في صحيح البخاري أنه هاجر مع قومه إلى المدينة عندما بلغه مخرج النبي ﷺ من مكة، غير أن السفينة أُلقت بهم إلى الحبشة، وهناك لقوا جعفر بن أبي طالب فمكثوا عنده حتى قدموا معه يوم فتح خيبر^(٩). وعلى كل حال فابن إسحاق يعتبر رائداً للكتابة في السيرة، وصاحب مدرسة لها منهجها

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٦٠٦/١، ٦٠٧، ٤٤/٢، ٦٠، ٢١٤، ٥١٦.

(٢) ابن هشام ١٦٩/٢.

(٣) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٣٧٨/٧.

(٤) ابن هشام ١٨٥/٢.

(٥) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٣٨٥/٧.

(٦) ابن هشام ٣٠٩/٢.

(٧) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٤٤١/٧.

(٨) ابن هشام ٣٦١/٢.

(٩) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٤٨٤/٧.

المستقل عن مدرسة علماء الحديث، وقد سهّل للناس دراسة السيرة وتنظيمها في نمط قصصي متسلسل ولذا وصفه العلماء، بأنه إمام في المغازي والسير.

١ - ٢ - محمد بن عمر الواقدي الأسلمي^(١) (١٣٠ - ٢٠٧هـ):

وُلد بالمدينة سنة ١٣٠هـ^(٢) ونشأ في طلب العلم ورحل كعادة أهل زمانه لملاقة العلماء والتلقي عنهم، فأخذ عن صغار التابعين فمن بعدهم، في الحجاز والشام وغير ذلك. ومن شيوخه محمد بن عجلان، وابن جريج، ومعمّر بن راشد، وابن أبي ذئب، وأفلح بن حميد الأوزاعي، وخلق كثير حتى من عوام المدنيين. وحدث عنه محمد بن سعد كاتبه، وأبو بكر بن أبي شيبة ومحمد بن يحيى الأزدي، ومحمد بن شجاع الثلجي، وأبو بكر الصاغاني، ومحمد بن الفرّج الأزرق، وغيرهم^(٣).

قال ابن سعد في الطبقات: «قدم بغداد في دَينٍ لحقه سنة ثمانين ومئة ثم خرج إلى الشام والرقّة ثم رجع إلى بغداد، فولاه المأمون القضاء، ولم يزل قاضياً بها حتى مات لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة سبع ومائتين»^(٤)، ويقول عنه الذهبي: «جمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين، فاطرحوه لذلك ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم»^(٥).

(١) انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد ٣٣٤/٧، والجرح والتعديل ٢٠/٨، وتاريخ بغداد ٣/٣. وميزان الاعتدال ٦٦٢/٣، وسير أعلام النبلاء ٤٥٤/٩. وتهذيب التهذيب ٣٦٣/٩.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٥٧/٩.

(٣) المصدر نفسه ٤٥٤/٩ - ٤٥٥. (٤) طبقات ابن سعد ٣٣٤/٧.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٩.

وقد ذكر علماء الجرح والتعديل أقوالاً كثيرة في عدالته وسعة علمه بعضها يوثقه، وبعضها يجرحه. فقال البخاري: «سكتوا عنه، تركه أحمد وابن نمير»^(١). وقال مسلم: «متروك الحديث»^(٢) وقال النسائي: «ليس بثقة»^(٣). وقال محمد بن سلام الجمحي: «الواقدي عالم دهره»^(٤).

وقال إبراهيم الحربي: «الواقدي أمين الناس على أهل الإسلام، كان أعلم الناس بأمر الإسلام، فأما الجاهلية فلم يعلم فيها شيئاً»^(٥).

وقال الخطيب البغدادي: «هو ممن طبق ذكره شرق الأرض وغربها وسارت بكتبه الركبان في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات والفقه، وكان جواداً كريماً مشهوراً بالسخاء»^(٦) ثم ذكر قصة تدل على كرمه، وقال الذهبي: «لا شيء للواقدي في الكتب الستة إلا حديث واحد عند ابن ماجه، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا شيخ لنا. فما جَسَرَ ابن ماجه أن يفصح به، وما ذاك إلا لو هن الواقدي عند العلماء. ويقولون: إن ما رواه عنه كاتبه في الطبقات هو أمثل قليلاً من رواية الغير عنه»^(٧).

ثم قال الذهبي في ختام ترجمته في سير أعلام النبلاء: «وقد تقرر أن الواقدي ضعيف يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، وتورد آثاره من غير احتجاج، أما في الفرائض فلا ينبغي أن يذكر، فهذه الكتب الستة ومسند أحمد وعامة من جمع في الأحكام تراهم يترخصون في إخراج أحاديث أناس ضعفاء، بل ومتروكين، ومع هذا لا يخرجون لمحمد بن

(١) المصدر نفسه ٤٥٧/٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ٤٥٨/٩.

(٦) تاريخ بغداد ٥/٣، وانظر: القصة في ١٩/٣ - ٢٠.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٦٤/٩.

عمر شيئاً. مع أن وزنه عندي أنه مع ضعفه يكتب حديثه ويروى، لأنني لا أتهمه بالوضع، وقول من أهدره فيه مجازفة من بعض الوجوه، كما أنه لا عبرة بتوثيق من وثقه، كيزيد، وأبي عبيد، والحربي، ومعن؛ إذ انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة، وأن حديثه في عداد الواهي^(١).

وقال ابن كثير: «الواقدي عنده زيادات حسنة وتاريخاً محرراً غالباً فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار، وهو صدوق في نفسه مكثار كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا الموسوم بالتكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل»^(٢).

وقد استوعب الكلام على عدالته ابن سيد الناس في مقدمة كتاب عيون الأثر، فقال: «إن سعة العلم مظنة لكثرة الإغراب، وكثرة الإغراب مظنة للتهمة، والواقدي غير مدفوع عن سعة العلم فكثرت بذلك غرائب»^(٣)، وقال: وقد روينا عنه من تتبعه آثار مواضع الوقائع وسؤاله أبناء الصحابة والشهداء ومواليهم عن أحوال سلفهم ما يقتضي انفراداً بروايات وأخبار لا تدخل تحت الحصر^(٤).

والذي يظهر من كلام النقاد في الواقدي قبول رواياته في الأخبار والسير، ولكن لا يعارض بها الروايات الصحيحة لأنه ليس بحجة إذا انفرد فكيف إذا خالفه غيره ممن هو أوثق منه.

وقد زعم ابن النديم - وهو من شيوخ الرافضة - أن الواقدي كان يتشيع وأنه حسن المذهب يلزم التقية^(٥). وقد ترجم له صاحب كتاب أعيان الشيعة، ونقل قول ابن النديم هذا. كما ترجم له أغا بزرك الطهراني، في كتابه الذريعة إلى تصانيف الشيعة^(٦). غير أن هذه كلها لا

(١) المصدر نفسه ١/٤٦٩.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٣/٢٣٤.

(٣) عيون الأثر ١/٢٦.

(٤) المصدر نفسه ١/٢٧.

(٥) الفهرست ص ١١١.

(٦) انظر: مقدمة مغازي الواقدي ١٦.

تعطينا دليلاً قاطعاً على تشيع الواقدي لأن من عادة الروافض أن ينسبوا إلى مذاهبهم بعض المشاهير لغرض تكثير سوادهم.

ويحتاج الأمر لإثبات ذلك تقصي أقوال الواقدي نفسه. ولم أجد فيما اطلعت عليه من أقواله ما يؤيد تشيعه، وما ورد في مغازيه المطبوعة من تخصيص علي بن أبي طالب بقوله: «عليه السلام» كلما ورد ذكره كما هي عادة الشيعة في كتبهم. لا يعتبر دليلاً؛ إذ ربما أن ذلك من تصرف النساخ، خاصة إذا علمنا أن هذه المغازي مروية من طريق محمد بن شجاع الثلجي^(١). الذي يوصف بأنه كذاب ومتهم في دينه.

والواقدي قد تولى القضاء للرشيد، ثم للمأمون، ومع ذلك لم يرد له ذكر في فتنة القول بخلق القرآن، ولعل وفاته سنة ٢٠٧هـ التي كانت قبل إظهار المأمون لهذا المذهب وامتحان القضاة والعلماء به سبباً في ذلك.

أما مؤلفاته. فقد ذكر ابن النديم منها: قرابة ثلاثين^(٢) مؤلفاً، أغلبها في موضوعات مفردة صغيرة في التاريخ، والحوادث، ولا نعلم من كتبه اليوم غير المغازي^(٣)، وقد استفاد ابن سعد في كتابه الطبقات

(١) انظر ترجمته في: ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٢٠/٩.

(٢) الفهرست ص ١١١.

(٣) حققها المستشرق مارسدن جونس ونشرها في ثلاثة مجلدات.

يلاحظ أن للواقدي كتاباً في فتوح الشام ذكره ابن النديم في الفهرست ص ١١. لكنه غير الكتاب المعروف المتداول بهذا العنوان، والذي طبع في مصر، ولبنان، بعنوان: فتوح الشام وملحق به أخبار بعض البلدان في مصر مثل (البهنسا). لأن هذا كتاب قصصي يختلف في سياقه وأسلوبه وعباراته عن أسلوب الواقدي والعصر الذي عاش فيه، إذ يكثر فيه السجع المتكلف، وركاكة العبارة، وضعف البناء الشعري فيما يورده من أشعار منسوبة للفتاحين من الصحابة والتابعين، كما أنه يغرق في التفاصيل والوصف الخيالي للأبطال، =

من علم شيخه الواقدي وأخذ عنه كثيراً. وكذلك فعل الإمام ابن جرير الطبري حيث استفاد من مؤلفات الواقدي في السيرة والمغازي، والفتوح، وتاريخ الخلافة إلى سنة ١٧٩هـ^(١) ونقل عنه في ٣١٧ موضعاً^(٢). والذي بقي لنا من مؤلفات الواقدي: هو قسم المغازي من السيرة النبوية، وهو يتحدث عن الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ، بنفسه وعن سرايا التي يبعثها رسول الله من قبله ويؤمر عليها بعض أصحابه.

ومنهج في هذا القسم من السيرة هو ذكر مصادر معلوماته مجموعة، وما يسوقه من الأخبار هو مجموع ما حدث به هؤلاء الرواة الذين ذكرهم وغيرهم ممن لم يذكرهم^(٣).

وقد ساق في مقدمة كتابه بعد ذكر الرواة الذين أخذ عنهم^(٤)، سرايا الرسول ومغازيه - منذ مقدمه المدينة إلى وفاته - مرتبة ترتيباً تاريخياً، وحدد تاريخ حدوث كل غزوة أو سرية، واسم أميرها،

= ويذكر أبطالاً غير معروفين، مثلما ذكره عن أبي الهول، وأنه قاد ألفاً من عبيد السودان مع ميسرة بن مسروق العبسي ٢/٢. كما أن الرواة الذين رويت هذه الفتوح عنهم لم أجد لهم تراجم في كتب الرجال. وهذا كله يؤكد عدم صحة نسبة الكتاب للواقدي.

(١) الطبري ٢٦١/٨.

(٢) انظر: فهارس تاريخ الطبري ٤٠٣/١٠ - ٤٠٤.

(٣) انظر: مغازي الواقدي ١/١ - ٢.

(٤) من الغريب أن الواقدي الذي ولد بالمدينة سنة ١٣٠هـ على سعة مصادره لم يأخذ من محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ، ولعل السبب في ذلك عدم لقياهما؛ لأن ابن إسحاق خرج من المدينة قبل ولادة الواقدي أو قبل بلوغه سن التحمل لأننا لا نعرف تاريخ خروج ابن إسحاق من المدينة. ثم إن الواقدي قدم بغداد بعد وفاة ابن إسحاق، كما يذكر ذلك ابن سعد في الطبقات ٣٣٤/٧.

ووجهتها، كما اعتنى بتحديد المواقع تحديداً جغرافياً مختصراً، ثم لخص هذه المعلومات بقوله: «فكانت مغازي النبي ﷺ التي غزاها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وقاتل في تسع ثم ساقها. وكانت السرايا سبعاً وأربعين سرية»^(١)، ثم ذكر الذين استخلفهم رسول الله ﷺ على المدينة عندما يخرج في الغزوات^(٢) ثم ساق ما بلغه عن شعار المسلمين في كل غزوة^(٣).

وبعد هذا الإجمال شرع في التفصيل على حسب التسلسل التاريخي. ويذكر أحياناً الأسانيد مجموعة في أول كل غزوة^(٤) أو سرية، وأحياناً لا يذكرها اعتماداً على ما ذكره في أول الكتاب، ويكتفي بقوله: قالوا^(٥). وفي بعض المواضع يسند الرواية من طريق واحد^(٦). وللواقدي عناية بالضبط التاريخي للوقائع والغزوات، كما أنه يعتني بذكر الرجال الذين لهم إسهامات معينة في الغزوة، من إنفاق وبذل، أو مشورة ورأي، أو موقف بطولي، ويذكر الأسرى، وكذلك الشهداء من المسلمين، والقتلى من الكفار، ويرتبهم على حسب قبائلهم، كما ذكر أسماء كل من اشترك في بدر من المسلمين إظهاراً لفضلهم ومكانتهم. ومن الملاحظ أنه لا يعتني بالشعر كثيراً بالقياس إلى ابن إسحاق. كما يلاحظ اهتمامه بتحديد الأمكنة والمواقع الجغرافية، حتى أنه كان يتتبع^(٧) ذلك ويقف

(١) مغازي الواقدي ٧/١.

(٢) المصدر نفسه ٧/١ و٨.

(٣) المصدر نفسه ٨/١.

(٤) المصدر نفسه ١٩٩/١، ٣٤٦، ٣٥٤ و٤٠٤.

(٥) المصدر نفسه ١٩/١.

(٦) انظر مثلاً ١٥/١، ١٦، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢.

(٧) يروي الخطيب البغدادي في ترجمته ٦/٣ أنه قال: ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا وسألته: هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعابنه، ولقد =

عليه بنفسه، وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها قرآن، فإنه يذكر ذلك ويفسره مجملًا. وقد تفرد الواقدي بزيادات في وصف المعارك، وفي الحوادث الجانبية، وفي السرايا، لا توجد عند ابن إسحاق. ولعل هذا ما لحظه ابن كثير عندما وصف الواقدي «بأن عنده زيادات حسنة وتاريخ محرر». كما أنه يبدي نقده لبعض الأخبار بعبارات موجزة^(١) كقوله: «وهذا أثبت»، و«المجمع عليه عندنا». . . و«كان أثبتهم عندنا». و«الثابت عندنا». كما أنه يفاضل بين الأقوال مثل قوله: «والقول الأول أثبت عندنا». و«أصحابنا جميعاً على ذلك»، «ما رأيت من أصحابنا أحداً يدفعه» في حين أنه يذكر في بعض الحالات مختلف الأقوال ولا يرجح منها شيئاً^(٢).

وقد تقدم الواقدي خطوة على منهج ابن إسحاق، في الابتعاد عن طريقة المحدثين، وعدم الالتزام بالأسانيد وألفاظ الرواة، وصاغ المغازي في نسقٍ واحد مترابط الأحداث في أسلوب قصصي واضح العبارة مما يسر حفظها على عامة الناس. وهذا المنهج جيد لو كان الواقدي نفسه من الثقات، ولو أنه لم يخلط في مصادره بين الثقات وغيرهم.

= مضيت إلى المريسيع، فنظرت إليها، وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعانيه. . . ويقول هارون القروي: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة، فقلت: أين تريد؟ فقال: أريد أن أمضي إلى حنين حتى أرى الموضع والوقعة.

(١) انظر مثلاً ١/١٩، ٣٥، ١٥٠، ٢٢٨، ٢٤٧، ٣٥٦.

(٢) انظر مثلاً: المغازي ١/٣٥٥.

٢ - من المؤلفين في الأنساب

٢ - ١ - مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري (١٥٦ - ٢٣٦هـ):

نشأ بالمدينة، وسكن بغداد، وكان والده أميراً على اليمن، سمع أباه، ومالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد، وعبد العزيز الدراوردي، وهشام بن عبد الله المخزومي، وسفيان بن عيينة، وغيرهم^(١). وحدث عنه ابن ماجه، والنسائي بواسطة، وابن أخيه الزبير بن بكار القاضي، وأبو يعلى الموصلي، وأبو القاسم البغوي، وموسى بن هارون، وأبو العباس السراج، ومسلم خارج الصحيح، وأبو داود خارج السنن، ويعقوب بن أبي شيبة، وأبو خيثمة، وابنه أبو بكر^(٢). قال عنه الإمام أحمد «مصعب الزبيري ثبت»^(٣). ووثقه ابن معين وقال: إنه عالم بالنسب^(٤) وقال العباس بن مصعب: «أدركته، وهو أفقه قرشي في النسب»^(٥) وقال أبو زرعة الدمشقي: «لقيته بالعراق وكان فاضلاً»^(٦) وقال الدارقطني: «ثقة»^(٧)، وقال ابن أخيه الزبير بن بكار: «كان أوجه قریش مروءة وعلماً وشرفاً وبياناً»^(٨) وقد ذكره ابن حبان الثقات^(٩).

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٠/١١.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٦٣/١٠.

(٤) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

قال الذهبي: «كان صدوقاً عالياً أخبارياً كبير المحل، وقد تكلم فيه لوقفه في القرآن»^(١) قال أبو بكر المروزي: كان من الواقفة^(٢)، وقال الحسين بن فهم: «كان مصعب إذا سئل عن القرآن يقف ويعيب من لا يقف»^(٣) وقد توفي ببغداد في شوال سنة ٢٣٦هـ^(٤)، وهو ابن ثمانين سنة. وقد كتب مصعب الزبيري كتابين في النسب هما: «كتاب النسب الكبير وكتاب نسب قريش»^(٥). فأما الأول: فلا نعلم شيئاً عن وجوده، ولعله كان شاملاً للأنساب العربية كما يظهر من عنوانه، أما كتابه الثاني: فقد خصصه في نسب قريش. وهو مطبوع^(٦).

ومنهج مصعب في كتابه نسب قريش، هو إيراد الأنساب والأخبار غير مسندة، على خلاف عادة المؤلفين في تلك الفترة، وقد نص على بعض مصادره^(٧) وبعضها اكتفى بالإشارة إليه بمثل قوله: «ذَكَرَ عَنْ...» «وقال بعضهم» «ويقولون» «وقال بعض من يعلم». و«خزاعة تقول» «وقد قالوا» و«يُحَدِّثُ عَنْ...»^(٨) - بالبناء للمجهول - أما غالب معلوماته فيبتدئ بدون الإشارة إلى مصدر معين أو مجهول. كما أنه يستشهد

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال ١٢٠/٤.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٠/١١، والواقفة: هم الذين توقفوا في مسألة خلق القرآن، فلم يقولوا: إنه منزل، كما لم يقولوا: إنه مخلوق.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال ١٢١/٤.

(٤) ابن سعد الطبقات الكبرى ٣٣٤/٧، وتاريخ بغداد ١١٤/١٣، والذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٢/١١، والميزان ١٢١/٤، وابن حجر، تهذيب التهذيب ١٠/١٦٣.

(٥) ابن النديم، الفهرست ص ١٢٢.

(٦) حققه أ. ليفي بروفنسال ونشرته بالقاهرة دار المعارف في سلسلة ذخائر العرب رقم ١١.

(٧) انظر: الصفحات ٤، ١٠٣، ١٠٦، ٣٤٠.

(٨) انظر أمثلة لذلك في: الصفحات ٤، ٨، ٩، ١٢، ١٠٢، ٢٣٧، ٣٠٨.

بالشعر، ويجعله دليلاً في بعض ما يذهب إليه من رأي في الأنساب^(١)، ويستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ولكن بقلّة^(٢). كما أنه يستعمل عبارات تدل على شكه في صحة المعلومات التي يوردها مثل قوله: «وَزَوَّروا في ذلك شعراً» وقوله: «وأحدثوا هذا الشعر» و«يزعمون» و«زعموا»^(٣).

وقد رتب كتابه على الأنساب، فبدأ بذكر نسب معد بن عدنان، وساقه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم رفعه إلى آدم عليه السلام، ثم تتبع من فروع عدنان أجداد قريش، خزيمة، وكنانة، والنضر، وفهر، وقصي، وعبد مناف، إلى عبد المطلب، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر أبناء النبي وبناته وما تفرع عنهن.

ثم عاد إلى نسب أولاد عبد المطلب، فبدأ بالعباس ثم أبي طالب وأولاده: علي، وجعفر، وعقيل، ثم ولد الحارث... إلخ، ثم ساق بقية فروع قريش حسب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الخلفاء الراشدين وأولادهم وبقية نسلهم في أول ذكره قبائلهم، ويهتم في سياقه للأنساب بذكر النساء - والأمهات والبنات - ومن تزوجهن وأولادهن، ويتتبع ذلك حتى يذكر نهاية كل ولد، ومن أعقب منهم ومن مات بدون عقب. والكتاب شامل لكثير من الأخبار التاريخية من البعثة النبوية حتى أيام المؤلف في العصر العباسي الأول، والتي قد لا يوجد بعضها عند غيره. كما أنه يحرص في غالب الأحيان على تسجيل تاريخ الوفيات، وأسبابها. وكتابه نموذج للكتابة في الأنساب والأخبار المتعلقة بها، والتي يتساهل العلماء في الرواية والتثبت فيها؛ لأنه لا يبنى عليها أحكام

(١) انظر مثلاً الصفحات ٥، ٩، ١٠، ٢٠، ٢٧، ٣٣.

(٢) انظر مثلاً الصفحات ٨، ١٢، ١٩، ٢٢، ١٠٢، ٣٠٣، ٣٢٠.

(٣) انظر عن هذه الأمثلة الصفحات ٥، ٧، ٩، ٤٤، ٢٨٧، ٣٠٨.

شرعية، ولذلك لم يلتزم الزبيري في كتابه إسناداً، ولا حتى إيضاح مصادره، وهذا يقلل ولا شك من درجة الثقة في معلوماته، خاصة إذا انفرد بشيء من ذلك.

٢ - ٢ - محمد بن حبيب النسابة (ت ٢٤٥هـ):

هو العلامة الأخباري أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي، مولاهم، وحبيب اسم أمّه، أما اسم أبيه فلا يعرف^(١)، كان مولى لمحمد بن العباس بن محمد الهاشمي، ولذلك ينسب إليهم^(٢) كما أن تاريخ ولادته غير معروف، وقد عمل في أول حياته معلماً لأولاد مولا محمد بن العباس^(٣). ويظهر أنه قد ضاق ذرعاً بهذا العمل^(٤). حدث عن هشام بن محمد الكلبي، وابن الأعرابي، وقطرب، وأبي عبيدة، وأبي اليقظان^(٥). وروى عنه محمد بن أحمد بن أبي عرابة، وأبو سعيد السكري^(٦). وقد أكثر الأخير عنه وروى كتابه المحبر.

قال الخطيب البغدادي: محمد بن حبيب صاحب كتاب المحبر. كان عالماً بالنسب وأخبار العرب موثقاً في دينه^(٧).

وقال ابن النديم: كان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والقبائل وعمل قطعة من أشعار العرب^(٨)، وقال: كان مؤدّباً،

(١) الخطيب، تاريخ بغداد ٢/٢٧٧، وياقوت، معجم الأدياء ١٨/١١٢.

(٢) ياقوت معجم الأدياء ١٨/١١٣. (٣) المصدر نفسه ١٨/١١٢.

(٤) يذكر ياقوت في معجم الأدياء ١٨/١١٢ عنه أنه كان يقول: إذا قلت للرجل: ما صناعتك؟ فقال: معلم. فاصفع. ثم أنشأ يقول:

إن المعلم لا يزال معلماً لو كان علم آدم الأسماء
من علم الصبيان صبوا عقله حتى بنى الخلفاء والخلفاء

(٥) ابن النديم، الفهرست ص ١١٩، وانظر: تاريخ بغداد ٢/٢٧٧.

(٦) الخطيب، تاريخ بغداد ٢/٢٧٧. (٧) المصدر نفسه.

(٨) ابن النديم، الفهرست ص ١١٩.

وكتبه صحيحة^(١).

وقد اتهمه المرزباني، بأنه كان يسرق كتب الناس ويدعيها، وذكر قصة في ذلك^(٢). كما ذكر محمد حميد الله: أن ابن حبيب كان يميل إلى الشيعة، ولم يجزم بذلك، وذكر بعض الملاحظات التي ربما دلت على أنه شيعي. مثل قوله عندما يذكر أبو بكر أو عمر: «رحمه الله» وإذا ذكر علي بن أبي طالب قال: «رضي الله عنه» وذلك في كتابه المحبر^(٣). ومن اطلاعي على كتاب المحبر لم أر عنده تشيعاً ظاهراً.

وقد كتب ابن حبيب كثيراً من المؤلفات^(٤)، غالبها في الأخبار والأنساب منها: المنمق في أخبار قريش، كتاب العمائر، كتاب الموشح، المحبر، غريب الحديث، الأنواء، مقاتل الفرسان، كتاب القبائل الكبير والأيام - في نيف وعشرين جزءاً - كتاب مختلف القبائل ومؤلفها، وكتاب من نسب إلى أمه من الشعراء... وغيرها.

وأغلب هذه الكتب مفقود ووجد منها كتاب المحبر وهو من جيد كتبه كما يقول ياقوت^(٥). وكتاب مختلف القبائل ومؤلفها^(٦)، وكتاب المنمق^(٧). وكتاب في من نسب من الشعراء إلى أمهاتهم^(٨). وكتاب

(١) المصدر نفسه. (٢) ياقوت، معجم الأدباء ١٨/١١٣.

(٣) انظر: كتاب المحبر لابن حبيب ص ٥٠٩، ط دائرة المعارف العثمانية.

(٤) انظر قائمة كتبه في: فهرست ابن النديم ص ١١٩، ومعجم الأدباء ١٨/١١٥ - ١١٧.

(٥) معجم الأدباء ١٨/١١٦.

(٦) طبع في أوروبا بتحقيق المستشرق وستنفلد، سنة ١٨٥٠م ثم أعيد طبعه وتحقيقه من قبل إبراهيم الإياري سنة ١٤٠٠هـ.

(٧) طبع في دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد، الدكن بالهندي (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) بتحقيق خورشيد أحمد.

(٨) يوجد منه نسخة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة، وأخرى بالقاهرة «المصدر السابق».

المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام^(١).

وسوف نحاول التعرف على منهجه من خلال كتابه المحبر. وهذا الكتاب من راوية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري^(٢) المولود سنة ٢١٢ هـ والمتوفى سنة ٢٧٥ هـ.

وهو مجموعة من الأخبار والأنساب، في طرائف الموضوعات التي تصلح مادة للسمر والتسلية الموجهة، التي لا تخلو من فائدة علمية بل ربما تكون نادرة. وليس للكتاب مقدمة توضح غرض المؤلف ومنهجه. ويشتمل الكتاب على موضوعات طريفة وهامة نذكر بعض عناوينها. مثل: «المُدُّ التي بين الأنبياء وأعمارهم» و«مبدأ تاريخ العرب ومولد النبي» و«تسمية من أقام الحج» و«الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون». وهو يحرص على ذكر من ولي الحج في كل عام، وعلى ذكر مدد حكم الخلفاء ونهاية كل واحد، وعلى ذكر أمهاتهم، وأمهاتهن ويسترسل في ذلك إلى عشر طبقات وربما إلى أكثر. «ذكر أبناء القرشيات من الخلفاء» «ذكر أبناء العربيات» «ذكر أبناء الأمهات والأولاد» «ذكر أصهار النبي ﷺ» «ذكر أصهار الخلفاء» «ذكر أزواج النبي، وغزواته ثم سراياه» ذكر من جمع القرآن، ومن شهد بدرًا، ومن شهد الجمل، ومن شهد صفين، وأصحاب شُرط الخلفاء، وأشراف الكتاب، والحمقى والعميان والعرجان والبرصان والحولان، رجل جمع أربع نسوة كلهن

(١) توجد له نسخة في عاشر أفندي (رقم ٨٧٣/١ في استانبول) «المصدر السابق» وقد طبعه عبد السلام هارون ضمن نواذر المخطوطات الجزء الثاني.

(٢) هو الحسن بن الحسين بن عبيد الله المعروف بالسكري، النحوي اللغوي الثقة المكثّر، سمع يحيى بن معين، ومحمد بن حبيب، وأخذ عنه محمد بن عبد الملك التاريخي، وكان ثقة صادقاً يقرئ القرآن وانتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه، وكان إذا جمع جمعاً فهو الغاية في الاستيعاب والكثرة. ياقوت، معجم الأدباء ٩٤/٨.

تدعى عاتكة، قريش الظواهر، قريش البطاح، فُتَّاك العرب، دهاة العرب، أصنام العرب، وأسماء المفسدين في الأرض، أسماء المنافقين، من نُصِبَ رأسه، الفرارون.. إلخ.. ولم يستعمل الإسناد. وباستثناء ما أشار إليه من اعتماده على هشام الكلبي، والواقدي، فإنه لم يوضح مصادره إلا نادراً. ويظهر أنه عَوَّل كثيراً على كتب هشام الكلبي في الأنساب والأخبار، وعلى مغازي الواقدي بالنسبة لسياق مغازي رسول الله وسراياه. وصرح بذكر الواقدي في ثلاثة مواضع^(١). أما الكلبي فقد صرح بذكره في مواضع كثيرة^(٢) خاصة في أول كتابه. كما أنه صرح بالأخذ عن بعض اليهود في أعمار الأنبياء^(٣) والمدد التي كانت بينهم، وقارن بين رواياتهم وروايات الكلبي، ووضح الاختلاف، ثم علق عليه بقوله: «فهذا التفاوت شديد في هذه الأقوال بين قول الأول وقول ابن الكلبي، والله أعلم كيف هي؟ وأيها أصح، فإني لم أقف على الأصح منها»^(٤)، وفي بعض الأحيان يشير إلى مصادره بصفة فيها جهالة مثل قوله: ذكر لي بعض من لقيته، ورؤي.. وكان فيما ذكروا^(٥). وكان من مصادره: مؤلفات الهيثم بن عدي، فقد روى عنه بواسطة أبي حاتم البجلي^(٦).

وقد رُوي هذا الكتاب من قِبَل تلميذه الحسن بن الحسين السكري، وله عليه إضافات^(٧). كما أن الكتاب قد أضيفت عليه إضافات أخرى، إذ أنه يذكر في أسماء الخلفاء أحداثاً بعد وفاة ابن حبيب ووفاة راويه السكري، فقد سَجَّل تولي المعتضد العباسي للخلافة في رجب سنة

(١) انظر الكتاب ص ٨١، ٢٩١، ٤٠٦.

(٢) انظر الصفحات ١ - ٤، ١٢، ١٣١، ٣٦٤، ٣٨٢، ٣٩٣، ٤٩٠.

(٣) انظر الكتاب ص ٢. (٤) انظر الكتاب ص ٥.

(٥) انظر الصفحات ٥، ١٨٤، ٢٩١. (٦) انظر الكتاب ص ٢.

(٧) انظر الصفحات ١٢٢، ٤١٢، ٤٧٥.

٢٧٩هـ. وبعد ذلك مباشرة ترد هذه العبارة: «قال أبو سعيد السكري أخبرني محمد بن حبيب أبو جعفر بذلك كله»^(١). . . والكتاب في عمومهِ جمع جيد بين الأنساب والأخبار، وهو مبتكر في ترتيبه وتبويبه، ويعبر عن السعة والشمول الذي بلغه التأليف التاريخي في القرن الثالث الهجري، وأن تدوين التاريخ لم يكن قاصراً على الحكام والمعارك الحربية، كما أنه يمثل التحرر من الأسانيد التي تعيق سبك الكتابة التاريخية، ولكن يبقى بعد ذلك أن نضع مثل هذا الكتاب في إطاره الذي أراده مؤلفه، وهو طرائف الأخبار، وأحاديث الأسمار، فلا نعتبره مرجعاً أصيلاً موثقاً.

(١) انظر الكتاب ص ٤٤ ولاحظ أن وفاة المؤلف سنة ٢٤٥هـ، ووفاته راويه السكري

٣ - من المؤلفين في التراجم والطبقات

٣ - ١ - محمد بن سعد الزهري (ت ٢٣٠هـ):

هو محمد بن سعد بن منيع الهاشمي مولا هم، أبو عبد الله البغدادي، كاتب الواقدي، وُلد بعد الستين ومائة بالبصرة، وطلب العلم في صباه، وسمع من هشيم بن بشير، وابن عيينة، ووكيع، وعبد الله بن نمير، والوليد بن مسلم، وإسماعيل بن عُلَيَّة، ومحمد بن عمر الواقدي، وأبي مسهر، وغيرهم. وحَدَّث عنه أبو بكر بن أبي الدنيا، والحاتر بن أسامة، والحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن فهم، والبلاذري، وأبو القاسم البغوي^(١).

قال الذهبي في التعريف به: الحافظ العلامة الحجة^(٢).

روى الخطيب أن مصعب الزبيري سأل يحيى بن معين عن حديث رواه محمد بن سعد، فقال: كذب. ثم علق الخطيب على ذلك بقوله: قلت: محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة، وحديثه يدل على صدقه؛ فإنه يتحرى في كثير من رواياته. ولعل مصعباً الزبيري ذكر ليحيى عنه حديثاً من المناكير التي يرويها الواقدي فنسبه إلى الكذب^(٣)، وقال الذهبي في الميزان: هذه لفظة ظاهرها عائد إلى الشيء المحكي، ويحتمل أن يقصد بها ابن سعد لكن ثبت أنه صدوق^(٤). ووصفه ابن

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/٦٦٤، ٦٦٥.

(٢) تاريخ بغداد ٥/٣٢١.

(٣) المصدر السابق ١٠/٦٦٤.

(٤) ميزان الاعتدال ٣/٥٦٠.

حجر بقوله: «أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرين»^(١).

قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه فقال: «يصدق، رأيته جاء إلى القواريري يسأله عن أحاديث فحدثه»^(٢). وتوفي ابن سعد ببغداد يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين، ودفن بباب الشام، وهو ابن اثنتين وستين سنة^(٣).

وقد عاصر محمد بن سعد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) الذي امتحن العلماء بالقول: بخلق القرآن. ويذكر الطبري في حوادث سنة ٢١٨هـ أن المأمون كتب إلى إسحاق بن إبراهيم في أشخاص سبعة نفر، منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي، فأشخصوا إليه فامتنحهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعاً: أن القرآن مخلوق. فأعادهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهروا أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم^(٤).

والذي يظهر أن ابن سعد كان مكرهاً على هذا القول، فقد هُدد بالقتل إن لم يُجب. ولعله تاب من ذلك؛ إذ لم نجد أحداً من علماء الجرح والتعديل يقدح في عدالته بسبب هذا الموقف، بل إنهم قبلوا قوله في جرح الرجال وتعديلهم، ونقلوا ذلك في كتبهم ومصنفاتهم.

وقد ذكر الذين ترجموا ابن سعد أن له كتباً عديدة من أشهرها: كتاب الطبقات الكبرى. وله كتاب الطبقات الصغير^(٥) وكتاب سيرة النبي ومغازيه^(٦). وقد ذكر ابن النديم أن ابن سعد «ألف كتبه من تصنيفات

(٢) الجرح والتعديل ٢٦٢/٧.

(٤) انظر: تاريخ الطبري ٦٣٤/٨.

(١) تهذيب التهذيب ١٨٢/٩.

(٣) تاريخ بغداد ٣٢٢/٥.

(٥) الذهبى، سير أعلام النبلاء ٦٦٤/١٠.

(٦) ابن النديم، الفهرست ص ١١١.

الواقدي»^(١) وهذا قول لا يستند إلى دليل، اللهم إلا إكثار ابن سعد الرواية عن شيخه الواقدي، وهذا لا يجعلنا نعتبر كتب ابن سعد نسخة مكررة عن كتب الواقدي، بدلالة تعدد موارد ابن سعد من غير طريق الواقدي، واستقلاله بأمور في جرح الرجال وتعديلهم لم تكن عند الواقدي^(٢).

وأشهر كتب ابن سعد هو كتاب الطبقات الكبرى، وفي أوله سيرة النبي ﷺ ومغازيه^(٣)، وعند ذكره للطبقة الأولى من الصحابة، وهم الذين شهدوا بدرًا. جعل أولهم محمداً ﷺ وترجم له في صفحه ونصف^(٤). ولم يشر إلى أنه خصص سيرته ومغازيه بكتاب مستقل، مما يدل على أن السيرة والمغازي التي كتبها ابن سعد لم تكن كتاباً مستقلاً إنما هي جزء من الطبقات. وحتى ابن النديم الذي ذكر أن لابن سعد كتاباً في السيرة سماه: «أخبار النبي»^(٥) قال عندما وصف كتاب الطبقات الكبرى: «بأنه يحتوي على أخبار النبي وطبقات الصحابة..»^(٦).

وقد أثنى العلماء على كتاب الطبقات الكبرى فقال الخطيب البغدادي: وصنف كتاباً كبيراً في طبقات الصحابة والتابعين والخالفين إلى وقته فأجاد فيه وأحسن^(٧)، وقال الذهبي: كان من أوعية العلم ومن نظر في الطبقات خضع لعلمه^(٨).

وقد رتب ابن سعد كتابه الطبقات ترتيباً جمع به بين عدة

(١) المصدر السابق ص ١١١.

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب: الطبقات ٦/ ٢١٠ - ٢٤٥، ٣٤٥ - ٣٥٦، ٣٥٨ - ٤١٧.

(٣) تشمل المجلدين الأول والثاني من الكتاب.

(٤) انظر ٧/ ٣ - ٨.

(٥) الفهرست ص ١١١.

(٦) الفهرست ص ١١١.

(٧) تاريخ بغداد ٥/ ٣٢١.

(٨) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٦٥.

مناهج^(١) فرتبه على الطبقات، وجعل أساس ذلك النظر إلى السابقة والفضل، ثم رتب من ترجمهم في كل طبقة على الأنساب، خاصة في طبقات الصحابة^(٢)، أما طبقات من بعد الصحابة فلم يتقيد في ترتيبهم - دائماً - داخل الطبقة بالأنساب. وإنما رتبهم على المدن التي سكنوها واستقروا بها، وأعاد ذكر الصحابة الذين سكنوا هذه المدن ما عدا أهل المدينة.

(١) راجع عن أسس تنظيم كتب علم الرجال. أكرم ضياء العمري. بحوث في تاريخ السنة المشرقة ص ١٦٤ - ٢٠٠.

(٢) جعل ابن سعد الصحابة خمس طبقات، كما ذكر ذلك السيوطي في تدريب الراوي ٢/ ٢٢١. بينما جعلهم الحاكم اثنتي عشرة طبقة، كما في معرفة علوم الحديث ص ٢٢ - ٢٤. قال العلامة أحمد محمد شاكر في الباعث الحثيث ص ١٨٤: «وزاد بعضهم أكثر من ذلك، والمشهور ما ذهب إليه الحاكم. وحيث أن النسخة المطبوعة من طبقات ابن سعد غير كاملة، فإننا لا نستطيع منها تبين طريقته في تقسيمهم إلى خمس طبقات». اهـ. وبالرجوع إلى صورة المخطوطة الكاملة ومقارنتها مع المطبوعة. اتضح صحة قول الإمام السيوطي أن ابن سعد جعلهم خمس طبقات، وتبين طريقته في تقسيمهم، وهي كما يلي:

الطبقة الأولى: من شهد بدرًا.

الطبقة الثانية: من لهم إسلام قديم ولم يشهدوا بدرًا، ومن شهد أحدًا.

الطبقة الثالثة: الذين أسلموا قبل فتح مكة.

الطبقة الرابعة: مسلمة الفتح ومن أسلم بعدهم. وهذه الطبقة غير موجودة في النسخة المطبوعة من الطبقات.

الطبقة الخامسة: هم الذين توفي رسول الله ﷺ وهم أحداث الأسنان. مثل الحسن، والحسين، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس.

وقد اتبع ابن الجوزي في كتابه: صفة الصفوة، تقسيم ابن سعد للصحابة في الفضل والسابقة، فقسَّمهم إلى خمس طبقات، هي نفس التقسيم السابق، بل اتفق مع ابن سعد في أسماء المترجمين في كل طبقة، وكلاهما جعل العباس بن عبد المطلب في الطبقة الثانية. وهو لم يسلم على الرواية المشهورة إلا قبيل الفتح. مما يمكننا القول: إن ابن الجوزي أخذ هذا التقسيم من ابن سعد وكانت لديه نسخة كاملة من الطبقات فاختر من كل طبقة ما يناسب كتابه.

وبعد أن ذكر طبقات الصحابة ذكر طبقات التابعين من أهل المدينة، وجعلهم سبع طبقات، وقد يرتبهم في داخل كل طبقة حسب الأنساب. ثم ذكر من سكن مكة من الصحابة، وذكر طبقات التابعين من أهل مكة، وجعلهم خمس طبقات. ثم ذكر من نزل الطائف من الصحابة وأتبعهم بالفقهاء والمحدثين من أهل الطائف، وعلى هذا المنوال سار في تعداد المدن الإسلامية ومن سكنها من الصحابة، ثم من جاء بعدهم ممن يُروى عنه العلم. وقد لاحظ في ترتيبه للمدن الموقع الجغرافي مع النظر إلى الأهمية العلمية للمدينة، فذكر بعد المدينة، مكة، ثم الطائف، ثم اليمن، ثم اليمامة، ثم البحرين، وهذه كلها بالجزيرة. ثم ذكر الكوفة، والبصرة، وواسط، والمدائن، وبغداد، وخراسان، والري، وهمدان، وقم، والأنبار، وهي من بلاد المشرق. ثم ذكر المدن في مغرب الخلافة فذكر بلاد الشام ثم بلاد الجزيرة ثم أهل العواصم والثغور، ثم مصر، ثم أيلة، ثم أفريقية، ثم الأندلس. وقد خصص القسم الأخير من كتابه^(١) للنساء. فبدأ بنات النبي وعماته، ثم زوجاته ثم المهاجرات ثم نساء الأنصار ثم النساء اللواتي روين عن أزواج النبي وغيرهن من التابعيات.

ولم يفصل ابن سعد بين طبقات التابعين وأتباع التابعين ومن بعدهم بفواصل واضحة، ولكنه لاحظ عنصر الزمن في ترتيب الطبقات في كل مدينة، ولم يحدد عمر الطبقة بسنوات معينة، وإنما لاحظ «اللقي» خاصة دون المعاصرة.

ومنهج ابن سعد في القسم الأول الذي خصصه للسيرة والمغازي، لا يبعد عن منهج مدرسة ابن إسحاق في دراسة السيرة، فقد جمع

(١) يشمل كامل الجزء الثامن من طبعة بيروت.

الأسانيد^(١)، كما أنه نقل أسانيد أستاذه الواقدي^(٢)، وقد أخذ من مغازي ابن إسحاق عن غير طريق شيخه الواقدي، فقد روى من طريق رويم بن يزيد المقرئ، عن هارون بن أبي عيسى، عن محمد بن إسحاق^(٣)، كما أخذها من طريق عبد الله بن إدريس الأودي، عن ابن إسحاق^(٤)، ومن طريق عبد الله بن عمرو بن معمر، عن عبد الوارث بن سعيد، عن ابن إسحاق^(٥)، ومن طريق أحمد بن أيوب، عن إبراهيم بن سعد، عن ابن إسحاق^(٦).

كما أخذ من مغازي موسى بن عقبة من غير طريق شيخه^(٧)، وأيضاً مغازي أبي معشر السندي^(٨).

وطريقته هي سياق الخبر الرئيسي عن الغزوة، والذي يرويه عن مجموعة الرواة الذين ذكرهم، في أول حديثه عن الغزوات ثم يكمل الحديث بروايات مفردة من مصادر متعددة يسوقها بأسانيدها، ويلاحظ أنه إذا عاد لرواية الجماعة يقدم ذلك بقوله: «قالوا»^(٩).

وإذا بدأ في الحديث عن غزوة جديدة فإنه لا يعيد الأسانيد مجموعة كما يفعل الواقدي، وإنما يعطف على ذلك بقوله: «ثم غزوة كذا أو ثم سرية كذا»^(١٠).

وقد سار ابن سعد شوطاً في رواية السيرة وسبكها في قصة مترابطة

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٥/٢، ٦/٣.

(٢) المصدر نفسه ٩١/١، ١١٨، ١١٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٦، ٢١٧، ٢٣٨، ٢٥٨.

(٣) المصدر نفسه ٥١/١، ٥/٢. (٤) المصدر نفسه ٥/٢، ٥٥.

(٥) المصدر نفسه ١٢٤/٢. (٦) المصدر نفسه ٦/٣.

(٧) المصدر نفسه ٦/٣. (٨) المصدر نفسه ٥/٣.

(٩) المصدر نفسه ٦/٢، ١١، ٣٦.

(١٠) المصدر نفسه ٧/٢، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠.

الحلقات، يسهل على عامة الناس دراستها واستذكارها دون أن تشغلهم كثرة الأسانيد التي تقطع مثل هذا الترابط الموضوعي.

أما في قسم الطبقات فإنه يذكر أيضاً الأسانيد مجموعة عند ذكره لأول الطبقة، ثم يذكر الروايات مفردة في كل ترجمة، ويقل استعماله للأسانيد في الأجزاء الأخيرة من الكتاب، خاصة التراجم القصيرة^(١).

وقد استفاد ابن سعد من طريقة الواقدي في الاهتمام بتحديد المواقع جغرافياً، ونظرته النقدية أفضل ممن سبقوه؛ فقد استخدم أسلوب المعارضة بين الروايات^(٢) ثم يرجح، وينقد الروايات بعبارات مقتضبة قريبة من عبارات الواقدي، كقوله: وهذا الثبت أنه يوم الجمعة^(٣) و«الأول أثبت»^(٤) كما أنه كان يرجع إلى بعض المصادر الأولية مثل قوله: نظرنا في كتاب نسب الأنصار فلم نجد نسبه فيه^(٥) وهذا يدل على أنه كان يرجع إلى قوائم الأنساب وبعض الكتب والوثائق ليؤكد معلوماته.

ولمحمد بن سعد مشاركة في الجرح والتعديل فقد بين رأيه في الرجال توثيقاً وتجريحاً، وقد أخذ بقوله كثير من النقاد ووافقه على ذلك

(١) انظر: الطبقات ٢٢٦/٧، ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤٠، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٣.

(٢) المصدر نفسه ٢٤٥/٣، ٤٤٧، ٤٤٩، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٨٢، ٥٨٣، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٢٦، ٦٢٧.

(٣) المصدر نفسه ٢١/٢، وانظر أيضاً ٣٧٥/٣، ٥٧٧، ٥٨٤، ٦١٤.

(٤) المصدر نفسه ٦٤/٢ لكن ما رجحه ابن سعد هنا هو خلاف الصحيح، انظر: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٤٣١/٧، وذلك في قصة إغارة الرسول ﷺ على بني المصطلق وهم غارون كما في صحيح البخاري. ولهذا قال الحافظ في الفتح ٤٣١/٧: والحكم بكون الذي في السير أثبت مما في الصحيح مردود ولا سيما مع إمكان الجمع.

(٥) الطبقات ٢٢٦/٣.

وهو لم يكن من المتشددین في النقد ولا من المتساهلين^(١).

٣ - ٢ - أبو زرعة الدمشقي (ت ٢٨١هـ):

عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري أبو زرعة الدمشقي شيخ الشام في وقته^(٢). ولد في حدود المائتين^(٣) وعاش قرابة ثمانين سنة. وتلقى تعليمه الأولي بدمشق ثم رحل كما هي عادة العلماء في ذلك الزمان في طلب العلم ودخل بغداد وأقام بها زمناً وروى فيها عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين^(٤) وغيرهم، ورحل أيضاً إلى مدن الشام وإلى الحجاز^(٥). وروى عن محمد بن المبارك الصوري، وعبد الرحمن بن جعفر الرقي، وأبي مسهر الغساني، وعفان، وأبي نعيم، ومحمد بن عائد، وأحمد بن خالد الوهبي، وسعيد بن منصور، وسليمان بن حرب، وغيرهم^(٦).

وروى عنه أبو داود صاحب السنن، ويعقوب بن سفيان، وهو من أقرانه. وابن أبي حاتم، وأبو جعفر الطحاوي، وأبو العباس الأصم، وأبو القاسم الطبراني^(٧)، وأبو بكر الخلال^(٨). وقد لقبه أحمد بن الحواري «بشيخ الشباب»^(٩) لما رأى من حرصه على العلم وتقديمه فيه. قال ابن أبي حاتم: كان رفيق أبي وكتب عنه وكتبنا عنه، وكان صدوقاً

(١) إليك نموذج من عباراته في نقد الرجال: ثقة إن شاء الله، وكان قليل الحديث، وكان ثقة مأموناً ثبتاً، وكان شيخاً، ليس بذاك اختلط في آخره، كثير الغلط كان مرجئاً، صاحب سنة وجماعة، كان ضعيفاً جداً، صالح الحديث صدوق.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٣٦/٦.

(٣) شكر الله القوجاني، مقدمة تاريخ أبي زرعة ص ٢٨.

(٤) أبو يعلى، طبقات الحنابلة ٢٠٥/١. (٥) المصدر السابق ٢٠٥/١.

(٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٣٦/٦. (٧) المصدر نفسه ٢٣٧/٦.

(٨) أبو يعلى، طبقات الحنابلة ٢٠٥/١. (٩) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٦٢٤/٢.

ثقة^(١)، وقال أيضاً: سئل عنه أبي فقال: صدوق^(٢). وقال أبو بكر الخلال: إمام في زمانه رفيع القدر حافظ عالم بالحديث والرجال وصنف من حديث الشام ما لم يصنفه أحد^(٣). وقد كانت وفاة أبي زرعة سنة ٢٨١هـ وقيل: ٢٨٠هـ^(٤).

مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة ذكر منها محقق كتاب تاريخ أبي زرعة خمسة وعشرين كتاباً^(٥)، من أهمها لموضوع بحثنا كتاب الطبقات، لكن لا يعرف له وجود، وكتاب التاريخ^(٦).

ويمكن القول: بأن منهج أبي زرعة في ترتيب كتاب التاريخ غير واضح لأن الكتاب فيما يبدو لم ينقحه مؤلفه وإنما بقي مسودة غير مرتبة، ويدل على هذا قول تلميذه أبي بكر الخلال الذي ذكر بأنه «جمع كتاباً لنفسه في التاريخ وعَلَّلَ الرجال»^(٧) مما يدل على أنه جمع الكتاب لنفسه ليكون بمثابة المذكرة أو الفهرس ليرجع له في تدريسه وتأليفه. ولا يعترض على هذا بأن الخلال ذكر أنه سمعه منه. لأن الخلال كان من خواص تلاميذه فربما يسمع منه في مجالس خاصة بعض مؤلفاته وإن لم تنقح.

ولذلك نجد في الكتاب عدم الترتيب والتنسيق إضافة إلى كثرة التكرار^(٨).

(١) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢٦٧/٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أبو يعلى، طبقات الحنابلة ٥٠٢/١.

(٤) أبو يعلى، طبقات الحنابلة ٢٠٦/١.

(٥) شكر الله القوجاني، مقدمة تاريخ أبي زرعة ص ٥٠ - ٥١.

(٦) انظر المصدر السابق ص ٥٤ - ٥٥.

(٧) أبو يعلى، طبقات الحنابلة ٢٠٥/١. (٨) راجع فهرس موضوعات الكتاب.

وكتابه جمع بين الأخبار التاريخية، والترجمة الموجزة لبعض الصحابة والتابعين ورواة الحديث، وكان يحرص في ذكر الرجال على بيان سماع بعضهم من بعض، ومعاصرتهم لبعض، ليكون معيناً على معرفة علل الحديث واتصال أسانيدھا من عدمه، كما أنه قد أفرد أخبار بعض الشخصيات بالذكر مثل أخبار عبد الله بن بسر^(١)، ووفاة فاطمة بنت رسول الله ﷺ^(٢)، وأخبار أسماء بنت أبي بكر^(٣)، وأخبار محمد بن إسحاق^(٤)، والنقباء في بيعة العقبة^(٥).

وعند استعراض موضوعات الكتاب، يتبين أنه لم يرتب وفق أي من المناهج المعروفة في عصر أبي زرعة، فهو لم يرتب تراجمه على الطبقات أو على تاريخ الوفيات، أو على أسماء المدن، أو على حروف المعجم، أو على الأنساب.

وحتى الحوادث التاريخية لم تكن مرتبة ترتيباً تاريخياً دقيقاً، لقد بدأ أبو زرعة كتابه بذكر مولد النبي ﷺ وإقامته في مكة ومبعثه ثم ذكر وفاته وسنّته ثم شيبته ثم ذكر دفنه ونسبه ونعته ﷺ، ثم تاريخ مغازيه وبعد ذلك عقد باباً للتاريخ ثم ذكر خلافة أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، ووصل بخلافة عثمان رضي الله عنه الأحداث في خلافة معاوية وأسماء من كان في عهده من كبار الصحابة والتابعين، ولم يذكر خلافة علي بن أبي طالب بل استمر في ذكر خلفاء بني أمية حتى آخرهم ثم سرد أسماء الخلفاء العباسيين إلى هارون الرشيد، ثم ذكر أسماء من تولى القضاء في دمشق وفلسطين ومرو، ثم عاد لذكر الوقائع التي كانت بالشام في خلافة أبي بكر وعمر، ومن أصيب في هذه الوقائع من المسلمين، وأسماء من توفي

(١) انظر: كتاب التاريخ ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه ٤٩٦.

(٤) المصدر نفسه ٥٣٧.

(٥) المصدر نفسه ٥٧٥.

بالشام من أصحاب رسول الله، ثم أتبع ذلك بوفيات التابعين ومن بعدهم من أهل العلم والرواية، وأطال في هذا حيث تشكل هذه المعلومات ثلث الكتاب تقريباً.

ثم يعود مرة أخرى فيذكر أزواج النبي، ثم أخبار أسماء بنت أبي بكر، ثم يعقد فصلاً في أخبار مجالسة العلماء والمذاكرة بالعلم، ثم يذكر أسماء النقباء من الأنصار في بيعة العقبة ثم يجعل فصلاً في ذكر من غير اسمه، وقد ضمن هذا الفصل بعض الأخبار التي ليست داخلية تحت العنوان ثم يعود مرة أخرى فيذكر من مات من أصحاب رسول الله والتابعين بالشام، ثم يتبع ذلك بموضوع يجعل عنوانه حكايات ثم يختم الكتاب بأخبار أبي عمرو الأوزاعي.

ومن هذا العرض لبعض عناوين موضوعات الكتاب يتضح أنه غير مرتب، ويحتاج إلى تنسيق. غير أن أبا زرعة له جوانب جيدة في تدوين معلوماته، من أبرزها: التزامه الشديد بالإسناد لكل نص يورده سواء كان النص حديثاً نبوياً أو أثراً أو خبراً تاريخياً، حتى وفيات الرواة وأسماء من عاصروهم أو التقوا بهم تأتي مسندة.

وأسانيد ليست طويلة، ورجاله معروفون وغالبهم من الثقات. والأسانيد متصلة في الأغلب الأعم^(١)، وهو يستخرج بعض الفوائد والأدلة من الأخبار^(٢)، كما يرجح بعض الروايات المتعارضة عن أمر واحد^(٣)، وهو في عرضه لمواده في التراجم نجد أنه يركز مرة على سني

(١) توجد بعض الأسانيد غير المتصلة وهي قليلة جداً بالنسبة لما حواه الكتاب إذ به حسب ترقيم المحقق ٢٣٣٠ نصاً مسنداً، وانظر على سبيل المثال: الصفحات ٢٤٢/١، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣٧٦، ٣٧٧.

(٢) انظر ٣٣١/١.

(٣) انظر ١٨٤/١ مع ما في ١٨٦/١ عن غزو معاوية لجزيرة «قبرص».

الوفيات^(١)، ومرة على كتابة العلم^(٢) وتدوينه، وأخرى على بيان هيئات الرواة وصفاتهم^(٣)، ومرة على توثيقهم أو جرحهم^(٤)، ومرة سؤالات يوردها هو على شيوخه عن بعض الرواة فيدون إجاباتهم وحكمهم عليهم^(٥)، ومرة عن الفتيا والمفتين وخطر الفتيا، وكل هذه الأمور مهمة في معرفة عدالة الراوي، ومعرفة علل الأسانيد، ولذلك وصف أبو بكر الخلال كتابه بأنه في التاريخ وعلل الرجال.

وقد تفرد بمعلومات تاريخية وعلمية تبين صلات العلماء مع بعضهم وعلاقاتهم مع السلطة. والمعلومات التي يقدمها توضح بعد ذلك حالة المجتمع الإسلامي خلال القرون الثلاثة الأولى. وأخبار أبي زرعة مهمة لأمرين أولهما: أنه يوردها معززة بالأسانيد الجيدة. وثانيهما: أنه من الثقات.

٣ - ٣ - وكيع القاضي (ت ٣٠٦هـ):

هو محمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد الضبي القاضي المعروف بوكيع، وكنيته أبو بكر. كان عالماً فاضلاً عارفاً بالسير وأيام الناس وأخبارهم، وله مصنفات كثيرة، وكان حسن الأخبار^(٦)، حدث عن الزبير بن بكار، وأبي حذافة السهمي، والحسن بن عرفة، والعلاء بن سالم، ومحمد بن عبد الرحمن الصيرفي، والعباس بن محمد الدوري، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وابن أبي خيثمة، وغيرهم.

(١) انظر الصفحات ٢٥٠/١ - ٢٥٧، ٢٧٦ - ٣٨٩، ٦٨٨/٢ - ٧١٤.

(٢) انظر ٢٦٤/١، ٢٦٥، ٣٦٢ - ٣٦٥، ٤١٢.

(٣) ٣٥١/١، ٥٨٢، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١١، ٦٦٥.

(٤) ٣٧٧/١ - ٣٨٥.

(٥) ٣٩٣/١ - ٣٩٧، ٤٥٣، ٤٥٦، ٤٥٧ - ٤٦٧.

(٦) الخطيب، تاريخ بغداد ٢٣٦/٥.

وروى عنه أحمد بن كامل القاضي، وأبو طالب البهلول، وعلي بن محمد بن لؤلؤ، ومحمد بن عمر الجعابي، وغيرهم^(١).

تقلد القضاء على كور الأهواز كلها^(٢). وتوفي ببغداد يوم الأحد لستّ بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثمائة^(٣).

تحدث عنه الحافظ الدارقطني فقال: أبو بكر محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي البغدادي، كان فاضلاً نبيلاً فصيحاً من أهل القرآن والفقه والنحو^(٤).

وقال أبو الحسين بن المنادي: «أقلّ الناس عنه ليلين شهر به»^(٥)، وقال الذهبي: هو صدوق إن شاء الله^(٦).

وقد وصفه الخطيب البغدادي بأنه كثير التصنيف، وذكر من مؤلفاته: «كتاب الطريق، وكتاب الشريف»، «وكتاب عدد آي القرآن والاختلاف فيه»، «وأخبار القضاة» والمكاييل والموازين^(٧) والذي وصل إلينا من مؤلفاته، هو كتاب أخبار القضاة، وقد طبع في ثلاثة مجلدات، وهذا الكتاب جمع فيه مؤلفه أخبار القضاة في الدولة الإسلامية من حياة الرسول ﷺ إلى وقته في نهاية القرن الثالث الهجري، ووضع لكتابه مقدمة بين فيها غرضه من تأليف الكتاب وطريقته في ترتيبه، وأتبع ذلك بالحديث عن عظم مسؤولية القاضي وما جاء من الأحاديث والآيات التي شددت في ذلك، وتحدث عن الرشوة وخطورها، وعن التحذير من طلب الولاية، وأوضح صفة القاضي، ومن ينبغي أن يستعمل

(١) المصدر السابق ٢٣٦/٥، ٢٣٧. (٢) المصدر نفسه ٢٣٧/٥.

(٣) المصدر نفسه ٢٣٧/٥.

(٤) ابن حجر، لسان الميزان ١٥٧/٥.

(٥) الذهبي، ميزان الاعتدال ٥٣٨/٣. (٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٧) الخطيب، تاريخ بغداد ٢٣٦/٥ - ٢٣٧.

على القضاء، ثم دخل إلى موضوع الكتاب الرئيسي فبدأ بالكلام عن القضاء على عهد رسول الله ﷺ.

ومنهج وكيع في كتابه يمكن تبينه من خلال جملة صفات منها: التزامه بالإسناد، وغالبه بصيغة التحديث أو الإخبار «حدثنا - أخبرنا» وخاصة في الأحاديث النبوية، وفي مرويات القضاة الذين يترجم لهم. أما الأحداث التي تتعلق بتاريخ ولاية القاضي واسمه ونسبه، فإنه لا يلتزم فيها بالإسناد دائماً فهو يسند بعضها ويترك بعضها^(١) ويبدو أنه يأخذ مثل هذه المعلومات من كتب تحت يده^(٢). كما أنه يعلق على بعض الأخبار من عنده ويسبق ذلك بقوله: «قال أبو بكر»^(٣) وإذا صادفته روايات متعددة فإنه يذكرها ويرجح بعضها^(٤)، وبعضها لا يرجحه بل يتركه^(٥). وهو ينقد الأحاديث ويبين عللها^(٦) ولكن بقلّة، كما أنه ينتقد الرجال ويوضح رأيه فيهم^(٧). وقد ينقل أقوال علماء الجرح والتعديل أمثال يحيى بن معين، وعلي بن المديني، وابن أبي شبة^(٨).

وعناصر الترجمة عنده للقاضي، تتكون في الغالب^(٩) من سياق نسبه، وذكر تاريخ ولايته القضاء، وتاريخ عزله إذا عزل أو وفاته. ويذكر

(١) انظر على سبيل المثال: أخبار القضاة ١/١٢٣، ١٢٤، ٢٣٣، ٣/٣٢٠ - ٣٢٢.

(٢) انظر ١/١١٤ فقد روى عن كتب محمد بن عمر الواقدي.

(٣) انظر ١/١٥١، ٢/١٨٤، ١٨٥. (٤) انظر ١/١١٤، ٣/٣٦.

(٥) انظر ١/١١٦، ٢٨٨ - ٢٨٩. (٦) انظر ١/١٠، ١٣.

(٧) انظر ١/٤٧، ٢٠١، ٢٤٠، ٢٤٤.

(٨) انظر ٣/١٣٢ - ١٣٣، ١٨٩، ١٩١.

(٩) بعض القضاة لا يذكر إلا اسمه فقط خاصة في قضاة مكة، وبغداد، وأفريقية، والأندلس.

نماذج من قضاياه، وما صار له في الولاية من المواقف البارزة، ثم يذكر مروياته من الأحاديث النبوية إذا كان له رواية ويطيل في ذلك أو يقصر حسب المعلومات المتوفرة لديه وحسب منزلة القاضي عند علماء الحديث وإذا كان أكثر من الرواية مشهوراً كبعض الصحابة مثل علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، ومثل كبار التابعين، كالشعبي، والحسن البصري، فإنه يقتصر على ذكر أخبارهم مدة ولايتهم ولا يذكر مروياتهم في الحديث النبوي لكثرتها وشهرتها، وقد نص على ذلك في مقدمته^(١).

وإذا كان القاضي قد تولى القضاء في بلد واحد أكثر من مرة فإنه يشير إلى ذلك في موضعه على حسب التسلسل التاريخي. وإذا تولى القضاء في أكثر من مدينة فإنه يترجم له في أول مرة، وإذا جاء على ذكره في البلد الثاني يذكر ما كان في هذه الولاية، ويشير إلى أنه سبق أن استقصى أخباره^(٢).

وقد جمع وكيع في تنظيم كتابه بين الترتيب على المدن وبين التسلسل التاريخي، فقد بدأ بقضاة المدينة من عهد النبي ﷺ وطوال الخلافة الراشدة، ثم انتقل إلى قضاة العهد الأموي، ثم العباسي إلى سنة ٣٠١هـ^(٣). ثم ذكر معلومات يسيرة عن قضاة مكة والطائف واعتذر عن ذلك بقوله: «لم ينته إلينا أخبار قضاة مكة على التأليف فأخرجت ما انتهى إليّ من أخبار من ولي القضاء بها متفرقاً»^(٤)، وتوسع في قضاة البصرة مثل توسعه في قضاة المدينة. ثم ذكر قضاة الكوفة وأطال في

(١) انظر: مقدمة المؤلف ٥/١. (٢) انظر مثلاً ٣/١٨٨، ١٩٠.

(٣) انظر ١/٢٦١ وذكر أن الفترة من سنة ١٢٦هـ - ٢٣٦هـ كانت فترة المحنة بخلق القرآن ولم يذكر القضاء فيها.

(٤) انظر ١/٢٦١.

ترجمة شريح القاضي، وابن شبرمة^(١)، ثم ذكر قضاة أهل الشام. دمشق، وفلسطين، وأفريقية، والأردن، ثم الأندلس، وحران، ثم الموصل. وذكر قضاة مصر منذ فتحها.

ثم ذكر قضاة بغداد، وقاضي القضاة بِسْرَ مَنْ رَأَى، (سامراء) ثم تعرض لذكر قضاة النواحي المتفرقة، فذكر المدائن، وخراسان، ومرو، وواسط، والأهواز. والملاحظ أنه أوجز في تراجم القسم الأخير من كتابه^(٢)، بل إنه يكتفي بتقديم قوائم بأسماء من ولي القضاء ببعض المدن التي ذكرها. والكتاب عموماً تسجيل تاريخي لسيادة العمل بالشرعية، وتنفيذها في المدن الإسلامية خلال ثلاثة قرون كاملة، كما أنه لم يغفل تسجيل بعض الهنات وجوانب التقصير التي تحدثت من جانب بعض القضاة، وكذلك محاولات بعض الحكام التدخل في شؤون القضاء.

وبالنسبة للمنهج التاريخي فإن كتاب القاضي وكيع لا يضيف جديداً وإنما التزم بالسلمات العامة لمنهج المؤرخين في عصره، من الإسناد، والترتيب التاريخي، والاكتفاء بالنقد اليسير، والاستشهاد بالشعر، وإن كان لم يسلك مسلكهم في جمع الأسانيد أو الاكتفاء بالإشارة في أول الكتاب إلى المصادر التي استقى منها معلوماته.

(١) شغلت ترجمة شريح الصفحات ١٨٩ - ٣٩٩ من المجلد الثالث وابن شبرمة من ٣٦ - ١٣٠ من المجلد الثالث.

(٢) خصص لقضاة الشام، ومصر، والمغرب، وبغداد، والمشرق، (١٢٣) صفحة فقط. تشغل الصفحات ١٩٩ - ٣٢٢ من المجلد الثالث.

٤ - من المؤلفين في فتوح البلدان

٤ - ١ - ابن عبد الحكم المصري (ت ٢٥٧هـ):

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري ولادةً ووفاءً. وتاريخ ولادته غير معروف، ولكن يمكن أن نستنتج ذلك طالما عرفنا عمره وتاريخ وفاته الذي كان في سنة ٢٥٧هـ عن نحو سبعين سنة^(١)، وبذلك تكون ولادته في حدود سنة ١٨٧هـ، وقد نشأ في بيت علم، فقد كان والده فقيهاً كبيراً، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي^(٢)، وله مؤلفات في الفقه، وكتاب في سيرة عمر بن عبد العزيز^(٣)، كما أن إخوته الثلاثة: عبد الحكم، ومحمداً، وسعداً، قد اشتهروا بالعلم في الفقه والحديث ولهم تصانيف في ذلك^(٤)، وقد تلقى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم العلم والرواية عن أبيه، وشعيب بن الليث، وشعيب بن يحيى التجيبي، وأشهب، وأسد بن موسى، وسعيد بن أبي مريم، وأبي صالح كاتب الليث، وسعيد بن عفير، وسعيد بن تليد، وعلي بن معبد الرقي، والنضر بن عبد الجبار،

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٦/٢٠٨.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة ١/٥٠٣.

(٣) هذا الكتاب مطبوع بتحقيق أحمد عبيد عدة طبعات آخر ما اطلعت عليه الطبعة الخامسة عن دار العلم للملايين ببيروت.

(٤) قد كان لهذه الأسرة موقف جيد من فتنة القول بخلق القرآن حتى أن أحدهم وهو عبد الحكم قد استشهد في السجن، انظر: السيوطي، حسن المحاضرة ١/٤٤٧.

وأبي زرعة وغيرهم^(١). وروى عنه النسائي، وأبو حاتم، وعلي بن أحمد علان، وعمرو بن أبي الطاهر، ومكحول البيروتي، وأبو بكر الباغندي، وعلي بن الحسن بن قديد، وغيره^(٢).

قال ابن أبي حاتم: كتب عنه أبي بمصر في الرحلة الثانية وروى عنه، وهو صدوق، وقال: سئل عنه أبي فقال: صدوق^(٣)، وقال النسائي: لا بأس به^(٤)، وقال ابن يونس: كان فقيهاً والأغلب عليه الحديث والأخبار^(٥)، وقال القضاعي: كان من أهل الحديث عالماً بالتواريخ، صنف تاريخ مصر وغيره^(٦).. وقال ابن حجر: ذكره ابن حبان في الثقات^(٧)، وأشهر مؤلفات ابن عبد الحكم كتاب «فتوح مصر والمغرب»^(٨)، وقد سماه ابن خير الأشبيلي في فهرسته «فتوح مصر وأفريقية»^(٩)، أما السيوطي فقد سماه «فتوح مصر»^(١٠) وهو أقدم ما وصل إلينا من المؤلفات في فتوح مصر. وقد قسم مادة كتابه إلى سبعة أقسام^(١١)، خصص القسم الأول للبحث في فضائل مصر وموجز تاريخها إلى دخول الإسلام لها، وأورد في هذا القسم كثيراً من الأحاديث التي يرويها مسندة، منها المرفوع، ومنها الموقوف، وغالبها من الروايات

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٠٨/٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢٥٧/٥.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٠٨/٦.

(٥) المصدر السابق نفسه. (٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) وقد وضع العنوان هكذا على القسم التاريخي الذي طبع بمصر بتحقيق عبد المنعم عامر، وهو نفس العنوان المثبت على الصفحة الأولى من المخطوطة.

(٩) انظر: فهرست ابن خير ص ٢٤٨. (١٠) حسن المحاضرة ٣/١، ٤٤٦.

(١١) انظر: مقدمة المحقق ص: ن، س.

الإسرائيلية^(١). ومن المعروف أن أحاديث فضائل البلدان والقبائل والأجناس من أكثر الأبواب التي راجت فيها الأحاديث الضعيفة والموضوعة والقصص والحكايات المتلقاة عن أهل الكتاب، ولكن ليست كلها بهذه الصفة بل منها أحاديث صحيحة كما في فضائل مصر^(٢).

أما القسم الثاني فقد أورد فيه أخبار الفتح الإسلامي لبلاد مصر بقيادة عمرو بن العاص السهمي.

وفي القسم الثالث: تحدث عن خطط مصر التي أقامها المسلمون في الفسطاط وغيرها من البلاد المصرية، وعن الخراج ومقداره وكيفية جبايته، وعن النيل وأحواله وإصلاح عمرو بن العاص فيه وحفره لخليج أمير المؤمنين. وبذلك قدم ابن عبد الحكم أول دراسة عمرانية واقتصادية لبلاد مصر في العهد الإسلامي.

وفي القسم الرابع تحدث عن أحوال مصر تحت إدارة عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وجهودهما في فتح بعض البلدان الأخرى مثل الفيوم، وبرقة، وطرابلس، وبلاد النوبة، والغزو في البحر، وطرده الروم من الإسكندرية.

أما القسم الخامس فقد خصصه للكلام عن أخبار فتح أفريقيا والأندلس وأسماء القادة الذين تولوا ذلك.

وخصص القسم السادس لتاريخ القضاة الذين تولوا القضاء بمصر منذ الفتح حتى سنة ٢٤٦هـ.

أما القسم السابع، وهو أكبر أقسام الكتاب، فقد أفرده لمرويات

(١) مثل حديث موسى مع عوج، انظر ص ٣٩.

(٢) حديث وصية الرسول بأهل مصر، وإخباره بأنها ستفتح. رواه مسلم رقم ٢٥٤٣. وهناك أحاديث أخرى في فضائلها رواها ابن عبد الحكم وصحح السيوطي بعضها في كتاب حسن المحاضرة ١/ ١٢.

الصحابة الذين دخلوا مصر من الأحاديث النبوية، وذكر أن عددهم ٥٢ صحابياً، بدأهم بعمر بن العاص فاتح مصر، وهذا القسم يعتبر مسنداً لأحاديث الصحابة الذين دخلوا مصر.

وقد نُشرَ من الكتاب الجزء التاريخي^(١) وهو يشمل الأقسام الخمسة الأولى وسنقدم دراسة عن منهجه في هذا الجزء.

والكتاب منسق ومرتب ترتيباً تاريخياً، ويعتمد على سياق الروايات مسندة إلى روايتها، لكن يلاحظ أنه قدم روايات أساسية تشكل الموضوع الرئيسي يسوقها في أول الحديث ثم يكملها بروايات مفردة. وإذا كانت هناك روايات تخالف هذه الرواية الأساسية التي اعتمدها أو تزيد عليها فإنه يذكرها بعد ذلك مسبقة بقوله: «قال غير...»^(٢) أو «قال...»^(٣) فيذكر صاحب الرواية وسنده فيها وإذا انتهى من سياق ذلك قال: رجع إلى حديث عثمان بن صالح...^(٤)، إلى حديث أسد بن موسى...^(٥)، إلى حديث يحيى بن أيوب وخالد بن حميد...^(٦)، مثلاً.

وهذه الطريقة في اعتماد روايات أساسية ثم ذكر ما يزيد عليها أو يخالفها نجدها عند الطبري، وهي خطوة مهمة في التطور الحاصل في

(١) وَعَدَّ الأستاذ عبد المنعم عامر الذي حقق القسم التاريخي بإخراج القسم الثاني الخاص بالقضاة ومسانيد الصحابة الذين دخلوا مصر، ولا أعلم هل طبع القسم الثاني أم لا؟

(٢) من الأمثلة على ذلك. قال غير سعيد بن عفير ص ٨٦ وقال غير وهب ٨٨، ٨٩ قال غير ابن لهيعة ١٧٦ قال غير عثمان بن صالح ٤١، ٩٢، ٩٤.

(٣) انظر على سبيل المثال: الصفحات ٢٣١ - ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٦، ٢٤٧.

(٤) انظر على سبيل المثال: الصفحات ١١، ١٢، ١٨، ١٩، ٢٨، ٢٩، ٣٥، ٤٠، ٥٠، ٥٢، ٨٦، ٨١، ١٠٩، ١١٢، ١١٣، ٢٤٦.

(٥) انظر مثلاً ص ١٤، ٣٦.

(٦) انظر مثلاً ص ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢.

الكتابة التاريخية، تتضح أهميتها في ربط الأحداث مع بعضها وسياقها في مساق واحد؛ لأن كثرة الأسانيد تسبب إرباكاً وتقطع أو تشوش التسلسل التاريخي للحادثة.

وقد جمع ابن عبد الحكم الأسانيد أحياناً^(١)، ونقده قليل جداً^(٢)، ويذكر اختلاف الروايات في الحادث الواحد ثم يتركها بدون ترجيح، ربما لعدم ظهور ذلك له ويختتم ذلك بقوله: «الله أعلم»^(٣). ولكن غالب أسانيد مستقيمة ورجالها معروفون، فقد حدث عن أبيه^(٤)، وعن أشهب^(٥)، وأسد بن موسى^(٦)، وأبي صالح^(٧) كاتب الليث، وشعيب بن يحيى^(٨)، وعثمان بن صالح^(٩)، وسعيد بن عفير^(١٠)، ويحيى بن أيوب^(١١).

وقد يورد بعض الأخبار معلقة عن من لم يعاصره، فقد علق عن ابن لهيعة^(١٢)، وعن الليث بن سعد^(١٣)، ولعله كان يرجع إلى مؤلفاتهم. ويلاحظ أنه لم يكتر من الرواية عن الأخباريين كغيره من المؤلفين في التاريخ والأخبار، ومنهجه هو منهج المحدثين في اعتبار الأسانيد وعدم التدخل بمعلومات من قبله والحمل على الأسانيد في النقد.

(١) انظر الصفحات ٨٠، ٩١، ١٦٣. (٢) انظر الصفحات ٢٤٩، ٢٥٠.

(٣) انظر الصفحات ١٢٧، ١٢٩، ٢٣٩.

(٤) عبد الله بن عبد الحكم صدوق كما قال ابن حجر في التقريب ٤٢٧/١.

(٥) إمام ثقة، انظر: التقريب ٨٠/١. (٦) صدوق، انظر: التقريب ٦٣/١.

(٧) هو عبد الله بن صالح، صدوق كثير الخطأ، ثبت في كتابه، انظر: التقريب ١/٤٢٣.

(٨) صدوق عابد، انظر: التقريب ٣٥٣/١.

(٩) صدوق، انظر: التقريب ٣٤٣/٢.

(١٠) صدوق أخرج له الشيخان، انظر: التقريب ٣٠٤/١.

(١١) صدوق، انظر: التقريب ٣٤٣/٢.

(١٢) انظر مثال ذلك في: فتوح مصر ص ٢٥٩.

(١٣) انظر مثال ذلك في: فتوح مصر ص ٢٤٥.

٤ - ٢ - أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ):

هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، ولد في أواخر القرن الثاني الهجري^(١)، ولقب البلاذري، قيل: خاص به كما يظهر من قول ابن النديم^(٢)، وقيل: إن هذا اللقب عرف به جدُّه جابر بن داود كما يظهر من نص ذكره ياقوت في معجم الأدباء نقلاً عن الجهشياري^(٣)، ولهذا قال ياقوت: «ولا أدري أيهما شرب البلاذر، أحمد بن يحيى، أو جابر بن داود، وما ذكره الجهشياري يدل على أن الذي شرب البلاذر جده»^(٤).

وقد نشأ البلاذري في بغداد في أول حياته، ثم رحل عنها في طلب العلم، وزار كثيراً من البلدان، ونقل ياقوت الحموي عن ابن عساكر في تاريخ دمشق أنه زار مشق وسمع بها هشام بن عمار، كما دخل حمص وسمع بها محمد بن مصطفى، وأنطاكية وسمع بها محمد بن عبد الرحمن بن سهم^(٥)، وترجم له ابن حجر في لسان الميزان^(٦)، وذكر من شيوخه، ابن سعد، والدولابي، وعفان، وعلي بن المديني، ومن

(١) تاريخ ولادته غير معروف بالتحديد ولكن يستنتج من الشعر الذي أورده ابن حجر في كتابه لسان الميزان ٣٢٣/١ في مدح الخليفة العباسي المأمون أن ولادته قبل المائتين لأن المأمون قد توفي سنة ٢١٨هـ. وانظر أيضاً: مقدمة كتاب فتوح البلدان لصلاح الدين المنجد ص ٧.

(٢) قال ابن النديم في الفهرست ص ١٢٥: إنه وسوس في آخر أيامه فشد في البيمارستان ومات فيه، وسبب وسوسته أنه شرب ثمر البلاذر على غير معرفة فلهقه ما لحقه.

(٣) قال الجهشياري: إن جده جابر بن داود البلاذري كان يكتب للخطيب بمصر، معجم الأدباء ٩٢/٥.

(٤) المصدر السابق ٩٢/٥. (٥) المصدر نفسه ٩٠/٥، ٩١.

(٦) ابن حجر، لسان الميزان ٣٢٢/١ - ٣٢٣.

الذين رروا عنه محمد بن خلف المعروف بوكيع القاضي، ويعقوب بن نعيم، وأحمد بن عمار، ويحيى بن النديم.

والبلاذري كان أحد النقلة من اللسان الفارسي كما يروي ابن النديم^(١)، ومما ترجم إلى اللغة العربية كتاب «عهد أردشير» الذي نظمه شعراً. وكانت وفاته سنة ٢٧٩هـ^(٢).

توثيقه:

نقل ياقوت عن ابن عساكر أنه قال: وبلغني أن البلاذري كان أديباً راوية، له كتب جياذ، ومدح المأمون بمدائح، وجالس المتوكل، ومات في أيام المعتمد، ووسوس في آخر عمره^(٣). وقال ياقوت: وهذا الذي ذكره ابن عساكر هو من كلام المرزباني في معجم الشعراء^(٤).

وقال عنه ياقوت: كان عالماً فاضلاً شاعراً راوية نسابه متقناً وكان مع ذلك كثير الهجاء بذئ اللسان^(٥). وأورد نماذج من هجائه^(٦).

أما ابن حجر فإنه لم يورد شيئاً من أقوال علماء الجرح والتعديل في توثيقه، واكتفى بنقل كلام ابن عساكر أعلاه. والبلاذري ليس له رواية في الكتب الستة^(٧)، ولذا لم يعتن علماء الجرح والتعديل في البحث عن عدالته.

ومن خلال ما ذكره في كتابه «فتوح البلدان» يتضح أنه يميل لبني العباس، فإننا نجد أنه إذا ذكر خليفة منهم فإنه يلقبه بالخليفة أو بأمر المؤمنين، ويترضى عليه، أما إذا ذكر أحداً من خلفاء بني أمية فإنه يذكره

(١) ابن النديم، الفهرست ص ١٢٦. (٢) الأتابكي، النجوم الزاهرة ٨٢/٢.

(٣) ياقوت معجم الأدباء ٩٩/٥. (٤) المصدر نفسه ٩٩/٥.

(٥) المصدر نفسه ٩٢/٥. (٦) المصدر نفسه ٩٣/٥، ٩٦، ٩٧.

(٧) ولذلك لم يترجم له في الكمال المخصص لتراجم من لهم رواية في الكتب الستة، ولا في تهذيباته ومختصراته.

باسمه المجرد ولا يترحم عليه، ما عدا عمر بن عبد العزيز، ولم يفعل هذا مع معاوية رضي الله عنه وهو صحابي، كما أنه قد وصف الدولة العباسية بقوله: «ولما جاءت الدولة المباركة»^(١).

مؤلفاته:

أورد ابن النديم قائمة بأسماء كتبه^(٢) ونقلها عنه ياقوت^(٣) وهي كتاب البلدان الصغير، كتاب البلدان الكبير ولم يتمه. كتاب الأخبار والأنساب، وعند ياقوت كتاب جمل نسب الأشراف ووصفه بأنه كتاب معروف مشهور^(٤)، كتاب عهد أردشير ترجمه شعراً. وزاد ياقوت كتاب الفتوح.

والذي وصل إلينا من كتبه كتاب: أنساب الأشراف، وهو كتاب كبير شامل للأخبار والأنساب ومخطوطته تقع في ٢٤٦٤ صفحة^(٥)، وقد طبع منه خمسة أجزاء والباقي لا زال مخطوطاً. والكتاب الثاني الذي وصل إلينا من كتب البلاذري هو كتاب: فتوح البلدان، وهو كتاب شامل لفتوح البلدان في مشرق الدولة الإسلامية وفي غربها، وإن كان لم يفصل كثيراً في فتح الأندلس كما فصل في فتح العراق والشام. ومنهج البلاذري في كتابه فتوح البلدان يمكن أن نتبينه من خلال طريقته في ترتيب الكتاب ومنهجه في التوثيق.

ففي ترتيب مادة الكتاب فإن المؤلف لم يلاحظ العنصر الزمني فقط وإنما لاحظ الموقع الجغرافي للبلد المفتوح، فقد بدأ بالحديث عن فتوح

(١) انظر: فتوح البلدان ص ٢٤٦.

(٢) انظر: الفهرست ص ١٢٦.

(٣) انظر: معجم الأدباء ٩٩/٥.

(٤) المصدر نفسه ١٠٠/٥.

(٥) توجد من كتاب الأنساب، نسخة في مكتبة عاشر أفندي باستانبول، ولها صورة في اثني عشر مجلداً في دار الكتب الوطنية بمصر، انظر ص ٢٣ من مقدمة كتاب أنساب الأشراف بتحقيق محمد حميد الله. قلت: وقد طبع مؤخراً.

النبي ﷺ وكانت كلها بالجزيرة العربية، ثم ساق بعد ذلك أخبار ردة العرب بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم بدأ بفتوح الشام وألحق بها فتوح أرمينية، ومصر، وطرابلس وأفريقية وطنجة والأندلس وجزائر البحر وختم ذلك بالحديث عن أمر القراطيس^(١).

ثم بدأ بذكر فتوح العراق والمشرق فذكر فتوح السواد، والقادسية، والمدائن، وهمدان، وأصبهان، والري، وأذربيجان، وطبرستان، وسجستان، وكابل، وخراسان، والسند، وختم الكتاب بالحديث عن أحكام أراضي الخراج وعن العطاء في عهد عمر، وعن تدوين الديوان ثم أمر الخاتم والنقود والخط، وهي موضوعات في النظم والحضارة.

وإذا تحدث عن فتح بلد يذكر كل أحواله إلى عصره مراعيًا في ذلك الترتيب التاريخي، أما منهجه في التوثيق، فهو يجمع الأسانيد كغيره من مؤرخي هذه الفترة فقد قال في أول كتابه موضحاً منهجه في جمع الروايات: «أخبرني جماعة من أهل العلم بالحديث والسيرة وفتوح البلدان، سقت حديثهم واختصرته ورددت من بعضه على بعض...»^(٢)، ثم أخذ يسوق أخباره مقدماً لها تارة بقوله: «قالوا»^(٣) وأحياناً بروايات مفردة منها المسند الموصول^(٤)، ومنها المقطوع^(٥)، ومنها ما فيه الرواية عن

(١) أي الورق الذي يستعمل للكتابة وكان يصنع في مصر كما كان يأتي للمسلمين من بلاد الروم، انظر: فتوح البلدان ٢٨٣/١ بتحقيق المنجد.

(٢) انظر ص ١ ويلاحظ أنه لم يسم أحداً ممن أخذ عنه كما كان يفعل من سبقه مثل ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، الذين يذكرون أسماء الرواة جملة، لكنه أوضح كثيراً منهم في أثناء كتابه.

(٣) انظر على سبيل المثال: الأسانيد رقم ١٤، ١٦، ١٦، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩، ٨٥٨، ٨٩٣، ٨٩٤.

(٤) انظر على سبيل المثال: الأسانيد رقم ٢، ٥ - ١٢، ١٩، ٢١، ٢٢، ٣٧، ١٨٠، ٦٥٨ - ٦٧٣، ١٠٨٨، ١٠٩٣، ١٠٩٤.

(٥) انظر: الأسانيد ٣٣، ١٨١، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٧-١٩٩، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢، ٧٩١.

المجاهيل الذين لم يسمهم، وقد يروي عن مسمين لكن أعيانهم مجهولة، فنجد في أسانيد مثل قوله: «عن أشياخ من أهل الطائف»^(١). «حدثني أشياخ من أهل اليمامة»^(٢)، «سمعت مشايخ من البصريين»^(٣) «عن مشايخ من أهل اليمن»^(٤) «عن مشايخ من أهل الشام»^(٥) «حدثني فلان عن مشايخ أدركهم»^(٦) «حدثني شيخ من أهل حمص»^(٧) «حدثني جماعة من أهل العلم بأمر الشام»^(٨)، بعض أهل منبج^(٩)، ديار ربيعة^(١٠)، أهل الرقة^(١١)، شيخ من أهل الحيرة^(١٢)، شيخ من أهل واسط^(١٣).

وبعض الأخبار يوردها من معلوماته ويسبقها بقوله: «قال»^(١٤) وبعضها نقلاً من كتب من سبقه فيسند لهم مباشرة السند وهذا يعرف في مصطلح الحديث بالمعلق^(١٥)، فقد علق عن هشام الكلبي^(١٦)، وروى عنه بواسطة ابنه عباس^(١٧)، وعلق عن أبي مخنف^(١٨)، وروى عنه بواسطة^(١٩)، وعلق عن الواقدي^(٢٠)، وروى عنه بواسطة^(٢١) محمد بن

-
(١) انظر: كتاب فتوح البلدان ص ٩٦.	(٢) المصدر نفسه ص ١٠٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٩.	(٤) المصدر نفسه ص ١٢٢.
(٥) المصدر نفسه ص ١٣٠، ١٤٠.	(٦) المصدر نفسه ص ١٤٠.
(٧) المصدر نفسه ص ١٥٨.	(٨) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٩) المصدر نفسه ص ٢٢٧.	(١٠) المصدر نفسه ص ٢١٤.
(١١) المصدر نفسه ص ٢١٤.	(١٢) المصدر نفسه ص ٣٥٠.
(١٣) المصدر نفسه ص ٣٣٥.	

(١٤) المصدر السابق ٦٥، ٦٦، ٣٤١، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١.

(١٥) الحديث المعلق: هو ما حذف من مبدأ إسناده راوٍ أو أكثر ويكون ذلك من تصرف مصنف، والحديث المعلق من أقسام الحديث المردود حتى يعرف حال من حذف من السند، انظر: ابن حجر، شرح نخبة الفكر ص ٦٤.

(١٦) فتوح البلدان ص ٦١، ٨٢، ٨٥. (١٧) نفسه ٦٠، ٦٢، ٦٣.

(١٨) نفسه ٩٩. (١٩) نفسه ٤١٢.

(٢٠) نفسه ٦، ١٨، ٤٤، ٤٦، ٥٠. (٢١) نفسه ص ٥٠، ٥٢، ٧١، ٢٢٥.

سعد وغيره، وعلق أيضاً عن مالك بن أنس^(١). وعلق عن أبي اليقظان النسابة^(٢)، ويروي عن محمد بن سعد بالعلو والنزول، فمرة بصيغة التحديث^(٣) ومرة بواسطة^(٤)، وروى عن موسى بن عقبة صاحب المغازي بواسطة^(٥)، وروى عن المدائني مباشرة مصرحاً بالتحديث^(٦) أحياناً، وقد لا يصرح بالتحديث^(٧).

ويذكر الروايات المتعددة ويتركها بدون ترجيح^(٨)، وأحياناً يرجح^(٩)، وعباراته في نقد الروايات وترجيح بعضها على بعض مقتضبة تشبه في ذلك عبارات الواقدي، وابن سعد، فمن عباراته في الترجيح «والأول أثبت» «وذلك أثبت» والأول أصح وأثبت، ورواية الواقدي أثبت. والخبر الأول أثبت هذه الأخبار^(١٠).

ومن عباراته في النقد: وليس ذلك يثبت، وهذا غلط^(١١). كما أنه يضعف بعض الروايات ولكن بطريقة غير مباشرة فيوردها بصيغة التضعيف كأن يقول: «ويقال»، «قد روي» و«قال بعض الرواة»، و«زعم الهيثم بن عدي»^(١٢). كما أنه يذكر أقوال الفقهاء في المباحث الفقهية بعضها

(١) نفسه ص ٩. (٢) نفسه ص ٤٦، ٤٤٢، ٤٤٣.

(٣) نفسه ص ٢٢، ٥٠، ٥٢. (٤) نفسه ص ٢٠٢.

(٥) نفسه ص ٩٨.

(٦) المصدر السابق الصفحات ٤٢٠، ٤٣٤، ٤٣٧.

(٧) انظر مثلاً ٤٤٥، ٤٦٠.

(٨) انظر مثلاً ص ١٣٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٩٤، ١٩٥، ٤١٨.

(٩) انظر المصدر السابق ص ٩٩، ١٢٨، ١٤١، ١٤٦، ١٦٩، ٢٤٣، ٣١٧،

٣٥٣، ٤١٢.

(١٠) المصدر نفسه ص ٩٩، ١٤١، ١٦٦، ١٦٩، ٣١٧، ٣٥٣.

(١١) المصدر نفسه ص ١٢٨، ١٤٦.

(١٢) انظر ١١٧، ١١٨، ١٢١، ١٤٦.

يسنده^(١) وبعضها الآخر غير مسند^(٢).

ومن هذا يتضح أن البلاذري لم يكن يلتزم الإسناد دائماً، وإذا أسند فلا ينتقي في الرجال بل يحدث عن كل من وجد عنده معلومات تهمة في موضوع بحثه، وهذا وإن كان في ميزان علماء الحديث مما تترك رواية الرجل لأجله، إلا أنه في ميزان الدراسة التاريخية قد يتساهل أحياناً، والبلاذري قد أبان كثيراً من مصادر معلوماته، وحاول الاتصال بالأشخاص القريبين من الأحداث فكان يأتي لأهل كل بلد ويسألهم عن كيفية فتح بلادهم فنجدته يحدث عن مشائخهم وكبار السن فيهم.

والبلاذري بهذا الكتاب الذي خَصَّصَه للفتوح - وإن لم يخله في الحقيقة من الفوائد عن نشأة بعض المدن وخططها وعن موضوعات في النظم الإسلامية والموضوعات الحضارية - يعبر عن رسالة الأمة الإسلامية^(٣) ووظيفتها الأساسية وهي الدعوة والجهاد في سبيل الله.

وبالنسبة للمنهج التاريخي فإن كتاب البلاذري في فتوح البلدان يعطي صورة عن المرحلة المنهجية التي وصلت لها كتابات المؤرخين المسلمين في القرن الثالث الهجري، من الاعتماد على الإسناد، والنظرة الموضوعية للأحداث، والإيجاز في التعبير عن المراد، وعدم الاستطراد، والبعد عن عبارات التهويل وأسلوب القصص، وإيراد الروايات المتعددة عن الخبر الواحد مع نقدها، أو محالة الجمع بينها أحياناً.

(٢) ٩٠ - ٩١، ٥٤٦ - ٥٤٧.

(١) ٥١ - ٥٣، ٩٠.

(٣) انظر: عبد العزيز الدوري، بحث في: نشأة علم التاريخ عند العرب ص ٣١.

٥ - من المؤلفين في تواريخ المدن

٥ - ١ - أبو الوليد الأزرق (ت بعد ٢٤٤هـ):

هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي أحد الأخباريين وأصحاب السير، وتاريخ مولده غير معروف، ولا أشار لذلك أحد من المؤلفين الذين وقفت على مؤلفاتهم. وقد روى عن جده أحمد بن محمد بن الوليد الأزرق^(١) ومحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، وإبراهيم بن محمد الشافعي وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وروى عنه أبو محمد إسحاق بن أحمد بن نافع الخزاعي، وإبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي.

كما أن تاريخ وفاته غير معروف ولكن الثابت أنه كان حياً في سنة ٢٤٤هـ كما يتضح من النصوص التي أوردها في كتابه أخبار مكة^(٢). وفي كتاب الأنساب للسمعاني قال عن وفاته: «مات ومائتين»^(٣) فكأنه قد سقطت كلمة، أو بيض له فلم يكمله. وقد ذكر محمد بن نافع الخزاعي،

(١) أكثر من الرواية عن جده في كتابه أخبار مكة، فمروياته عنه تعدل نصف مروياته في الكتاب، وجده ثقة روى له البخاري، وتاريخ وفاته غير معروفة، وذكر المزي أنه كان حياً في سنة ٢١٧هـ. انظر: تهذيب الكمال خ ٤١/١، قلت: قد روى عنه حفيده في أخبار مكة ٢٨٧/١ أحداثاً وقعت سنة ٢١٩هـ.

(٢) الأزرق، أخبار مكة ٢٦٤/١، دار الثقافة بمكة، ط الثالثة، ١٣٩٨هـ.

(٣) أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ)، كتاب الأنساب، صورة عن المخطوطة نشرتها مكتبة المثنى ببغداد ورقة ٢٨/ب.

عن أبي الوليد الأزرقى، مشاهدات له عن الكعبة أضافها على كتاب الأزرقى في سنة ثلاث وستين ومائتين^(١)، مما يستنتج منه أن أبا الوليد قد توفي قبل هذا التاريخ لأن محمد بن نافع لم يرو عنه، وإنما روى عن عمه إسحاق عنه فهو لم يلق أبا الوليد.

وأقدم من ترجم للأزرقى هو ابن النديم. وقد ذكر له «كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها» ووصفه بأنه كبير^(٢)، ثم أبو سعيد السمعاني في كتاب الأنساب، الذي أثنى فيه على كتابه «أخبار مكة» وقال: «قد أحسن في تصنيف ذلك الكتاب غاية الإحسان»^(٣) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً.

كما ترجم له الفاسى في «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»^(٤) وقال: إنه كان حياً في خلافة المنتصر محمد بن جعفر العباسى (٢٤٧ - ٢٤٨هـ) مستدلاً بنص ذكره الأزرقى في كتابه^(٥) ثم قال: «ولم أر من

(١) الأزرقى، أخبار مكة ١/ ٢٦٥ ونص الزيادة: «وقد رأيتها حين جردت في آخر ذي الحجة سنة ثلاث وستين ومائتين فرأيت جدرانها كلون العنبر الأشهب من تلك الغالية».

(٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٢٤.

(٣) السمعاني، الأنساب ورقة ٢٨/ب.

(٤) تقي الدين محمد بن أحمد الحسنى الفاسى (ت ٨٣٢هـ) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٢/ ٤٩.

(٥) الأزرقى، أخبار مكة ٢/ ٢٨٧، والنص الذي استدل به هو قول الأزرقى: «سقر هو الجبل المشرف على قصر جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى وهو بأصله. وكان عليه - لقوم من أهل مكة يقال لهم: آل قريش بن عباد موالٍ لبني شيبه - قصر ثم ابتاعه صالح بن العباس بن محمد فابتنى عليه وعمر القصر وزاد فيه. وهو اليوم لصالح بن العباس، ثم صار اليوم للمنتصر بالله أمير المؤمنين، وكان سقر يسمى في الجاهلية الستار. اهـ».

قلت: والنص فيه اضطراب كما هو ظاهر، ويحتمل أن قوله ثم صار اليوم =

ترجمه وإني لأعجب من ذلك»^(١).

وقال الألباني^(٢): لم نجد له ترجمة في شيء من المصادر المعروفة المطبوعة والمخطوطة إلا قول السمعاني عن كتاب «أخبار مكة»^(٣) ولذلك فقد اعتبره الشيخ الألباني، من ناحية روايته في حكم المستورين عند المحدثين الذين يستأنس بحديثهم ولا يحتج به^(٤).

ولم يعرف للأزرقى من المؤلفات سوى كتاب «أخبار مكة» وهو ثابت النسبة له ومعروف ومتداول بين العلماء، والنقل عنه في كتبهم مشهور مستفيض، وهو أول كتاب وصل إلينا عن تاريخ مكة وخططها.

لقد قسم الأزرقى كتابه إلى قسمين، أولهما خاص بالأخبار والأحاديث التي وردت في فضل مكة والكعبة وما حولها من الآثار الإسلامية، ويذكر فيه الأدوار التي مرت بها عمارة الكعبة والمسجد الحرام حتى عصره^(٥).

والقسم الثاني، أفرد له لجغرافية مكة وأسماء جبالها وأوديتها، كما تضمن معلومات في الخطط والمقابر والمساجد والمزارع والآبار.

= للمنتصر بالله أمير المؤمنين، هي إضافة على نص الأزرقى الذي ذكر أن قصر سقر اليوم لصالح بن العباس. وصالح بن العباس كان والياً على مكة زمن المأمون (١٩٨ - ٢١٨). انظر ترجمته في: العقد الثمين للفاسي ٢٦/٥.

(١) الفاسي، المصدر السابق ٤٩/٢.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني، فهرس مخطوطات الظاهرية، قسم الحديث ص ٢٢٥.

(٣) تقدم قوله تقريباً. (٤) المصدر نفسه.

(٥) لقد أضاف الخزاعيان: إسحاق بن أحمد (ت ٣٠٨هـ)، ومحمد بن نافع (ت بعد ٣٥٠هـ)، إضافات بما استجد من عمارة المسجد الحرام والكعبة في عصرهما، وهما ممن روى كتاب الأزرقى، فقد رواه إسحاق بن أحمد، عن الأزرقى مباشرة انظر: العقد الثمين ٢٩٠/٣ ورواه محمد بن نافع الخزاعي، بواسطة إسحاق بن أحمد. العقد الثمين ٣٧٨/٢.

ومنهجه في قسم الأحاديث والأخبار، الرواية بالأسانيد كما هي عادة العلماء في ذلك العصر، وشيوخه الذين روى عنهم في كتابه محددون، وأكثر من روى عنه جده أحمد بن محمد الأزرقى، ومحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، أما بعض الشيوخ فإنه لا يروي عنه إلا الخبر أو الخبران^(١).

وهو يقتصر في هذا القسم على رواية ما ورد في فضائل مكة والكعبة والطواف بها، وزمزم والمقام والمسجد، وعلى ذكر عمارة هذه الأماكن، ولا يتعرض للأحداث السياسية، والحروب التي وقعت بمكة إلا بقدر ما يتعلق بموضوع عمارة الكعبة والمسجد الحرام. ولا يهتم بذكر الولاية على مكة، ولا أمراء الحج، إلا إذا كان لأحدهم مساهمة في عمارة موضع من المواضع المقدسة أو بما له علاقة بها. وهو في هذا القسم يروي عن الرواة فيما لم يشاهده، ويسجل مشاهداته فيما حضره، فمثلاً في صفة الكعبة وذرعها من الداخل والخارج وذُكر عدد البلاط بداخلها أو على جدرانها وذرع بابها وصفته، يذكر ما قام به هو من عمل^(٢)، وكذلك ذكر عدد أسطوانات المسجد الحرام، ومساحته، وذكر المسافة بين المسجد الحرام، ومنى، ومزدلفة، وعرفة، ووصفه للمساجد التي أُقيمت في هذه الأماكن وذرعها، كل ذلك قام به شخصياً وسجله، كما يفهم من عباراته^(٣) وهذا دليل على ضبطه لهذه الأمور وحرصه على تقديم معلومات وافية ودقيقة.

أما القسم الجغرافي: فتقل فيه الرواية لأنه يسجل مشاهداته في

(١) مثل عبد الله بن مسلمة القعنبي، انظر: أخبار مكة ١/٣٣٧ ومثل سليمان بن حرب. انظر ١٥١/٢.

(٢) انظر: أخبار مكة، الصفحات من ١/٢٨٨ إلى ١/٣١٠.

(٣) المصدر نفسه ١٨١/٢ - ١٩٠.

وصف الأماكن وتحديدها، ويذكر معلومات تاريخية عنها ربما كانت مستفيضة معرفة الناس بها في عهده، ولعل هذا هو الذي دعاه إلى ترك توضيح مصادر معلوماته عن مثل تلك الأحداث.

وقد ركز الأزرقى اهتمامه في هذا الكتاب على ذكر فضائل الحرم ومشاعر الحج، والعناية بتحديد المواضع ووصفها وذكر العمارة والخطط التي مرت بها مكة دون التعرض لتاريخها السياسي والعلمي. بينما نجد معاصره عمر بن شبة، قد جمع بين التاريخ السياسي والحضاري في تاريخه للمدينة، وقد أهمل كل من الأزرقى، وابن شبة، جوانب التاريخ الثقافي والعلمي في مكة والمدينة بخلاف غيرهما ممن كتب في تواريخ المدن الإسلامية حيث أرخوا للمدن من خلال تراجم علمائها.

٥ - ٢ - عمر بن شبة (١٧٣ - ٢٦٢هـ):

هو الحافظ العلامة الأخباري الثقة، أبو زيد عمر بن شبة بن عبيدة بن زيد النميري البصري^(١)، ولد بالبصرة سنة ١٧٣هـ ولذلك نسب إليها ثم سكن بغداد^(٢) حتى تحول عنها - على أثر ظهور فتنة القول: بخلق القرآن - وكان أبو زيد متعدد المواهب، واسع الثقافة، فهو شاعر، وأديب، ونحوي، وعالم بالسير والأخبار وأيام الناس، وله مشاركة في رواية الأحاديث النبوية، فقد أخرج له ابن ماجه^(٣)، وقال عنه ابن أبي حاتم: «كتب عنه مع أبي، وهو صدوق صاحب عريية وأدب»^(٤)، ووثقه الدارقطني^(٥)، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: مستقيم الحديث، وكان صاحب أدب وشعر وأخبار ومعرفة بأيام الناس^(٦).

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٥١٦/٢. (٢) الخطيب، تاريخ بغداد ٢١٠/١١.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٦٠/٧. (٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه. (٦) المصدر نفسه.

وقال الخطيب البغدادي: وكان ثقة عالماً بالسير وأيام الناس وله تصانيف كثيرة^(١). وقال المرزباني: عمر بن شبة أديب فقيه، واسع الرواية، صدوق ثقة^(٢).

وقد روى ابن شبة العلم عن عدد من علماء عصره نذكر منهم^(٣): عبد الوهاب الثقفي، وحسين الجعفي، والمدائني، وأبا داود الطيالسي، وابن مهدي، ويحيى بن سعيد القطان، والأصمعي، وأبا زيد الأنصاري النحوي، ومحمد بن جعفر غُنْدَر، ومحمد بن أبي عدي، وعفان بن مسلم، والوليد بن هشام القحذمي، وأبا عاصم النبيل، وإبراهيم بن المنذر، ومحمد بن سَلَام الجمحي، وغيرهم.

وقد روى العلم عنه ابن ماجه، وأبو شعيب عبد الله بن الحسن الحراني، وأحمد بن يحيى ثعلب النحوي، وأحمد بن يحيى البلاذري، وابن أبي الدنيا، ويحيى بن صاعد، وابن أبي حاتم، وإسماعيل بن العباس الوراق، وأحمد بن عبد العزيز الجوهري، وأبو العباس السراج، ومحمد بن أحمد الأثرم، ومحمد بن مخلد الدوري، وغيرهم^(٤).

ولقد امتحن عمر بن شبة كغيره من العلماء في ذلك العصر بفتنة القول: بخلق القرآن. يروي الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي علي العنزي قال: «امتحن عمر بن شبة بسر من رأى بحضرتي. فقال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، فقالوا له: فتقول: من وقف فهو كافر، فقال: لا أكفر أحداً، فقالوا له: أنت كافر، ومزقوا كتبه، فلزم بيته وحلف أن

(١) الخطيب، تاريخ بغداد ٢٠٨/١١.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٦١/٨.

(٣) عن شيوخ ابن شبة، انظر: المزي، تهذيب الكمال ١٠١٢/٢، وابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٦٠/٧.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٦٥/٧.

لا يُحَدِّثُ شهراً^(١)، وهذا الموقف منه يدل على سلامة عقيدته وعلى صبره وتحمله الأذى في سبيل ذلك.

وقد خَلَفَ أبو زيد عمر بن شبة كثيراً من المؤلفات في نواح شتى من الثقافة والعلم، فذكر ابن النديم له زهاء عشرين كتاباً، منها كتاب الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، ومقتل عثمان، والشعر والشعراء، والتاريخ، وأخبار المنصور، وكتاب أشعار الشُّرَاه، وكتاب النسب، وأخبار بني نمير، وكتاب الاستعانة بالشعر، وكتاب الاستعظام للنحو ومن كان يلحن من النحويين^(٢).

ولا يعرف اليوم من كتب ابن شبة سوى كتاب «تاريخ المدينة» وقد نقل الحافظ ابن حجر من كتاب ابن شبة عن البصرة نصاً طويلاً فقد قال في الفتح: وقد جمع عمر بن شبة في كتاب «أخبار البصرة» قصة الجمل مطولة وها أنا أُلخصها وأقتصر على ما أورده بسند صحيح أو حسن وأبين ما عداه^(٣). كما نقل نصاً آخر من كتاب مكة له^(٤). وأشار له السخاوي بقوله: إنه عند ابن فهد بخطه في مجلد، وهو على نمط كتابي الأزرقى والفاكهى^(٥).

أما تاريخ المدينة: فقد عثر على مخطوطة له في إحدى المكتبات الخاصة في المدينة^(٦)، وهذه النسخة مخرومة في مواضع متعددة في

(١) البغدادى، تاريخ ٢٠٩/١١. (٢) ابن النديم، الفهرست ص ١٢٥.

(٣) ابن حجر، فتح الباري ٥٤/١٢، وتوجد نصوص عن تاريخ البصرة عند الطبري لكنه لم يصرح بالنقل من كتاب.

(٤) المصدر نفسه ٢٧/٨، ويظهر أن الكتاب تحت يده ينقل منه مباشرة حيث يقول: «قال عمر بن شبة في كتابه مكة...».

(٥) السخاوي، الإعلان ص ١٣٢.

(٦) هي مكتبة السيد محمد مظهر الفاروقى ورقم المخطوط في المكتبة كما ذكر المحقق ١٥٧ تاريخ وعدد صفحاتها ٤٠٤.

أولها وفي وسطها وفي آخرها. كما يقول محققها الأستاذ فهم شلتوت^(١).

وكتاب تاريخ المدينة في صورته التي وصلت إلينا يضم ثلاثة أقسام:

أولها: عن تاريخ المدينة وخططها في حياة الرسول ﷺ وهو ناقص في أوله. ومن آخره، ولا يخلو من سقط في مواضع متعددة في وسطه، كما أن الأحداث التي ذكرها غير مرتبة تاريخياً، فنجد مثلاً يذكر قدوم عروة بن مسعود الثقفي وإسلامه، ثم سرية نخلة، ثم هجرة صهيب وخباب وجبر وعمار، ثم هجرة عمر بن الخطاب، كما أنه يذكر بعض المباحث الفقهية^(٢)، ومباحث في الفياء والأموال^(٣) ومباحث في الخطط^(٤) مثل المساجد والمقابر، والأودية والسيول والآبار والمزارع ومنازل القبائل ودورها، وحدود المدينة وجبالها.

والقسم الثاني: عن خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما خلافة أبي بكر الصديق فهي غير مذكورة في هذا القسم من المخطوطة وقد افترض الأستاذ فهم^(٥) أحد فرضين لتفسير ذلك، إما أن ابن شبة لم يكتب شيئاً عن خلافة أبي بكر، أو أنها سقطت من المخطوطة. والذي أراه أن الافتراض الأول لا مبرر له.

(١) انظر: مقدمة تاريخ المدينة ص/ن، وطبع الكتاب في دار الأصفهاني بجدة، طبعة خاصة في أربعة أجزاء.

(٢) مثل الصلاة على الجنائز ٣/١ ومثل القصص والقصص ٧/١ - ١٥. ومثل كراهية البزاق في المسجد وكراهية إنشاد الضالة فيه ١٨/١ - ٥٢ وذكر اللعان والظهار ٣٧٩/٢ - ٣٩٨.

(٣) انظر الصفحات ١٧٣/١ - ١٩٥، ٤٨٨/٢.

(٤) انظر الصفحات ٥٧/١ - ١٧٢، ٢١٨ - ٢٧٢ ومن ٣٠٤ - ٣٠٨ وغيرها.

(٥) انظر: مقدمة كتاب تاريخ المدينة لابن شبة ص/ن.

والقسم الثالث: عن حياة أمير المؤمنين عثمان بن عفان وعن الفتنة في عهده وحتى استشهاده رضي الله عنه على أيدي أهل الفتنة. وقد توسع في أخبار الفتنة وذكر مواقف كبار الصحابة^(١) من ذلك، ويتوقف الموجود من الكتاب هنا، لكن الطبري ينقل عن ابن شبة روايات كثيرة عن تاريخ المدينة طوال العهد الأموي، والفترة الأولى من العهد العباسي، خاصة ثورة محمد بن عبد الله بن حسن العلوي بالمدينة أيام المنصور^(٢)، وثورة السودان بالمدينة سنة ١٤٥هـ.

ومنهج ابن شبة في كتاب تاريخ المدينة هو رواية الأخبار بالأسانيد على طريقة المحدثين، ولم يجمع الأسانيد كما فعل من سبقه من الأخباريين وأهل السير كمحمد بن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، ولكن أسانيده ليست كلها موصولة، بل منها الموصول، ومنها المنقطع، ومنها المعلق، وكذلك مصادره ورجاله ليست بدرجة واحدة في الثقة بل منها المقبول، والمردود، وتحتاج إلى دراسة حذيثية لمعرفة الصحيح، من الضعيف، من الموضوع.

فمثلاً نجده يسند الخبر إلى مجهول فيقول: «أخبرني بعض مشيختنا»^(٣)، حدثني أحمد بن معاوية، عن رجل من قريش^(٤)، ذكر الأصمعي فيما حدثني عنه من أثق به^(٥)، حدثنا محمد بن يحيى، قال حدثني من أثق به^(٦)، وأحياناً يحذف جزءاً من الإسناد «حدثنا عبد الله بن

(١) قد ذكر في هذا القسم أخباراً متضادة ولم يتكلم على شيء منها على طريقة «من أسند فقد حَمَلَك»، وتحتاج إلى نقد لرواتها لمعرفة الصحيح من غيره. انظر الصفحات ١٠٩٦ - ١٠٩٨، ١١٠٢، ١١٤٩ - ١١٦٦.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٥٥٢/٧ وما بعدها، وأيضاً ٦٩/٧، وما بعدها عن ثورة السودان.

(٤) المصدر نفسه ٢٨٩.

(٣) تاريخ أخبار المدينة ٦٢.

(٦) نفسه ص ٥، ١٦.

(٥) المصدر نفسه ٢٩١.

قانع في إسناد ذكره قال»^(١).

وأحياناً يعلق الخبر أو لعله ينقل من كتب تحت يده فينسب القول إلى قائله مباشرة دون ذكر السند. فيقول: قال ابن إسحاق^(٢)، وقال هشام^(٣)، وقال الواقدي^(٤)، وقال مالك^(٥)، وقال أبو مخنف^(٦)، وعن الحسن بن الحسن^(٧)، وعن عائشة رضي الله عنها^(٨)، وعن زيد بن أسلم^(٩)، وعن سالم بن عبد الله^(١٠)، وعن محمد بن سعد^(١١)، كتبت من كتاب إسحاق بن إدريس ولا أعلمه إلا قرأه علي^(١٢)، ومما وجدت في كتاب أبي غسان وقرأه علي، ولا أدري أنسبه إلى ابن شهاب أم لا^(١٣).

ومن الملاحظ أنه يروي عن الشخص الواحد ممن لقيه بالعلو والنزول، مما يدل على عدم تدليسه في الرواية، فمثلاً شيخه أبو غسان محمد بن يحيى الكناني يروي عنه بصيغة التحديث فيقول: حدثنا أبو غسان، أو حدثنا محمد بن يحيى^(١٤) ويقول: قال أبو غسان^(١٥)، ويقول: حدثنا عن أبي غسان^(١٦)، ويقول: «ومما وجدت في كتاب أبي غسان»^(١٧).

(١) نفسه ٧٧٦.	(٢) نفسه ٤٧٧، ٤٧٨، ٥٢٧.
(٣) نفسه ٤٧٨.	(٤) نفسه ٥١، ١٧٥، ٢٣٦.
(٥) نفسه ١٧٦.	(٦) نفسه ١٢٧٨.
(٧) نفسه ٦٦٥.	(٨) نفسه ٦٦٦.
(٩) نفسه ٦٦٦.	(١٠) نفسه ٦٧١.
(١١) نفسه ٦٧٣.	(١٢) المصدر السابق ٩٨٥.
(١٣) نفسه ٦٦٨.	(١٤) نفسه ٥١، ٥٧، ٦٠، ٦١، ٧٩.
(١٥) نفسه ٥٠، ٥٦، ٥٧ - ٥٩ - ٨٠، ١٦٩.	
(١٦) نفسه ٦١.	

(١٧) نفسه ٦٨٨ وهذا النص يدل على أن أبا غسان له كتاب في خطط المدينة وتاريخها، وأبو غسان هو مدني ثقة، روى له البخاري كما في المزي، تهذيب الكمال ١٢٨٨/٣. وقد أكثر ابن شبة الرواية عنه خاصة في معالم المدينة ودورها ورباعها ومزارعها ومنازل القبائل فيها ص ٢١٨ - ٢٧٢.

وكذلك الواقدي روى عنه بواسطة^(١)، وبصيغة التحديث^(٢) وبصيغة التعليق، قال الواقدي^(٣). كما أنه روى عن محمد بن إسحاق تعليقا^(٤) وبواسطة^(٥) وبصيغة التحديث^(٦).

ونقده للروايات قليل^(٧)، ويكتفي بإشارات بسيطة على طريقة العلماء في عصره في الاكتفاء بإيراد الأسانيد وبالإشارة الموجزة أحيانا إلى ضعف الرواية أو مناقضتها لرواية أخرى.

وطريقة ابن شبة هي طريقة من قبله ومن عاصره من المؤرخين الذين رتبوا كتبهم على النمط الموضوعي مع التزام الإسناد، وهو من أشدهم التزاماً له، وبالنسبة للمنهج التاريخي فإنه لم يأت بجديد، بل إن كتابه بالصورة التي وصلت إلينا يفتقد التنسيق والترتيب التاريخي، وقد يكون هذا الاضطراب من أثر النساخ.

وابن شبة في تاريخه للمدينة لم ينهج نهج المحدثين الذين أرخوا للمدن بتراجم علمائها والواردين عليها، كما فعل بحشل، في تاريخ واسط، والسهمي، في تاريخ جرجان، وأبو عبد الله الحاكم،

(١) المصدر نفسه ص ٥١.

(٢) المصدر السابق ٩٦١ ولم يذكره المزي من شيوخه وعادته الاستقصاء ولكن اللقاء بينهما ممكن لأن وفاة الواقدي سنة ٢٠٧هـ.

(٣) المصدر نفسه ٥١، ١٧٥، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٤) المصدر نفسه ٤٧٧، ٤٧٨، ٥٢٧.

(٥) المصدر نفسه ص ٤٩٨.

(٦) المصدر نفسه ٥٩٧ ولعل هذا وهم من الناسخ؛ لأن ابن شبة لم يدرك محمد بن إسحاق الذي توفي سنة ١٥١هـ.

(٧) انظر نماذج منها في: الصفحات ١٠٣، ٤٨١، ٧٦٤، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٦، ٨٥٠، ٩٤٤، ١٠٢٧، ١٢٩٩، ١٠٣٦.

في تاريخ نيسابور، والبغداد، وفي تاريخ بغداد، وإنما أرّخ للمدينة تاريخاً عمرانياً وسياسياً. وتأتي أهمية المعلومات التي ذكرها في كتابه عن الخطط العمرانية للمدينة وتسجيل الأحداث الأولى في تاريخ الدولة الإسلامية بكونها أقدم نصوص وصلت إلينا في هذه الموضوعات.

٦ - من المؤلفين في النظم المالية

٦ - ١ - أبو يوسف القاضي (١١٣ - ١٨٢هـ):

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبيش بن سعد الأنصاري الكوفي، قاضي القضاة في أيام هارون الرشيد^(١).

وُلد أبو يوسف في الكوفة سنة ١١٣هـ^(٢)، وقد نشأ في أسرة فقيرة فطلب الحديث في أول أمره، ثم لزم أبا حنيفة وتفقه على مذهبه، ويقال إن أمه منعتَه من طلب العلم وأمرته أن يعمل ليكسب لهم رزقاً، فانقطع عن مجلس أبي حنيفة فترة، فلما عاد سألَه عن انقطاعه فأخبره بالأمر فدفع له أبو حنيفة مائة درهم على أن يلزم حلقة العلم معه، وقال: إذا انتهت فأعلمني. وكان أبو حنيفة يتعاهده بالمائة بعد الأخرى^(٣)، ولذلك تفقه عليه ونشر مذهبه وأحبه حتى كان يدعو له دبر كل صلاة^(٤). وقد حدَّث عن هشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعطاء بن السائب، ويزيد بن السائب، ويزيد بن أبي زياد، وأبي إسحاق الشيباني، ومحمد بن إسحاق بن يسار، وسليمان الأعمش، وغيرهم^(٥). وأخذ عنه العلم

(١) الخطيب، تاريخ بغداد ٢٤٢/١٤، ٢٤٣ وهو أول من دعي بهذا اللقب في الإسلام.

(٢) المصدر السابق ٢٤٣/١٤، والذهبي، سير أعلام النبلاء ٥٣٦/٨.

(٣) ذكر الخطيب ٢٤٤/١٤ هذه الرواية، ورواية أخرى بأن الذي منعه هو والده.

(٤) وكيع، أخبار القضاة ٢٥٨/٢.

(٥) الخطيب، تاريخ بغداد ٢٤٢/١٤، والذهبي، سير أعلام النبلاء ٥٣٦/٨.

محمد بن الحسن الشيباني، وبشر بن الوليد الكندي، وأحمد بن حنبل، وكان أول شيوخه في الحديث، ويحيى بن معين، وعمرو بن محمد الناقد، وأحمد بن منيع، وعلي بن مسلم الطوسي، وغيرهم^(١) وكانت وفاته سنة ١٨٢هـ عن تسع وستين سنة، وتولى القضاء ستة عشر عاماً^(٢).

وقد أثنى عليه العلماء في عصره، وتكلم فيه بعض النقاد لأموه أخذوها عليه. فعن محمد بن الحسن قال: مرض أبو يوسف فعاده أبو حنيفة فلما خرج قال: إن يمت هذا الفتى فهو أعلم من عليها^(٣).

وقال أحمد بن حنبل: أول ما كتبت الحديث اختلف إليّ أبو يوسف، وكان أميل إلى المحدثين من أبي حنيفة، ومحمد^(٤)، وقال ابن معين: «ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث ولا أحفظ ولا أصح رواية من أبي يوسف»^(٥)، وروي عنه أيضاً أنه قال: «أبو يوسف صاحب حديث، صاحب سنة»^(٦) كما روي عنه تليينه في الحديث^(٧). وقال المزني: «هو أتبع القوم للحديث»^(٨). وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان شيخاً متقناً لم يسلك مسلك صاحبيه إلا في الفروع، وكان يباينهما في الإيمان والقرآن^(٩). وقال ابن عدي: «ليس في أصحاب الرأي أكثر حديثاً منه إلا أنه يروي عن الضعفاء»^(١٠). وقال البخاري: تركوه^(١١). وقال أبو حاتم: يكتب حديثه^(١٢). وقال أحمد بن حنبل:

(١) المصدر السابق. (٢) الخطيب، تاريخ بغداد ١٤/٢٦١.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٨/٥٣٦.

(٤) محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة، وزميل أبي يوسف.

(٥) المصدر السابق. (٦) المصدر نفسه.

(٧) ابن حجر، لسان الميزان ٦/٣٠١. (٨) الخطيب، تاريخ بغداد ١٤/٢٤٦.

(٩) ابن حجر، لسان الميزان ٦/٣٠١. (١٠) المصدر السابق نفسه.

(١١) الذهبي، ميزان الاعتدال ٤/٤٤٧.

(١٢) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٩/٢٠٢.

صدوق ولكن من أصحاب أبي حنيفة لا ينبغي أن يروى عنه شيء^(١).
وقال ابن حجر: ذكر العقيلي بسند صحيح عن ابن المبارك أنه وهَّاه^(٢).

فهذه أقوال علماء الجرح والتعديل فيه. وهو ليس له رواية في الكتب الستة^(٣). وقد ترك العلماء رواية الحديث عنه لأنه كما يقول ابن سعد: «غلب عليه الرأي وجفا الحديث»^(٤). وقد ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ترجمة مطولة^(٥)، ذكر فيها كثيراً من أخباره في القضاء ومع هارون الرشيد، وقد كان هارون يجله ويبالغ في إكرامه.

ورُوي عن أبي يوسف، حكايات في الحيل والتخريجات، لعلها لا تصح^(٦)، وقد نُسب القاضي إلى الإرجاء على مذهب شيخه أبي حنيفة^(٧) وقد مرَّ معنا قريباً قول ابن حبان: إنه خالف صاحبيه أبا حنيفة،

(١) المصدر السابق نفسه ٢٠١/٩.

(٢) ابن حجر، لسان الميزان ٣٠١/٦.

(٣) لم يترجم له الذين جمعوا رجال الكتب الستة مثل المزي، في تهذيب الكمال، ولا الذهبي، في من له رواية في الكتب الستة، ولا ابن حجر، في تهذيب التهذيب، وقد غفل ناشر كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي أو لعل ذلك من الناسخ إذ رمز أمام اسم القاضي أبي يوسف ٢٩٢/١ بالحرف ع - وهي رمز من أخرج له الجماعة.

(٤) ابن سعد، الطبقات ٣٣٠/٧. (٥) في الصفحات ٢٤٢/١٤ - ٢٦٢.

(٦) من ذلك ما ذكره الخطيب ٢٥١/١٤ في قصة الجارية التي أرادها هارون الرشيد وهي في ملك عيسى بن جعفر، وقد حلف أن لا يبيعها ولا يهبها، فأرشده أبو يوسف بأن يخرج من تلك اليمين بأن يهب نصف الجارية لهارون، ويبيعه نصفها الآخر، فلا يكون قد باعها ولا وهبها.

(٧) الخطيب، تاريخ بغداد ٢٥٦/١٤، ٢٥٧، وهم الذين يسمون مرجئة الفقهاء، ومذهبهم غير مذهب فرقة المرجئة الخُلص الذين يقولون: «لا يضر مع الإيمان معصية»، وإنما يخالفون أهل السنة بقولهم: إن العمل ليس من الإيمان ولكنه شرط من شروطه. حتى قال بعضهم: إن الخلاف بينهم وبين أهل السنة لفظي. انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤.

ومحمد بن الحسن الشيباني في الإيمان والقرآن. وقد أثنى عليه غير واحد من العلماء بأنه صاحب سنة^(١). وروى عنه يحيى بن يحيى أنه قال عند وفاته: «كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه، إلا ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ»^(٢)، وكان يذم علم الكلام ويقول: إن العلم بالكلام جهل^(٣).

وكانت له جهود في التأليف وتصنيف الكتب، وقد وصف بأنه أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة^(٤). وكان يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب إلى جانب الفقه^(٥) ووصل إلينا من كتبه: الرد على سير الأوزاعي، واختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى^(٦)، وكتاب الخراج^(٧).

منهجه في كتاب الخراج:

هذا الكتاب عبارة عن خطة عمل لإصلاح الإدارة المالية في الدولة الإسلامية في العصر العباسي، وضعه أبو يوسف، كما يظهر من مقدمته بناءً على طلب من الخليفة هارون الرشيد، ليعمل به في جباية أموال الدولة، من الخراج، والعشور، والصدقات، والجزية، وقد جعل أبو يوسف كتابه على صورة السؤال والجواب، وقد أحصيت منها ثمانية وعشرين سؤالاً^(٨). لكن أبا يوسف لم يقتصر على إجابة الأسئلة، وإنما

(١) المصدر السابق ٣، ١٤/٢٥٣، وسير أعلام النبلاء ٨/٥٣٧.

(٢) المصدرين السابقين. (٣) الخطيب، تاريخ بغداد ١٤/٢٥٣.

(٤) المصدر السابق ١٤/٢٤٦. (٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) طبع الكتابان بالقاهرة، بتعليق أبي الوفاء الأفعاني.

(٧) طبع عدة طبعات آخرها الطبعة التي صدرت عن دار الإصلاح بالدمام بتحقيق د. محمد إبراهيم البنا.

(٨) تجدها موزعة على فصول الكتاب وذكر محقق كتاب الخراج أن عددها تسعة وعشرون سؤالاً.

استطرد في الإجابة استطرادات مفيدة^(١)، ووضع مقترحات وخطة عمل، وطلب من الخليفة أن يعمل بها، وقدم له نصائح قيمة في إدارة الدولة، ومحاسبة العمال^(٢)، والموظفين على الخراج، والبريد، والصدقات، وغيرها من الوظائف. ولم يكن مبحث الخراج الذي اشتهر به الكتاب إلا أحد فصول الكتاب. فقد وَضَحَ إلى جانب مبحث الخراج كافة موارد الدولة المالية، وواجبات الدولة في إصلاح المرافق العامة^(٣)، وواجباتها في محاسبة موظفيها، وإقامة الحدود، ونشر العدل، وقتال أهل الشرك، وأهل البغي، ولم تخل تلك المباحث من إيراد السوابق التاريخية من سيرة الرسول ﷺ^(٤)، وسيرة الخلفاء الراشدين^(٥) وسيرة عمر بن عبد العزيز^(٦)، كما تضمنت دراسة مركزة عن الفتوح^(٧) وبذلك يكون أبو يوسف قد قدم دراسة فقهية، وتاريخية، للنظم الإسلامية، وسجلاً للسوابق التاريخية من فتاوى الصحابة وسيرة الخلفاء الراشدين، وقد ناقش آراء الفقهاء الذين سبقوه أو عاصروه، ورجح ما رآه دون أن يتقيد بآراء شيخه أبي حنيفة^(٨).

وطريقته في إيراد الأحاديث النبوية أو الأخبار التاريخية هي طريقة

(١) من أهمها المقدمة التمهيدية، والباب الذي يليها والتي أورد فيها جملة من أحاديث الترغيب والترهيب لتكون باعثاً على العمل ومرغباً فيه، وانظر أمثلة لذلك في: الصفحات ١٢٦ - ١٣٠، ١٧٦، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٣ - ٢٣٦.

(٢) انظر: كتاب الخراج ١٧٦، ٢٣٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٣٠١، ٣٦١.

(٣) انظر ص ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٤) انظر أمثلة ذلك في: الصفحات ١٥٧، ٢٧٢ - ٣٨١، ٢٨٩، ٣٩٩ - ٤٠٩.

(٥) انظر أمثلة لذلك في: الصفحات ١٦٠ - ١٦٣، ١٨٣ - ١٨٥.

(٦) انظر أمثلة ذلك في: الصفحات ٢٤٧ - ٢٤٨، ٢٦٢، ٢٦٩.

(٧) انظر أمثلة ذلك في: الصفحات ٧٢ - ٧٦، ٩٣ - ٩٧.

(٨) انظر: الصفحات ٥٩، ١٥١، ١٣٨، ١١٧، ١١٨.

العلماء في عصره، وهي التزام الإسناد. لكن هذه الأسانيد لا تكون دائماً متصلة بل فيها المعضل، والمنقطع، وفيها المبهم الذي لم يسم كقوله: «حدثني أهل المدينة، شيخ قديم - كتبت إلى شيخ من أهل الجزيرة»^(١).

وقد استعمل الإسناد الجمعي بقلة^(٢). ونقده للأخبار التاريخية معدوم، لكنه يناقش الآراء الفقهية^(٣) ويستدل بالأحاديث النبوية وفتاوى الصحابة والوقائع التاريخية في حياة الراشدين.

والكتاب يعتبر أول دراسة للنظم الإسلامية جمع به مؤلفه بين الدراسة الشرعية والوقائع التاريخية، ونَقَدَ فيه بعض الأوضاع والانحرافات^(٤) المخالفة للشرعية، وطلب من الخليفة إصلاح ذلك وإقامة النظام المالي في الدولة على مقتضى العدل الرباني الذي جاءت به الشريعة وطبقه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون ومن اقتدى بهديتهم واستن بسنتهم.

ولقد كان القاضي أبو يوسف رحمته الله صريحاً مع هارون الرشيد في بيان الأخطاء والمخالفات دون موارد، وطلب إليه في أدب واحترام تصحيح الأوضاع، وأمره ونهاه، وحذره وذكره بالله، ورغبه في ثوابه وخوفه عقابه^(٥).

(١) انظر أمثلة لذلك في: الصفحات ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٤، ٤٨، ٥١، ٥٣، ٦٨، ٨٥، ٩٣.

(٢) انظر مثلاً ص ٢٨٦، ٣٩٩.

(٣) انظر ٥٩، ٦٣، ٧٢، ١١٨، ١٢٦، ١٥١، ١٨٥.

(٤) مثل الظلم والتعسف الذي يقع من بعض الجبابة، ومثل التعذيب وزيادة الضرائب، ومثل إقطاع الأراضي لكبار القادة، ومثل التقييل، وأوضح أنه ضارٌّ بالريعية مفسدٌ لبית المال، كما أنه انتقد تصرفات بعض القضاة، وبين حكم الأراضي التي تحت ولاية قاضي السوء، وبين الموقف من أهل الدعارة والتلصص.

(٥) قال لهارون الرشيد في المقدمة ص ٣٢: «لا تؤخر عمل اليوم إلى غد فإنك إذا =

أما دور كتاب الخراج وأثره في تطور الكتابة التاريخية فإنه قد فتح باباً من أبواب الدراسات التاريخية وهو دراسة النظم الإسلامية مستنداً إلى السوابق التاريخية من الوقائع التطبيقية لمدلولات النصوص الشرعية، وتبعه في هذا المنحى كثير من الكُتّاب والمؤلفين، وهو لم يجعل كل ما وقع في ظل الدولة الإسلامية من وقائع ونظم مبرراً للعمل بها، إنما العمدة في هذا على النصوص الشرعية، فما وافق الشرع من عمل الناس ونظمهم فهو السابقة التاريخية التي تتبع ويقتدى بها، وما خالف النصوص الشرعية من عمل الناس فلا يتابعون عليه؛ لأن البشر يصيبون ويخطئون فلا تحسب أعمالهم وتطبيقاتهم على الشرع إذا كانت خاطئة؛ إذ لا بدّ من التفرقة بين أخطاء البشر وأحكام الشرع.

لذلك لم يعتبر القاضي أبو يوسف من أعمال الخلفاء وقضاياهم إلا قضايا الخلفاء الراشدين الأربعة، وقضايا عمر بن عبد العزيز الأموي.

أما قيمة هذا الكتاب من ناحية المنهجية التاريخية فإن موضوع هذا الكتاب ليس تاريخياً بحتاً، إنما هو دراسة فقهية مستندة إلى التطبيقات العملية، لذلك لم يرتب الوقائع وفق ترتيب تاريخي، إنما كان يستشهد بها في المكان المناسب في بيان الحكم الفقهي، ولكنه يورد الوقائع مسندة مما يعطيها قيمة توثيقية.

= فعلت ذلك أضعت، وإن الأجل دون الأمل، فبادر بالعمل فإنه لا عمل بعد الأجل».

وقال أيضاً: «فلا تلقين الله ﷻ غداً وأنت سالك سبيل المعتدين، فإن ديان يوم الدين إنما يدين الناس بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم. وقد حذرك الله فاحذر فإنك لم تخلق عبثاً ولن تترك سدى»، ص ٣٣. وقال: «وقد كتبت لك ما أمرت به، وشرحته لك وبينته ففهمه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه» ص ٣٥. وانظر ١٧٦، ٢٠١، ٢٢٩، ٢٣٢.

٦ - ٢ - أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ - ٢٢٤هـ):

هو الإمام الحافظ المجتهد أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، وُلد بهراة من أعمال خراسان سنة ١٥٧هـ^(١) وكان والده مملوكاً رومياً لرجل من أهل هراة. وتعلم القرآن في كُتَّابها، ولمَّا شَبَّ رحل في طلب العلم إلى البصرة وإلى الكوفة، وهناك التقى بكبار علماء العربية في عصره، فأخذ قراءة القرآن عن أبي الحسن الكسائي، وأخذ العربية عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي زيد الأنصاري وغيرهما^(٢).

ثم رجع إلى خراسان وعمل مؤدباً لأولاد هرثمة بن أعين^(٣)، أحد قادة هارون الرشيد ثم تحول منها إلى مرو، وأخذ يواصل عمله في التأديب والتعليم. وشاء الله أن يمر بهذه المدينة طاهر بن الحسين^(٤) وهو في طريقه إلى خراسان، فطلب رجلاً يحدثه ليلة فليل: ما هاهنا إلا رجل مؤدب، فأدخل أبو عبيد عليه، فلما حادثه وجده أعلم الناس بالأيام والنحو واللغة والفقه. فقال له: من المظالم تركك بهذا البلد، ودفع إليه ألف دينار، وقال له: أنا متوجه إلى خراسان في حرب ولست أحب استصحابك خوفاً عليك فأنفق من هذا المال حتى أعود إليك، فألف أبو عبيد في هذه الفترة كتابه غريب المصنف، فلما عاد طاهر حملة معه إلى

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٩١/١٠.

(٢) المصدر نفسه ٤٩١/١٠.

(٣) هرثمة بن أعين، أمير من القادة الشجعان له عناية بالعمران، بنى في أرمينية وأفريقية وغيرها، ولَّاه الرشيد مصر سنة ١٧٨هـ، ثم ولاه خراسان سنة ١٨١هـ فأقام فيها، وكان مؤازراً للمأمون أيام الفتنة بينه وبين أخيه الأمين، ثم غضب عليه المأمون وسجنه ومات مسجوناً «بِمَرِّو» سنة ٢٠٠هـ. الزركلي، الأعلام ٨١/٨.

(٤) طاهر بن الحسين بن مصعب، من كبار الوزراء والقادة في عهد المأمون، صاحب أدب وحكمة وشجاعة، ولاه المأمون خراسان والعراق، ولد سنة ١٥٧هـ، وتوفي مقتولاً في سنة ٢٠٧هـ. البداية والنهاية ١٠/٢٦٠ - ٢٦١.

«سر من رأى»^(١). ثم شاء الله أن يتعرف عليه ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي^(٢)، فأخذه مؤدباً لأولاده، ولما تولى طرسوس حمل معه أبا عبيد وولاه القضاء بها، وبقي قاضياً بتلك البلدة ثمانية عشر عاماً^(٣)، ثم ترك القضاء ورحل إلى مصر^(٤)، ثم عاد إلى بغداد واستقر بها، وأخذ يصنف التصانيف، ثم قدم مكة حاجاً وبقي بها إلى أن توفي سنة ٢٢٤هـ^(٥).

وقد أخذ العلم عن خلق كثير في العربية والأدب والفقه والحديث، فمن شيوخه: إسماعيل بن جعفر، وشريك بن عبد الله، وسفيان بن عيينة، ويحيى القطان، وابن مهدي، ويزيد بن هارون، وخلق كثير^(٦).

وقد حدث عنه أبو بكر الصاغاني، وأحمد بن يوسف، وأبو بكر بن أبي الدنيا، وعلي بن عبد العزيز البغوي، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، وعباس الدروي، وأحمد بن يحيى البلاذري، وغيرهم^(٧). وقد أثنى العلماء على أبي عبيد فقال ابن سعد: «كان مؤدباً صاحب نحو وعربية وطلب للحديث والفقه»^(٨). وقال الإمام أحمد: أبو عبيد أستاذ^(٩)، ولما عرض عليه كتاب «غريب الحديث» لأبي عبيد استحسنته

(١) الخطيب، تاريخ بغداد ٤٠٦/١٢.

(٢) ثابت بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، والد أحمد بن نصر الشهيد، تولى إمارة الثغور سبعة عشر عاماً، وحسن أثره فيها، ويذكر عنه فضل وصلاح، وتوفي بالمصيصة سنة ثمان ومائتين. تاريخ بغداد ١٤٢/٧ - ١٤٣.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣١٦/٨.

(٤) المصدر نفسه ٣١٥/٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣٥٥/٧.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٩١/١٠.

(٧) نفسه ٤٩٢/١٠. (٨) ابن سعد، الطبقات ٣٥٥/٧.

(٩) ابن حجر، تهذيب ٣١٦/٨.

وقال: جزاه الله خيراً^(١). وقيل: إنه استنسخه بيده^(٢)، وقال ابن معين: ثقة^(٣)، وقال الآجري: عن أبي داود، ثقة مأمون^(٤). وقال الدارقطني: ثقة إمام جبل^(٥). وقال الحاكم: هو الإمام المقبول عند الكل^(٦). وقال إبراهيم الحربي: أدركت ثلاثة لن ترى مثلهم أبداً، تعجز النساء أن يلدن مثلهم، رأيت أبا عبيد ما مثَّلْتُه إلا بجبل نفخ فيه الروح. وقال أيضاً: كان يحسن كل شيء إلا الحديث فإنها صناعة أحمد، ويحيى^(٧). وقال إسحاق بن راهويه: - «الحق يحبه الله - أبو عبيد أفقه مني وأعلم مني»^(٨)، وكان يُقَرَّنُ في الفقه والاجتهاد بالإمامين الشافعي، وأحمد بن حنبل^(٩).

وقال ابن درستويه النحوي. كان أبو عبيد ذا دين وفضل وستر ومذهب حسن، روى الناس من كتبه المصنفة في القرآن، والفقه، والغريب، والأمثال، وغير ذلك بضعاً وعشرين كتاباً، وكتبه مستحسنة مطلوبة في كل بلد^(١٠).

وقال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عنه فقال: كنت أراه في مسجده وقد أصدق به قوم معلمون، ولم أر عنده أهل الحديث فلم أكتب عنه، وهو صدوق»^(١١).

وقال ابن حبان في الثقات: كان أحد أئمة الدنيا، صاحب حديث وفقه، ودين وورع ومعرفة بالأدب وأيام الناس. جَمَعَ وَصَّنَفَ واختار،

(١) نفسه ٣١٧/٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢٩١/١٠.

(٣) ابن حجر، تهذيب ٣١٦/٨.

(٤) نفسه ٣١٦/٨.

(٥) نفسه ٣١٦/٨.

(٦) نفسه ٣١٦/٨.

(٧) ابن حجر، تهذيب ٣١٦/٨.

(٨) الخطيب، تاريخ بغداد ٤١٣/١٢.

(٩) ابن حجر، تهذيب ٣١٧/٨.

(١٠) الخطيب، تاريخ بغداد ٤١٠/١٢.

(١١) الرازي، الجرح والتعديل ١١١/٧.

وذبت عن الحديث ونصره وقمّع من خالفه^(١). قال الذهبي: ولم يتفق وقوع رواية لأبي عبيد في الكتب الستة^(٢). وعلق على ذلك الشيخ ناصر الدين الألباني بقوله: «وذلك من الأدلة الكثيرة على أنهم لم يخرجوا لجميع رواة الحديث الثقات»^(٣). وأبو عبيد واسع الثقافة متعدد الاختصاصات فشارك كل قوم في علمهم، ورضيه الجميع كما قال الحاكم، ولذلك جاءت مؤلفاته في نواح متعددة من العلم. وأشهرها كتابه (غريب الحديث)، وقد مكث في تصنيفه أربعين سنة^(٤)، وكتاب الغريب المصنف في اللغة^(٥)، وكتاب الأمثال^(٦)، وكتاب فضائل القرآن^(٧)، وكتاب الإيمان^(٨)، ومصنف في القراءات، ذكره الذهبي وقال: «لم أره»^(٩)، وكتاب الأموال^(١٠)، وهو من أحسن ما صنف في الفقه وأجوده^(١١) وقد انتقد الخطيب البغدادي هذا الكتاب بقوله: «إن

(١) ابن حجر، تهذيب ٣١٨/٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٥٠٧/١٠.

(٣) انظر: مقدمة كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٥٠.

(٤) الخطيب، تاريخ بغداد ٤٠٧/١٢، وقد نشر الكتاب في حيدرآباد الهند في أربعة مجلدات، عام ١٣٨٤هـ.

(٥) لا زال مخطوطاً ومنه نسخ في آيا صوفيا، والقاهرة.

(٦) كتاب الأمثال نشره مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بمكة بتحقيق د. عبد المجيد قطامش.

(٧) حقق في كلية الشريعة بمكة رسالة ماجستير عام ١٣٩٣هـ، حققه محمد نجاني جوهري.

(٨) نشر عدة مرات، منها نشرة بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني.

(٩) انظر: سير أعلام النبلاء ٤٩١/١٠، وقد ترجم له الذهبي في كتابه معرفة القراء الكبار ١٤١/١.

(١٠) طبع مراراً بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، وطبعة أخرى بتعليق محمد خليل هراس.

(١١) الخطيب، تاريخ بغداد ٤٠٥/١٢.

أضعف كتب أبي عبيد كتاب الأموال، يجيء إلى باب فيه ثلاثون حديثاً وخمسون أصلاً عن النبي ﷺ فيجيء يحدث بحديثين يجمعهما من حديث الشام ويتكلم من ألفاظهما»^(١)، ووجه انتقاد الخطيب على كتاب الأموال، أنه لم يحصر الأحاديث المروية عن النبي ﷺ في الباب الذي يبحثه، ومن المعلوم أن أبا عبيد قليل الرواية للحديث كما قال الحربي^(٢)، وإلا فإن الخطيب قد امتدح الكتاب في ترجمة أبي عبيد وذلك بقوله: «وكتابه في الأموال من أحسن ما صنّف في الفقه وأجوده»^(٣).

منهج أبي عبيد في كتاب الأموال^(٤):

يشمل هذا الكتاب مجموعة من المباحث الفقهية المتعلقة بالأموال وجباية موارد الدولة الإسلامية، والوجوه الشرعية لنفقاتها، وقد قسمه إلى ثمانية كتب، والكتاب ينقسم إلى مجموعة من الأبواب، وقد مهد لهذه الكتب ببعض المباحث التي تعتبر بمثابة مدخل أو مقدمة إلى موضوعات الكتاب، مثل حق الإمام على الرعية، وحق الرعية على الإمام، وصنوف الأموال التي يليها الأئمة للرعية^(٥).

وموضوعات الكتاب الرئيسية هي:

- ١ - كتاب الفیء ووجوهه وسُبله.
- ٢ - كتاب سنن الفیء والخمس، والصدقة، وهي الأموال التي تليها الأئمة للرعية.

(١) الخطيب، تاريخ بغداد ٤١٣/١٢. (٢) تقدم قوله قريباً.

(٣) الخطيب، تاريخ بغداد ٤٠٥/١٢.

(٤) اعتمدنا في الدراسة على الطبعة التي حققها وعلق عليها الدكتور محمد خليل هراس، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، ودار الفكر العربي بالقاهرة.

(٥) انظر: كتاب الأموال ص ١٠، ١٤.

- ٣ - كتاب فتوح الأرضين صلحاً وسننها.
- ٤ - كتاب فتوح الأرضين صلحاً وأحكامها وسننها وهي من الفيء.
- ٥ - كتاب مخارج الفيء في إقطاعها وإحيائها وحماها ومياها.
- ٧ - كتاب الخمس وأحكامه وسننه.
- ٨ - كتاب الصدقة^(١) وأحكامها وسننها.

ويلاحظ أن بين بعض هذه الكتب تداخلاً في العناوين، ومن الممكن ضم بعضها إلى بعض، وطريقة أبي عبيد في تنسيق المادة العلمية أنه يضع عنوان الكتاب أو الباب ثم يبدأ بعده بسرد الأحاديث والآثار عن الصحابة والخلفاء الراشدين بأسانيدها، ويعقب على الأخبار بإيضاح مدلولها^(٢)، ويشرح ما فيها من الغريب^(٣)، ويورد مذاهب الفقهاء^(٤) في القضية موضوع البحث، ويستدل لهم ويرد عليهم حتى يقرر المسألة ويقطع فيها برأي محدد، وفي بعض الأحيان يُقدّم بعد وضع اسم الكتاب أو الباب الحكم الذي يذهب إليه^(٥)، ثم يورد الأدلة على ذلك الحكم من القرآن ومن السنة، وبقضايا الخلفاء الراشدين^(٦) والصحابة، وبقضايا عمر بن عبد العزيز^(٧)، وبأقوال العلماء وفتاواهم^(٨) ويبين وجوه الأدلة

(١) أي الزكاة وقد أفاض فيها وبين مقاديرها في كل نوع من الأموال التي تزكى، المواشي والثمار وعروض التجارة من ص ٤٣٧ - ٧٢٩.

(٢) انظر الصفحات ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٨٣، ٢٩٧، ٣٣٧.

(٣) انظر ص ٤٦، ٥٩، ٧٢، ٧٤، ١٤٤، ٢٠٠، ٢٢٠، ٢٤٥، ٢٦٤.

(٤) انظر ص ٤٥١، ٤٦٧، ٤٩٠ - ٤٩١، ٥٠٠ - ٥٠٥، ٥٠١ - ٥١٤، ٥٢٦ - ٥٣٧، ٥٩٧.

(٥) انظر ص ١٤١، ١٦٥، ٣٦٢.

(٦) انظر الصفحات ٦٩، ٧١، ٩٠، ٢٤٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٤٤ - ٣٤٥، ٤٢٦، ٤٥٢.

(٧) انظر الصفحات ٣٣٣، ٣٣٤، ٤٢٤، ٥٠٩، ٥١٦.

(٨) انظر الصفحات ٣٣٧، ٤٢٤، ٤٢٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥٦٨ - ٥٧٥.

ويعللها^(١)، ويتعقب الأقوال، ويرجح بعضها، وينقد الأسانيد ويبين عللها^(٢)، ويستعمل النظر ويرجع له لكنه يقدم النص عليه^(٣)، ويحافظ على نصوص الأحاديث والآثار، فإذا شك في كلمة قال: أو شبهها وإذا كان الشك منه قال: شك أبو عبيد^(٤) - وإذا كان من غيره يسميه^(٥). وإذا كان النص طويلاً فإنه يقتصر على موضع الشاهد ويشير إلى أنه اقتصر على جزء منه بقوله. ثم ذكر حديثاً طويلاً^(٦)، وإذا لم يورد الكلام بنصه يوضح ذلك بقوله: ... كلام هذا معناه^(٧). ويرجع إلى بعض الوثائق والسجلات^(٨)، وبعض الأحاديث والأقوال يملئها من حفظه ويبين ذلك^(٩)، ويعتذر عنها إذا نسيها^(١٠). وهذا يدل على مبلغ تقدمه في التصنيف، ودقته في نقل الأقوال والأحاديث.

وأسانيدته التي روى عن طريقها الأحاديث النبوية، والآثار عن الصحابة والخلفاء الراشدين، مثل أسانيد غيره من الفقهاء وأصحاب السير تحتاج إلى دراسة وتدقيق لمعرفة أحوال رجالها، ومدى اتصالها من عدمه؛ لأن غالب أسانيد الفقهاء وأصحاب السير مرسله^(١١)،

(١) انظر الصفحات ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٩١، ٣٥٥ - ٣٥٩.

(٢) انظر نماذج منها في: الصفحات ٤٢٨، ٤٣٦، ٤٥١، ٤٥٣، ٥٠٥، ٥٢٣، ٥٢٥، ٦٠٦ - ٦٠٧، ٦٢١، ٦٥٣، ٦٦٩.

(٣) انظر الصفحات ٥١٤، ٥٤٣، ٥٤٦، ٥٥٩، ٧٠١.

(٤) انظر الصفحات ١١٤، ٣١٧، ٣٣٢، ٣٣٨، ٣٩٣، ٤٠٠.

(٥) ص ٤١٤.

(٦) انظر ٤٩، ٥٠، ٥١، ١٠٥، ١٨٣، ٢٠٩، ٢٤٣، ٣٢١، ٦٩٢.

(٧) ص ٢٧٦، ٦٣٠. (٨) انظر ٢٢٣، ٢٥٢.

(٩) ص ٣٣٧. (١٠) انظر ١٠٧، ١٤١.

(١١) الحديث المرسل: هو ما سقط من آخر سنده من بعد التابعي. شرح نخبة الفكر ص ٦٦.

وموقوفة^(١)، ومعضلة^(٢).

والجديد في منهج أبي عبيد هو بروز شخصيته وبيان رأيه وتأويله للنصوص التي تخالفه، ومناقشته للعلماء والرد عليهم، وترجيحه للمسائل، وقوة استدلاله مما كان يُفتَقَد عند كثير من معاصريه، إذ يختفون وراء الأسانيد ويكتفون بإيرادها دون التدخل في مناقشتها والترجيح بينها.

فهو أوضح من أبي يوسف رغم أن أبا يوسف من مدرسة الرأي، وموضوع كتابي أبي يوسف، وأبي عبيد واحد، إلا أن طريقة المعالجة تختلف، فأبو يوسف كان مع بيانه للموارد المالية للدولة الإسلامية، يركز على الوسائل التي تساعد على استقرار النظام المالي، مثل إقامة العدل من أخذ الأموال من حقها وصرفها في مستحقها، وتنفيذ الحدود الشرعية، أما أبو عبيد فإنه ركّز على بيان الأحكام في جباية موارد الدولة الإسلامية ومصارفها دون أن يجعل نصب عينيه انحرافاً معيناً يريد علاجه.

وما قلناه عن كتاب الخراج وأثره في الكتابة التاريخية يمكن أن يقال هنا عن كتاب الأموال لأبي عبيد.

(١) الحديث الموقوف: هو ما انتهى سنده إلى الصحابي. شرح نخبة الفكر ص ١١٩.

(٢) الحديث المعضل: هو ما سقط من سنده اثنان فصاعداً على التوالي. شرح نخبة الفكر ص ٦٩.

٧ - من المؤلفين في التاريخ العام

سلك المؤلفون في التاريخ العام منهجين متقاربين في ترتيب كتبهم، فطائفة اتخذت التنظيم الموضوعي، مع مراعاة الترتيب الزمني في سوق الموضوعات، سواء في تواريخ الأمم السابقة، أو التاريخ الإسلامي بعد البعثة النبوية.

وطائفة اتبعت التنظيم الموضوعي في تاريخ ما قبل البعثة النبوية لعدم وجود تاريخ زمني ثابت ومستمر، ولكنها إذا جاءت للتاريخ الإسلامي رتبت أحداثه حسب السنوات الهجرية وهو المعروف بالتاريخ الحولي، حيث يسرد حوادث كل سنة هجرية على حدة، ثم التي تليها وهكذا، مرتبة على التسلسل الزمني دون النظر إلى التسلسل الموضوعي. وقد سلك كل واحد من المنهجين مجموعة من المؤرخين المسلمين. وسندرس مثلين من كل نوع ممن عاشوا في الفترة الزمنية موضوع البحث.

أ - فمن الذين اتبعوا الترتيب الموضوعي نأخذ أبا حنيفة الدينوري، وأحمد بن إسحاق اليعقوبي.

ب - ومن الذين سلكوا الترتيب الحولي نأخذ خليفة بن خياط، ومحمد بن جرير الطبري.

٧ - أ - ١ - أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ):

هو العلامة ذو الفنون أحمد بن داود بن وتند^(١) الدينوري النحوي،

(١) انظر: ياقوت، معجم الأدباء ٢٦/٣، وجده وتند بفتح التاء وإسكان النون.

كان لغويّاً مهندساً منجماً حاسباً. أخذ عن البصريين والكوفيين^(١) وأكثر أخذَه عن ابن السكيت^(٢)، مات سنة ٢٨٢هـ^(٣). ولم أقف على تاريخ مولده أو عمره. له من المؤلفات كتاب النبات وقد أثنى عليه العلماء بسببه^(٤)، وكتاب الأنواء، وكتاب الجبر والمقابلة، وكتاب القبله والزوال، وكتاب الأخبار الطوال، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب ما يلحن فيه العامة^(٥).

قال ابن النديم: ثقة فيما يرويه ويحكيه^(٦).

وقال أبو حيان: أبو حنيفة الدينوري من نوادر الرجال جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، له في كل فن ساق وقدم، ورواء وحكم^(٧).

وقال الذهبي: صدوق، كبير الدائرة، طويل الباع، ألّف في النحو واللغة والهندسة والهيئة وأشياء^(٨)، فهو واسع الثقافة مشارك في كثير من

(١) ابن النديم، الفهرست ص ٨٦.

(٢) هو شيخ العربية يعقوب بن إسحاق بن السكيت البغدادي النحوي، مؤلف كتاب إصلاح المنطق، دَيْن خَيْر، حجة في العربية، قتله المتوكل سنة ٢٤٤هـ. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٨/١٢.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء ٢٦/٣؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٢٢/١٣؛ وابن كثير، البداية والنهاية ٧٢/١١، وقد ذكر ياقوت روايات أخرى في تاريخ وفاته كلها متقاربة.

(٤) ابن النديم، الفهرست ص ٨٦.

(٥) انظر: فهرست ابن النديم ص ٨٦، ومعجم الأدباء ٣٢/٣، وقد طبع من كتبه كتاب الأخبار الطوال، وأجزاء من كتاب النبات كما قال الزركلي في الأعلام ١٢٣/١، وبقيّة كتبه لا نعلم عنها شيئاً.

(٦) الفهرست ص ٨٦. (٧) ياقوت، معجم الأدباء ٢٨/٣.

(٨) سير أعلام النبلاء ٤٢٢/١٣.

العلوم حتى عدّه بعضهم من كبار علماء المذهب الحنفي^(١).
ومن خلال قراءتي لكتابه «الأخبار الطوال» تبين أنه تنزعه عرق
فارسية مع ميول شيعة.

منهجه في كتابه الأخبار الطوال^(٢):

يبدأ كتاب الأخبار الطوال بالحديث عن أولاد آدم ﷺ وأنهم
تفرقوا في الأرض بعد أن كثروا ووقع بينهم التنازع، ثم يذكر الأنبياء إلى
إسماعيل ﷺ، بإشارات موجزة، ثم يدخل في التاريخ الفارسي، فيؤرخ
لملوكتهم ويذكر من كان يعاصرهم في جزيرة العرب، وفي بلاد الروم
خاصة الإسكندر الروماني، ويسترسل في التاريخ الفارسي ويورد
معلومات مفصلة وواسعة عن التاريخ الفارسي إذا قورنت مع ما يورده
بقية المؤرخين المسلمين، وهو يذكر تاريخ المناطق المجاورة من خلال
هذا التاريخ، ويشير إشارة موجزة في أسطر إلى مولد الرسول ﷺ وبعثته
وعدد سنوات لبثه في مكة والمدينة ثم وفاته^(٣).

ثم لا يذكر شيئاً من تاريخ الخلفاء الراشدين، ولا الأحداث
الداخلية في جزيرة العرب مثل حروب الردة، وإنما يذكر الفتوحات
الإسلامية في بلاد فارس دون غيرها من الفتوحات في الشام ومصر
والمغرب، ويتتبع الأحداث في بلاد الفرس حتى سقوط آخر ملوكهم
«يزدجرد» ومقتله في سنة ٣٠هـ^(٤). وبعد ذلك يلتفت للأحداث والفتن

(١) الذهبي، سير أعلام الذهبي ٤٢٢/١٣.

(٢) اعتمدنا في الدراسة على الطبعة التي حققها عبد المنعم عامر، ونشرتها وزارة
الإرشاد القومي بمصر، في سلسلة تراثنا سنة ١٩٦٠م.

(٣) انظر: الأخبار الطوال ص ٧٤.

(٤) الأخبار الطوال ص ١٤٠ وغيره من المؤرخين يجعلون مقتله سنة ٣١هـ. انظر:
الطبري ٢٩٣/٤، والبداية والنهاية ١٥٨/٧.

المؤلفة التي وقعت بين المسلمين، فیتبعتها بنفَس طویل^(١)، وتفصیل عجیب، فیذكر مقتل عثمان، وبيعة علي بن أبي طالب في إشارة موجزة، ثم يفصل في معركة الجمل، وصفين، وظهور الخوارج، ومقتل علي على أيديهم، وبيعة الحسن، ومقتل الحسين، ويفصل في ذلك تفصيلاً دقيقاً. ثم يتعرض للحديث عن دعوة عبد الله بن الزبير، وفتنة المختار بن أبي عبيد، وثورة ابن الأشعث، وثورات الخوارج المتعددة، ودور المهلب بن أبي صفرة في حربهم، ويذكر الخلفاء الأمويين من خلال الأحداث الداخلية في الدولة الإسلامية، ثم يؤرخ لظهور الدعوة العباسية وتعاظمها حتى سقوط الدولة الأموية، ثم يؤرخ للخلفاء العباسيين حتى وفاة المعتصم بن الرشيد سنة ٢٢٧هـ ويقف عند هذا التاريخ مع أنه قد عاش إلى سنة ٢٨٢هـ.

وموارد أبي حنيفة الدينوري في كتابه هذا غير واضحة، لأنه لا يستعمل الإسناد، ولا ينص على غالب مصادره، وإنما قال في أول كتابه: وجدت في كتب أهل العلم بالأخبار الأولى^(٢). ثم يسرد الكتاب في أسلوب قصصي متماسك وعبارة واضحة. وعند بداية كل موضوع جديد يستعمل كلمة «قالوا» أي أهل العلم الذين وجد هذه الأخبار في كتبهم.

وأشار إشارات بسيطة إلى أسماء بعض من أخذ عنهم، فأشار إلى عبيد بن شرية الجرهمي، صاحب كتاب الملوك وأخبار الماضين بقوله: «وذكر عن ابن الشرية»^(٣)، وأشار إلى عالم نسابة هو ابن الكيس النمري^(٤). بقوله: «وذكر عن ابن الكيس النمري أنه

(١) بلغت ١٨٤ صفحة من الكتاب من ص ١٤١ - ٣٢٤.

(٢) الأخبار الطوال ص ١. (٣) المصدر نفسه ص ٧.

(٤) هو مالك بن عبيد بن شراحيل، من ولد النمر بن قاسط، عالم بالنسب، وله =

قال...»^(١)، كما نقل عن الكلبي^(٢)، وعن الأصمعي^(٣)، وعن الشعبي^(٤). وأكثر من صرح بالنقل عنه الهيثم بن عدي^(٥)، فقد صرح باسمه في عشرة مواضع، وتعليقاته على الأخبار التي يسوقها قليلة جداً^(٦)، وترجيحه وموازنته بين الأخبار معدوم^(٧)، وهو يكتفي بذكر رواية واحدة يختارها ولا يشير إلى خلافها، ولذلك وقع في بعض الأخطاء مثل قوله: إن الإسكندر الروماني هو ذو القرنين الرجل الصالح الذي ذكر الله قصته في القرآن الكريم^(٨)، ومثل قوله: إن شعبياً صاحب موسى هو شعيب النبي، ولم يذكر الخلاف في ذلك مع أن الراجح تغاير شخصيتهما^(٩) وكذلك قوله: إن الذي صلبه اليهود وألقي شبه عيسى عليه هو يحيى بن زكريا النبي^(١٠).

= كتاب في ذلك. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص ٣٠١، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، تحقيق عبد السلام هارون.

(١) الأخبار الطوال ص ٧. (٢) المصدر نفسه ص ٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٨ - ٣٢٩. (٤) نفسه ص ٢٨٨، ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٥) انظر ص ٣٥٨، ٣٦٥، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٥.

(٦) نفسه ص ٢٠، ٢٤.

(٧) لم أجد له إلا مثلاً واحداً في ص ٤٠٢.

(٨) وهما مختلفان، فذو القرنين رجل صالح عادل مُوحَّد، وهو متقدم في الزمن، والإسكندر المقدوني روماني وثني، وزيره الفيلسوف أرسططاليس، وهو الذي قتل دارا بن دارا الملك الفارسي وخرب أرضه. انظر: تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٥، البداية والنهاية ٢/ ١٠٢ - ١٠٦.

(٩) انظر عن ذلك: تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٨ - ٢٣٩.

(١٠) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩ - ٤٠١، ويحيى بن زكريا نبي بنص القرآن: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وهو متقدم على عيسى؛ فإن عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل، وإنما الذي صلب أحد حواريه، وقيل: الرجل الذي دلَّهم على مكان عيسى ﷺ.

وبعض الأخبار يختصرها ثم يقول: إن ذلك حديث مشهور^(١)، وفي أخبار الأنبياء، يحيل على الآيات القرآنية ولا يورد نصها^(٢)، ويستشهد بالأشعار كثيراً.

ويذكر في بعض السنوات أسماء من توفي فيها^(٣)، وفي خلافة هارون الرشيد، خرج على القاعدة التي سار عليها في ترتيب كتابه، فساق أحداث خلافته على أساس الترتيب الحولي، فيذكر ما صار في كل سنة^(٤). ويحدد غالباً - عندما يذكر وفاة أحد الخلفاء - مدة خلافته، وتاريخ ولادته وعمره.

وطريقة الدينوري هي انتقاء بعض الأحداث، وبعض الروايات التي تخدم اتجاهه، والتركيز عليها ومتابعتها حتى تنتهي، وخاصة في تاريخ الدولة الإسلامية، ولذلك سمى كتابه الأخبار الطوال، فهو مجموعة أخبار منتقاة لا تاريخ شامل، كما أنه يمثل الأخباريين الذين يكثرون في كلامهم الخلط والتزيد على أصول الحوادث والأخبار مع عدم التحقيق، أو ذكر الإسناد لتتضح الرؤية للناقد والمحقق من بعدهم.

والذي ينظر للتاريخ الإسلامي من خلال كتاب الأخبار الطوال لا يجد إلا صورة قاتمة من الصراع الداخلي، والتطاحن على الملك، والعصبية. ولا نتهم الدينوري باختراع الأخبار من عند نفسه، لكن طريقة العرض والانتقاء كان لها الدور في رسم مثل هذه الصورة.

وكتاب الأخبار الطوال للدينوري غير واضح التأثير في الكتابة التاريخية لاقتصراره على اتجاه واحد هو الاتجاه الشعبي، كما أن المؤرخين من بعده لم يُحلّوه بمنزلة رفيعة، كما فعلوا بتاريخ خليفة بن

(١) الأخبار الطوال ص ٥٨، ١١٢، ١٣٨، ٤٠٥.

(٢) نفسه ص ١٢، ٢١. (٣) نفسه ص ٣١٦.

(٤) نفسه ص ٣٩٠ - ٣٩٢.

خياط، رغم وجازته واختصاره، أو تاريخ أبي جعفر الطبري، لذلك نجد الاقتباسات عنه في المصادر المتأخرة قليلة.

٧ - أ - ٢ - اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ أو ٢٩٢هـ):

هو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، مولى بني هاشم مؤرخ شيعي إمامي، كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية، حتى لقب بالكاتب العباسي، وتاريخ مولده غير معروف، أما وفاته فقد ذكر ياقوت أنها سنة ٢٨٤هـ^(١)، وقال غيره: سنة ٢٨٢هـ^(٢)، ورجح الزركلي في الأعلام أن وفاته كانت بعد سنة ٢٩٢هـ وذلك متابعة لناشر الطبعة الثانية من كتاب التاريخ لليعقوبي^(٣) بناءً على نص وجدته في كتاب البلدان^(٤) له، واليعقوبي رحالة جغرافي جاب البلدان الإسلامية وكتب عنها، وقد ساعدته خبرته العملية التي اكتسبها من الرحلات والسفر، ومن العمل في دواوين الدولة، من جمع معلوماته وتنظيمها في مؤلفاته التي كتبها، وهي كتاب البلدان، وهو من أقدم المؤلفات في الجغرافيا التاريخية عند المسلمين، وكتاب أخبار الأمم السابقة، وكتاب تاريخ اليعقوبي^(٥). وكذلك رسالة صغيرة بعنوان

(١) ياقوت، معجم الأدباء ١٥٤/٥. (٢) الزركلي، الأعلام ٩٥/١.

(٣) انظر: الأعلام ٩٥/١، والطبعة الثانية من كتاب اليعقوبي، صدرت في النجف سنة ١٣٥١هـ ولم أقف عليها.

(٤) انظر: النص المشار إليه في كتاب البلدان ص ٣٧٢، ط. ليدن سنة ١٨٩١م، ضمن كتاب الأعلام النفيسة لأحمد بن عمر بن رسته. والنص من تعليقات الناشر منسوباً لليعقوبي يقول فيه: لما كانت ليلة عيد الفطر من سنة ٢٩٢هـ تذكرت ما كان فيه آل طولون في مثل هذه الليلة من الزي الحسن بالسلاح وملونات البنود والأعلام، فاعترتني لذلك فكرة، ونمت في ليلتي فسمعت هاتفاً يقول: ذهب الملك والتملك والزينة لما مضى بنو طولون.

(٥) طبع في ليدن سنة ١٨٦٠م، وفي النجف سنة ١٣٥١هـ، وفي بيروت عن دار صادر.

«مشاكلة الناس لزمانهم»^(١).

وكتابه في التاريخ ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: في التاريخ القديم، وقد تحدث فيه عن بدء الخليفة، آدم عليه السلام وأولاده من بعده حتى عهد نوح وحدث الطوفان، ثم ساق تاريخ الأنبياء على ترتيب بعثتهم إلى عيسى بن مريم، ومعلوماته عن تاريخ الأنبياء اعتمد فيها على القصص الشعبي والإسرائيليات اليهودية والنصرانية، وقد نقل من التوراة مباشرة^(٢)، ومن الأناجيل التي بأيدي النصارى في عهده^(٣)، وساق اختلافاتها في ولادة المسيح عيسى بن مريم، ولم يعتمد على القرآن الكريم ولا السنة النبوية اللذين هما المصدر الصحيح السالم من التحريف والتزديد، وإنما أشار إشارات مجملة بمثل قوله عن سليمان «وأثاه ملكاً عظيماً كما قص في كتابه العزيز»^(٤) وقوله عن مريم: «فكان من خبرها ما قصه الله ﷻ»^(٥).

وبعد ذكر الأنبياء تحدث في إيجاز عن تاريخ الممالك التي قامت في الزمن القديم، مثل السريانيين، والبابليين، والهنود، واليونانيين، والروم، والفرس، والصين، وممالك الجربي في أرمينية، والخزر، وممالك الصين، والقبط بمصر، والبربر، والحبشة، والسودان، وممالك العرب في اليمن والشام والحيرة، ثم ذكر ولد إسماعيل وتسلسلهم، ثم

(١) طبعت في دار الكتاب الجديد في بيروت، بتحقيق وليم ملورد، والرسالة تبحث في تشبه الناس وتقليدهم لخلفائهم، لكنه يبالغ في هذه الناحية، ويذكر أموراً عظيماً عن خلفاء بني أمية، وبني العباس دون أن يذكر مستنداً له، ونشك في واقعيتها، وهو غير ثقة بل شيعي غالٍ في تشيعه.

(٢) انظر: تاريخ يعقوبي ٣٩/١.

(٣) انظر ٦٨/١ وذكر أسماء الأناجيل التي نقل منها، وهي: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، ٦٩/١، ٧٢، ٧٥ على التوالي.

(٤) تاريخ يعقوبي ٥٧/١، ٦٠. (٥) نفسه ٦٨/١.

ذكر أخباراً عن حكام العرب الذين يرجع إليهم، وشعراء العرب وأسواقهم وأزلامهم.

وحديثه عن هذه الممالك يجمع بين القصص التاريخي والوصف الجغرافي، مع التركيز على الناحية الدينية ونوع ديانتهم، وعن تاريخهم الذي يؤرخون به، وعلى ما لديهم من علوم وحكمة، وما اقتصوا به من ذلك، ويستطرد في ذكر مؤلفاتهم، والموضوعات التي بحثوها خاصة عند اليونان^(١) والهنود^(٢).

وقد عرض ذلك بإعجاب وإكبار لما عند القوم من علوم الحكمة والفلسفة^(٣)، وقد صرح بمصادره في تاريخ فارس^(٤) وانتقدها، وذكر مصادره في تاريخ الصين^(٥).

أما القسم الثاني من الكتاب فهو يبدأ من مولد النبي ﷺ فذكر سيرته ومغازيه وسراياه في إجمال موجز مركز، وقد سرد أخبار التاريخ الإسلامي على حسب توالي الخلفاء، فذكر الحوادث الهامة في حياة كل خليفة وقد ذكر في مقدمة هذا القسم من تاريخه شيئاً من منهجه، فقال: «ألفنا كتابنا هذا على ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السير والأخبار والتأريخات، ولم نذهب إلى التفرد بكتاب نصنفه لكننا ذهبنا إلى جميع المقالات والروايات؛ لأننا وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمال»^(٦)، فكأنه

(١) ذكر مؤلفات أبقراط، ثم ساق محتوياتها من ١/٩٥ - ١١٤ ثم كتب جالينوس، وسقراط، وأقليدس ١/١١٤ - ١٤٢.

(٢) أثنى على الهند وعلمائها، ثم ذكر أبواب كتاب كيلة ودمنة، وقام بتفسيرها من ٨٨/١ - ٩٥.

(٣) وهذا يدل على اتجاهه الفكري، وتأثره بهذه العلوم الفلسفية.

(٤) تاريخ يعقوبي ١/١٥٨. (٥) المصدر نفسه ١/١٨٠.

(٦) المصدر نفسه ٥/٢.

أراد أن ينتقي من مجموع ما وصله ولم يكلف نفسه بذكر رواياتهم واختلافاتها ومحاولة الترجيح، ليكون القارئ على بينة من كيفية الترجيح، ومعرفة بالروايات وأسماء رواتها، وإنما اختار هو وسجل اختياره.

وقد سَمَّى مصادره في هذا القسم من الكتاب وهم أحد عشر أخبارياً ومنجمان^(١) اثنان، هما: موسى الخوارزمي المنجم، وما شاء الله الحاسب. وقد أخذ عنهما الطوالع والنجوم التي يذكرها عند تولي كل خليفة أو وفاته، وعند ولادة كل شخص عظيم أو وفاته، كما فعل عند ولادة الحسين بن علي، وعند مقتله، وكذلك بقية الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية^(٢)، وقد اعتنى بإبراز وفياتهم وذكر جمل من أقوالهم وحكمهم، أما تاريخ الفترة التي عاصرها فقد يأخذ عن مصادر مباشرة ذكر بعضها^(٣)، ومن عاداته أن يذكر في ترجمة كل خليفة، من كان أكثر حظوة عنده، ومن هو صاحب شرطته، كما يقدم قوائم بأسماء من أقاموا الحج للناس، وقوائم بأسماء الفقهاء والعلماء الذين كانوا في عهد الخليفة، ويحرص على ذكر اسم أم الخليفة، وعدد أولاده ويسميتهم،

(١) انظر أسماءهم في مقدمة الجزء الثاني من تاريخه ٦/٢ وهم من الأخباريين الضعفاء، باستثناء عبد الملك بن هشام، وأبي حسان الزياتي، وعلي بن محمد المدائني، فإسحاق بن سليمان، لا يعرف حاله، وأبو البختری، كذاب متروك، وأبان بن عثمان الأحمر، من رجال الشيعة ومصنفي الإمامية، والواقدي متروك، وعيسى بن يزيد بن داب، منكر الحديث متروك، والهيثم بن عدي، كذاب، ومحمد بن كثير، شيعي منكر الحديث، وأبو معشر ضعيف، فهؤلاء هم مصادره الذين صرح بهم، وهو لا ينص القول عنهم، وليس بثقة في نفسه، بل شيعي إمامي رافضي، كما تبين في كتابه.

(٢) تاريخ البيعقوبي ١٧٨/٢ - ٢١٥، ٢٢٥ - ٢٢٨، ٢٤٣ - ٢٤٩، ٣٨١ - ٣٩١، ٤١٤ - ٤١٥.

(٣) المصدر نفسه ٤٠٨/٢، ٤٥٢، ٤٧٧.

كما أنه يذكر الحوادث الشاملة، كالمجاعات، والأمراض، والزلازل. وقد اقتصر اهتمامه على التركيز على تاريخ الخلافة في المشرق ولم يذكر الدولة الأموية في الأندلس.

عقيدة اليعقوبي:

عرض اليعقوبي تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلي بن أبي طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة، ويسمي علياً بالوصي. وعندما أرّخ لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يُضفِ عليهم لقب الخلافة، وإنما قال: تولى الأمر فلان.. ثم لم يترك واحداً منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة، فقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أخباراً سيئة^(١)، وكذلك عن خالد بن الوليد^(٢)، وعمر بن العاص^(٣)، ومعاوية بن أبي سفيان^(٤)، وعرض خبر السقيفة عرضاً مشيناً^(٥)، ادعى فيه أنه قد حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من علي بن أبي طالب الذي هو الوصي في نظره، وبلغ به الغلو إلى أن ذكر أن قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] قد نزلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه يوم النفر^(٦)، وطريقته في سياق الاتهامات هي طريقة قومه من أهل التشيع والرفض، وهي إما اختلاق الخبر بالكلية^(٧)،

(١) المصدر نفسه ١٨٠/٢ - ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه ٢٢٢/٢.

(٣) المصدر نفسه ٢٢٢/٢ - ٢٣٨.

(٤) المصدر نفسه ١٢٣/٢ - ١٢٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٤٣/٢.

(٦) مثل القول الذي نسبوه للمقداد بن الأسود في وصف علي ١٦٣/٢، ومثل الخطبة المكذوبة على أبي ذر في مسجد رسول الله ﷺ فيها التصريح بأن علي بن أبي طالب الوصي على الخلافة ١٧١/٢، ومثل خطبة مالك بن الأشتر أمام علي رضي الله عنه، والذي زعموا أنه وصفه بأنه وصي الأوصياء ووارث علم الأنبياء، انظر ١٧٩/٢.

أو التزيد في الخبر^(١)، والإضافة عليه، أو عرضه في غير سياقه ومحلّه حتى يتحرف معناه. ومن الملاحظ أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك، وعندما ذكر خلفاء بني العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم في كتابه البلدان، بالدولة المباركة^(٢). مما يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية.

وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل في كتابه التاريخ الإسلامي وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا في التاريخ الإسلامي وسيرة رجاله. مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية؛ إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات، والقسم الثاني كُتب من زاوية نظر حزبية، كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمي.

٧ - ب - ١ - خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)^(٣):

هو خليفة بن خياط بن خليفة بن خياط العُصْفُريُّ^(٤) التميمي أبو عمرو البصري، الملقب بـ«شباب» كان جده خليفة من أهل الحديث الثقات^(٥)، وكذلك والده خياط كان من أهل الحديث، فقد روى عنه ابنه^(٦)، وقد نشأ خليفة في هذا الوسط العلمي، وفي مدينة البصرة التي

(١) مثل زيادته في خطبة داود بن علي عندما بويع للسفاح بالكوفة، انظر ٣٥٠/٢، وقارن بالطبري ٤٢٦/٧.

(٢) اليعقوبي، كتاب البلدان ص ٣٠٣.

(٣) قدم الدكتور أكرم ضياء العمري دراسة وافية عن حياة خليفة في مقدمة كتابه التاريخ، وكذلك في الطبقات.

(٤) بضم العين وسكون الصاد وضم الفاء. والعصفر نبت تصبغ به الثياب. انظر: الرازي، مختار الصحاح ص ٤٣٧.

(٥) انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ١٦١/٣.

(٦) انظر: ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٤٠٥/٣.

كانت في ذلك الوقت من أكبر المراكز العلمية، وقد اهتم إلى جانب الحديث بالتاريخ والسير وأيام الناس، روى عن أبيه وعن زياد بن عبد الله البكائي ويزيد بن زريع، وإسماعيل بن عُلَيَّة، ويحيى القطان، وابن مهدي، ومعتمر بن سليمان، وابن عيينة، وهشام الكلبي، وعلي بن محمد المدائني^(١).

وروى عنه البخاري، وأبو يعلى الموصلي، وعبد الله ابن الإمام أحمد، والدارمي، وحرب الكرمانى، وبقي بن مخلد القرطبي^(٢).

قال ابن عدي: له حديث كثير، وتاريخ حسن، وكتاب في الطبقات، وهو مستقيم الحديث صدوق من متيقظي رواة الحديث^(٣)، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان متقناً عالماً بأيام الناس وأنسابهم^(٤).

قال الذهبي: حدث عنه البخاري بسبعة أحاديث وأزيد في صحيحه^(٥). وقال: كان صدوقاً نساباً عالماً بالسير والأيام والرجال، وثقة بعضهم، ولينه بعضهم بلا حجة^(٦).

منهجه:

كتب ابن خياط كتابين في التاريخ، أحدهما في الطبقات، والآخر في التاريخ العام، وهو معتبر من رجال الحديث ورواته، ومعلوم دقة التزامهم بالإسناد خاصة في العصر الذي عاش فيه خليفة، وقد فرق ابن

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٧٢/١١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٦١/٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٧٣/١١ لكن قال ابن حجر في التهذيب ١٦١/٣:

لم يحدث عنه البخاري إلا مقروناً، وإذا حدث عنه مفرداً علق أحاديثه.

(٦) المصدر نفسه.

خياط بين منهجه في الكتابين، ففي كتاب الطبقات أهمل الإسناد واكتفى بتقديم قائمة مصادره في أول الكتاب^(١). بينما التزم الإسناد في كتاب التاريخ، وإن كانت أسانيده ليست كلها من قبيل الصحيح المتصل، وإنما فيها إرسال، وانقطاع، وإعضال، وفي رجاله المجهولون، والضعفاء الذين لا يحتج بروايتهم عند أهل الحديث، ويرجع الدكتور أكرم ضياء العمري هذا التغير في منهج خليفة إلى أن التساهل في أسانيد الأخبار مما تعارف عليه المحدثون، كما أن غلبة الأنساب على مادة الطبقات تجعل التساهل في الإسناد مقبولاً إذ أن مجال التلاعب وأثر الأهواء يتقلص كثيراً في مادة قوامها الأنساب وسني الوفيات، في حين يقوى ذلك في الأخبار ذات المساس بالعقائد الدينية والميول السياسية؛ ومن هنا نجد أن خليفة يعني بذكر الإسناد في تاريخه أكثر من الطبقات^(٢). وقد وضع خليفة في مقدمة كتاب التاريخ شيئاً من مفهومه للتاريخ، وأنه يعني التوقيت، وأن له فوائد شرعية، مثل معرفة وقت الصيام، والحج، وعدد النساء، وحلول الديون، إلى أشياء أخرى. وبعد أن بين كيفية حدوث التاريخ عند الناس، بدأ بذكر ولادة الرسول ﷺ، وذلك أنه ﷺ هو الأساس لوجود الأمة الإسلامية، فإنها بدعوته تكونت وبهجرتة بدأ تاريخها، وقد رتب كتابه على السنوات، مبتدئاً من السنة الأولى وحتى سنة ٢٣٢هـ. وكأنه أراد بذلك أن يسجل تاريخ الأمة الإسلامية من أوثق المصادر التي وصلته، والتزم منهجاً من أدق المناهج العلمية في مجال التوثيق وذلك بتوضيح مصادره، وحرصه على الإسناد بذكره سلسلة الرجال الذين حملوا الخبر التاريخي حتى انتهائه إليه^(٣).

(١) خليفة، كتاب الطبقات ص ٢، ط ٢، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.

(٢) خليفة، كتاب التاريخ ص ١٥، ط ٢، دار القلم، بيروت، ١٣٩٧هـ.

(٣) المصدر السابق ص ٥١.

وقد غلب على خليفة بن خياط اهتمامه بعلم الحديث ورغبته في خدمته. فنجدته يذكر في نهاية كل سنة وفيات العلماء والمشهورين، فيركز على الصحابة رضي الله عنهم والمشتغلين برواية الحديث النبوي، لما لذلك من فوائد في علم الحديث، وهي معرفة اللقاء والتعاصر، كما أن كتابه الطبقات موضوع أساساً لخدمة علم الحديث الشريف.

استعمل خليفة الإسناد الجمعي بكثرة^(١)، وأورد معلومات تاريخية بدون إسناد وخاصة قوائم أسماء الموظفين والعاملين في الإدارة، الذين يذكرهم بعد نهاية حكم كل خليفة، مثل حكام الأقاليم، والقضاة، وكتاب الديوان، والخراج، وأمراء الحج، وقوائم من استشهد في المعارك، لكنه يلتزم الإسناد في المغازي النبوية وفي الأحداث الداخلية المهمة، مثل مقتل عثمان رضي الله عنه، وموقعتي الجمل، وصفين، وموقعة الحرة، وثورة ابن الأشعث. ففي مقتل عثمان بن عفان مثلاً ذكر مجموعة من الروايات المسندة عن رجال معروفين تتفق كلها مع الصورة العامة لمجتمع الصحابة وسلامة قلوبهم، ومع المكانة اللائقة بهم وأنهم استعدوا جميعاً للدفاع عن الخليفة فلم يكن أحد منهم محرصاً على قتله أو راغباً فيه ولكنه رضي الله عنه منعهم من ذلك، وعزم عليهم أن يكفوا أيديهم ويخرجوا من عنده وأن لا يريقوا دماً من أجله.

كما أنه قدم معلومات موجزة لكنها وافية عن الفتوح الإسلامية في عصر الراشدين والعصر الأموي، وهو لا يعني بالتفصيلات كثيراً ولا يتتبع أسباب الحوادث ولا نتائجها، وإنما يكتفي بعرض الحادثة ذاتها^(٢) وبعض الأخبار يشير إليها إشارة ولا يذكرها مثل قوله: ولهم حديث

(١) أمثلة ذلك في كتاب التاريخ ص ١١٨، ١٢١، ١٤٢، ١٦١، ٢٨١، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٦٨، ٣٨٢.

(٢) من أمثلة ذلك: مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ص ٢٣٤.

يطول ذكره. أو لهم حديث نكره ذكره^(١). كما أن نقده للأخبار قليل جداً^(٢)، وفي الفترة التي عاصرها فإنه أورد المعلومات التاريخية موجزة، ويكاد يقتصر في بعض السنوات على ذكر الوفيات دون الأحداث، ونلاحظ أن ثورات الخوارج والطلبين قد أخذت شيئاً من اهتمامه، بينما أهمل أحداثاً ذات آثار فكرية واتجاهات سياسية، مثل فتنة القول بخلق القرآن، رغم أن له موقفاً مشرفاً فيها، حيث وقف إلى جانب قاضي البصرة أحمد بن رياح، الذي تولى قضاء البصرة سنة ٢٢٣هـ عندما شكته المعتزلة^(٣).

يعد كتاب التاريخ لخليفة بن خياط من أقدم ما وصل إلينا من الكتب التاريخية المرتبة على النظام الحولي، وعلى الرغم من إيجازه إلا أن القارئ يستطيع من خلاله أن يرصد حركة الأمة الإسلامية والاتجاهات التي سارت فيها، خاصة نشاط الفتوح والجهاد في سبيل الله وبسالة المجاهد المسلم وحرصه على إدخال الناس في الدين الحق، وكيف تكوّن هذا الكيان الكبير والدولة الإسلامية بمجتمعها المترابط ورقعتها الواسعة.

كما أنه لا يخلو من رصد للحركة الفكرية والاتجاهات الداخلية سواء أكان ذلك إيجاباً أم سلباً، وهو يقدم معلومات موثقة بعبارة موجزة واضحة في دقة وأمانة علمية دون محاباة لأحد أو تأثر بنظرة حزبية، وكتابته التاريخية بعيدة عن الحشو والمبالغة وعن أسلوب القصص والأيام.

(١) المصدر نفسه ص ٦٨، ٨٨، ١٩٢، ٤٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣، ١٢٦، ١٢٨.

(٣) وكيع، أخبار القضاة ١٧٥/٢.

٧ - ب - ٢ - محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ):

هو الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي الطبري البغدادي^(١)، وُلد سنة ٢٢٤هـ. حفظ القرآن في بلدة آمل^(٢)، بطبرستان ثم رحل في طلب العلم سنة ٢٣٦هـ وعمره ١٢ سنة فلم يزل طالباً للعلم مولعاً به إلى أن مات^(٣)، وقد أكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، ثم استقر به المقام في بغداد حتى توفي سنة ٣١٠هـ. وصفه الخطيب البغدادي بقوله: كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين عارفاً بأيام الناس وأخبارهم^(٤).

ويقول فيه الناقد الذهبي: كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرة تصانيف، قل أن ترى العيون مثله^(٥). وقال في موضع آخر: كان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك^(٦).

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١٦٢/٢.

(٢) آمل - بضم الميم -: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل، وقد خرج منها كثير من العلماء لكنهم قلما ينسبون إلى غير طبرستان، يقال لهم: الطبري، انظر: ياقوت، معجم البلدان ٥٧/١، ط. دار الكتاب العربي بيروت.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان ١٠٢/٥.

(٤) الخطيب البغدادي، المصدر السابق ١٦٣/٢.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٦٧/٤.

(٦) المصدر نفسه ٢٧٠/١٤.

وكان ﷺ عف اللسان كريماً، وقد كانت له مواقف مع بعض الخلفاء والوزراء^(١) فلم يقبل صلاتهم وهداياهم ولا ما عرضوا عليه من المناصب، ورضي بالكفاف من العيش وزهد في الدنيا ورغب عنها وقنع بما كان يرد عليه من حصته في ضيعة يسيرة خَلَفَهَا والده بطبرستان^(٢).

وقصر حياته على طلب العلم وكان حصوراً لا يعرف النساء^(٣). ولذلك كثرت تصانيفه وطال نَفْسُهُ فيها، فكتابه جامع البيان، من أطول كتب التفاسير وأشملها، حتى قال في وصفه والثناء عليه أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً»^(٤).

وكتابه تاريخ الرسل والملوك، من أوسع كتب التاريخ وأغزرها مادة، وكذلك يصف العلماء كتابه «تهذيب الآثار»^(٥) بأنه لم يصنف مثله ولا يستطيع أحد ذلك.

عقيدته:

محمد بن جرير الطبري، من كبار علماء الأمة ومجتهديها، حسن المذهب والاعتقاد، ثقة في علمه، وقد نقل الذهبي جملاً من كتابه «التبصير في معالم الدين» لكي يدلل على سلامة عقيدته، ثم عقب على ذلك بقوله: «وهذا تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها لا على النفي والتأويل، وأنها لا تشبه صفات

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٢٧١/١٤ - ٢٧٥، ولسان الميزان ١٠٢/٥ - ١٠٣.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٤.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان ١٠٢/٥.

(٤) الذهبي، المصدر السابق ٢٧٢/١٤.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/١٤٥، وانظر: مقدمة تهذيب الآثار، بقلم الشيخ عبد الله بن حميد، صفحة (ض) من الجزء الأول، الطبعة السعودية.

المخلوقين أبداً»^(١). وقال في موضع آخر من ترجمته: «كان ابن جرير من رجال الكمال وشُنع عليه بيسير تشيع وما رأينا إلا الخير، وبعضهم ينقل عنه أنه كان يجيز مسح الرجلين في الوضوء ولم نر ذلك في كتبه»^(٢).

وللإمام الطبري رسالة في بيان عقيدته^(٣)، يقرر فيها صحة خلافة الخلفاء الراشدين، وأن ترتيبهم في الفضل هو حسب ترتيبهم في الخلافة^(٤)، وهذا هو مذهب أهل السنة، وقد تكلم بعضهم في عقيدة الطبري وأنه يرى رأي الرافضة، ولعلّ هذا حصل بسبب اللبس في شخص آخر من علماء الإمامية ومصنفها يدعى «أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري»^(٥)، فقد وافقه في كنيته وفي اسمه واسم أبيه ولقبه، وعاصره، ولا يفترقان إلا في اسم الجد. ولهذا ترجم له الذهبي، في الميزان وفي سير أعلام النبلاء، وكذلك ابن حجر، في لسان الميزان، بعد ترجمته الإمام الطبري مباشرة، ونبها على غلط من غلط في

(١) الذهبي، المصدر السابق ٢٨٠/١٤.

(٢) المصدر نفسه ٢٧٧/١٤، والذي يرى هذا الرأي هم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، ولعل من نسب له هذا قد اختلط عليه الأمر بسبب تشابه اسمه مع اسم أحد الروافض، وهو أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري كما سيأتي.

(٣) طبعت في بومباي على الحجر سنة ١٣١١هـ، وطبعت مرة أخرى بتحقيق الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد بمكة سنة ١٣٩٤هـ، ضمن المجموعة العلمية السعودية.

(٤) المجموعة السعودية ص ٩، ١٠.

(٥) انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال ٤٩٩/٣، وسير أعلام النبلاء ٢٨٢/١٤، ولسان الميزان ١٠٣/٥، وطبقات أعلام الشيعة ص ٣٥٠ - ٣٥٣. ونقل الذهبي في سير أعلام النبلاء قول عبد العزيز الكناني فيه: «هو من الروافض صنف كتباً كثيرة في ضلالتهم، له كتاب الرواة عن أهل البيت، وكتاب المسترشد في الإمامة».

ذلك، حتى قال ابن حجر: «ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا الآتي - أي ابن رستم - لبررت، والسليماني رجل حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل»^(١).
قلت: وقد قرأت - والحمد لله - كتابه في التاريخ بكامله ولم أر فيه شيئاً مما يؤيد قول من قال: إن فيه تشيعاً.

منهجه في الكتابة التاريخية:

صنف الإمام أبو جعفر الطبري، كتاباً حافلاً في التاريخ البشري، وهو من كبار علماء الشريعة وأئمة الفقهاء، متضلّع في كثير من العلوم، مثل التفسير والقراءات والعربية ومذاهب الفقهاء، والسير والأخبار لذلك كان كتابه «تاريخ الرسل والملوك» منبئاً عن هذه الثقافة الواسعة.

وقد بدأ أبو جعفر كتابه بمقدمة عن الكون - الزمان، والليل، والنهار، والسموات، والأرض، والشمس، والقمر - وعن إبليس وما كان فيه من نعمة وكيف أنه كفر وأفسد، وعن خلق آدم وما صار عليه حتى أهبط إلى الأرض^(٢).

ثم بدأ بالتاريخ للبشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض وما كان في عهده وعهد أبنائه من أحداث. وجعل تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ الإنسانية فيذكر النبي ومن يعاصره من الأمم والملوك، فعرض التاريخ الإسرائيلي من خلال ذكره لأنبيائهم، كما أعطى معلومات واسعة من التاريخ الفارسي، وعقد مقابلة بين تاريخ مدة أيامهم وأيام تاريخ بني إسرائيل^(٣).

(١) انظر: لسان الميزان ٥/١٠٠.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٩/١ - ١٢٦، ط. دار المعارف بمصر.

(٣) تاريخ الطبري ١/٥٧١.

أما تاريخ الروم فلم يذكر منه إلا ما كان له علاقة بأرض النبوات - العراق والشام والجزيرة العربية - فهو يذكر قصة الإسكندر ومن ملك أرض الشام منذ رفع عيسى عليه السلام إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ^(١).

أما تاريخ العرب: فقد ذكره مفرداً من خلال تاريخ الأنبياء، مثل هود، وصالح، عليه السلام ومثل إبراهيم، وإسماعيل عليه السلام، ومثل سليمان بن داود، ومن خلال تاريخ الملوك والجبابرة ^(٢) من الفرس، والروم، وأعطى معلومات عن قريش ومن جاورها عند ذكره ولادة رسول الله ونشأته حتى بعثته وهجرته.

ومصادر الطبري ^(٣) فيما ذكر من تاريخ الرسل والملوك والأمم قبل البعثة النبوية، هي القرآن الكريم، وأقوال علماء التفسير التي يرويها عنهم بالأسانيد، وأقوال من سماهم أهل العلم بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين، مثل محمد بن إسحاق، ومحمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام، ووهب بن منبه، ومحمد بن كعب، وعبيد بن شربة. كما أن بعض الأخبار في تاريخ الفرس كان يوردها بدون إسناد فربما كان يأخذ من كتب القوم مباشرة - ومن المعروف أن الترجمة كانت قد انتشرت - ولم أره صرح بذلك، وقد اكتفى الطبري في هذا القسم من تاريخه، بأصول الحوادث، ولم يبحث في تفصيلاتها، إما خشية إطالة

(١) لم يذكر أبو جعفر الطبري في تاريخه معلومات ذات بال عن تاريخ الفراعنة أو الصين أو الترك.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٥٥٨ - ٥٦٠، ٥٦٦ - ٥٦٧، ٦٠٩ - ٦٣٢، ٨٨/ ٢ - ٩٠، ٩٥ - ٩٨، ٢١٢ - ٢١٨.

(٣) كتب الدكتور جواد علي بحثاً طويلاً عن موارد تاريخ الطبري، نشره في مجلة المجمع العراقي على حلقات في العدد الأول من سنة ١٩٥٠م، والثاني من سنة ١٩٥٢م، والجزء الثالث من سنة ١٩٥٤م، والثامن من سنة ١٩٦١م، ولنا ملاحظات على بعض ما كتب وسيأتي بعضها.

الكتاب^(١)، أو لعدم الثقة في صدق هذه التفصيلات نظراً لطول العهد، ودخول التحريف، وعدم اتصال الأسانيد، وقد يكون لعدم أهميتها في نظره.

أما القسم الثاني: فقد خصصه لتاريخ المسلمين. ورتب حوادثه على النظام الحولي، ابتداءً من السنة الأولى الهجرية حتى سنة ٣٠٢ هـ ويختلف حجم الحوليات لديه بحسب كثرة وقوع الحوادث فيها، وأهميتها، وبلوغ أخبارها إليه، فيطيل ويقصر حسب ذلك، فبعض الحوليات لا تَعُدُّ أسطراً^(٢)، وبعضها صفحة أو صفحتين^(٣)، وبعضها صفحات طويلة^(٤)، وطريقته في سرد أحداث كل حولية ليست على نسق واحد، فمرة يذكر الحدث التاريخي ثم يبدأ في ذكر تفصيله والروايات فيه، ومرة يذكر جملة الأحداث التي كانت في هذه الحولية ثم يعود إليها ويفصلها، فإن كان في تحديد زمن وقوعها خلاف بين الرواة فإنه يذكره، ثم يختم الحولية بذكر بعض من توفي فيها من المشهورين، وليس هذا مضطرباً، أما الذي لا يكاد يتركه في ختام كل حولية فهو ذكر من أقام الحج للناس، وأسماء الولاة على الأقاليم، وفي الحوليات التي أعقبت هدوء حركة الفتوح، نراه يحرص على ذكر أخبار المرابطين في الثغور

(١) ولعل فيما رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٦٣/٣ من قصة أبي جعفر في إملاء كتابيه: التفسير، والتاريخ، وأنه قدر حجم كل واحد منهما بثلاثين ألف ورقة ثم اختصره إلى ثلاثة آلاف ورقة، ما يؤيد هذا التفسير.

(٢) انظر: الحوليات ص ٢٥، ٢٧٤، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠.

(٣) انظر: الحوليات ص ١٩، ٢٩، ٤٨، ٤٩، ٧٠، ١٣٣، ١٥٢، ١٧٢، ١٧٤، ١٨١ - ١٨٥، ١٩٤ - ١٩٦، ٢٧١ - ٢٧٧، ٣٠١.

(٤) يزيد بعضها على مائة صفحة مثل: الحوليات ص ١١، ٣٥، ٣٦، وبعضها يتراوح بين السبعين والخمسين مثل: ٢، ٣، ٦، ١٣، ١٤، ٢٣، ٣٧، ٦٤، ٦٦، ٢٥١.

للجهاد، خاصة مع الروم، ويسمى من أغزى الصائفة، وأين شتى المسلمون؟

ويسمى الحصون والقلاع التي فتحوها، ولا يُفَصِّل في ذلك إلا نادراً، وقد ركّز الطبري اهتمامه في الفترة العباسية على أخبار المشرق، وبلاد الحجاز، والشام، أما مصر، وشمال أفريقيا، والأندلس، فلم يتعرض لها إلا لمأماً. ولم يذكر عن الإمارة الأموية في الأندلس إلا إشارة عابرة عند تأسيسها^(١).

والطبري يضع عناوين للحوادث التي يذكرها، ويحرص على ذكر السبب في كل حادث، ويستطرد في ذكر التفاصيل والحوادث المصاحبة للحادث، ثم يعود إلى الموضوع الرئيسي الذي يعنون له، ويُذَكِّر القارئ بقوله: نعود إلى سياق خبر كذا وكذا، أو سياق خبر فلان، أي راوي الخبر. وإذا كان الحادث يستغرق أكثر من حولية فإنه يجزئه على حسب تاريخ وقوعه، وهذا قد يفقد الحادثة ميزة الترابط، ويسبب تشويشاً للقارئ، وإذا ذكر وفاة خليفة من الخلفاء، فإنه يذكر سبب وفاته، ويسوق الروايات في ذلك، ثم يذكر جُمَلاً من أحواله وأقواله، وكأن هذا العمل ترجمة لحياته، ويطيل في بعضها كما فعل في تراجم الخلفاء الراشدين، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، والمنصور، والمهدي.

- ومصادر الطبري في هذا القسم كثيرة ومتعددة، فقد استوعب رَحِمَهُ اللهُ غالب المؤلفات التي سبقت وأدخلها في كتابه، وكان في ذلك خير كثير، إذ شاء الله أن يضع الكثير من المصادر الأولى وتفقد، ويبقى كتاب الطبري موسوعة حافظة لها، فلقد ضاعت مؤلفات المدائني، التي تزيد على خمسين ومائتي كتاب، ومؤلفات عمر بن شبة، وسيف بن عمر،

(١) تاريخ الطبري ٥٠٠/٧ في حوادث السنة ١٣٩.

وأبي مخنف، ومحمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام، والواقدي، والشعبي، والأصمعي، وأبي عبيدة، وعوانة بن الحكم، والهيثم بن عدي، ومؤلفات ابن إسحاق، في غير السيرة النبوية، وغيرهم كثير. وكان يروي هذه المؤلفات بالأسانيد إلى مؤلفيها، كما أضاف لها مئات الروايات التي أخذها عن شيوخه ومعاصريه.

فقد اعتمد في السيرة النبوية على محمد بن إسحاق بن يسار، وأخذ مغازيه من رواية سلمة بن الفضل^(١)، من طريق شيخه محمد بن حميد الرازي^(٢). ولم يأخذ من رواية زياد بن عبد الله البكائي، لسيرة ابن إسحاق شيئاً رغم أنها هي التي اشتهرت، وقام بتهذيبها ابن هشام. أما رواية ابن إسحاق الآخر، يونس بن بكير، فقد أخذ الطبري من طريقه روايات محدودة. وكان يعارض رواية ابن إسحاق بروايات

(١) هو سلمة بن الفضل الرازي الأبرش أبو عبد الله الأنصاري، قاضي الري، قال فيه جرير بن عبد الحميد: ليس من لدن بغداد إلى أن تبلغ خراسان، أثبت في ابن إسحاق من سلمة بن الفضل، وقال يحيى بن معين: ثقة. قد كتبنا عنه كان كَيْساً، مغازيه أتم، ليس في الكتب أتم من كتبه. وقال أبو حاتم: صالح، في حديثه إنكار، ليس بالقوي، يكتب حديثه ولا يحتج به. انظر: الجرح والتعديل ٤/ ١٦٨ - ١٧٠، وقال في التقريب ١/ ٣١٨: صدوق كثير الخطأ.

(٢) محمد بن حميد بن حيان الرازي، من شيوخ الطبري في التاريخ والتفسير، وروى مغازي ابن إسحاق من طريقه، وهو حافظ مكثر من الحديث والرواية، وقد روى عنه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وقال فيه يحيى: ثقة لا بأس به رازي كَيْس. وقال: إن الأحاديث المنكرة التي يحدث بها ليست من قبله إنما هي من قبل الشيوخ. أما البخاري فقال: في حديثه نظر. وقال يعقوب بن أبي شيبة: ابن حميد كثير المناكير. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال الجوزجاني: رديء المذهب غير ثقة. وكان ابن خزيمة لا يروي عنه. وقال أبو حاتم الرازي: ضعيف جداً، واتهمه بتعمد الكذب. انظر: تهذيب التهذيب ٩/ ١٢٧ - ١٣١، وقال في التقريب ٢/ ١٥٦: حافظ ضعيف.

محمد بن عمر الواقدي، وابن سعد، صاحب الطبقات، وبعض الروايات التي أخذها من طريق علماء الحديث والتفسير. ومن الملاحظ أنه لم يرو في السيرة النبوية عن كُتّابها الأوائل مثل أبان بن عثمان، وشرحبيل بن سعد، وموسى بن عقبة، أما عروة بن الزبير، وعاصم بن عمر بن قتادة، فقد روى عنهما من طريق ابن إسحاق^(١).

أما في حروب الردة، وفي الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين، فقد قدم رواية سيف بن عمر التميمي، واعتمدها، وأضاف لها رواية علي بن محمد المدائني، التي أخذها من طريق أبي زيد عمر بن شبة، وفي بعض الأحيان ينقل عن المدائني مباشرة بقوله: قال المدائني: كما روى في هذا القسم، عن ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وهشام الكلبي، ومن طريقه عن أبي مخنف، كما أنه ينقل عن أبي مخنف بدون واسطة بقوله: قال أبو مخنف.

وفي أخبار الفتنة في عهد عثمان، ومقتله رضي الله عنه، فقد اعتمد على الواقدي، وقدم روايته، وأخذ يكملها بروايات أخرى عن سيف بن عمر، وعن ابن شبة، وابن إسحاق، وغيرهم، رغم أنه انتقد رواية الواقدي

(١) وليس بجيد ما قاله الدكتور أحمد محمد الحوفي: بأن الطبري قد عَوّل في السيرة النبوية، على مؤلفات أبان بن عثمان بن عفان، وعروة بن الزبير، وشرحبيل بن سعد، وموسى بن عقبة... انظر كتابه: الطبري ص ١٨٩. ويظهر أنه تابع جواد علي، في دراسته لموارد الطبري في تاريخه، انظر: العدد الأول من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة ١٩٥١م ص ١٨٢، لأننا لم نجد لكل من: أبان، وشرحبيل، وموسى بن عقبة، رواية عند الطبري في السيرة النبوية، وعدم روايته عنهم في السيرة النبوية، مع أن لهم روايات في ذلك ومدونات، خاصة موسى بن عقبة، الذي بقي كتابه إلى عصر متأخرة، لا أعرف له سبباً، وقد يرد احتمال أنها لم تصل إليه.

وذكر أنه أعرض عن كثير منها^(١).

وفي معركة الجمل اعتمد على رواية سيف بن عمر، وعمر بن شبة، وأكملها بروايات عن أحمد بن زهير بن أبي خيثمة، وهشام الكلبي، وأبي مخنف، وغيرهم، وفي معركة صفين قدم رواية أبي مخنف، وأكملها بروايات أخرى، عن سيف بن عمر، وثلاث روايات فقط عن نصر بن مزاحم العطار^(٢).

وفي تاريخ بني أمية، اعتمد على مجموعة من الرواة والأخباريين كل حسب اهتمامه، ففي أخبار الحجاز، أخذ عن الواقدي، وابن شبة. وفي أخبار الخوارج، أخذ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، وعن أبي مخنف. وروى خبر مقتل الحسين، عن أبي مخنف، وعوانة، وهشام الكلبي. وفي الفتوح، عن المدائني، وسيف بن عمر. وفي الأخبار المتعلقة بالبصرة، أخذ عن عمر بن شبة. وفي أخبار الخلافة والخلفاء، أخذ عن عوانة بن الحكم، وهشام الكلبي، وابن سعد، والواقدي، والشعبي. وفي قوائم أمراء الحج، وولاة الأقاليم، وأخبار المرابطين والغزاة، أخذ عن أبي معشر، والواقدي.

وفي تاريخ بني العباس، اعتمد على المدائني، وعمر بن شبة، وأحمد بن زهير بن أبي خيثمة، والواقدي، والهيثم بن عدي.

وفي الفترة التي عاصرها من التاريخ العباسي، يقل استعماله

(١) انظر: التاريخ ٢٥٦/٤ حيث قال: «فأما الواقدي، فإنه ذكر في سبب مسير المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أموراً، منها ما قد تقدم ذكره، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته».

(٢) مع أن لنصر بن مزاحم كتاباً عن وقعة صفين، أطال فيه الحديث عن هذه الموقعة، وهو من علماء الشيعة الإمامية ومؤلفيها، وكتابه هذا نشر في طهران سنة ١٣٠١هـ ثم أعيد نشره في القاهرة بتحقيق عبد السلام هارون، وهذا يدل على أن الطبري رغم توسعه ينتقي في مصادره ويتحرى.

للإسناد، وكان يجمع الأخبار من مصادر متنوعة، فتراه يروي عن الخدم^(١)، وعن المغنين^(٢)، وعن الكتاب والموظفين والقادة^(٣)، وعن من اشترك في الأحداث وعاشها^(٤)، أو كان قريباً منها.

وقد استعمل الإسناد الجمعي بقلّة^(٥)، أما نقده للأخبار ومناقشته للروايات وترجيحه فليس بالكثير^(٦)، ويذكر النقد والترجيح صراحة، وقد يشير إشارة، وطريقة عرضه لبعض الأحداث وملاحظاته عنها تعكس حكماً تاريخياً عليها^(٧).

مميزات كتاب الطبري:

تاريخ الطبري يمثل بحق قمة التأليف التاريخي عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، من حيث الشمول الزمني والمكاني، وإطالة النفس في بسط الأحداث ومحاولة الإحاطة بكافة جوانبها، وأيضاً من حيث المنهجية العلمية، وذلك بنسبته الأقوال إلى أصحابها، مع استقامة النظرة التاريخية، وإعطاء صورة متكاملة عن حياة الأمة، في دقة وأمانة بعيداً عن النظرات الضيقة والأهواء الحزبية.

ويمتاز كتاب الطبري: بطول الفترة الزمنية التي أرّخ لها، وبسعة معلوماته، وتعدد مصادره. كما يمتاز بجمعه لروايات المؤرخين

(١) تاريخ الطبري ١٥٦/٨.

(٢) تاريخ الطبري ٥١٠/٨ - ٥١٢، ٢٢٤/٩، ٢٥٥/٩.

(٣) تاريخ الطبري ٤٨٤/٨، ٥١٢، ٦١٥، ٦٤٤.

(٤) تاريخ الطبري ٤١٣/٩، ٤٨٩، ٥٢٥، ٥٢٨.

(٥) تاريخ الطبري ٢٤٧/٢، ٢٦٧/٢، ١٧٨/٦، ٢١٤/٩، ٢٧١، ٣٠٥، ٣٢٤.

(٦) انظر نماذج لذلك في: ١٤٨/١، ١٥٤، ٣٧٦، ٤٨٦/٢، ٣٨٧، ٢٨٣/٤، ٣٦٥، ٥٤٧، ٥٥٧، ٩١/٥، ١٧٣، ١٨١، ٨٤/٩.

(٧) انظر نماذج لذلك في: ٣٢٤/٧، ٤٢٤/٩، ٥٩٤، ٩٥/١٠، ١٠٠.

والأخباريين الذين سبقوه، وحفظه لذلك، حيث فقدت رسائلهم الصغيرة وبقي كتابه الموسوعي، ولم يقتصر على روايات الأخباريين المشهورين، بل أضاف لها مئات الروايات التي أخذها عن شيوخه وخاصة علماء التفسير والحديث.

ومن أهم مميزاته: حفاظه على الإسناد ونسبه الأقوال إلى أصحابها، وبذلك يتمكن الباحث من معرفة قيمة هذه الرواية بواسطة نقد إسنادها ومعرفة ما فيه من علل. ومن المعلوم أنه ليس كل رواية في تاريخ الطبري صحيحة؛ لأنه لم يلتزم ذلك، بل صرح بأنه يذكر روايات فيها نكارة وشناعة، ولكن ذلك ليس من قبله، وإنما هو من قبل الرواة الذين ذكرهم وسماهم ونسب الأقوال لهم^(١). وهذا منهج معلوم متبع عند علماء الحديث وغيرهم، حيث يذكرون ما يبلغهم، ويسوقون سنده، فالصحيح يؤخذ، وغير الصحيح يعرف. فلم يكن الطبري بذلك العمل مغفلاً أو جاهلاً، عندما يورد مئات الروايات عن الضعفاء والمتروكين لكنه يتبع منهجاً مرسومًا عند أهل العلم، ولا يلزم من إيراد أخبار المتروكين والضعفاء وتدوينها في كتاب من الكتب الاحتجاج بها. فإنك ترى في عبارات علماء الجرح والتعديل: «يروى حديثه ولا يحتج به». «ويذكر حديثه للاعتبار». «ويذكر حديثه للمعرفة» ولذلك لا يكفي في المنهج العلمي السليم الإحالة على تاريخ الطبري أو غيره من الكتب المسندة دون الحديث عن سند الرواية، لأن من أسند فقد برئ من العهدة وحملك.

ومن مميزاته - وقد رتبته على السنين -: تمكين الباحث من ملاحظة الأطوار التي مرت بها الأمة الإسلامية في بنائها الحضاري ومعرفة حالات الضعف والقوة التي مرت بها، وملاحظة ارتباط هذا بحركة الجهاد في سبيل الله، والالتزام بشريعته، فكلما كانت الأمة ملتزمة

(١) انظر ذلك في مقدمة كتابه ٧/١ - ٨.

بشريعة الله مجاهدة في سبيله كانت قوية مهيبة، وكلما وقع فيها الانحراف، وصرف الجهاد في سبيل الله إلى الصراع الداخلي، والحفاظ على كراسي الحكم، ضعفت وأصابها الهوان.

وتاريخ الطبري وإن جعل محوره وإدارة حوادثه على الخلافة والخلفاء، إلا أنه لا يخلو من رصد وبيان للاتجاهات الاجتماعية، فثورة القراء في العراق، وثورة السودان في المدينة، وثورات العامة في بغداد والتفافهم حول المَطَّوِّعة والمحتسبين، وثورة الزنج، والصراع بين العصبية العربية في البصرة، وخراسان، والشام، والصراع بين العرب والموالي من جانب آخر، كل هذا ينبئ عن مظالم اجتماعية في الدولة، وانحرافٍ عن الصراط السوي.

كما يستطيع الباحث ملاحظة الحركات المذهبية ذات الصبغة العسكرية، مثل الخوارج، والشيعة، والخُرَّمِيَّة، والرواندية، والقرامطة، والأطوار التي مرت بها في دعواتها.

وقد أعطى الطبري معلومات إدارية قيمة، تتمثل في تقديم قوائم سنوية بعمال الخراج، والديوان، وأمراء الحج، وحكام الأقاليم، والقضاة.

كما أعطى معلومات عمرانية عن خطط المدن التي أنشئت في ظل الدولة الإسلامية، خاصة بغداد حيث أطال في ذكر عمارتها والأطوار التي مرت بها، كما أعطى معلومات عن الأطوار التي مرت بها عمارة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة، والمدينة النبوية.

نظرته للتاريخ:

الإمام الطبري من كبار علماء الإسلام، ونظرته للتاريخ - أو ما يسمى اليوم بفلسفة وتعليل الحوادث التاريخية - تنبثق من اعتقاده وتصوره الإيمان، فهو مؤمن بالله وبأمره ونهيه، وبعده وبقضائه وقدره، وبأن له سنناً ماضية لا تبديل لها. ومؤمن بحرية الإنسان وقدرته على

الاختيار، وأنه مكلف بوظيفة العبودية لله والخلافة في الأرض، وعمارتها بشرع الله ومنهجه، وبأن الله يثيب الطائع المستجيب، ويعاقب العاصي الناكث، ولذلك كانت أحكامه التاريخية على الحوادث، تنبثق من هذه النظرة المؤمنة بالله العارفة بشرعه وأحكامه، كما أن تدوينه لتاريخه على حسب سني الملوك والرسل - الذين كانت بأيديهم مهمة التوجيه، وسلطة التنفيذ - هو من أجل أن يساعد على توضيح العبرة للمعتبرين، ولكي يجلي للبشرية واقعهم الذي كان، صفحة وراء صفحة، ويريهم كيفية تحقق سنن الله عليهم، من نصره المؤمنين المنفذين لشرعه من الرسل وأتباعهم، وهلاك الظالمين المحادين لله ولرسوله. يقول الطبري في مقدمة كتابه موضعاً هذه المعاني: وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء ربنا جل جلاله خَلَقَ خلقه إلى حال فنائهم، من انتهى إلينا خبره، ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه فشكر نعمه، من رسول مرسل، أو ملك مسلط، أو خليفة مستخلف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمة في العاجل نعماً، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً. ومن آخر ذلك له منهم وجعله له عنده ذخراً. ومن كفر منهم نعمه، فسلبه ما ابتدأه به من نعمه، وعجل له نقمه. ومن كفر منهم نعمه، فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه. مقروناً ذكر كل مَنْ أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه، وجمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه»^(١).

فيقرر الطبري رَحِمَهُ اللهُ فِي هذه العبارات الموجزة، أن الأمر كله لله، والفضل بيده، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

وأن الناس أمام نعم الله فريقان:

- فريق شكر نعم الله، فزاد من شاء منهم في الحياة الدنيا، إضافة إلى ما ادخره له في الآخرة، ومنهم من لم يؤت شيئاً من أجره في الدنيا، بل أُجِّل ذلك له إلى يوم القيامة.

- وفريق كفر، فسلب الله من شاء منهم عنه النعمة وعجل له النعمة والهلاك، إضافة إلى ما يناله يوم القيامة، ومنهم من زاده الله سعة في الحياة الدنيا رغم كفرانه، وهذا من باب الاستدراج له، وأُخِّر عذابه إلى يوم القيامة.

فهذه هي فلسفة الطبري ونظرته للتاريخ^(١) أوضحها في مقدمة كتابه وهي نظرة مستمدة من القرآن الكريم وما قصه الله ﷺ من قصص الأنبياء والأمم السابقة. وهي نظرة ملحوظة عند كافة المؤرخين المسلمين وإن لم يصرحوا بها ويدونوها في كتبهم، ولذلك لا تراهم

(١) اعتبر الدكتور جواد علي في بحثه عن موارد تاريخ الطبري «مجلة المجمع العلمي العراقي في العدد الأول ص ١٧٦ لعام ١٩٥٠م» تفسير الطبري للتاريخ، من نوع الدكتاتوريات التي ترى أن التاريخ من عمل الأفراد والأبطال وحدهم، وأن التاريخ ما هو إلا تاريخ الحكام والسلطين والمعارك والجيوش لا تاريخ العلماء والشعوب. وفي هذا القول ظلم للإمام الطبري الذي أوضح منهجه ونظرته للتاريخ في مقدمة كتابه والتي ذكرنا طرفاً منها أعلاه، كما أنه قد وضع السبب الذي دعاه إلى تدوين تاريخه على هذا الأساس. انظر: تاريخ الطبري ١٤٧/١ - ١٤٨.

أما الدكتور عبد العزيز الدوري، فقد قرر في كتابه «بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب» أن الطبري يعتبر التاريخ تعبيراً عن المشيئة الإلهية، وما أدري ما مقصوده من هذه العبارة؟ خاصة وأنه قد ذكر في مواضع كثيرة من كتابه هذا: أن الدولة الأموية قد شجعت الاتجاه الجبري في تفسير التاريخ. انظر منها ص ١٢٢ حيث يقول: «فلاحظ التصادم بين فكرة الجبر في الشؤون العامة كما يروجها الأمويون، وفكرة حرية الإرادة والمسؤولية البشرية كما ترى الأحزاب المعارضة».

يتدخلون في تفسير الحوادث وتحليلها بالطريقة المتبعة عند أصحاب المناهج التاريخية المعاصرة، وإنما كان همهم، التدوين والتسجيل للأخبار، وهم درجات في ذلك، فمنهم من التزم بالإسناد وأوضح المصادر، ومنهم من لا يسند بل يكتفي بإيضاح المصادر في أول كتابه، ومنهم من لا يسند ولا يوضح المصادر، كما أنهم درجات في الثقة والنزاهة، ولهذا فلا بد لدارس التاريخ أن يلاحظ هذه الأمور ليعرف قيمة مصادره.

ومن المعلوم أن فلسفة المسلمين لحوادث التاريخ تعتمد على المصادر الشرعية، القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فمن هذه المصادر الشرعية يستمدون التصور الصحيح لفلسفة التاريخ وتفسير حوادثه؛ فهم يعرفون من هذه المصادر:

- وحدة أصل البشرية.
- التفرقة بين الخالق والمخلوق ومشئة كل منهما.
- وحدة الرسالات ووظيفة الرسل وأثرهم.
- يؤمنون باليوم الآخر، وبالغيب، ويحسبون لكل منهما حسابه.
- يعرفون مسؤولية الإنسان عن عمله.
- يعرفون وظيفة الإنسان في هذه الحياة.
- يعرفون أهمية النظر في التاريخ العالمي وقيمة التجارب البشرية.
- يعرفون أهمية إدراك السنن الربانية.

وهذه كلها فوارق أساسية بين النظرة الإسلامية للتاريخ، والنظرة الأوروبية. فالنظرة الإسلامية مستمدة من أصول الإسلام، أما النظرة الأوروبية، فهي مستمدة من الأفكار والأهواء البشرية. والفارق بينهما هو مثل الفارق بين الكفر، والإسلام، لذا نرى تعدد المدارس والمناهج الفكرية في تفسير التاريخ وتعليقه عند القوم، ونراهم يحاولون أن يجدوا

في التاريخ تعليلاً لنشأة الكون، والإنسان، ولتفسير حركته واتجاهاته، وقد ركزوا - مع الأسف - في دراساتهم على الفترات التاريخية التي سادت فيها الجاهلية، وأهمّلوا تاريخ الرسل والأنبياء، ولذلك ضلّوا في تفسيراتهم وتعليلاتهم لحركة تاريخ البشرية، فلم يستطيعوا أن يدركوا أثر العقيدة والإيمان بالله في حياة الناس وتوجيه سلوكهم.

الخاتمة

- عوامل الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي وأهم الطوائف المساهمة في ذلك.
- نتائج البحث.

عوامل الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي وأهم الطوائف المساهمة في ذلك

بعد الفتن والأحداث الداخلية التي وقعت في صدر الدولة الإسلامية، والتي كان وراء إثارتها أيدٍ شريرة تعمل في الخفاء، من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم - الذين أخبر الله عن عداوتهم وكيدهم لهذا الدين - نشأت الفرق والأحزاب، وظهرت الطوائف والأهواء المنحرفة عن السبيل السوي، فأخذت كل فرقة تلبس ثوب الحق زوراً وتدّعي أنها تعمل لأجله، وتضع من الأحاديث التي تنسبها إلى النبي ﷺ ما يؤيد مذهبها الذي ابتدعته، وتؤول من آيات القرآن الكريم ما استطاعت - لأنها لا تستطيع الكذب في الآيات القرآنية أو تزيد فيها كما وضعت الأحاديث؛ لأن القرآن محفوظ في الصدور، ومدون بكامله في المصاحف^(١) - وبهذا نشأ الوضع في الحديث النبوي. كما شمل الوضع الأخبار والأحداث التاريخية، مما جعل علماء المسلمين يطبقون في المرويات مبدأ من أين لك هذا؟ فإذا جاء شخص برواية سئل عن حدثه

(١) ورغم هذا فقد كذبت الشيعة الإمامية، فادعت أن في القرآن نقصاً وزيادة، وأن عندهم مصحفاً يسمونه مصحف فاطمة، ما فيه مما في القرآن حرف واحد، وأصدر علّامتهم المفترى المسمى بالنوري، كتاباً سماه «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» اطلعت على نسخة مصورة لمخطوطته، ولديّ نسخة عنها.

بها، فسجلت الأخبار والأحداث بأسانيدھا في غالب الأحيان، غير أنها لم تلق من النقد والتمحيص ما لقي الحديث النبوي، بل كان من مناهج العلماء، التساهل في رواية الأخبار كما قدمنا، ولقد دخل لميدان التاريخ من أتباع الفرق المنحرفة وأهل الأهواء، العديد من الرواة والأخباريين والقصاص والمؤرخين، فابتدعوا الروايات الكاذبة ونشروها، مما أصاب تاريخ الصدر الأول بكثير من التشويه والتحريف.

وإن من أعظم الفرق أثراً في تحريف التاريخ الإسلامي، الشيعة بمختلف طوائفها وفرقها، فهم من أقدم الفرق ظهوراً ولهم تنظيم سياسي، وتصور عقائدي، ومنهج فكري، وهم أخلاط، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والملاحدة، والباطنية، الذين اتخذوا سمة التشيع لآل بيت النبي ﷺ ستاراً لبلوغ أغراضهم في هدم الدين الإسلامي وتحريف تعاليمه^(١)، وهم أكثر الطوائف كذباً على خصومهم، وهم يدينون بالتقية التي هي كذب في حقيقتها، ويزعمون أن جعفر الصادق قال: التقية ديني ودين آبائي^(٢). وقد وصفهم شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: ولا يوجد في جميع الطوائف أكذب منهم، ولا أظلم منهم، ولا أجهل منهم، وشيوخهم يقرون بالسنتهم يقولون: يا أهل السنة أنتم فيكم فتوة^(٣) ولو قدرنا عليكم ما عاملناكم بما تعاملونا به عند القدرة علينا^(٤). ويقول الشيخ طاهر الجزائري أثناء محاوره جرت بينه وبين أحد علماء الشيعة هو الشيخ محمد حسن كاشف الغطاء: «... ونحن قد راقبنا

(١) راجع: أبو الحسين الملطي، التنبيه والرد ص ١٨ - ٣٤؛ وإحسان إلهي ظهير، الشيعة والسنة ص ٢٤ - ٢٩؛ ود. عبد الله محمد الغريب، وجاء دور المجوس، فصل ماذا وراء تشيع المجوس لأهل البيت ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) الذهبي، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٦٨.

(٣) أي صدق وأمانة وأنفة عن الظلم. (٤) المصدر نفسه ص ١٨٨.

سيرة أهل العلم والأدب في مختلف الطوائف فرأينا أكثر ما خولف به الحق تعصباً وتعنتاً كان من ناحيتكم، بل لاحظت أن كل أديب ومؤرخ منكم يرى فرضاً عليه أن يخترع ما لم يسبقه إليه سلفه من خبر موضوع أو قصة مخترعة تشويهاً لسيرة السلف، فإذا رجعنا إلى الكتب المتقدمة عليه لا نجد لذلك أثراً فكأن الواحد منهم يرى أن من زكاة تشيعه أن يخترع ما يشين سيرة خيار المسلمين ليتناقله الناس من بعده ويحسبه الجاهلون حقاً»^(١).

كما أنهم من أشد الناس خصومة للصحابة عليهم السلام، وسب الصحابة وتكفيرهم^(٢) من أساسيات معتقدتهم وأركانه، وخاصة الشيخين أبي بكر وعمر ويسمونهما الجبت والطاغوت^(٣).

وقد كان للشيعة أكبر عدد من الرواة والأخباريين الذين تولوا نشر أكاذيبهم ومفترياتهم، وتدوينها في كتب ورسائل عن أحداث التاريخ الإسلامي، خاصة الأحداث الداخلية.

كما كان للشعبوية والعصبية أثر في وضع الأخبار التاريخية والحكايات والقصص الرامية إلى تشويه التاريخ الإسلامي، وإلى إعلاء طائفة على طائفة، أو أهل بلد على آخر، أو جنس على جنس، وإبعاد الميزان الشرعي في التفاضل وهو ميزان التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما أن الفرق المنحرفة قد استغلت وضع القصص وانتشارهم،

(١) المصدر نفسه في الحاشية ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) قالوا - أخزاهم الله - إن الصحابة قد كفروا بعد النبي ﷺ إلا خمسة، هم: علي، وعمر، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر.

(٣) انظر: إحسان إلهي ظهير، الشيعة والسنّة ص ٣٢ وما بعدها؛ ود. عبد الله الغريب، وجاء دور المجوس ص ١٢٢.

وجهل معظمهم وقلة علمهم بالسنة، وانحرف طائفة منهم بتبغّي العيش والكسب، فنشروا بينهم أكاذيبهم وحكاياتهم وقصصهم الموضوعة، فتلقفها هؤلاء القصاص دون وعي وإدراك، ونشروها بين العامة، لقد انتشر عن طريقهم مئات الأحاديث المكدوبة على النبي ﷺ، وعدد لا يحصى من الأخبار والأقوال المكدوبة على الصحابة والتابعين وعلماء الإسلام، مما يسيء لهم ويشوه تاريخهم وسيرتهم.

وقد كان من فضل الله وتوفيقه، أن قيض مجموعة من العلماء النقاد، الذين قاموا بجهد في نقد الرواة والمرويات، فبينوا الزائف من الصحيح، ودافعوا عن عقيدة الأمة وتاريخها، وجهد علماء السنة في بيان الأحاديث المكدوبة بالنص عليها، وبيان الرواة الضعاف والمتهمين وأصحاب الأهواء، وفي رسم المنهج في نقد الروايات وقبولها، جهد كبير وموفق.

ومن أبرز من تصدى لإيضاح المغالط التاريخية ورد زيوف الروايات المكدوبة القاضي ابن العربي في كتاب «العواصم من القواصم»^(١) والإمام ابن تيمية في كثير من كتبه ورسائله^(٢)، خاصة كتابه القيم «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية». وكذا الحافظ الناقد الذهبي، في كثير من مؤلفاته التاريخية مثل كتاب «سير أعلام النبلاء»، و«تاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام» و«ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، وأيضاً الحافظ ابن كثير، المفسر المؤرخ في كتابه «البداية

(١) نشر هذا الكتاب في القاهرة، وفي بيروت، عدة طبعات بتعليقات إضافية للأستاذ محب الدين الخطيب، كما قام محمود مهدي الإستانبولي، بتخريج نصوصه الحديثة.

(٢) من رسائل ابن تيمية التي تعرض فيها لبحث وتحقيق بعض القضايا التاريخية الرسائل الآتية: سؤال في معاوية، سؤال في يزيد، رأس الحسين، الوصية الكبرى.

والنهاية» وأيضاً الحافظ ابن حجر العسقلاني، في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وكتاب «لسان الميزان»، و«تهذيب التهذيب»، و«الإصابة في معرفة الصحابة».

أما الوسائل التي استخدمت لغرض تحريف الوقائع التاريخية وتشويه سير رجال الصدر الأول من الصحابة والتابعين، فهي كثيرة، ونذكر منها:

- الاختلاق والكذب، انظر النص رقم ١ و ٣ من ملحق النصوص.
- الإتيان لخبر أو حادثة صحيحة، فيزيدون فيها، وينقصون منها؛ حتى تشوه وتخرج عن أصلها، انظر النص رقم ٢ من الملحق.
- وضع الخبر في غير سياقه حتى ينحرف عن معناه ومقصده.
- التأويل والتفسير الباطل للأحداث.
- إبراز المثالب والأخطاء، وإخفاء الحقائق والصور المستقيمة.
- صناعة الأشعار وانتحالها لتأييد حوادث تاريخية مدعاة؛ لأن الشعر العربي ينظر له كوثيقة تاريخية، ومستند يساعد في توثيق الخبر وتأييده.

- وضع الكتب والرسائل المكذوبة، ونحلها لعلماء وشخصيات مشهورة كما وضعت الرافضة كتاب نهج البلاغة^(١) ونحلته الخليفة الراشد علي بن أبي طالب عليه السلام. وكتاب الإمامة والسياسة^(٢)، الذي نحلته أبا

(١) الكتاب عبارة عن مجموعة من الخطب والحكم، جمعها الشريف المرتضى علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ) وهي لا تثبت كلها لعلي بن أبي طالب عليه السلام، بل منها ما هو مقطوع بكذبه. كما قام العالم الشيعي قاسم بن هبة الله المعروف بابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) بشرح الكتاب، وتوسع فيه حتى صار في مجلدات كثيرة. انظر عن ترجمة المرتضى وكتاب نهج البلاغة: لسان الميزان ٢٢٣/٤.

(٢) حول عدم صحة هذا الكتاب لابن قتيبة، انظر: رسالة الماجستير، المقدمة =

محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري؛ شهرته عند أهل السنة وثقتهم به.

وقد تلقف هذه الأكاذيب والتحريفات في القرن الماضي، علماء الغرب وكُتَّابُهُ من المستشرقين والمُنْصِرِّين - إبان غزوهم واستعمارهم للبلدان الإسلامية - فوجدوا فيها ضالتهم، وأخذوا يعملون على إبرازها والتركيز عليها، مع ما زادوه من عندهم - بدافع من عصبيتهم وكرههم للمسلمين - من الكذب، مثل اختراع حوادث لا أصل لها، أو التفسير المغرض للحوادث التاريخية بقصد التشويه، أو التفسير الخاطيء تبعاً للتصور والاعتقاد الذي يدينون به. ثم شايح هؤلاء طائفة غير قليلة العدد من تلاميذ المستشرقين في البلاد العربية والإسلامية، وأخذوا طرائقهم ومناهجهم في البحث، وأفكارهم وتصوراتهم في الفهم والتحليل وتفسير التاريخ، وحملوا الراية بعد رحيلهم عن بلاد المسلمين، وكان ضررهم أشد وأنكى من ضرر أساتذتهم المستشرقين، ومن ضرر أسلافهم السابقين، من فرق الكفر والضلال، وذلك أنهم ادَّعوا - كأساتذتهم - اتباع الروح العلمية المتجردة، والمنهج العلمي في البحث. والحقيقة أن غالبهم لم يتجرد إلا من عقيدته، أما التجرد بمعنى الإخلاص للحق وسلوك المنهج العلمي السليم في إثبات الوقائع التاريخية، كالمقارنة بين الروايات، ومعرفة قيمة المصادر التي يرجعون إليها، ومدى أمانة الناقلين وضبطهم لما نقلوا، وقياس الأخبار واعتبارهم بأحوال العمران البشري وطبائعه^(١)، فلا أثر له عند القوم، فلم يتقنوا من المنهج العلمي

= كلية الشريعة بجامعة أم القرى عام ١٤٠٠هـ من الباحث علي بن نفيح العلياني، بعنوان «موقف ابن قتيبة من عقيدة السلف» ص ١٠٦ - ١١٥ حيث أثبت بالعديد من الأدلة أن مؤلف كتاب الإمامة والسياسة من الرافضة، وأن ما في هذا الكتاب يخالف عقيدة ابن قتيبة الثابتة في مؤلفاته الكثيرة.

(١) حول النقطة الأخيرة انظر: ابن خلدون، المقدمة ص ٣٧.

إلا الأمور الشكلية، مثل الحواشي، وترتيب المراجع وما شابهها، وربما كان هذا هو مفهوم المنهج العلمي عندهم^(١).

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب: «إن الذين تثقفوا بثقافة أجنبية عنّا قد غلب عليهم الوهم بأنهم غرباء عن هذا الماضي، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء النيابة من المتهمين، بل لقد أوغل بعضهم في الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر المتجرد من كل آصرة بماضي العروبة والإسلام، جرياً وراء المستشرقين في ارتيابهم حيث تحسن الطمأنينة، وميلهم مع الهوى عندما يدعوهم الحق إلى التثبت، وفي إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون في أيديهم أشباه الدلائل عليه»^(٢) ثم يذكر أن من مواطن الضعف في كتابات هؤلاء «اشتباه الأدلة التاريخية على المؤرخين المعاصرين وحيرتهم بين جيدها وأجودها. بل فيهم من لا يميز بين الجيد والرديء، مع أن ذلك كان في متناول يده لو سبق له معرفة موازين رواتنا في النقد، أو وقف على مناهجهم في التأليف، ومصطلحاتهم في الرواية، ومراميمهم في

(١) بل إننا نجد من بين تلاميذ المستشرقين من لا يعنى بشيء من ذلك كله، رغم كثرة مؤلفاتهم وشهرتها، فلا نجد مصادر للبحث، ولا نقداً للروايات، ولا موازنة بينها، ولا تحريراً لها، بل ميزان النقد لديهم، هو العقل والهوى، فما استحسنته أحدهم بعقله فهو الحسن، وما لا يهواه ولا يعجبه يرده بكل سهولة، حتى وإن كان حديثاً ثابتاً في صحاح السنّة. انظر: النص رقم (٦) من الملحق. ويمثل هذا المنهج كتابات طه حسين، ومحمود العقاد، والشيخ الخضري، ومحمد حسين هيكل، وخالد محمد خالد، وأحمد أمين، وحسن إبراهيم حسن، ومحمد عبد الله عنان، إلا أن الثلاثة الآخرين يمتازون بذكرهم مصادرهم، وإن كانوا لا يحافظون على إيراد الأقوال بنصوصها، وإنما يعبرون عنها من عندهم.

(٢) محب الدين الخطيب، المصادر الأولى لتاريخنا، مجلة الأزهر سنة ٢٤ الجزء الثاني سنة ١٣٧٢هـ.

الاستشهاد^(١)، ولذلك لا نجد في كتاباتهم نقداً للأخبار والحوادث، وفقاً للأصول المتبعة عند العلماء، ولا تحريراً للمسائل المختلف فيها، بل لا نجد لديهم المحافظة على نقل النصوص كما هي إنما ينقل أحدهم فهمه لها، وربما كان خاطئاً في فهمه، فيبني على ذلك الفهم استنتاجات وأحكاماً بعيدة عن معنى النص الأصلي ودلالته^(٢).

ومن أهم الوسائل التي اتبعها المستشرقون وتلاميذهم في تشويه وتحريف حقائق التاريخ الإسلامي.

- التدخل بالتفسير الخاطئ للأحداث التاريخية على وفق مقتضيات أحوال عصرهم الذي يعيشون هم فيه، وحسبما يجول بخواطيرهم دون أن يحققوا، الواقعة التاريخية حتى تثبت، ودون أن يراعوا ظروف العصر الذي وقعت فيه الحادثة وأحوال الناس وتوجهاتهم في ذلك الوقت، والعقيدة التي تحكمهم ويدينون بها «انظر النص رقم ٦ ورقم ٧» فإنه قبل تفسير الحادثة لا بد من ثبوت وقوعها، وليس وجودها في كتاب من الكتب كافياً لثبوتها^(٣).

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر مثلاً على ذلك: أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٨٠ حيث جعل نواة فرقة المرجئة، الصحابة الذين تركوا القتال في الفتنة كما جعلهم نواة لفرقة المعتزلة، كما في ص ٢٩١.

(٣) ينبغي التنبيه إلى أن ثقات المؤرخين مثل: ابن خياط، وابن شبة، والطبري، عندما دُونوا الروايات الضعيفة، والمنقطعة، لم يقصدوا الاحتجاج بها، وإنما دُونوها بأسانيدها وأسماء رواتها لتعرف، وكانوا على منهج علمي مرسوم يكفي فيه إيضاح السند لتعرف قيمة الرواية، كما فعل علماء الحديث النبوي من ذكر كل ما بلغهم وإن كان رواته لا يحتج بهم، وإنما يدُونون مثل ذلك للمعرفة، ولمرحلة الجمع التي يعقبها مرحلة التنقية والفرز لمعرفة الصحيح من المكذوب، وإلى هذا أشار الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٧٥/٢ فقال - تعليقاً على من انتقد الطبراني جمعه الأحاديث بالافراد مع ما فيها من النكارة =

لأن مرحلة الثبوت، مرحلة سابقة على البحث في تفسير الواقعة التاريخية. كما ينبغي أن يكون التفسير متمشياً مع منطوق الخبر التاريخي موضوع البحث، ومع الطابع العام للمجتمع أو العصر والبيئة التي حدثت فيها الواقعة، كما يشترط أن لا يكون هذا التفسير معارضاً لواقعة أو جملة وقائع أخرى ثابتة.

كما أنه لا ينبغي أن ينظر في التفسير إلى عامل واحد من العوامل الموجدة للحدث التاريخي - كما هو ديدن كثير من المدارس التاريخية المعاصرة - وإنما ينظر فيه إلى جملة العوامل المؤثرة في الحدث، وخاصة العوامل العقيدية والفكرية. ثم إن التفسير التاريخي للحوادث بعد هذا كله لا يعدو كونه اجتهاداً بشرياً يحتمل الصواب والخطأ. فإذا كان العلم في ميدان العلوم المعملية لا يعرف القطع والحسم، فإن ذلك أولى في مجال الدراسات النظرية، اللهم إلا إذا كان هناك نص شرعي موجب لهذا القطع.

ولقد أبرز البعض تاريخ الفرق الضالة، وعمد إلى تضخيم أدوارها وتصويرها بصورة المصلح المظلوم، وبأن المؤرخين المسلمين قد تحاملوا عليها، فالقرامطة، والإسماعيلية، والرافضة الإمامية، والفاطمية، والزنج، وإخوان الصفا، والخوارج، كلهم في نظرهم واعتبارهم دعاة إصلاح وعدالة وحرية ومساواة، وثوراتهم كانت ثورات إصلاح للظلم والجور^(١).

= الشديدة والموضوعات، وفي بعضها القدح في كثير من القدماء من الصحابة وغيرهم -: «إن هذا أمر لا يختص به الطبراني فلا معنى لإفراده باللوم، بل أكثر المحديثين في الأعصار الماضية من سنة مائتين وهلمّ جرّاً، إذا ساقوا الحديث بإسناده اعتقدوا أنهم برئوا من عهده».

(١) طرح الفكرة طه حسين في كثير من كتبه كما في كتابه مرآة الإسلام ص ٢٩٤، ٢٩٥ والذي هو آخر ما كتب من إسلامياته، وقيل: إنه أقوم كتبه عن الإسلام. =

فهذا الشغب والأرجاف على التاريخ الإسلامي، ومزاحمة سير رجاله ودُعائه، بسير قادة الفرق الضالة، أمر لا يستغرب من قوم لا يدينون بالإسلام، فهم من واقع عقيدتهم يكيّدون له بكل جهد مستطاع، ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ولا يتوقع من مطموسي الإيمان وملل الكفر إلا مناصرة إخوانهم في الضلال، ولكن الأمر المستغرب حقاً أن يحمل راية التشويه والتحريف بعد سقوط دولة الاستشراق كُتّاب يحملون أسماء إسلامية ومن أبناء المسلمين ويقومون بنشر مثل هذه السموم على بني جلدتهم ليصرفوا بها الأغرار عن الصراط المستقيم.

ولقد عمد هؤلاء إلى التشبث بالروايات المشبوهة والضعيفة والساقطة، يلتقطونها من كتب الأدب، وقصص السمر، والحكايات الشعبية، والكتب المنحولة والضعيفة، مثل كِتَاب الأغانِي، والبيان

= وقام بتنفيذها بعض الكُتّاب المنحرفين المهووسين بالعلمانية والاشتراكية، من أمثال: الدكتور محمود إسماعيل في كتابه: الحركات السرية في الإسلام، وهو من المعجبين بمنهج الدكتور طه حسين في تفسير التاريخ الإسلامي تفسيراً علمانياً، ولذلك خصّنه بفصل من كتابه الذي سماه «قضايا في التاريخ الإسلامي» وقال عنه: إن طه حسين المؤرخ بمنهجه ورؤيته للتاريخ الإسلامي كان له فضل سبق والريادة في وضع هذا التاريخ على الطريق القويم!! ومهّد بذلك الطريق «لعلمنة» هذا الفرع من الدراسات الإنسانية الذي ظل لقرون طويلة حبيس سحب كثيفة من الخرافات والأساطير ص ١٨٧، وهذا العمل على إبراز تاريخ الفرق المنحرفة، وتحسين صورتها لدى ناشئة المسلمين، كان مما قرره المؤتمر الصهيوني في بلتيمور بأمريكا عام ١٩٤٣م، والذي حضره اليهودي ابن جوريون، حيث قرر المؤتمر مضاعفة الجهود لتزييف التاريخ الإسلامي، والتركيز على ثورات الزنج، والقرامطة، والباطنية، وتصويرها على أنها حركات تقدمية، تمثل العدل الاجتماعي، بينما هي في الحقيقة قد استهدفت تدمير القيم الإسلامية في المجتمع، وصولاً إلى إسقاط الدولة الإسلامية.

انظر: أنور الجندي، تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات ص ١٥٤.

والتبيين، والبخلاء، وعيون الأخبار، والكامل في الأدب، وحياة، الحيوان، ونهج البلاغة، وشرحه، وغيرها، فهذه الكتب هي مستنداتهم في الغالب - مع علمهم أن هذه الكتب ليست مراجع علمية يعتمد عليها في التاريخ الإسلامي. (انظر النص رقم ٨) من الملحق) - وهم يكفيهم إشارة هامشية لكي يبادروا إلى تضخيمها والتوسع في إعطاء الشروح والتفسيرات لها، والبناء عليها، وهكذا نراهم يعمدون إلى الأمر اليسير يجعلونه عظيماً، وبينون عليه قضايا كبيرة (انظر النص رقم ٤ ورقم ٩ من الملحق).

ولقد وقع الاعتداء على التاريخ الإسلامي خاصة تاريخ الصدر الأول:

بالتشويه، عن طريق اختيار مواقف مختارة والتركيز عليها كالمعارك والحروب، مع تصويرها على غير حقيقتها حتى تزول عنها صفة الجهاد في سبيل الله. أو التركيز على الأحداث والفتن الداخلية، بقصد إظهار ما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم وعرضها وكأنها نموذج للصراعات والمكائد السياسية في وقتنا الحاضر.

وبالتجهيل، وهو إهمال كل ما هو مدعاة للاقتداء والأسوة الحسنة.

وبالتشكيك، وهو توجيه السهام إلى التاريخ ورجاله، وإلى المؤرخين المسلمين أنفسهم، والتشكيك في معلوماتهم وصدقهم.

وبالتجزئة، وهي محاولة تجزئة التاريخ الإسلامي إلى أوصال وأشتات، وكأنها لا رابط بينها، كالتوزيع الإقليمي، والعرقي، ونحوه.

فكل هذه الوسائل والحملات، تسعى إلى تدمير تاريخنا الإسلامي ومحو معالمه النيرة، وإبعاده عن مجال القدوة الحسنة، والتربية الصحيحة، لذا ينبغي على المؤرخ المسلم معرفة هذه الوسائل والتنبه لها، ومعرفة الذين تابعوا المستشرقين في آرائهم ومناهجهم، وعدم التلقي منهم

إلا بحذر شديد. فإذا كان علماؤنا رحمهم الله قد نقدوا كثيراً من الرواية وضَعَّفوا روايتهم بسبب أخذهم عن أهل الكتاب، وروايتهم الإسرائيليات، فإنه ينبغي لنا التوقف في قبول أقوال وتفسيرات من يتلقى من المستشرقين، بل إسقاطها وعدم اعتبارها إلا بدليل وبرهان واضح.

نتائج البحث:

الحمد لله الذي هدانا، وأعاننا على إخراج هذا البحث بالصورة التي يراها القارئ، ولقد أوضحت هذه الدراسة:

* ضرورة الربط بين العلم والعمل به؛ حتى يؤدي العلم ثماره، ولكي يصح العمل، ويستقيم السلوك، وأن العلم إنما يتلقى لأجل العمل.

* بطلان المنهج القائم على طلب «العلم للعلم» و«الفن للفن» و«الأدب للأدب» لأن تلقي العلم في الإسلام محكوم بضوابط شرعية في منهجه، وفي أهدافه، وفي وسائله، كما أنه مرتبط بالغاية الأساسية من خلق الإنسان ووظيفته في هذا الكون.

* أهمية علم التاريخ وفائدته في التعرف على السنن الربانية، وملاحظتها من خلال الأحداث المتعاقبة، ومعرفة المعالم المهمة في تاريخ البشرية، والتأكيد على إثبات مجموعة من الحقائق الكبيرة في حياة الإنسان، وأن دراسة التاريخ ليست قاصرة على سرد الحوادث ومعرفة سني الوفيات، وخاصة في عصرنا الحاضر الذي صار فيه التاريخ أحد الأسلحة التي تُستخدم في مجال التوجيه، وصياغة الأفكار، ونشر المذاهب وتأييدها، كما أنه قد أصبح يأخذ مكانته ودوره في الصراع العقائدي بين الأمم، فدراسة التاريخ وتفسيره مرتبطة بالعقائد والتصورات، والأفكار التي يحملها الباحثون والكتّاب.

ولأجل هذا الأثر الخطير الذي تؤديه الدراسات التاريخية فقد كان من أول ما اعتنى به الاستشراق، كما كان من أقوى الأسلحة التي

استخدمها الغزو الفكري الأوروبي للبلاد الإسلامية، وبث أفكاره وعقائده وأخلاقه وثبتت دعائم استعمارهم من خلاله.

* وجوب الالتزام بالمنهج الإسلامي في الدراسة التاريخية، وأن هذا الالتزام ضرورة علمية، ووظيفة شرعية، وحاجة إنسانية، الإخلال بها إخلال بموازين العلم الصحيحة، وبالأحكام الشرعية، ويسبب نقصاً كبيراً في الدراسة، وتشويهاً للوقائع التاريخية، بل يسبب انحرافاً خطيراً في التفسير والفهم والسلوك وتجاه الأحداث التاريخية.

* بيان المصادر التي يستقى منها المنهج الإسلامي لكتابة التاريخ وأنها تنقسم إلى قسمين:

١ - مصادر طرق إثبات الحقائق، وقد رسم العلماء المسلمون لذلك مناهج غاية في الدقة والإتقان، خاصة مناهج علماء الحديث النبوي.

٢ - مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها، وهذه متعلقة بالتصورات والعقائد، فلا بد من تلقيها من المصادر الشرعية لكن يستقيم منهج التفسير، وتصح الأحكام التاريخية، وأنه لا يجوز في هذا الجانب الاستقاء من أي مصدر آخر.

* بيان خصائص المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ، وأن من أهم تلك الخصائص: التميز في التصور والمفاهيم، وأن هذا التميز يوجب الاستغناء والاستقلال عن كافة المناهج البشرية ومفاهيمها الوضعية، ومن أبرز المفاهيم في هذا المجال، معرفة التصور الصحيح في الإسلام عن الإنسان، والكون، والحياة، وارتباطها بالخالق جل وعلا. لأن هذه العناصر هي إطار الحركة التاريخية ومجالها، كما أن التصور الصحيح عنها هو مفرق الطريق وأُس الخلاف في النظرة إلى التاريخ بين المسلم وغير المسلم، لأن التصور العقدي هو الذي يحكم مناهج البحث ويمدها

بالمقاييس والموازين التي تضعها، فإذا كان التصور صحيحاً كانت المقاييس صحيحة، ذلك أن المناهج إنما هي أثر من آثار التصور العقدي، وتابعة له ومتأثرة به، كما أنها وسيلة من وسائل تحقيقه في الواقع العملي.

وهذا المنهج له وسائل وغايات ترتبط كلها وتنبتق من الغاية الأساسية من خلق الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

* بيان جملة من القواعد المهمة التي يجب أن يراعيها المسلم في كتابة التاريخ الإسلامي وفي تدريسه، ومن أهم هذه القواعد:

- ١ - معرفة الحكم الشرعي في المخلفات والآثار الحضارية عن الأمم السابقة.
- ٢ - معرفة حق الصحابة عليهم السلام والموقف من الفتن التي وقعت في عصرهم.
- ٣ - التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام.
- ٤ - اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر.
- ٥ - معرفة حدود الأخذ من كتب أهل الأهواء والزندقة.
- ٦ - معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين.
- ٧ - الالتزام بالعقيدة الإسلامية وأحكامها والتركيز في الدراسة على الأهداف والغايات.
- ٨ - إبراز دور الأنبياء عليهم السلام وأثر الوحي الذي جاؤوا به في تاريخ البشرية.
- ٩ - تحري استعمال المصطلحات الإسلامية.

إلى غير ذلك من القواعد الموضحة في مواضعها.

* بيان كيفية التدوين والمراحل التي مرّ بها تدوين التاريخ الإسلامي مع الرد على المزاعم الباطلة بأن العلم الإسلامي قد جرى نقله

رواية شفوية دون تدوين طوال القرن الأول الهجري وحتى منتصف القرن الثاني، وإيضاح أن التدوين غير التأليف.

* تعدد الموضوعات التي شملها التدوين التاريخي في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية، وأن ذلك راجع إلى سعة المفهوم التاريخي عند العلماء المسلمين.

* أن السيرة النبوية قد لقيت عناية فائقة في التدوين والتأليف، وفي النقد والتحقيق، على يد علماء الحديث النبوي، زيادة على اهتمام المؤرخين بها بشكل مستقل أو ضمن مؤلفاتهم في التاريخ العام، وأنها قد وصلت إلينا - والله الحمد - من طرق مأمونة ولم يتفرد بنقلها الأخباريون، والمتكلم في عدالتهم.

* عرض مناهج مجموعة من المؤرخين المسلمين، وقد اتضح أن مناهجهم في التأليف متعددة الصور، فيها سلبيات وإيجابيات وهم ليسوا سواء في التدقيق والثقة، وفي إيضاح المصادر. فإن منهم من التزم بالإسناد بصفة عامة مثل خليفة بن خياط، وأبي عبيد، وابن شبة، والبلاذري، وأبي زرعة، وابن عبد الحكم، والطبري.

ومنهم من ذكر الأسانيد، لكنه يجمعها مرة، ويفردها مرة، مثل ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد. ومنهم من ترك الأسانيد بالكلية واكتفى بإيضاح بعض المصادر إما في المقدمة، أو أثناء الكتاب. مثل الدينوري، واليعقوبي.

* ولقد شارك في تدوين أخبار التاريخ الإسلامي وروايتها مجموعة من الرواة والأخباريين والمؤرخين، الضعفاء أو المتهمين والمطعون في عدالتهم، من أتباع الفرق الضالة، كالشيعة والخوارج، والشعوبية، والزنادقة، لذا فإنه لا بد من معرفة عقائد الرواة وأقوال علماء الجرح والتعديل فيهم، مع التدقيق في الكتب، والمرويات التي تأتي عن طريقهم.

ملحق النصوص

نماذج من النصوص التي تمثل الانحرافات

النص رقم (١)

«وبلغ عثمان، أن أبا ذر، يقعد في مسجد رسول الله ويجتمع إليه الناس، فيحدث بما فيه الطعن عليه، وأنه وقف بباب المسجد فقال: أيها الناس: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جنادة الربذي، إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم، محمد الصفوة، من نوح، فالأول من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، والعتره الهادية من محمد، إنه شرف شريفهم، استحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسما المرفوعة، وكالكعبة المستورة، أو كالقبلة المنصوبة، أو كالشمس الضاحية، أو كالقمر الساري، أو كالنجوم الهادية، أو كالشجرة الزيتونية، أضاء زيتها، وبورك زبدها، ومحمد وارث علم آدم، وما فُضِّلَ به النبيون، وعلي بن أبي طالب، وصي محمد ووارث علمه.

أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها: أما لو قَدَّمْتُمْ مَنْ قَدَّمَ الله، وأخرتم من آخر الله، وأقررتُم الولاية والوراثة في بيت نبيكم، لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولَمَّا عال ولي الله، ولما طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم علم ذلك عنده، من كتاب الله وسنة نبيه، فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»^(١). تاريخ يعقوبي ١٧١/٢.

(١) هذه الخطبة منسوبة لأبي ذر، أوردها يعقوبي - وهو شيعي جلد كما أوضحنا في ترجمته - دون إسناد، وهذا كافٍ في ردها، حيث لم يروها أحد من المؤرخين غيره، وفيها أمور من عقائد الشيعة الفاسدة لم يقل بها أحد من الصحابة ولا علي عليه السلام أو أحد من أبنائه، كما أن أسلوب الخطبة وعباراتها المتكلفة يدل على وضعها.

النص رقم (٢)

«وكان أول صارخة صرخت في المدينة أم سلمة زوج رسول الله ﷺ، كان دفع إليها قارورة فيها تربة، وقال لها: إن جبريل أعلمني أن أمتي تقتل الحسين، وأعطاني هذه التربة، وقال لي: إذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أن الحسين قد قتل، فلما حضر ذلك الوقت جعلت تنظر إلى القارورة في كل ساعة، فلما رأتها صارت دماً صاحت واحسيناه، وابن رسول الله، وتصارخت النساء من كل ناحية حتى ارتفعت المدينة بالرجة التي ما سمع بمثلها قط»^(١). تاريخ اليعقوبي ٢/٢٤٦.

(١) وهذا نوع من الأساطير التي روّجها الشيعة وأدخلوها إلى التاريخ الإسلامي، وقد ذكرها اليعقوبي دون إسناد، وفيها من الكذب ما لا يخفى. ولا يعترض على هذا بما في المسند ٢٩٤/٦ عن عائشة أو أم سلمة، أن النبي ﷺ قال لإحدهما: «لقد دخل عليّ البيت ملك لم يدخل عليّ قبلها، فقال لي: ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء».

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١٨٧: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. فليس في الحديث القارورة المزعومة، ولا أن التراب الذي فيها يتحول دماً عبيطاً. ولهذا علّق الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٨/٢٠٢ بعد سياقه بعض الأخبار في مقتل الحسين بن علي عليه السلام بقوله: «وللشيعة والرافضة في صفة مصرع الحسين كذب كثير، وأخبار باطلة، وفيما ذكرنا كفاية، وفي بعض ما أوردناه نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ والأئمة ذكروه ما سقته، وأكثره من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعياً، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة».

النص رقم (٣)

«نصر. عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر وزيد بن حسن قالوا: طلب معاوية، إلى عمرو بن العاص، أن يسوي صفوف أهل الشام، فقال له عمرو: على أن لي حكمي إن قتل الله ابن أبي طالب، واستوسقت لك البلاد، قال: أليس حكمك في مصر؟ قال: وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة، وقتل ابن أبي طالب، ثمناً لعذاب النار الذي لا يُقْتَر عنهم وهم فيه مبلسون؟ فقال معاوية: إن لك حكمك أبا عبد الله إن قتل ابن أبي طالب، رويداً، لا يسمع الناس كلامك، فقال لهم عمرو: يا معشر أهل الشام سووا صفوفكم...»^(١).

وقعة صفين، لنصر بن مزاحم ص ٢٣٧.

(١) قلت: هذه رواية سلسلة الإسناد بالروافض، فنصر بن مزاحم رافضي جلد، تركوه كما يقول الذهبي في الميزان ٢٥٣/٤.

وعمر بن شمر الجعفي الكوفي، زائف كذاب، رافضي يشتم الصحابة. ميزان الاعتدال ٢٦٨/٣.

وجابر بن يزيد الجعفي الكوفي، شيعي كذاب، يقول بالرجعة، ويسب الصحابة. ميزان الاعتدال ٣٨٠/١.

ومضمونها الرواية وممتها يشهد بهذا.

النص رقم (٤)

على أثر انتصار علي في موقعة الجمل انحصر النزاع بين حزبين اثنين .

١ - حزب عثمان، وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان، أعظم قرابة عثمان شأنًا والمطالب بدمه .

٢ - حزب علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين، ورأس بني هاشم الذين كان العداء بينهم وبين بني أمية قديماً منذ الجاهلية، ولم يزد الإسلام إلا شدة، فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة، وما كان من علي يوم بدر، كما أن بني هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد، وقد صورت أم الخير بنت الحريش البارقية الخلاف بين علي ومعاوية، وذكرت أسباب في تلك الخطبة التي ألقتها يوم صفين...»^(١). حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ٣٦٧/١

(١) فقد فسر المؤلف النزاع بين علي، ومعاوية، على أساس العصبية الجاهلية القديمة، والتي زادها الإسلام قوة في زعمه!! سبحانهك اللهم هذا بهتان عظيم، وقد كرر هذا القول أكثر من مرة في كتابه هذا. انظر على سبيل المثال ١/ ٢٧٦، ٢٧٨ فهل الإسلام أتى ليؤجج العصبيات، أم ليمحوها ويحل مكانها الأخوة في الله، والتعاون على البر والتقوى والمحبة والتآلف؟! قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنْ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

النص رقم (٥)

«نظراً لمصاهرة علي بن أبي طالب، للنبي، ولكونه من أهل بيته ومن المقربين إليه، والمضحين في سبيله، كان من المرجح أن يكون خلفاً له على إمارة المسلمين لذلك. فلما قبض الرسول لقي العباس بن عبد المطلب، كلاً من أبي بكر، ثم عمر، وسألهما إذا كان الرسول أوصاهما بشيء، وإذا علم منهما أنه لم يوص، قال لعلي: ابسط يدك أبايك، فيقال: عم رسول الله بايع ابن عمه، وبايعك أهل بيتك، فقال له علي: ومن يطلب هذا الأمر غيرنا؟

وجواب علي هذا - كرم الله وجهه - يدل على مقدار سلامة قلبه وقلة حذره، كما يدل على ابتعاده عن ألاعيب السياسة، فهو قد أهمل مبادرة عمه العباس بعد وفاة النبي، كما أهمل من قبل وصيته بأن يسأل النبي قبل موته إن كان الأمر لهم أو إن كان لغيرهم يوصي بهم خيراً. وفي غضون ما كان علي مطمئن البال على الخلافة استناداً إلى اعتقاده أنه حقه للاعتبارات المذكورة، كان الآخرون يفكرون فيها ويعقدون الاجتماعات للتشاور حولها، وكلٌّ منهم يريد لها لنفسه وفقاً لنا موس تنازع البقاء، وكانت النتيجة صرفها عن علي، خلافاً لما كان يترقب هو وعامة المسلمين»^(١). محمد جميل بيهيم، دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل ص ١٦٤ - ١٦٥.

(١) ما ذكر المؤلف من خبر تاريخي لم يبين مصدره، ليتم على ضوء ذلك نقده، والتحقق من ثبوته، أما تفسيره للحوادث التاريخية، فمبني على قيم جاهلية ليس =

النص رقم (٦)

«ويقال: إن بني هاشم كانوا يرون لأنفسهم الحق في خلافة النبي ﷺ، فهم رهطه الأذنون، وهم أقرب إليه من تيم قوم أبي بكر، ومن عدي قوم عمر، ومن أمية قوم عثمان، ولكنهم رأوا إجماع الناس على أبي بكر، كما رأوا إجماع الناس على عمر، ومن بعده على عثمان، فكرهوا أن يثيروا الفتنة، أو أن يحدثوا في الإسلام حدثاً، وأذعنوا لإجماع المسلمين، ويُقال كذلك: إن النبي، قال لبعض أصحابه في مرضه الذي توفي فيه: «إيتوني بصحيفة أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً»، فاختلفوا وتنازعوا، يقول بعضهم: إن النبي قد اشتد عليه الوجع وعندنا كتاب الله، ويقول بعضهم الآخر: بل دعوا رسول الله يكتب، فلما أكثروا قال لهم النبي ﷺ: «قوموا عني»، قالوا: فكان ابن عباس يرى أن الرزية كل الرزية أنهم لم يخلوا بين رسول الله وبين ما أراد.

وأكاد أقطع أن هذا الحديث - مهما كان سنده - غير صحيح..»^(١). طه حسين، مرآة الإسلام ص ١٣٢ - ١٣٣.

= لها مستند شرعي، وقد قال المشركون قبله فيما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، كما أن حكايته عما في نفس علي بن أبي طالب، هو تقوُّل عليه، بل هو كذب عليه، وعلى الحقائق التاريخية؛ لأن عامة المسلمين هم الذين بايعوا أبا بكر، لما علموه من النصوص والإشارات النبوية بتقدمه، وأسلوب المؤلف كله اتهامات وإساءة الظن ببقية الصحابة ﷺ.

(١) أين المنهج العلمي في مثل هذه الكتابة وهذا الأسلوب؟! إثارة للشكوك، =

النص رقم (٧)

«من أجل الفصل في قضية طلحة، والزبير، من علي، واختلاف هذا الموقف قبل بيعته وبعدها، لا بد أن نعود للتذكير بما أسلفنا من حديث عن أسباب النقمة على عثمان، ولا سيما الجانب الاقتصادي من هذه النقمة، بسبب توقف الفتوح واستئناف الأرستقراطية المكية القديمة نشاطها التجاري، ونقلها لهذا النشاط من الحجاز إلى الأمصار، حيث أثرى بعض رجالات قريش ثراءً فاحشاً، وكنا قد ضربنا مثلاً بما حصل عليه كل من طلحة والزبير، من أموال ومتاع وعقار وعبيد، جعلتهما من كبار رجال رأس المال الذين يهتمهم جداً أن تكون أمور الدولة بيد رجل يقبل بأن تسير الأمور على هواهما.

وعلي، رجل جدّ واستقامة ودين، ويعرفان سلفاً أنه قد يقف حجر عثرة في طريق مصالحهما المادية، ولو آلت الخلافة لواحد منهما، على ما له من سابقة في الإسلام، وعضوية في شورى عمر، لضمنا لأنفسهما يسراً في الأمور، لن يتحقق لهما في ظل خلافة شخص كعلي...». وبعد أن يورد اعتراضاً على هذه الفرضية كما يقول، ويجيب عليه،

= وتوزيع للتهم بهذا الأسلوب. يقال، وقيل، ويرى، وأكاد أقطع، وأكبر الظن!!... دون الرجوع للمصادر، هذا مع إثباته واعترافه بوقوع الإجماع فهل بعد الإجماع من حجة؟! بالإضافة إلى ردّه لصحاح الأخبار التي ثبتت بأعلى منهج علمي عرفته البشرية، فالحديث الذي ردّه بمجرد التحكم العقلي والهوى، ثابت في الصحيحين وقد رده وهو يعلم ذلك. انظر عن الحديث: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٦٧/٢.

يعود فيقول: «وعلي بن أبي طالب، الذي استقطب ولاء غالبية الثائرين على عثمان، ولا سيما رجال الأمصار والقبائل، لا بد آخذ بمطالب الثائرين، ومن بينها القضايا الاقتصادية، وإثراء البعض على حساب مجموع الأمة، فخلافته خطر على مصالح طلحة، والزبير، ولا بد من إيجاد وسيلة أو حجة يتستران بها لتبرير ثورتها عليه، فكان إعلانهما بأن الثائرين على عثمان، غوغاء، وعبيد، وأعراب، وفي هذا مبرر كافٍ للانقلاب على علي، الذي ناصر هؤلاء الغوغاء والعبيد والأعراب، وقبل الخلافة منهم، على حدّ زعم طلحة والزبير...»^(١). د. نبيه عاقل، خلافة بني أمية ص ٢٣ و ٢٧ - ٢٨.

(١) وهذا الكلام أشبه بالبيانات الحزبية منه بالكتابة التاريخية، وينبئ عن سوء التفسير للحوادث التاريخية، وكيفية استغلالها، وتوجيهها حسب المذهب الفكري والتوجّه السياسي الذي يعتقده الباحث، دون النظر لواقع من تحدث عنهم الأخبار، وطبيعة مجتمعهم، ومعتقداتهم. وفي هذا الكتاب من السفاهة والسماجة وتهافت التحليل والافتراضات ما لا يحصى، ولولا أن الكتاب منشور في الأسواق، وصاحبه يتربع على كراسي التعليم بالجامعات، لما ذكرته، وما هو في الحقيقة إلا نموذج من الانحرافات التي أصابت تاريخنا الإسلامي، فهو يمثل مجموعة من المهووسين بالأفكار العلمانية، والبعثية، والشيوعية.

النص رقم (٨)

قال أحمد أمين في تعليقه لظاهرة الغناء بالحجاز:

«وقد يكون السبب أن الحجاز كان به أرستقراطية العرب، وهم العنصر الفاتح، وقد نال هؤلاء الأرستقراطيون خير الجواري وأرفعهن نسباً، وأكثرهن تأدباً، ومنهم من تربى بيت الملوك والأمراء، وتأدب بآداب الحضارة، فنقلن ذلك إلى الحجاز، وصبغنه بالصبغة العربية، وكان لهن الفضل في تأسيس مدرسة الغناء في الحجاز، وقد يكون العلة: أن البدو إذا تحضروا وبسط لهم في العيش أسرفوا في اللهو، شأن كثير ممن غنَّي بعد الحرمان.

وربما كان السبب: أن الأمويين تبوؤوا الخلافة وحصروها فيهم، بل في بيت من بيوتهم، وضيقوا على من عداهم في بطون قريش، وحجروا عليهم في التكفير في الشؤون السياسية، وكان الشام هو العنصر المؤيد لخلفاء بني أمية، والعراق هو العنصر المعارض، فانصرف فتیان الحجاز بما لهم من مال وفير، وجاه عزيز، عن الإمارة والخلافة والسياسة، إلى اللهو، فكان الظرف، وكان الغناء، وكان الشراب، وكان المجون»^(١). فجر الإسلام ص ١٧٩.

(١) ونحن لا نعترض على صحة التعليل من عدمها، ولا ندافع عن المنحرفين إذا صح ما ذكر، لكن تصوير المجتمع في قاعدة الإسلام الأولى، وموطن كبار الصحابة وأبنائهم، بهذه الصورة من المجون والشراب والطرب، من أجل بعض الشواذ من العبيد والجواري أمر لا يعقل، بل إن المؤلف جعل للغناء مدرسة في الحجاز.

النص رقم (٩)

و«الاشتراكية الإسلامية لا تقتضي إلغاء التملك إطلاقاً، كما تقتضيه الاشتراكية الغربية، وقد أثبت الواقع في روسيا البلشفية، وفي كل بلاد سادتها الاشتراكية، أن إلغاء التملك إطلاقاً أمر غير ممكن، لكن المرافق العامة يجب أن تكون ملكاً عاماً مشاعاً بين الناس جميعاً، وتحديد المرافق العامة، متروك أمره للدولة ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام، فكان من بين أصحاب النبي غلاة في الاشتراكية!! يجعلون كل ما خلق الله ملكاً مشاعاً ومرفقاً عاماً، ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء، والهواء، لا يجوز تملك شيء منه. وإنما يقع التملك على الثمرات، ينال كل منها على قدر سعيه ومجهوده. وكان منهم من لا يرون هذا الرأي ويقولون: بجواز تملك الأرض، ويعتبرونها من العروض التي يقع عليها التبادل. على أن الاتفاق منعقد بينهم على قاعدة اشتراكية مقررة اليوم في أوروبا!! تقتضي بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته، ويجب على

= وكل أخباره في هذا الموضوع منقولة عن كتاب الأغاني، وهو كتاب حكايات وسمر، ومؤلفه ليس بعدل ولا ثقة. وقد ذهب هذا المذهب من تضخيم دور المنحرفين في مجتمع الحجاز الدكتور شوقي ضيف في كتابه الذي سماه: الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية. وكل اعتماده فيما يورد من أخبار على كتاب الأغاني.

الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يسد حاجاته...»^(١). محمد حسنين هيكل، حياة محمد ص ٥٤٢ - ٥٤٣.

(١) لم يوضح سيادة المؤلف القدير مصدر معلوماته! عندما وصف بعض أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم غلاة في الاشتراكية، فهي من بنات أفكاره، أو لعله قام بالتقاطها من أحد المستشرقين، وقد صرح في مقدمة كتابه، أنه لا يعتمد على كُتَّاب السيرة؛ لأنه يكتب كتابه وفقاً للمنهج العلمي (الأوروبي) الحديث!!

الفهارس

- ثبت المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

ثبت المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

* ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ):

١ - جامع الأصول من أحاديث الرسول، ١١ جزءاً، تحقيق الأرنؤوط، ١٣٩٠، دمشق.

٢ - الكامل في التاريخ، ١٣ جزءاً، دار صادر ودار بيروت.

* إحسان إلهي ظهير:

٣ - الشيعة والسنة، ط ١١، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط ٣، ١٤٠٢هـ.

* أحمد أمين:

٤ - فجر الإسلام، ط ١٠، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥ - ضحى الإسلام، ط ١٠، دار الكتاب العربي، بيروت.

* أحمد شلبي:

٦ - التاريخ والحضارة الإسلامية، ط مكتبة وهبة.

* أحمد فكري:

٧ - مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م.

* أحمد محمد الحوفي:

٨ - الطبري، نشر في سلسلة أعلام العرب عن دار المعارف بالقاهرة.

* أرنولد توينبي:

٩ - مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، ط ٢، عام ١٩٦٦م، لجنة التأليف.

* أرنست كونل:

١٠ - الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت.

* الأزدي، محمد بن عبد الله أبو إسماعيل (القرن الثاني هـ):

١١ - فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، سجل العرب، القاهرة.

* الأزرقى، محمد بن عبد الله (ت بعد ٢٤٤هـ):

١٢ - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، ط٣، دار الثقافة بمكة، ١٣٩٨هـ.

* أكرم ضياء العمري:

١٣ - بحوث في تاريخ السنة المشرفة، ط٣، دار الرسالة.

١٤ - إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام، محاضرة مطبوعة على الآلة الكاتبة.

١٥ - دراسات تاريخية، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، ١٤٠٣هـ.

١٦ - موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد.

* الأمدى، علي بن أبي علي بن محمد (ت ٦٣١هـ):

١٧ - الإحكام في أصول الأحكام، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، عام ١٣٨٧هـ.

* أنور الجندى:

١٨ - تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات، دار الاعتصام بالقاهرة.

* البخارى، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ):

١٩ - الجامع الصحيح، ٨ أجزاء، المكتبة الإسلامية بتركيا، ١٩٧٩م.

٢٠ - التاريخ الصغير، تحقيق محمود إبراهيم زايد، ط١، دار التراث بمصر.

* برتراند رسل:

٢١ - العقل والمادة، ترجمة إبراهيم الشريف، مصر، ١٩٧٥م.

* البغوي، الحسين بن مسعود (ت ٥١٦هـ):

٢٢ - شرح السنة، ١٦ جزءاً، المكتب الإسلامى، بيروت.

* البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ):

٢٣ - فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية.

٢٤ - أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف بمصر.

* البهى الخولى:

٢٥ - تذكرة الدعاة، دار القلم بيروت ودار الفكر، الكويت، ٥٤، عام ١٣٩٧هـ.

* البيهقى، أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ):

٢٦ - دلائل النبوة، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة.

* التبريزى، محمد بن عبد الله الخطيب ت بعد (٧٣٧هـ):

٢٧ - مشكاة المصابيح، تحقيق الألبانى، المكتب الإسلامى، ط٢، سنة ١٣٩٩هـ.

* الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ):

٢٨ - سنن الترمذي المسماة بالجامع الصحيح، ٥ أجزاء، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي.

* ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ):

٢٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ مجلداً، المؤسسة المصرية للترجمة.

* توفيق أحمد عبد الجواد:

٣٠ - تاريخ العمارة، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧١م.

* ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت ٧٢٨هـ):

٣١ - مجموع الفتاوى، ٣٧ جزءاً، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

٣٢ - العبودية، تحقيق عبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤.

٣٣ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، طبع دار الإفتاء بالرياض.

٣٤ - العقيدة الواسطية بشرح محمد خليل هراس، طبع الجامعة الإسلامية ط ٤.

٣٥ - شرح حديث: «إنما الأعمال بالنيات» مع مجموعة الرسائل الكمالية، مجلد ٢، قسم الحديث مكتبة المعارف بالطائف.

٣٦ - درء تعارض العقل والنقل، ١١ جزءاً، تحقيق محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٣٩٩هـ.

٣٧ - رأس الحسين، تقديم محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة.

٣٨ - مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرور، ط ١، دار القرآن، الكويت.

٣٩ - الرد على البكري، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٦هـ.

٤٠ - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، مكتبة الرياض الحديثة.

٤١ - جامع الرسائل، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، ط ١.

* جلال محمد موسى:

٤٢ - منهج البحث العلمي عند العرب، دار الكتاب اللبناني.

* جمال عبد الهادي:

٤٣ - تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام منذ أقدم العصور، دار الشروق، جدة.

* جواد علي:

٤٤ - موارد تاريخ الطبري، مجلة المجتمع العلمي العراقي العدد الأول، سنة

١٩٥٠م، والثالث من سنة ١٩٥٤م، والثامن من سنة ١٩٦١م.

* ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ):

٤٥ - مناقب عمر بن الخطاب، تحقيق الدكتورة زينب القاروط، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٦ - صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ط ٢، ١٣٩٩هـ، دار المعرفة، بيروت.

* الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٨هـ):

٤٧ - الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت.

* حاجي خليفة:

٤٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى ببغداد.

* الحازمي، محمد بن موسى الهمداني (ت ٥٨٤هـ):

٤٩ - الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار، نشره راتب حاكمي، حمص ١٣٨٦هـ.

* حافظ أحمد حكيم (ت ١٣٧٧هـ):

٥٠ - معارج القبول، ط الثانية، جماعة إحياء التراث بالقاهرة.

* الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ):

٥١ - المستدرک على الصحيحين، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٢ - معرفة علوم الحديث، تصحيح معظم حسين، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٧٧م.

* ابن حبان، محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ):

٥٣ - المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، تحقيق محمود زايد، دار الوعي بحلب.

٥٤ - الثقات، مخطوطة دار الكتب الوطنية، نسخة مصورة.

* ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ):

٥٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط ١ مجلد، المكتبة السلفية بالقاهرة.

٥٦ - الإصابة في معرفة الصحابة، ٨ مجلدات، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر.

٥٧ - تهذيب التهذيب، ١٢ مجلداً، مصورة عن طبعة المعارف العثمانية بالهند.

٥٨ - تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت.

٥٩ - لسان الميزان، ٧ أجزاء، ط الثانية، دار الأعلمي للطبوعات، بيروت.

٦٠ - شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، مكتبة الغزالي، سوريا.

* ابن حزم، علي بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ):

- ٦١ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة المثنى ببغداد والخانجي بالقاهرة.
٦٢ - جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٤، دار المعارف بالقاهرة.

* حسن إبراهيم حسن:

- ٦٣ - تاريخ الإسلام السياسي، مكتبة نهضة مصر، ط ٢، سنة ١٩٦٤م.

* حسن عثمان:

- ٦٤ - منهج البحث التاريخي، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

* أبو الحسن الندوي:

- ٦٥ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ط العاشرة، دار الأنصار بالقاهرة.

* حسين عمر حمادة:

- ٦٦ - شهادات ماسونية، دار قتيبة بدمشق، ط الأولى، ١٤٠٠هـ.

* حسين نصار:

- ٦٧ - نشأة التدوين الخليجي عند العرب، مكتبة النهضة المصرية.

* ابن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ):

- ٦٨ - المسند، ٦ أجزاء، طبع دار صادر، بيروت.
٦٩ - السنة، تصحيح إسماعيل الأنصاري، طبع دار الإفتاء بالرياض.

* أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ):

- ٧٠ - الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر.

* الخطابي، حمد بن محمد أبو سليمان (ت ٣٨٨هـ):

- ٧١ - معالم السنن، مطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري، تحقيق أحمد شاكر، دار الباز، ١٤٠٠هـ.

* الخطيب، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (ت ٤٦٣هـ):

- ٧٢ - تاريخ بغداد، ١٤ مجلداً، المكتبة السلفية بالمدينة.
٧٣ - اقتضاء العلم العمل، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، ط ٣، سنة ١٣٨٩هـ.

٧٤ - الكفاية في علم الرواية، طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

- ٧٥ - تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة، ط ٢، سنة ١٩٧٤م.

- * ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ):
٧٦ - مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- * خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ):
٧٧ - تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة ودار القلم، ط ٢، سنة ١٣٩٧هـ.
- ٧٨ - الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة بالرياض، ١٤٠٢هـ.
- * الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ):
٧٩ - مفاتيح العلوم، ط ٣، سنة ١٤٠١هـ، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.
- * الخوانساري:
٨٠ - روضات الجنات في أحوال العلماء السادات، دار المعرفة، بيروت.
- * ابن أبي خيثمة، زهير بن حرب (ت ٢٣٤هـ):
٨١ - كتاب العلم، تحقيق الألباني، ط دار الأرقم بالكويت ضمن مجموع من كنوز السنة.
- * ابن خير، محمد بن خير الأشبيلي (ت ٥٧٥هـ):
٨٢ - فهرست ما رواه عن شيوخه، مكتبة المثنى ببغداد والخانجي بالقاهرة.
- * أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ):
٨٣ - السنن، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.
- ٨٤ - مسائل الإمام أحمد، تحقيق محمد رشيد رضا، توزيع دار الباز بمكة.
- * الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ):
٨٥ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٤ مجلدات، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
- ٨٦ - معرفة القراء الكبار، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط الولي، دار الكتب الحديثة.
- ٨٧ - المنتقى من منهاج الاعتدال، تحقيق محب الدين الخطيب، مكتبة دار البيان دمشق.
- ٨٨ - سير أعلام النبلاء، صدر منه ٢٣ مجلداً، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٨٩ - تذكرة الحفاظ، مجلدان، تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي.
- ٩٠ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السنة، دار الكتب الحديثة.

- ٩١ - تهذيب التهذيب، خط على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي وإحياء التراث بمكة.
- ٩٢ - التاريخ الكبير، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية، ١٩٧٥م.
- * الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ):
- ٩٣ - الجرح والتعديل، ٩ أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت.
- * الرازي، محمد أبو بكر (ت ٦٦٦هـ):
- ٩٤ - مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، ط الأولى، ١٩٦٧م.
- * ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت ٧٩٥هـ):
- ٩٥ - جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت.
- * الزبيدي، محمد بن محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـ):
- ٩٦ - تاج العروس، شرح القاموس، طبع دار الحياة، بيروت.
- * أبو زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو (ت ٢٨١هـ):
- ٩٧ - تاريخ أبي زرعة، تحقيق شكر الله نعمة الله القوجاني، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.
- * الزركشي، محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ):
- ٩٨ - البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، عيسى البابي الحلبي.
- * الزركلي، خير الدين:
- ٩٩ - الأعلام، ٨ أجزاء، دار العلم للملايين، ط ٤، سنة ١٩٧٩م.
- * ابن أبي زيد، عبد الله بن عبد الرحمن القيرواني (ت ٣٨٦هـ):
- ١٠٠ - رسالة ابن أبي زيد، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، سنة ١٣٩٦هـ.
- ١٠١ - كتاب الجامع، تحقيق أبي الأجفان وعثمان بطيخ، المكتبة العتيقة بتونس ودار الرسالة.
- * الساعاتي، عبد الرحمن البنا:
- ١٠٢ - الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد، دار الحديث بالقاهرة.
- * السبكي، عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ):
- ١٠٣ - قاعدة في المؤرخين، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار الوعي، حلب، ط ٢.
- ١٠٤ - طبقات الشافعية، ١٠ مجلدات، تحقيق الطناحي والحلو، ط الأولى، البابي الحلبي.

- * السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ):
١٠٥ - الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، طبعة حسام القدسي عن دار الكتاب العربي، وطبعة روزنثال ضمن كتابه علم التاريخ عند المسلمين.
- * سعاد ماهر:
١٠٦ - مساجد القاهرة وأولياؤها الصالحون، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سنة ١٩٧١م.
- * ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ):
١٠٧ - الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- * السعدي، عبد الرحمن بن ناصر:
١٠٨ - القواعد الحسان لتفسير القرآن، مكتبة المعارف بالرياض.
- * السفاريني، محمد بن أحمد (ت ١١٨٨هـ):
١٠٩ - لوامع الأنهار البهية، مؤسسة الخافقين بدمشق، ط ٢، سنة ١٤٠٢هـ.
- * سفر بن عبد الرحمن الحوالي:
١١٠ - العلمانية، نشأتها وتطورها، طبع مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى.
- * سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب:
١١١ - حكم موالاة أهل الإشراك، ضمن مجموعة التوحيد، طبع دار الإفتاء بالرياض.
- ١١٢ - حكم السفر إلى بلاد الشرك، ضمن مجموعة التوحيد، طبع دار الإفتاء بالرياض.
- * السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ):
١١٣ - الأنساب مصورة عن المخطوطة، نشر مكتبة المشنى، بغداد.
- * السهودي، علي بن أحمد المصري (ت ٩١١هـ):
١١٤ - وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.
- * السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١هـ):
١١٥ - الروض الأنف، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.
- * ابن سيد الناس، محمد بن محمد اليعمرى (ت ٧٣٤هـ):
١١٦ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م.

* سيد قطب:

١١٧ - في ظلال القرآن، ٦ مجلدات، طبع دار الشروق ببيروت.

١١٨ - معالم في الطريق، طبع دار الشروق ببيروت.

١١٩ - الإسلام ومشكلات الحضارة، طبع دار الشروق ببيروت.

١٢٠ - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، طبع دار الشروق ببيروت.

١٢١ - في التاريخ فكرة ومنهاج، الدار السعودية للنشر، جدة، ط١، سنة ١٣٨٧هـ.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ):

١٢٢ - تدريب الراوي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة.

١٢٣ - تاريخ الخلفاء، محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، المكتبة التجارية، سنة ١٣٧١هـ.

١٢٤ - الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق محمد إبراهيم الشيباني، الدار السلفية، الكويت.

١٢٥ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، ط١.

* أ.ل. شاتليه:

١٢٦ - الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، منشورات العصر الحديث.

* الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي (ت ٧٩٠هـ):

١٢٧ - الموافقات، ٤ أجزاء، بتعليق عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرى.

* شاكر مصطفى:

١٢٨ - التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط١، سنة ١٩٧٨م.

١٢٩ - دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، الكويت.

* الشنقيطي، محمد الأمين:

١٣٠ - مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر، المكتبة السلفية بالمدينة.

* ابن شهاب، محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـ):

١٣١ - المغازي النبوية، طبع سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.

* شوقي ضيف:

١٣٢ - الشعر والغناء في المدينة ومكة، دار الثقافة، بيروت.

- * الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ):
 ١٣٣ - إرشاد السائل إلى دلائل المسائل، مجموعة رسائل نشر دار الباز بمكة.
 ١٣٤ - البدر الطالع، نشر دار الباز بمكة.
- * ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي (ت ٢٣٥هـ):
 ١٣٥ - كتاب الإيمان، تحقيق الألباني، مطبوعات المدرسة السلفية.
 * الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ):
 ١٣٦ - الوافي بالوفيات، بيروت.
- * ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن (ت ٦٤٣هـ):
 ١٣٧ - فتاوى ابن الصلاح، مجموعة الرسائل المنيرية، المجلد الثاني، مكتبة المؤيد، الطائف.
- * الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ):
 ١٣٨ - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف بمصر.
- ١٣٩ - تهذيب الآثار، تحقيق ناصر الرشيد وعبد القيوم، مطابع الصفا بمكة.
 ١٤٠ - عقيدة الطبري، تحقيق الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، المجموعة العلمية السعودية، سنة ١٣٩٤هـ.
- * طه حسين:
 ١٤١ - مرآة الإسلام، دار المعارف بمصر.
- * ابن عبد البر، يوسف النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ):
 ١٤٢ - الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- ١٤٣ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر.
 ١٤٤ - جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.
- * ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ):
 ١٤٥ - فتوح مصر والمغرب، القسم التاريخي، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي.
- * ابن عبد الحكم، عبد الله المصري (ت ٢١٤هـ):
 ١٤٦ - سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح أحمد عبيد، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت.

* عبد الحميد صديقي:

١٤٧ - تفسير التاريخ، ترجمة كاظم الجواري، دار القلم، الكويت.

* عبد الحميد العبادي:

١٤٨ - علم التاريخ عند العرب، فصل ملحق بعلم التاريخ لهرنشو، لجنة التأليف والترجمة، بالقاهرة.

* عبد الرحمن بدوي:

١٤٩ - النقد التاريخي، ط ٣ وكالة المطبوعات، الكويت، مترجم.

١٥٠ - مناهج البحث العلمي، ط ٣ وكالة المطبوعات، الكويت.

* عبد الرحمن المعلمي اليماني:

١٥١ - التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، تحقيق الألباني، المطبعة العربية، لاهور باكستان.

* عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١هـ):

١٥٢ - المصنف، طبع دائرة المعارف العثمانية بالهند.

* عبد العزيز الدروي:

١٥٣ - نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

* عبد القادر بدران الحنبلي (١٣٤٦هـ):

١٥٤ - تهذيب تاريخ دمشق، صدر منه ٧ مجلدات، دار المسيرة، بيروت.

* عبد اللطيف شرارة:

١٥٥ - إيليا أبو ماضي ونماذج من شعره، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.

* عبد المحسن العباد:

١٥٦ - الرد على من كذب المهدي المنتظر، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة، عدد ٤٥ و ٤٦.

* عبيد بن شرية:

١٥٧ - أخبار عبيد بن شرية، طبع مع كتاب التيجان لوهب، دار الدراسات اليمنية، صنعاء.

* أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ):

١٥٨ - كتاب الإيمان، تحقيق الألباني، دار الأرقم، الكويت.

١٥٩ - الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية ودار الفكر العربي.

- * ابن عدي، عبد الله بن عدي (ت ٣٦٥هـ):
 ١٦٠ - مقدمة الكامل في ضعف الرجال، تحقيق صبحي السامرائي، مطبعة الأعظمي، بغداد، ١٩٧٧م.
- * العراقي، عبد الرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦هـ):
 ١٦١ - التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط ١٤٠٠هـ.
- * ابن العربي، محمد بن عبد الله المعافري (٥٤٣هـ):
 ١٦٢ - العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية.
- * عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤هـ):
 ١٦٣ - مغازي رسول الله، جمع وترتيب محمد مصطفى الأعظمي، مكتب التربية بدول الخليج، الرياض، ١٤٠١هـ.
- * ابن أبي العز، علي بن محمد الحنفي (ت ٧٩٢هـ):
 ١٦٤ - شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق الألباني، طبع المكتب الإسلامي، بيروت.
- * العز بن عبد السلام السلمي (ت ٦٦٠هـ):
 ١٦٥ - قواعد الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت.
- * عطاء الحديثي، وهناء عبد الخالق:
 ١٦٦ - القباب المخروطة في العراق، طبع وزارة الإعلام العراقية.
- * عفت محمد الشرقاوي:
 ١٦٧ - أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت.
- * علي بن نفع العلياني:
 ١٦٨ - موقف ابن قتيبة من عقيدة السلف، رسالة ماجستير بكلية الشريعة، جامعة أم القرى، عام ١٤٠٠هـ.
- * ابن العماد، عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ):
 ١٦٩ - شذرات الذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- * عماد الدين خليل:
 ١٧٠ - تفسير التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، دار العلم للملايين.
- * عمر بن شبة النميري (ت ٢٦٢هـ):
 ١٧١ - تاريخ المدينة، ٤ أجزاء، تحقيق فهد شلتوت، دار الأصفهاني جدة.

*** عمر عودة الخطيب:**

١٧٢ - المسألة الاجتماعية، ط١، سنة ١٣٩٠هـ، مؤسسة دار الرسالة، بيروت.

*** عياض بن موسى القاضي البحصي (ت ٥٤٤هـ):**

١٧٣ - الإلماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع، تحقيق أحمد صقر، ط٢، دار التراث.

*** فاروق حمادة:**

١٧٤ - مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دار الثقافة الجديدة، الدار البيضاء، ط١، سنة ١٤٠٠هـ.

*** الفاسي، محمد بن أحمد الحسني (ت ٨٣٢هـ):**

١٧٥ - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ٨ أجزاء، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية.

*** فرانز روزنثال:**

١٧٦ - علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، ط مكتبة المثنى، بغداد.

١٧٧ - مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة فريحة ووليد، عرفات، دار الثقافة، بيروت.

*** أبو الفرج، علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ):**

١٧٨ - الأغاني، ٢٤ جزءاً، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت.

*** ابن الفرضي، عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣هـ):**

١٧٩ - تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

*** فؤاد سزكين:**

١٨٠ - تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود حجازي، الهيئة المصرية للكتاب.

*** قسطنطين زريق:**

١٨١ - نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، ط٤، سنة ١٩٧٩م.

*** القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ):**

١٨٢ - صبح الأعشى، ١٤ مجلداً، المؤسسة المصرية للطباعة والترجمة.

*** ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي (ت ٧٥١هـ):**

١٨٣ - المنار المنيف في معرفة الحديث الصحيح من الضعيف، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

١٨٤ - إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، تصحيح محمد د حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

* كارل بروكلمان:

١٨٥ - تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط دار المعارف بمصر.

* الكافيجي، محمد بن سليمان الحنفي (ت ٨٧٩هـ):

١٨٦ - المختصر في علم التاريخ، طبع مع علم التاريخ عند المسلمين، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣هـ.

* الكتاني، محمد بن جعفر (١٣٤٥هـ):

١٨٧ - الرسالة المستطرفة، دار الفكر بدمشق، الطبعة الثالثة، ١٣٨٣هـ.

* ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ):

١٨٨ - تفسير القرآن الكريم، ٨ مجلدات، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، ط دار الشعب بمصر.

١٨٩ - البداية والنهاية، ط ٣، سنة ١٩٨٠م، مكتبة المعارف، بيروت.

١٩٠ - اختصار علوم الحديث، شرح أحمد شاكر، ط ٣، محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة.

* ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ):

١٩١ - سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي بمصر.

* المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن:

١٩٢ - تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى، ١٠ أجزاء، دار الفكر، بيروت.

* محب الدين الخطيب:

١٩٣ - المصادر الأولى لتاريخنا، مجلة الأزهر، عدد ٢ مجلد ٢٤، عام ١٣٧٢هـ.

* محمد أبو زهرة:

١٩٤ - تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي.

* محمد بن إسحاق المطلبى (ت ١٥١هـ):

١٩٥ - المبتدأ والمبعث والمغازي، قطعة من السيرة بتحقيق محمد حميد الله، نشر معهد الدراسات والأبحاث والتعريب بالمغرب، سنة ١٣٩٦هـ.

١٩٦ - السير والمغازي، نفس القطع السابقة، نشر سهيل زكار، طبع دار الفكر، سنة ١٣٩٨هـ.

* محمد أسد:

١٩٧ - الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين.

* محمد أمين المصري:

١٩٨ - المجتمع الإسلامي، دار الأرقم الكويت، ط الأولى، ١٤٠٠هـ.

١٩٩ - لمحات في التربة، طبع دار الفكر، بيروت، ط ٤، سنة ١٣٩٨هـ.

* محمد جميل بيهم:

٢٠٠ - دراسة للعهد العربي الأصيل، دار الشروق، بيروت.

* محمد بن حبيب البغدادى (ت ٢٤٥هـ):

٢٠١ - المحبر، بتعليق محمد حميد الله، دار الآفاق الجديدة مصورة عن طبعة الهند.

* محمد حسنين هيكل:

٢٠٢ - حياة محمد، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة التاسعة.

* محمد زيان عمر:

٢٠٣ - البحث العلمي مناهجه وتقنياته، الطبعة الأولى.

* محمد سعيد البوطي:

٢٠٤ - كبرى اليقنيات الكونية، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة.

* محمد الطيب النجار:

٢٠٥ - الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء، ط ٣، سنة ١٣٩٧هـ.

* محمد عبد الله عنان:

٢٠٦ - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط ٤، سنة ١٣٨٢هـ، الخانجي بالقاهرة.

* محمد عبد الله الغريب:

٢٠٧ - وجاء دور المجوس، القاهرة، دار الجيل، ١٩٨١م.

* محمد عجاج الخطيب:

٢٠٨ - السنة قبل التدوين، ط الأولى، سنة ١٩٨٣م، مكتبة وهبة.

* محمد عيسى فهمي:

٢٠٩ - الموضوعية في الدراسات النظرية حقيقة أم خيال، جريدة الرياض، ١/٦/١٤٠٢هـ.

* محمد فؤاد عبد الباقي:

٢١٠ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، نشر دار الباز بمكة.

* محمد قطب:

٢١١ - الإنسان بين المادية والإسلام، ط بيروت الرابعة.

٢١٢ - التطور والثبات في حياة البشرية، مكتبة وهبة بمصر.

٢١٣ - معركة التقاليد، دار الشروق، بيروت.

* محمد المبارك:

٢١٤ - النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة بحث نشرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض ضمن بحوث الحلقة الرابعة بعنوان «الإسلام والحضارة».

* محمد محمد أبو زهو:

٢١٥ - الحديث والمحدثون، مطبعة مصر، ط الأولى، ١٣٧٨هـ.

* محمد محمد حسين:

٢١٦ - الإسلام والحضارة الغربية، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

* محمد محمود صبحي:

٢١٧ - في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية.

* محمد محمود قاسم:

٢١٨ - المنطق الحديث ومناهج البحث العلمي، مكتبة الأنجلو المصرية.

* محمد مصطفى الأعظمي:

٢١٩ - دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، طبعة جامعة الرياض.

٢٢٠ - كتاب النبي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

* محمد منير الدمشقي:

٢٢١ - مجموعة الرسائل المنيرية، مكتبة المؤيد بالطائف.

* محمد ناصر الدين الألباني:

٢٢٢ - سلسلة الأحاديث الصحيحة، طبع المكتب الإسلامي.

٢٢٣ - ضعيف الجامع الصغير، طبع المكتب الإسلامي.

٢٢٤ - صفة صلاة النبي، طبع المكتب الإسلامي.

٢٢٥ - فهرست مخطوطات الظاهرية، قسم الحديث، طبع مجمع اللغة العربية

بدمشق، سنة ١٣٩٠هـ.

* محمود إسماعيل:

٢٢٦ - قضايا في التاريخ الإسلامي، دار العودة، بيروت.

٢٢٧ - الحركات السرية في الإسلام، دار القلم، بيروت.

* محمود الطحان:

٢٢٨ - تيسير مصطلح الحديث، دار القرآن، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

* ابن المدني، علي بن عبد الله السعدي (ت ٢٣٤هـ):

٢٢٩ - علل الحديث ومعرفة الرجال، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الوعي، حلب.

* المزي، جمال الدين يوسف (ت ٧٤٢هـ):

٢٣٠ - تهذيب الكمال، مخطوط في ثلاثة مجلدات، تصوير دار المأمون، دمشق.

* المسعودي، علي بن حسين (ت ٣٤٦هـ):

٢٣١ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى.

* مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ):

٢٣٢ - صحيح مسلم، ٥ أجزاء، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

* مصطفى السباعي:

٢٣٣ - السنة ومكائنها في التشريع، المكتب الإسلامي، ط ٢، سنة ١٣٩٨هـ.

* مصعب الزبيري (ت ٢٣٦هـ):

٢٣٤ - نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

* الملطي، أبو الحسين الشافعي (ت ٣٧٧هـ):

٢٣٥ - التنبه والرد، مكتبة المثنى ببغداد والمعارف ببيروت، سنة ١٣٨٨هـ.

* ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي (ت ٧١١هـ):

٢٣٦ - لسان العرب، دار صادر بيروت.

٢٣٧ - الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب بالقاهرة، وفرانكلين للطباعة نيويورك، طبعة عام ١٩٧٢م.

* ناصر الدين الأسد:

٢٣٨ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية.

* نبيه عاقل:

٢٣٩ - خلافة بني أمية، دار الفكر، بيروت.

* ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت ٣٧٧هـ):

٢٤٠ - الفهرست طبعة رضا تجدد طهران، سنة ١٩٧١م، وطبعة بيروت المصورة عن الطبعة المصرية، نشر دار المعرفة، بيروت.

* نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ):

٢٤١ - وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٣، سنة ١٩٨١م، مكتبة الخانجي.

* أبو نعيم، أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ):

٢٤٢ - حلية الأولياء، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٩٤هـ.

* نور الدين حاطوم وزملاؤه:

٢٤٣ - المدخل إلى التاريخ.

* نور الدين عتر:

٢٤٤ - منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ.

* النووي، يحيى بن شرف بن مري الشافعي (ت ٦٧٦هـ):

٢٤٥ - شرح صحيح مسلم، ١٨ جزءاً، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* ه. ج. ويلز:

٢٤٦ - معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز جاويد، نشر لجنة التأليف والنشر بالقاهرة.

* ابن هشام، عبد الملك الحميري (ت ٢١٨هـ):

٢٤٧ - السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، البابي الحلبي، ط ٢، سنة ١٣٧٥هـ.

* همام عبد الرحيم سعيد:

٢٤٨ - العلل في الحديث، دار العدوي، عمان، الأردن، ط ١، سنة ١٤٠٠هـ.

* الهيثمي، علي بن أبي بكر (٨٠٧هـ):

٢٤٩ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، ط ٣.

٢٥٠ - * الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ):

٢٥١ - مغازي الواقدي، تحقيق مارسدن جونز، عالم الكتب، بيروت.

* وكيع، محمد بن خلف القاضي (ت ٣٠٦هـ):

٢٥٢ - أخبار القضاة، عالم الكتب بيروت.

* ول. ديورانت:

٢٥٣ - قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف بيروت، ط ٤.

* وهب بن منبه (ت ١١٤هـ):

٢٥٤ - التيجان في ملوك حمير، نشر مركز الأبحاث والدراسات اليمنية صنعاء، الطبعة الثانية.

* ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ):

٢٥٥ - معجم الأدباء، ٢٠ جزءاً، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥٦ - معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت.

* اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (ت ٢٨٤هـ):

٢٥٧ - البلدان، نشر مع الأعلام النفيسة لابن رسته، طبعة ليدن، ١٨٩١م.

٢٥٨ - تاريخ اليعقوبي، طبع دار صادر، بيروت.

* أبو يعلى، محمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ):

٢٥٩ - طبقات الحنابلة، توزيع دار الباز بمكة.

* أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم القاضي (ت ١٨٢هـ):

٢٦٠ - الخراج، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الإصلاح بالدمام.

* يوسف خياط، ونديم مرعشلي:

٢٦١ - ملحق لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت.

* يوسف هورفتش:

٢٦٢ - المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، البابي الحلبي، ط ١، سنة

١٣٦٩هـ.

* المجلات والصحف:

٢٦٣ - جريدة الجمهورية القاهرية، عدد يوم ١٨/١٢/١٩٧٤م.

٢٦٤ - مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم ٢٣٢، شهر محرم، ١٣٩٥هـ.

٢٦٥ - مجلة المعرفة السورية، حكومية، ملحق خاص بعنوان كيف نكتب تاريخنا

القومي؟ دمشق، ١٩٦٦م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
المقدمة	٧
الباب الأول	
مدخل لدراسة التاريخ الإسلامي	
الفصل الأول: مفهوم العلم ومنهج تلقيه	٢٣
مفهوم العلم ومحتواه	٢٦
ضوابط في منهج تلقي العلم	٣٤
أ - الوحي مصدر العلم	٣٥
ب - ممن يؤخذ العلم	٣٨
ج - أهداف تلقي العلم	٤٢
د - وسائل تلقي العلم	٤٥
الفصل الثاني: مفهوم التاريخ وثمره دراسته	٤٩
مصطلح التاريخ ودلالته	٤٩
السبب في عدم وضع تعريف جامع للتاريخ في القرون الثلاثة الأولى	٥٠
تعريف ابن خلدون	٥٠
تعريف المقرئزي	٥١
تعريف الكافيجي	٥١
تعريف السخاوي	٥١
تعريف سيد قطب	٥٢
أهداف دراسة التاريخ وثمرته	٥٢
١ - الأهداف التربوية	٥٥
٢ - إدراك السنن الربانية	٥٦

أنواع السنن	٥٧
نماذج من السنن الربانية	٦١
أ - سوء عاقبة المكذبين	٦١
ب - أن البشر يتحملون مسؤوليتهم في الرقي والانحطاط	٦٢
ج - مداولة الأيام بين الناس	٦٢
د - زوال الأمم بانتشار الترف الفساد	٦٣
هـ - هلاك الأمم بفشو الظلم وترك العدل	٦٣
و - انهيار الأمم وزوالها له أجل	٦٤
ز - استحقاق المؤمنين لنصر الله	٦٤
ح - الابتلاء للمؤمنين سنة جارية	٦٥
ط - الصراع بين الحق والباطل	٦٦
٣ - التعرف على معالم تاريخ الإنسانية	٧٢
أ - معرفة تاريخ الأنبياء ﷺ	٧٢
ب - التعرف على سيرة النبي محمد ﷺ	٧٢
ج - التعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين	٧٣
د - معرفة سير العلماء والمصلحين والمجاهدين	٧٣
هـ - معرفة أثر الإسلام في حياة البشر	٧٣
٤ - تأكيد جملة من الحقائق المهمة في حياة البشرية وهي	٧٤
أ - أن توحيد الله هو أول ما عرفت البشرية	٧٤
ب - أن الإنسان مستخلف في هذا الكون	٧٥
ج - أن الإنسان خلق خلقاً سويّاً من أول لحظة	٧٦
د - أن الإنسان بحاجة دائماً إلى من يذكره	٧٧
هـ - أن الأمة الإسلامية هي صاحبة الدور المؤثر في تاريخ البشرية	٧٧
٥ - الصبر على المشاق	٧٧
٦ - لدراسة التاريخ قيمة مادية نفعية	٧٨
٧ - يعطي دارسه حصانة ضد الخرافات والبدع	٧٩
٨ - لدراسة التاريخ فضائل أخلاقية وقضائية	٨٠
٩ - المساعدة على فهم الحاضر وتحليله	٨١
١٠ - معرفة القرون الفاضلة	٨٢

الباب الثاني

منهج كتابة التاريخ الإسلامي

٨٧	الفصل الأول: المنهج وأهميته
٨٧	تعريفه اللغوي
٨٧	دلالاته الاصطلاحية
٨٨	أثر العقيدة في المنهج
٩٨	الفصل الثاني: مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي
٩٨	مدلولاً لفظة «المنهج»
٩٨	مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية
١٠٣	مصادر تفسير الحوادث التاريخية والحكم عليها
١٠٨	الفصل الثالث: خصائص منهج كتابة التاريخ الإسلامي
١٠٨	١ - التميز في التصور والمفاهيم
١١٢	نوعان من المفاهيم
١١٣	النوع الأول: مفاهيم أساسية في التصور الإسلامي
١١٥	التصور عن الربوبية والألوهية ويشمل
١١٥	أ - توحيد المعرفة والإثبات
١١٥	ب - توحيد الطلب والقصد
١٢١	النوع الثاني: مفاهيم منهجية في البحث العلمي وإثبات الحقائق
١٢١	أ - مفهوم البحث العلمي
١٢٢	منهج الاستدلال الشرعي
١٢٣	منهج دراسة الظواهر
١٢٣	منهج دراسة العلوم التطبيقية
١٢٣	دور العلماء المسلمين في منهج البحث
١٢٧	ب - مفهوم البحث العلمي عند الأوروبيين
١٢٩	المنهج العلمي
١٣٠	منهج الاستدلال الاستنباطي
١٣٠	دراسة الظواهر
١٣١	افتقاد المنهج الغربي لأي ميزان موضوعي لتحقيق الرواية
١٣٣	ج - مفهوم الموضوعية
١٣٦	د - مفهوم التجرد

١٤١	هـ - مفهوم الحياد
١٤٣	٢ - التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق
١٤٤	الخطوات العامة لمنهج توثيق الرواية
١٤٦	منهج النقد عند علماء الحديث
١٥٤	منهج النقد التاريخي الأوروبي
١٥٥	النقد الخارجي
١٥٧	النقد الداخلي
١٦٢	مقارنة بين المنهجين
١٦٦	٣ - التميز في منهج التفسير للحوادث التاريخية
١٦٧	المفارقة بين المنهج الإسلامي والمناهج الوضعية
١٦٩	التفسير المادي «الماركسي»
١٧٠	التفسير المثالي «هيجل»
١٧١	التفسير الحضاري «توينبي»
١٧٣	التفسير القومي «قسطنطين زريق»
١٧٣	التفسير بالغريزة «فرويد»
١٧٤	العناصر الواجب ملاحظتها عند التفسير التاريخي
١٧٥	سمات منهج التفسير الإسلامي
١٧٥	(١) صحة التصور عن الله والكون والإنسان
١٧٥	(٢) الواقعية
١٧٦	(٣) التوازن
١٧٦	(٤) الامتداد والشمول
١٧٦	(٥) الصدق
١٧٧	الفصل الرابع : غاية منهج كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحقيقه
١٧٧	الارتباط بالعقيدة هو غاية المنهج
١٧٧	المنهج التاريخي وسيلة لتثبيت العقيدة
١٨٠	المنهج الإسلامي في دراسته للتاريخ منهج معياري
١٨٣	من غايات المنهج بيان فساد التصورات الجاهلية
١٨٣	وسائل تحقيق المنهج
١٨٣	(١) التصور الصحيح
١٨٣	(٢) الرجال الأمناء
١٨٤	(٣) المنهج العلمي السليم

- ١٨٦ الفصل الخامس: قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي
- ١٨٧ أ - قواعد في التصور والاعتقاد
- ١٨٧ القاعدة الأولى: الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية
- ١٨٩ القاعدة الثانية: الحكم الشرعي في مخلفات الأمم الجاهلية
- ١٩٥ القاعدة الثالثة: الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر
- ٢٠٠ القاعدة الرابعة: الإيمان بالغيب وأثره في توجيه الحوادث التاريخية
- ٢٠٦ القاعدة الخامسة: معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى
- ٢٠٨ (١) تميز أهل القرون الثلاثة الأولى وأفضليتهم
- ٢١٤ (٢) معرفة حق الصحابة وعدالتهم
- ٢٢٢ (٣) موقف المسلم مما روي من الأخبار في قدح بعض الصحابة
- ٢٢٧ رأي الإمام النووي في أحداث الفتنة
- ٢٢٩ القاعدة السادسة: وجوب التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام
- ٢٣٣ القاعدة السابعة: الإيمان بالسنن الربانية وأهمية ذلك في التفسير التاريخي
- ٢٣٥ ب - قواعد في المصادر
- ٢٣٦ القاعدة الأولى: اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر
- ٢٤١ القاعدة الثانية: عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب السابقة على القرآن
- ٢٤٥ القاعدة الثالثة: معرفة شروط المؤرخ المقبول
- القاعدة الرابعة: معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء من
 ٢٥٤ المبتدعة والزنادقة
- القاعدة الخامسة: معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين
- ٢٥٩ ج - قواعد في الأسلوب والعرض
- ٢٦٢ القاعدة الأولى: أن تكون العقيدة المحور الأساسي في العرض
- القاعدة الثانية: التركيز في عرض الموضوع على الأهداف والغايات
- ٢٦٣ القاعدة الثالثة: أن يكون العرض موحياً بتحييب الخير وتبغيض الشر
- ٢٦٤ القاعدة الرابعة: إبراز دور الأنبياء وأثرهم في تاريخ البشرية
- ٢٦٥ القاعدة الخامسة: استعمال المصطلحات الإسلامية وتحري ذلك
- ٢٦٧ القاعدة السادسة: الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء
- ٢٧١

الباب الثالث

تطور التدوين ومناهج المؤرخين المسلمين

حتى نهاية القرن الثالث الهجري

٢٧٥	تمهيد
٢٧٥	دوافع التدوين التاريخي
٢٨٢	كيفية التدوين
٢٨٨	مراحل التدوين التاريخي
٢٩٣	الفصل الأول: أنواع التأليف التاريخي
٢٩٣	١ - التأليف في السيرة
٢٩٤	اهتمام الصحابة بالسيرة
٢٩٥	دور التابعين في تدوين السيرة
٣٠٤	ظهور المؤلفات في السيرة
٣٠٤	موسى بن عقبة
٣٠٥	معمر بن راشد
٣٠٦	محمد بن إسحاق
٣٠٨	السيرة في مدرسة علماء الحديث
٣٠٩	سليمان التيمي
٣١١	أبو معشر السندي
٣١٣	أبو إسحاق الفزاري
٣١٤	الوليد بن مسلم
٣١٥	عبد الرزاق الصنعاني
٣١٦	محمد بن عائد القرشي
٣١٧	سعيد بن يحيى الأموي
٣١٨	عدد كثير غير هؤلاء
٣٢٠	المؤلفات في دلائل النبوة
٣٢١	المؤلفات في الشمائل النبوية
٣٢٢	٢ - التأليف في التراجم
٣٢٧	٣ - التأليف في فتوح البلدان
٣٢٩	٤ - التأليف في الأموال
٣٣٠	٥ - التأليف في الأنساب

الموضوع

الصفحة

- ٦ - التأليف في تواريخ المدن وخططها ٣٣٥
- ٧ - التأليف في أخبار الخلافة والأحداث الداخلية ٣٣٨
- ٨ - التأليف في التاريخ العام العالمي ٣٤٠
- ٩ - أنواع أخرى شملها التأليف التاريخي ٣٤١
- الفصل الثاني: تراجم لبعض الأخباريين والرواة ٣٤٤
- أبان اللاحقى ٣٤٤
- إبراهيم بن محمد الثقفي ٣٤٥
- أحمد بن أعثم الكوفي ٣٤٥
- أحمد بن ثابت الرازي ٣٤٦
- أحمد بن زهير بن أبي خيثمة ٣٤٧
- أحمد بن أبي طاهر طيفور ٣٤٨
- أحمد بن محمد البرقي ٣٤٨
- أحمد بن محمد الهروي ٣٤٩
- إسحاق بن بشر البخاري ٣٤٩
- أسلم بن سهل الواسطي ٣٥٠
- إسماعيل بن عيسى العطار ٣٥٠
- الحارث بن أبي أسامة ٣٥١
- الحسن بن عثمان أبو حسان الزيادي ٣٥١
- الحسن بن علي بن فضال ٣٥٢
- حميد بن زنجويه ٣٥٣
- الزبير بن بكار ٣٥٤
- السري بن يحيى ٣٥٥
- سليمان بن داود الشاذكوني ٣٥٥
- سهل بن هارون ٣٥٦
- سيف بن عمر التميمي ٣٥٦
- شعيب بن إبراهيم ٣٥٧
- عامر بن حفص أبو اليقظان النسابة ٣٥٨
- عامر بن شراحيل الشعبي ٣٥٩
- العباس بن بكار الضبي ٣٥٩
- عبد الله بن جبلة الكنانى ٣٦٠
- عبد الله بن عبد الحكم ٣٦٠

٣٦١	عبد الله بن محمد أبو بكر بن أبي شيبة
٣٦١	عبد الله بن محمد أبو بكر (ابن أبي الدنيا)
٣٦٢	عبد الله بن المقفع
٣٦٢	عبد الملك بن حبيب السلمي
٣٦٣	عبد الملك بن هشام
٣٦٤	عبد الملك بن قريب الأصمعي
٣٦٤	عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه
٣٦٥	عبيد بن شربة
٣٦٦	علي بن مجاهد الكابلي
٣٦٦	علي بن محمد المدائني
٣٦٧	عمارة بن وثيمة
٣٦٨	عمر بن سعد الأسدي
٣٦٩	عمرو بن علي أبو حفص الفلاس
٣٦٩	عوانة بن الحكم
٣٧٠	عيسى بن داب
٣٧٠	لوط بن يحيى أبو مخنف
٣٧٢	محمد بن إسحاق الفاكهي
٣٧٣	محمد بن السائب
٣٧٤	محمد بن عبد الله أبو إسماعيل الأزدي
٣٧٦	محمد بن يحيى أبو غسان المدني
٣٧٦	محمد بن يزيد المبرد
٣٧٧	معمر بن المثنى
٣٧٨	نصر بن مزاحم
٣٧٩	هشام الكلبي
٣٨١	الهيثم بن عدي
٣٨٣	الفصل الثالث: عرض لمنهج مؤرخي القرون الثلاثة الأولى من الهجرة
٣٨٤	١ - من المؤلفين في السيرة النبوية
٣٨٤	١ - ١ - محمد بن إسحاق
٣٨٦	منهجه في كتابه السيرة النبوية
٣٩٢	١ - ٢ - محمد بن عمر الواقدي
٣٩٦	منهجه في كتابه المغازي

الموضوع

الصفحة

- ٢ - من المؤلفين في الأنساب ٣٩٩
- ٢ - ١ - مصعب بن عبد الله الزبيري ٣٩٩
- منهجه في كتابه نسب قریش ٤٠٠
- ٢ - ٢ - محمد بن حبيب ٤٠٢
- منهجه في كتابه المجبر ٤٠٤
- ٣ - من المؤلفين في التراجم والطبقات ٤٠٧
- ٣ - ١ - محمد بن سعد ٤٠٧
- منهجه في كتاب الطبقات الكبرى ٤٠٩
- ٣ - ٢ - أبو زرعة الدمشقي ٤١٤
- منهجه في كتابه «التاريخ» ٤١٥
- ٣ - ٣ - وكيع القاضي ٤١٨
- منهجه في كتابه أخبار القضاة ٤٢٠
- ٤ - من المؤلفين في فتوح البلدان: ٤٢٣
- ٤ - ١ - ابن عبد الحكم ٤٢٣
- منهجه في كتابه فتوح مصر والمغرب ٤٢٦
- ٤ - ٢ - البلاذري ٤٢٨
- منهجه في كتابه فتوح البلدان ٤٣٠
- ٥ - من المؤلفين في تواريخ المدن ٤٣٥
- ٥ - ١ - أبو الوليد الأزرقي ٤٣٥
- منهجه في كتابه أخبار مكة ٤٣٧
- ٥ - ٢ - عمر بن شبة ٤٣٩
- منهجه في كتابه تاريخ المدينة ٤٤٣
- ٦ - من المؤلفين في النظم المالية ٤٤٧
- ٦ - ١ - أبو يوسف القاضي ٤٤٧
- منهجه في كتاب الخراج ٤٥٠
- ٦ - ٢ - أبو عبيد ٤٥٤
- منهجه في كتاب الأموال ٤٥٨
- ٧ - من المؤلفين في التاريخ العام ٤٦٢
- ٧ - أ - ١ - أبو حنيفة الدينوري ٤٦٢
- منهجه في كتابه الأخبار الطوال ٤٦٤
- ٧ - أ - ٢ - يعقوبي ٤٦٨

٤٦٩	 منهجه في كتاب التاريخ
٤٧٢	 عقيدة اليعقوبي
٤٧٣	 تقويم لكتابه
٤٧٣	٧ - ب - ١ - خليفة بن خياط
٤٧٤	 منهجه
٤٧٧	 قيمة كتابه التاريخ
٤٧٨	٧ - ب - ٢ - محمد بن جرير الطبري
٤٧٩	 عقيدته
٤٨١	 منهجه في الكتابة التاريخية
٤٨٢	 مصادره في تاريخ ما قبل البعثة
٤٨٤	 مصادره في تاريخ الإسلام
٤٨٨	 مميزات كتاب تاريخ الطبري
٤٩٠	 نظرتة للتاريخ
٤٩٥	 الخاتمة وفيها مبحثان
	١ - عوامل الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي وأهم الطوائف
٤٩٦	 المساهمة في ذلك
٥٠٧	٢ - نتائج البحث
٥١١	 ملحق النصوص (نماذج من الانحرافات)
٥١٢	 النص الأول: من تاريخ اليعقوبي
٥١٣	 النص الثاني: من تاريخ اليعقوبي
٥١٤	 النص الثالث: من كتاب وقعة صفين، لنصر بن مزاحم
٥١٥	 النص الرابع: من كتاب تاريخ الإسلام السياسي، لحسن إبراهيم حسن
	 النص الخامس: من كتاب دراسة للعهد العربي الأصلي، لمحمد جميل
٥١٦	 بينهم
٥١٧	 النص السادس: من كتاب مرآة الإسلام، لطف حسين
٥١٨	 النص السابع: من كتاب خلافة بني أمية، لنبیه عاقل
٥٢٠	 النص الثامن: من كتاب فجر الإسلام، لأحمد أمين
٥٢١	 النص التاسع: من كتاب حياة محمد، لمحمد حسين هيكل
٥٢٣	 الفهارس
٥٢٥	 فهرس المصادر والمراجع
٥٤٤	 فهرس الموضوعات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com